

جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية

١

يناير ١٩٨٨

يصدرها قسم التاريخ

محتوى العدد

- ٢ * افتتاحية العدد
أ.د / رؤوف عباس حامد
١ - القسم العربي
الابحاث والدراسات
- ٧ * الفاطميون وفلسطين
أ.د / محمد جمال الدين سرور
٢٥ * الجبهة الصليبية فى معركة حطين
أ.د سعيد عبد الفتاح عاشور
* مؤذنة بلا مسجد
٥٣ د. حسنى نويصر
* مصر والمصريون عند هيرودوت
د. عبد الحليم محمد حسن
٩٥ * الجيش الفرنوى . اعداده وتنظيماته الحربية
د. محمود عرفه محمود
١٣٣ * نائب السلطنة فى القاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية
د. لىلى عبد الجواد اسماعيل
١٥٩ * الحملة الفرنسية والمتغيرات التاريخية والحضارية
د. وجيه عبد الصادق عتيق
٢٢٧ * دور القبائل الحجازية والشامية فى الثورة العربية
د. عبد العليم على أبو هيكل
٢٧١ * موقف الحكومة المصرية من التضخم ابان الحرب العالمية الاولى
د. احمد الشربينى السيد
٣٠٣ المراجعات وعرض الكتب
- * عرض وتحليل لكتاب "A Mediterranean Society"
٢٤٥ د. ايمن فؤاد سيد
* دراسة نقدية لكتاب "Islamic Art"
د. ابو الحمد محمود فرغلى
٢٥١ دليل الرسائل الجامعية
- * رسائل التاريخ القديم
٢٦١ اعداد : عوده عبد الواحد جوده
* رسائل التاريخ الاسلامى
٢٦٢ اعداد : هويدا عبد المنعم سالم
* رسائل التاريخ الحديث والمعاصر
٢٦٧ اعداد : محمد عفيفى عبد الخالق
٢ - القسم الانجليزى :

* An Ottoman drawing of the Prophet's Mosque
Prof. Dr. Hassan El-Basha. 1



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية

العدد الاول	يناير ١٩٨٨م
رئيس التحرير	أ.د/ رؤف عباس حامد
مدير التحرير	د/ محمود عرفه محمود

هيئة التحكيم

أ.د/ محمد جمال الدين سرور	أ.د/ حسن الباشا
أ.د/ عبد اللطيف احمد على	أ.د/ رؤف عباس حامد
أ.د/ سعيد عبد الفتاح عاشور	أ.د/ محمد جمال الدين المسدي

المراسلات:

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الاستاذ الدكتور
رؤف عباس حامد على العنوان التالي :

كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ) جمهورية مصر العربية

DT 77

M83X

1

1983: Jan.

افتتاحية العدد

تعانى الحركة العلمية فى مصر فى الوقت الراهن من النقص الشديد فى قنوات النشر العلمى المتخصصة، التى ترعى الفروع المعرفية المختلفة، وتوفر للباحثين فرصة نشر بحوثهم ودراساتهم. ويرجع ذلك النقص الى عوائق مادية محضة تتصل بقللة أو عدم وجود المخصصات المالية التى توجه لخدمة اغراض النشر العلمى.

ولعل الدراسات التاريخية أقل الفروع المعرفية حظا فى مجال النشر، فلا توجد فى مصر الا "المجلة التاريخية المصرية" العتيقة التى تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مرة واحدة كل عام، ولاتتسع للكثير من البحوث التى تنتظر النشر سنوات، كما أن الامكانيات المادية للجمعية لاتمكنها من اصدار أكثر من عدد واحد فى السنة.

ولذلك كان اصدار دورية للدراسات التاريخية ضرورة ملحة نظر اليها مجلس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة نظرة خاصة، فاذا كانت الاعتمادات المالية الرسمية تقصر عن تلبية هذه الحاجة العلمية، فلماذا لايرعى القسم اصدار مثل هذه الدورية بالامكانيات الذاتية لأعضائه وللباحثين انفسهم؟

وهكذا أتخذ مجلس القسم قرارا باصدار "المؤرخ المصرى" مساهمة فى الحركة العلمية بوطننا العزيز، وخدمة للدراسات التاريخية. وبذلك يتوج القسم جهوده العلمية باصدار هذه الدورية، بعد أن لعب سمنار التاريخ - الذى نظمه القسم قبل سبع سنوات - دورا هاما فى رعاية الجهود العلمية للمؤرخين المصريين والعرب، وعقد ندوتين احدهما عن "مصر وعالم البحر المتوسط" فى ابريل عام ١٩٨٥، والاخرى عن "العرب فى افريقيا" فى ابريل عام ١٩٨٧، ويعتزم - بمشيئة الله - عقد ندوته الثالثة عن "العرب فى آسيا" فى ابريل ١٩٨٩.

والبحوث والدراسات التى تنشر فى "المؤرخ المصرى" تخضع لتحكيم باقة من كبار الاساتذة فى مختلف فروع التخصص، كما تحرص هيئة التحرير على تزويد الدورية بالمراجعات لاهم المؤلفات والعروض للاطروحات الجامعية التى اجيزت فى السنوات الأخيرة، وتعتزم - بمشيئة الله - نشر قائمة بالاطروحات المسجلة لنيل الدرجات العلمية خدمة للباحثين ولاغراض المتابعة العلمية.

والله والوطن العزيز من وراء القصد

أ.د/ رؤوف عباس حامد

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب

جامعة القاهرة

ورئيس تحرير: المؤرخ المصرى

الأبحاث والدراسات

الفاطميون وفلسطين

د.أ / محمد جمال الدين سرور

كلية الآداب - جامعة القاهرة

حرص الفاطميون منذ أقاموا خلافتهم في بلاد المغرب ، في أواخر القرن الثالث الهجري على تقوية دعائم الخلافة العباسية ، وانتزاع زعامة الاسلام منها ، فأسد المعزز لدين الله الفاطمي الى قائده جوهر الصقلي قيادة الحملة التي أرسلها الى مصر سنة ٣٥٨ هـ . وقد تكلفت مجهوداته في فتح مصر بالنجاح .

وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضي على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام . ولم تخف عن جوهر الصقلي تلك الحقيقة ، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي ، والوقوف في وجه الروم والقرامطة .

ولما أيقن جوهر الصقلي أن النفوذ الفاطمي قد توطد في مصر ، أرسل حملة الى فلسطين أنسد قيادتها الى جعفر بن فلاح الكتامي في أواخر سنة ٣٥٩ هـ: فرأى الأخشيديون في الشام بعد أن وصلت اليهم أنباء هذه الحملة أن يعدوا انفسهم لصدّها ، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيدي - الذي كان يلي بلاد الشام اذ ذاك - من مدينة دمشق قاضيا الرملة واستخلف شمولا الاخشيدي على دمشق . على أن هذا الوالي لم يكن مخلصا للحسن بن عبيد الله ، فتقاعد عن نصرته .

لما وصل جعفر بن فلاح الى الرملة ، دعا ولاة الشام الى طاعة المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب ، فأجاب دعوته فريق منهم أما الحسن بن عبيد الله بن طغج

الأخشيذ فإنه استنجد بعماله على دمشق وطبريه ، فلم يسارع أحد منهم الى نجدته ، وانتهت الحرب التي دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله فى الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده .

استأنف جعفر بن فلاح السير الى طبريه بعد انتصاره فى الرملة ، فبنى قصرا على الجسر الذى يشرف على المدينة ليحارب واليها "فاتك" وكان يلى أمورها من قبل كافور الأخشيذ فخافه فاتك ، ولم يتعرض له ، وبذلك تيسر لجعفر دخول طبريه دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها .

لما وصل الى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبريه خشوا بأسه ، وأرسلوا اليه جماعة من كبار رجالهم يطلبون الامان ، لكنه لم يحسن استقبالهم ، فعادوا الى دمشق ، ودارت رحى الحرب بين جنود جعفر وأهالى هذه المدينة فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ . وعلى الرغم من أن أهالى دمشق ، استطاعوا بمساعدة جند الأخشيذ الوقوف بضعة أيام فى وجه جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربية بالشام التى انضمت اليه ، فإن الهزيمة لحقت بهم واستولى جعفر على دمشق .

أدت سياسة العنف التى اتبعها جعفر بن فلاح فى دمشق وإساءة جنده معاملة أهلها واستهتارهم بأرواحهم التى إشارة سخط الناس عليه ، فدبر أهل دمشق الموء امرات لاقضاء هذا القائد والقضاء عليه والتخلص من حكم الغاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى .

كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذى يعد من أشد الاخطار التى هددت الحكم الغاطمى فى بلاد

الشام . وكان هو ءلاء القرامطة يرمون الي بسط نفوذهم على هذه البلاد وتجلت اطماعهم فيها في عهد اميرهم أحمد بن أبي سعيد حيث فرضوا منذ سنة ٣٥٧ هـ على الأخشيديين الذين كانوا يلون بعض مدن الشام اتاوة يوءدونها الي حكومتهم كل سنة .

بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق ، فقد طالب الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الملقب بالأعمى الذي ولى امارة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ بالاتاوة التي كان يدفعها الأخشيديون لحكومته ، لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الأتاوة . وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر في نفس الحسن بن أحمد الذي رأى أن سيادة دولته قضي عليها الفاطميون ، ثم بدأ يناصبهم العداة ، فلما أتم اعداد جيشه سار متجها الي دمشق سنة ٣٦٠ هـ ليقضى على نفوذ الفاطميين في بلاد الشام . وكان جنوده يحملون الاعلام السود ، وقد كتب عليها اسم " المطيع عبد الكريم " ، وتحتة " الساده الراجعون الي الحق " ، مما يثبت لنا انحياز القرامطة الي العباسيين وانصرافهم عن الدعوة الاسماعيلية التي كانت من أهم دعائم دولتهم في بلاد البحرين . أما جعفر بن فلاح ، فانه أخذ في التاهب لصد قوات الحسن بن أحمد ، لكنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح في ناحية الدكة على مقربة من دمشق حيث دارت معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله هو وكثير من أتباعه سنة ٣٦٠ هـ ، وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق .

واصل الحسن بن أحمد مسيره الي الرملة بعد فتحه دمشق ليقضى على ما بقى للفاطميين من سلطان ببلاد الشام . وكان

بلى هذه المدينة سعادة بن حيان المغربي ، فلما علم بمسير القرامطة إليها اضطرت الرحيل عنها والفرار إلى يافا ، فتمهد بذلك السبيل لدخولهم الرملة وأصحت معظم بلاد الشام في يدهم ، وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العباسي . يقول المقرئ : " وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العباسي في كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم ، وأظهروا أنهم كأمرء النواحي الذين من قبل الخليفة العباسي " .

اتجهت سياسة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بعد قدومه من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ إلى القضاء على نفوذ القرامطة ببلاد الشام وتحقيقاً لهذه الغاية رأى أن يستعين بسني الجراح - من قبيلة بني طيء بفلسطين - على استرداد هذه البلاد ، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد أمير القرامطة ، وأسند إليه ولاية دمشق سنة ٣٦١ هـ وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام .

ولما وصل إلى المعز لدين الله أن الأمور لم تستقر بعد في دمشق ، أيقن أن هناك صعوبات تواجه حكمه في بلاد الشام ، ومن ثم عول على إقرار النظام فيها ، فبعث في طلب ريان الخادم واليه على طرابلس ، وعهد إليه بدراسة الحالة في دمشق ، وقمع الفتن التي شارت بين أهالي هذه المدينة ، وبين جند المغاربة ، كما قلده ولايتها بعد عزل القائد أبي محمد بن جعفر الذي سار في جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة . وقد بذل ريان الخادم جهده في تهدئة الحالة في دمشق والتوفيق بين أهلها وجنود المغاربة .

كذلك حرص الخليفة العزيز بالله الفاطمي بعد أن آلت

اليه الخلافة فى ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ على مواصلة سياسة أبيه المعز فى العمل على القضاء على الأضطرابات فى الشام ، فاستقر رأيه على الخروج بنفسه لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد ، وسار على رأس جيش كبير ، جعل جوهر المقلسى على مقدمته ، وكان يناهض نفوذ الفاطميين فى الشام وقتذاك الأتراك بزعامة أفتكين ، ومما زاد فى خطرهم استنجد أهل دمشق بأفتكين ، وترحيبهم به ، وتجلى خطره بعد أن كتب الى الحسن بن أحمد زعيم القرامطة يطلب منه القدوم لمعاونته ، فسار اليه من الأحساء . وأعد كل منهما العدة لمواجهة زحف الجيش الفاطمى على بلاد الشام ، فحشدا جموعا كثيرة من العرب وغيرهم وعادوا الى الرملة حيث دار القتال بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٧هـ . وقد شاهد العزيز فى هذه الحرب من شجاعة أفتكين ما أعجبه ، فأرسل اليه يدعوهُ الى طاعته ويعدّه أن يقلده الولايات ، كما طلب منه الحضور لمقابلاته ، فقال أفتكين لرسول العزيز ، قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول لسارعت وأطعت ، وأما الآن فلا يمكن الا ماترى " ، ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين ، فأوقع العزيز الهزيمة بقواته ، ومضى أفتكين هاربا ، ثم سيق الى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك حيث عفا عنه الخليفة ، وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية ، أما الحسن بن أحمد ، فإنه سار منهزما الى طبريه حيث لحق به رسول العزيز الذى دعاه لمقاتلة الخليفة ووعدّه بأنه سيكون موضع رعايته ، فلم تلق هذه الدعوة قبولا منه ، ثم رحل الى الأحساء مع أنصاره من القرامطة . وهكذا فشلت الحركة التى أشارها أفتكين التركى فى بلاد الشام ، كما زال نفوذ القرامطة فى هذه البلاد ، واضطروا الى الجلاء عنها مما سهل على الفاطميين استعادة دمشق الى حوزتهم .

على أن الفاطميين مالبتوا أن واجهوا في أواخر القرن الرابع الهجرى ، حركات استقلالية من بعض أمراء العرب بالشام ، فحاول بنو طيء بفلسطين تكوين دولة لهم والاستقلال عن الخلافة الفاطمية ، فثار بالرملة زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح ، مما حمل برجوان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى على ارسال حملة الى فلسطين بقيادة جيش بن محمد بن الصمصامة فسار الى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها ، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى طلب الأمان والصلح ، فعفا عنه وأمنه ، ثم عادت الفتنة بفلسطين سنة ٤٠٠ هـ عندما نقم الحاكم بأمر الله على آل المغربى بمصر ، ففر الوزير أبو القاسم الحسين بن على بن المغربى الى حسان بن مفرج بن دغفل ابن الجراح أمير طيء بالرملة ، وحسن له خلق طاعة الخليفة الحاكم ، فزحف حسان الى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين وعاث فيها فسادا .

اتفق بنو الجراح سنة ٤٠١ هـ على استدعاء أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة ليبايعوه بالخلافة ، فأوفدوا اليه الوزير أبا القاسم بن المغربى ليغريه بالخروج على الحاكم بأمر الله فلما قدم هذا الوزير مكة ، أطمع أميرها أبا الفتوح فى الرياسة وحرزه على طلب الخلافة ، كما حثه على الخروج الى الرملة اجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته ، فرحب الأمير أبو الفتوح بهذه الدعوة ، وجمع أقرباءه من بنى الحسن وشاروهم فى الأمر فوافقوا على بيعته بالخلافة ، وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، ثم سار من مكة قاصدا الرملة وبصحبته أبى القاسم بن المغربى ، وبعض أنصاره من القبائل العربية . فلما

اقترب من الرملة ، تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح واولاده
وسائر وجوه العرب بالترحاب ، وترجلوا له وبايعوه
بالخلافة ونزل أبو الفتوح في دار حسان ونادى في الناس
بالأمان وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام .

لما وصل الى الحاكم بأمر الله نبأ خروج أبي الفتوح
أمير مكة عليه ، ومبايعة بني الجراح له بالخلافة ، بعث
حملة الى فلسطين للقضاء على هذه الحركة ، غير أن هذه
الحملة حلت بها الهزيمة ، واستفحل نفوذ بني الجراح
ويسطوا سلطانهم على جنوب بلاد الشام ، فعمد الخليفة
الحاكم بأمر الله الى استمالة حسان وأبيه مفرج وغيرهم
من بني طيء بالأموال التي بذلها لهم ، فانحرف بنو
الجراح عن الأمير أبي الفتوح بعد أن بايعوه بالخلافة .
ولما أحس أبو الفتوح بخذلانهم اياه وعدولهم عن رأيهم
في العمل على تقوية نفوذه ، قال لأبي القاسم بن المغربي :
" أغويتني وأخرجتني الى هؤلاء القوم الغدارين ، وأخرجتني
من بلدي ونعمتي وأمارتي ، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون
سوقهم بي عند الحاكم ويبيعوني بالدراهم ، فيجب عليك
أن تخلصني كما أوقعتني ، وتسهل سبيلي بالعودة الي
الحجاز ، فأني راض من الغنيمة بالأياب " . ثم ركب الي
مفرج بن دغفل بن الجراح سرا ، وأوضح له أنه فارق نعمته
وكاشف الحاكم بالعداء ركونا منه الي ذمامهم وسكونا الي
مقامهم ، وطلب منه أن يعيده الي مكة مع فريق من
أنصاره ، فبعث معه جماعة من بني طيء ولم يزالوا بصحبته
حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ ، فتلقاه أتباعه ، وكتب الحاكم
واعتذر اليه ، فقبل عذره وعفا عنه ، وأعادته الي أمارته
بمكة ، وعمل الأمير أبو الفتوح بعد عودته الي مكة على
اقامة الدعوة للحاكم بأمر الله ، كما نقش اسمه على
السكة .

ظل سنو الجراح متغلبين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٠٤ هـ ، ولم يتوان الفاطميون عن قتالهم خلال تلك الفترة ، فجهز الخليفة الحاكم العساكر الى الشام بقيادة على بن جعفر بن فلاح فقمده الرملة وهزم حسان بن مفرج وقومه الطائعين واستولى على أموالهم وذخائرهم ، ثم سار الى دمشق ، فاستولى عليها وتولى امارتها ، وبذلك استعاد الفاطميون نفوذهم على فلسطين في أواخر عهد الحاكم ، ويتضح لنا ذلك من النقوش ، فقد عثر على نقش خاص بسنة ٤١١ هـ ويبدو أن سيطرة الفاطميين على فلسطين ، استمرت حتى سنة ٤١٣ هـ . ونستدل على ذلك من النقوش الخاصة بتجديد بناء قبة الصخرة التي تحمل اسم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بن الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويرجع تاريخها الى هذه السنة ، وكانت قبة الصخرة قد سقطت سنة ٤٠٧ هـ بسبب هزة أرضية ، وفيما يلي نص أحد هذه النقوش :-

- ١ - بسمله ٠٠٠ أمر بعمارة هذه القبة الامام ابو الحسن على .
- ٢ - الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهريين وابنائهم .
- ٣ - الأكرمين . وجرى ذلك على يد عبده الأمير ثقة الأئمة سيد الدولة على بن أحمد ، أنابه الله في سنة ثلاثة عشر وأربع مائة (٤١٣ هـ) .
- ٤ - والله يديم العز والتمكين لمولانا أمير المؤمنين ويملكه مشارق الأرض ومغاربها ، ويجنبه مباديء الأمور وعواقبها .

ضعف شأن بنى الجراح بفلسطين بعد الهزيمة التي حلت بهم فى أواخر عهد الحاكم بأمر الله واستعداد الفاطميون نفوذهم بهذا الأقليم ، وظل الحال على ذلك حتى ولى الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله الخلافة سنة ٤١١ هـ ، فحاول حسان بن الجراح استرداد سلطانه بالرملة ، ومالبت أن حشد جموعه وهاجمها ونهبها ، ولم تقف اطماعه عند هذا الحد ، بل عمل على الاستقلال بفلسطين وتحقيقا لهذه الغاية عقد اتفاقا سنة ٤١٥ هـ مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسان بن عليان الكلبى أمير الكلبيين ، يتضمن أن تتحد قواهم جميعا لاجراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها بينهم : على أن يكون من حلب الى عانه على نهر الفرات لصالح ابن مرداس ، ومن الرملة الى حدود مصر لحسان أمير الطائيين ، ودمشق وما يحيط بها لسان بن عليان وعشيرته . وقد أطلع هولاء الأمراء الامبراطور البيزنطى باســــــــــــــــــــل الثانى على هذا الاتفاق ، وطلبوا معونته ، لكنه لم يجس طلبهم .

لما رأى الخليفة الظاهر الفاطمى الخطر الذى بهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذى عقده بعض زعماء العرب ، جهز جيشا سنة ٤٢٠ هـ لمحاربة هذه القوى المتحالفة وأنسد قيادته لأنوشتكين الدزبرى . وقد تمكن القائد الفاطمى من الحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام فى معركة الاقحوانة عند طبريه ، وقتل صالح بن مرداس ، وهرب حسان ابن الجراح الطائى الى الامبراطور البيزنطى ليحتمى فى بلاطه ، فرحب بأستقباله بسبب ما قام به من دور هام فى المفاوضات التى دارت بين الامبراطور وأبيه مفرج بن دغفل بن الجراح أثناء سيطرته على فلسطين من سنة ٤٠١ - ٤٠٤ هـ . وقد انتهت هذه المفاوضات بتعيين

بطريق لبنت المقدس ، وقيام البيزنطيين بأعادة بناء كنيسة
القيامة التي كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد أمر
بهدمها .

استطاع الفاطميون بهذا النصر الذي أحرزوه في معركة
الاقحوانة ، استرداد البقاع الجنوبية والوسطى من سورية ،
كما استمرت سيطرتهم على فلسطين ، ونستدل على ذلك من
النقود التي عثر عليها ، فقد نقش على وجه دينار ضرب في
سنة ٤٢٨ هـ بفلسطين ما يأتي :

لا اله الا الله

وحده لا شريك له

محمد رسول الله

على ولي الله

وعلى الحاشية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ضرب هذا الدينار
بفلسطين سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

ونقش على الوجه الآخر :

الأمام

معد ابو تميم

المستنصر بالله

أمير المؤمنين

وعلى الحاشية :

محمد رسول الله

كان نفوذ الفاطميين في بلاد الشام مرتبطا بقوتهم
العسكرية ، فإذا ماضعفت قواتهم هناك قام الأمراء
المحليون بالعمل على توطيد اسقلالهم الذاتي كما فعل
بنو الجراح بفلسطين وبنو مرداس في حلب . وليس من شك
في ان عدم استقرار الأمور في كل من فلسطين وحلب ، أتاح

الفرصة أمام السلاجقة ليظهروا على مسرح السياسة في بلاد الشام ويضعفوا النفوذ الفاطمي فيها ، فوجهوا اهتمامهم بعد أن استأثروا بالنفوذ في العراق الى استعادة مافقدته الدولة العباسية من البلاد ، فعهد السلطان ملكشاه سنة ٤٦٥ هـ الى أئمة التركمان بالاستيلاء على بلاد الشام ، ففتح الرملة وبيت المقدس ثم يمم السير الى دمشق ، غير أن جيوش الفاطميين سرعان ما ردت على أعقابهم ، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن عول على محاصرتها سنة ٤٦٧ هـ ، وأخذ يشدد عليها الحصار حتى تمكن من فتحها ثم حذف اسم المستنصر بالله الفاطمي من الخطبة ، وأحل محله اسم الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، فكان لعمله هذا أحسن الأثر في نفوس أهالي دمشق .

ولما استقر الأمر للقائد التركماني أئمة في بلاد الشام خشي أن يعاود الفاطميون مهاجمته فجهز جيشا من التركمان والعرب ، وسار قاصدا مصر سنة ٤٦٩ هـ ، غير أن بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، استطاع بمهارته أن يلحق الهزيمة بجيشهم . ثم أعلنت بعض المدن الرئيسية في بلاد الشام ولاءها من جديد للخلافة الفاطمية . وقد شجع ذلك بدر الجمالي على العمل لاستعادة سلطان الفاطميين تلك البلاد ، فأنفذ جيشا الى دمشق حاصرها حصارا شديدا حتى اضطر أئمة الى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، فأجاب طلبه ، ولمسا قبله عند سور دمشق ، أنكر عليه تأخره في الخروج للقاءه وقبض عليه وقتله . ثم استولى على دمشق سنة ٤٧١ هـ ، وأحسن معاملة أهلها . غير أن الحالة لم تستقر له طويلا لتلك البلاد ، فحاول بدر الجمالي أن يسترد دمشق سنة ٤٧٨ هـ ، فسار اليها على رأس حملة وحاصرها حصارا شديدا ، كما

دار بينه وبين تاج الدولة تتش قتال ، غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه ورحل عائدا الى مصر . ومازال بدر الجمالي يوجه اهتمامه الى استعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام حتى تمكن سنة ٤٨٢ هـ من الاستيلاء على معظم بلاد الشام الساحلية . غير أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن بسبب تطلع السلاجقة الى بسط سلطانهم عليها .

ولما شار الخلاف بين نواب السلاجقة في بلاد الشام بعد وفاة تاج الدولة تتش ، رأى الفاطميون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد اعادة سيطرتهم على ما فقدوه من مدن الشام فسار الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٨٩ هـ على رأس حملة الى بيت المقدس وكان يلي هذه المدينة اذ ذاك ايلغازي وسقمان - ابنا الامير ارتق - ، فالتمس منهما تسليمه القدس من غير حرب ، فرفضا اجابة طلبه ، فحاصر المدنة ونصب على اسوارها المجانيق ، واضطر أهل القدس الى طلب الامان ، فأمنهم وفتحوا له أحد ابوابها ، وبذلك تمكن الأفضل من دخولها والاستيلاء عليها ، ورأى كل من سقمان وأخيها ايلغازي أن يرحل عنها ، فمضى الأول الى الرها ، أما الثاني فسار الى بغداد .

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم في بلاد الشام الى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد وضعف الجبهة الاسلامية أمام الغزو الصليبي ، فقد زحف الصليبيون على انطاكية بقيادة بوهمند النرمندي في أواخر القرن الخامس الهجري ، ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين في بلاد الشام ، فارسلوا الى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم ، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون

غير البلاد التي كانت بيد الروم . ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين في اشارة النزاع بين القسوى الاسلامية ليتيسر لهم تحقيق غرضهم ، سارع الى نجدة أمير انطاكية وانضم اليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر وحمصاه وحمص . غير أن المحاولات التي بذلها امراء المسلمين ببلاد الشام لانقاذ انطاكية باءت بالفشل وسقطت المدينة في يد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ (٣ يونيو ١٠٩٨ م) .

لما وصل الى الحكومة الفاطمية في مصر ، نبا الهجوم الصليبي على انطاكية ، رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس ، فأنفذ الأفضل بن بدر الجمالي وزيير الخليفة المستعلى بالله الفاطمي سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) سفارة الى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم ، يتضمن أن ينفردوا بانطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ، وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد مدة اقامتهم بها عن شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم .

لم توءد سفارة الأفضل بن بدر الجمالي الى الصليبيين ، الى عدولهم عن تحقيق سياستهم في الاستيلاء على بيت المقدس ، بل كان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين ونواب السلاجقة ببلاد الشام ، ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على انطاكية على إرسال حملة لفتح بيت المقدس . وقد استولى الصليبيون اثناء سيرهم الى هذه المدينة على معرة النعمان ، كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون اليه درءاً لأخطارهم .

كانت بيت المقدس في الوقت الذي تقدم فيه الصليبيون

لمهاجمتها خاضعة للفاطميين وبنى حكمها نائب من قبلهم يدعى "افتخار الدولة" ، فلما شرع الصليبيون فى فتح هذه المدينة لقاوا مقاومة فى بادئ الأمر من الحامية الاسلامية . غير أن جود فروى - قائد الحملة الصليبية مالمبث أن عشر على منفذ للمدينة لم يهتم المسلمون بتحسينه ، فدخل منه مع بعض أتباعه من الفدائيين ، وبذلك تيسر لهم فتح أبوابها سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩م) ، فاضطر المسلمون الى الاعتصام بالمسجد الاقصى ، فتعقبهم الصليبيون ونكسوا بهم . ولم يجد حاكمها الفاطمى " افتخار الدولة " بدا من الاستسلام ، وتعهد هو وقواته للصليبيين بالرحيل عنها الى مصر .

لم يقف الفاطميون ازاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام وزحفهم على بيت المقدس مكتوفى اليدين وخاصة بعد أن وصلهم خبر دخولهم هذه المدينة واستيلائهم عليها ، ومحاولتهم أخذ ماتبقى لهم من المدن الساحلية وعجز أمراء السلاجقة عن الوقوف فى وجههم ، فأعدوا حملة لاسترداد بيت المقدس . وخرج الأفضل بن بدر الجمالى على رأس الجيش الفاطمى وأقام بعسقلان فى انتظار النجدة التى وعده بها العرب . وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويتهددهم . على أن القوات الفاطمية مالمبثت أن فوجئت بهجوم الصليبيين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطمى وتراجعهم تدريجيا ، وعاد الأفضل مع خواصه الى مصر .

استغل الصليبيون فى بيت المقدس ضعف نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام منذ اوائل سنة ١١٠٠م وعملوا على تحصين مدينة يافا ، كما جعلوا من هذه المدينة مركزا يوجهون منه هجماتهم الى المدن الخاضعة لسلطان

الفاطميين فى بلاد الشام ، ف تعرضت كل من أرسوف وقيسارية
لزعف الصليبيين عليها بقيادة بلدوين الأول ملك بيسنت
المقدس سنة ١١٠١م ، وحاول الوزير الأفضل بن بدر الجمالى
استعادة المدن والموانى الساحلية التى استولى عليها
الصليبيون فأرسل حملة برية الى ساحل فلسطين فى ربيع
الأول سنة ٤٩٤ هـ (١١٠١م) ، لكن هذه الحملة منبت بالفشل
عند الرملة ، ثم عاود هذا الوزير الكرة ضد الصليبيين ،
فأعد حملة فى السنة التالية بقيادة ابنه " شرف المعالى "
اتجهت الى عسقلان . ولما تمكنت القوات الفاطمية من احراز
النصر على الصليبيين فى الرملة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) ، ساروا
نحو يافا لمحاصرتها ، غير أن القوات الصليبية أوقعست
الهزيمة بالفاطميين مما اضطرهم الى التقهقر نحو عسقلان .

رأى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بعد أن حطمت
الهزيمة بالقوات الفاطمية فى يافا ، أن بعد حملتيه
احدهما برية والأخرى بحرية . غير ان الخلاف الذى حدث بين
قائدى هاتين الحملتين أدى الى عجزهما عن استعادة يافا .

وكان الفاطميون وقتذاك لايزالون يسيطرون على بعض
المدن الساحلية بالشام ، وهى : عسقلان وعكا وصور وصيدا ،
فوجه بلدوين الاول ملك بيت المقدس اهتمامه الى الاستيلاء
على هذه المدن ، ولم يزل يهاجم صيدا حتى طلب قاضيها
وشيوخها الأمان منه فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) ،
فأمنهم وسمح للقاضى بالخروج وبصحبته كثير من أهلها
الى دمشق . أما صور فظلت تقاوم الصليبيين فترة طويلة ،
وقام طفتكين - أتاك دمشق - بمهمة الدفاع عنها بعسد
أن عجز الفاطميون عن ذلك ، فسير إليها العساكر والمؤمن .
ولما ضيق الصليبيون الحصار على هذه المدينة ، وقلت بها

الأقوات ، وسئم أهلها القتال ، اضطرتفتكين . أتاك دمشق ، أن يكتب الى الصليبيين ، محاولا مهادنتهم على أن يسمحوا لمن بها من الجند والرعية بالخروج منها وحمل ما يستطيعون حمله من أموالهم ، فاستقر الحال على ذلك ، واستولس الصليبيون على صور سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) بعد أن أخفقت جهود طفتكين والفاطميين في صد الصليبيين عنها .

كانت عسقلان من القواعد الفاطمية البحرية في جنوب فلسطين . وقد قام الصليبيون بعدة محاولات للاستيلاء عليها وباءت هذه المحاولات بالفشل بسبب مواصلة الفاطميين الدفاع عنها ، وامتدادها بالموءن والجند . ولما اضطرت الأحوال في مصر في عهد الخليفة الظافر الفاطمي استغسل الصليبيون فرصة الضعف الذي كانت تعانيه الدولة الفاطمية وعملوا على محاصرة عسقلان سنة ٥٤٨ هـ ، فتصدى لهم أهلها ، كما قويت نفوسهم بوصول الاسطول الفاطمي الى هذه المدينة ، غير أن الصليبيين مالبثوا أن عمدوا الى تشديد الحصار عليها ومهاجمتها مما اضطرت أهلها الى طلب الأمان ، فأجيبوا الى طلبهم ، وخرج منها من استطاع الرحيل عنها بطريق البر والبحر ، وبذلك تيسر للصليبيين الاستيلاء على عسقلان . وفقدت الخلافة الفاطمية آخر مدن فلسطين التي كانت لاتزال تخضع لسيادتها .

وهكذا واجه الفاطميون في فلسطين عدة صعوبات كان لها أثر بالغ في عدم استقرار حكمهم فيها ، فالى جانب الحركات الاستقلالية التي تزعمها بعض أمراء العرب في هذه البلاد أدى التنافس بينهم وبين السلاجقة على بسط سيطرتهم على بلاد الشام الى ضعف الجبهة الاسلامية أمام الزحف الصليبي على كل من أنطاكية وبيت المقدس ، فضلا عن ذلك

فإن ماتعرضت له الدولة الفاطمية في أواخر عهدها من ضعف
وانحلال أتاح للصليبيين في بيت المقدس الفرصة للاستيلاء
على ماتبقى في حوزتها من مدن الشام الساحلية .

* * *

الجبهة الصليبية فى معركة حطين

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

كلية الآداب - جامعة القاهرة

من الانحرافات الخطيرة التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى كثير من الأحيان أن ينظر الباحث الى التاريخ بعين واحدة ، فلا يرى الا جانباً واحداً منه دون الجانب الآخر . وقد تأتى هذه النظرة القاصرة متعمدة ، وليسدة عوامل شخصية كالتعصب لجنس أو موطن أو ديانة أو مذهب أو غير ذلك . وربما أتت عفوائية غير مقصودة نتيجة لقصور فى الفهم أو عدم ادراك لركن أساسى من أركان المنهج السليم لمعالجة التاريخ . وسواءً نجمت هذه الظاهرة عن هذا أو ذاك من الأسباب ، فإنها فى جميع الحالات تسبب خلافاً فى رسم الصورة الحقيقية للتاريخ ، وتجعل منه كياناً مبتوراً يتسم بعدم الامانة ونقص البناء .

وهناك أمثلة عديدة لهذه النظرة المبتورة الى التاريخ من ذلك أن كافة المؤرخين الاوربيين يرجعون هزيمة المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى موقعة شهداء البلاط التى عرفوها باسم موقعة تور أو بواتيه - سنة ٧٣٢ م ، الى شجاعة قائد الفرنجة شارل الذى لقب بعد تلك الموقعة بلقب مارتل ، بمعنى المطرقة . وهم فى علاجهم لتاريخ هذه الموقعة يسرفون فى تصوير بطولة شارل وفروسيته لأنه أنقذ غرب أوروبا من خطر الاسلام والمسلمين - حسب قولهم - ويرددون أنه لولا بطولته لابتلعت موجة الزحف الاسلامى الغرب الأوربى كله باكملة ، وحولت شعوبه الى ديانة الاسلام .

وهكذا يقع هؤلاء المؤرخون فى خطأ كبير ، لأنهم

في موجة حماسهم لشارل ولعقيديتهم الدينية يتناسون حقيقة هامة ، هي انه بوصول موجة الفتوح الاسلامية الى الاندلس ، كانت هذه الموجة قد استنفذت طاقتها فخفت حدتها وأوشكت ان تصل الى نهايتها الطبيعية ، شأنها في ذلك شأن كل حركة توسعية في التاريخ . حتى لو لم ينتصر شارل مارتنيل في موقعة البلاط ، فانه من الصعب علينا أن نتصور أنه كان في استطاعة المسلمين أن يواصلوا تقدمهم في قلب الغرب الاوربي بعد أن بعدوا عن مركز حركتهم التوسعية وطالبت خطوط مواصلاتهم ، واستنفذوا طاقتهم في اقامة دولة واسعة امتدت من أطراف الهند وقلب آسيا شرقا حتى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي غربا .

ولو كان لدى المسلمين في الاندلس بقية من طاقة أو جهد لاستنفذوا تلك الطاقة وذلك الجهد في فتح مالسم يستطيعوا فتحه من الاركان الشمالية والغربية في شبه جزيرة ايبيريا ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك . فكيف نفسر غارة محلية قام بها المسلمون على جنوب غاليا (فرنسا) لتحقيق اهداف محدودة ، بأنها حركة اكتساح واسعة هددت بابتلاع المسلمين غرب أوروبا ساكمله ، لولا بطولة شارل مارتنيل التي انقذت البلاد والعباد ؟؟

ونضرب مثلا آخر موقعة عين جالوت ، اذ جرى الوضع في كتب التاريخ على تصوير نتيجة هذه الموقعة وكأنها تعبير عن عامل واحد هو شجاعة المسلمين وحسن بلاء المماليك بقيادة سلطانهم قطز ، مما ترتب عليه انزال ضربة ساحقة بالمغول ، هي الأولى من نوعها بالنسبة لهم منذ بدايات حركتهم التوسعية في النصف الاول من القرن الثالث عشر . وفي غمرة الحماسة لتصوير حسن بلاء المسلمين ويظهرهم قطز ، ينسى المؤرخون أن هناك عوامل مساعدة أدت الى انتصار

المسلمين في عين جالوت ، وأنه لولا هذه العوامل المستترة لربما كان لهذه الواقعة شأن آخر . من هذه العوامل — أن هولاكو زعم المغول الذي اجتاح الجناح الشرقى للعالم الاسلامي ، والذي أشار اسمه الخوف والذعر في قلوب معاصريه ، والذي كان مصدر النمام لرجالته ومحاربييه . . . لم يكن على رأس قوات المغول التي خاضت معركة عين جالوت . ذلك أنه اضطر قبيل هذه المعركة الى العودة مسرعا الى حاضرة المغول في جوف آسيا للمشاركة في انتخاب رئيس أعلى للمغول بعد أن سمع بوفاة خاقان المغول الاعظم منكوخان .

ومن ناحية أخرى ، فإن أية حركة توسيعية في التاريخ لا بد وأن لها نهايتها ، إذ لم يقدر لاية حركة من هذا النوع أن تظل في تقدم مستمر لتستوعب الارض ومن عليها ، ويوصل المغول الى بلاد الشام كانت حركتهم التوسعية قد استنفذت طاقتها ، وصار على المغول أن يبذلوا جهدا كبيرا في تأمين البلاد التي فتحوها في وسط آسيا وغربها فضلا عن شرق أوروبا ووسطها . وهذه كلها أمور يجب على المؤرخ أن يضعها جنبا الى جنب مع حسن بلاء المسلمين ، عندما يقوم معركة عين جالوت .

وفي التاريخ الحديث يسهب كثير من الباحثين — والمؤرخين في الكلام عن عمقية القائد الانجليزي — مونتجومري بطل موقعة العلميين في الحرب العالمية الثانية ، وكيف أن هذا القائد هو صاحب الفضل فيما أحرزه الحلفاء من نصر ، لأنه خطط فأجاد التخطيط ، واختار الموقــــــــع المناسب لساحة المعركة فأحسن الاختيار ، وصمد هو ورجاله الأبطال فأبلىوا في الصمود . وينسى هؤلاء الباحثون أنه يوصل جيوش الحلفاء الى العلميين ، كانت تلك الجيوش قد استنفذت طاقتها بعد أن نجحت في غزو معظم القارة

الأوربية مما أنزل بها انها كالا مزيد عليه . هذا فضلا عن بعد خطوط مواصلات جيوش المحور ، وماعانته من ظروف قاسية صعبة في زحفها في الصحراء ، بسبب قلة الماء وشدة حرارة الجو ، بينما ساند مونتجومرى ورجاله ظهورهم الى دلتا النيل . وهذه كلها عوامل يجب على المؤرخ البقـط أن يجعلها موضع اعتباره عندما يقوم موقعة العلمين تقويمها تاريخيا علما أمينا .

* * *

وبهذه الروح أرى واجبا علينا عندما نتحدث عن ذكرى مرور ثمانمائة عام على معركة حطين أن نلتزم بقدر من الواقعية العلمية في تقويم النصر الذي حققه المسلمون في هذه الموقعة ، فلا تجرفنا آلام الحاضر ، أو الحماسة لأمجاد السلف الصالح الى النظر الى التاريخ بعين واحدة .

من حق أبطال حطين وشهداء حركة الجهاد الاسلامي أن نترحم عليهم ، ونتذكر ما بذلوه من جهد وتضحيات من أجل استرداد الارض وتحرير مقدسات المسلمين . حسبهم أنهم هجروا الامل والاطمان وقضوا الاعوام والايام ، يطاردون العدو الدخيل في عزم واصرار ، فمنهم من سقط شهيدا يروى الأرض بدمائه ، ومنهم من أصبل يقضى بقية حياته عبيلا معوقا . وعلى رأس هؤلاء جميعا يبرز اسم صلاح الدين بوصفه بطل حطين الغد ، الذي " كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ماكان له حديث الا فيه ، ولانظر الا في آله ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهلـه واولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في

ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة" (١)

ان عبقرية صلاح الدين لم تقتصر على قدرته فى التخطيط والتنفيذ ، وانما تتجلى أيضا فى نجاحه فى اكتساب ثقة رجاله واحترامهم وحبهم له من ناحية ، وفى الافادة من كافة الظروف التى أتاحت له من ناحية أخرى . لقد نجح صلاح الدين لأنه آمن بالاهداف التى سعى لتحقيقها ، وسلك أسلم الطرق لتحقيق هذه الاهداف ، اذ ادرك دائما ان العبرة ليست بتوجيه ضربة الى العدو ، وانما العبرة بالاعداد اعدادا سليما لهذه الضربة ، واختيار انسب الظروف من ناحيتى الزمان والمكان لتوجيهها .

ولكننا نظلم التاريخ عندما نتصور أن النصر الذى تحقق للمسلمين فى حطين انما جاء وليد عبقرية صلاح الدين وحده ، أو نتيجة لحماسة المجاهدين لاغير ، متناسين العوامل الاخرى المساعدة التى أسهمت فى تحقيق النتيجة التى انتهت اليها معركة حطين .

ان علينا أول بدء أن نوضح أن معركة حطين دارت بين طرفين أحدهما متماسك البناء راسخ العقيدة ، يرحسب بالاستشهاد فى سبيل الله ، يوءمن بانه خاض معركة الجهاد دفاعا عن حق مصيرى ... والطرف الآخر مفكك الاوصال ، ممزق الاطراف والروابط ، تسوده الاحقاد والخلافات ، يفتقر الى قيادة عليا حازمة رشيدة ، تنخر فى بنائه الانقسامات الشخصية والعنصرية ، وتتحكم فى سياسته المصالح المادية ، وتسود روح الشك العلاقات بين زعمائه وقادته . واذا كان

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٤ ، (تحقيق محمد محمود صبح) .

هناك تكافؤ بين الطرفين ، فربما كان هذا التكافؤ فى
نوعة السلاح ، فالمسلمون يحاربون بالسيف والحراب والسهم
والمسيحيون يحاربون بالسيف والحراب والسهم .

ونحن عندما نتكلم فى التاريخ عن جبهتين احدهما
اسلامية والاخرى صليبية فى معركة حطين ، ينبغى أن نضع موضع
الاعتبار أن المسلمين لم يشكلوا منذ خروجهم من بلادهم
لأول مرة فى اواخر القرن الحادى عشر للميلاد جبهة واحدة
متماسكة .

فالحملة الصليبية الاولى جاء على رأسها امراء دبست
بينهم العداوة والبغضاء ، وتأصلت فى نفوسهم روح التنافس
وتحكمت فى تصرفاتهم تجاه بعضهم البعض نزعة واضحة من
الاشرة والانانية . وعندما انتهى جيل الامراء الاوائل الذين
اسموا فى الحملة الصليبية الاولى ، وفى اقامة النساء
الصليبي بالشام ، خلف من بعدهم خلف ورثوا عن اسلافهم
العداوة والبغضاء مثلما ورثوا الارض ، ومهما يقل من أن
ملك بيت المقدس تمتع بنوع من السيادة والاولوية على غيره
من أمراء الصليبيين بالشرق ، فان هذه السادة كانت فى
الشكل لا فى الجوهر ، ولم تمل مطلقا الى حد الالتزام الذى
يجعل كبار الامراء - وبخاصة فى انطاكية وطرابلس - يخضعون
خضوعا تاما للملك ، ويمثلون لأوامره . حقيقة أننا نسمع عن
تحالف القوى الصليبية فى بلاد الشام - فى بعض الاحيان -
لمواجهة خطر داهم من جانب المسلمين ، ولكن هذا التحالف
كان مؤقتا مرهونا بزوال الخطر ، فضلا عن أنه لم يتسم
بنوايا صافية ، وانما كثيرا ما جاء مشوبا بمشاحنات بين
كبار الأمراء بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين ملك بيت المقدس .

كان هذا هو وضع الحبة الصليبية منذ أن وطأت اقدام
الصليبيين أرض الشام لأول مرة سنة ١٠٩٧ وحتى موقعة حطين

سنة ١١٨٧ م .

* * *

ولتفسير ذلك ، ورسم صورة واضحة للجبهة الصليبية في موقعة حطين ، لابد من العودة الى الورا ، قبل هذه الموقعة بثلاث عشرة سنة - آى الى سنة ١١٧٤م - للوقوف على خلفيصة حطين من ناحية ، وما أصاب الجبهة الصليبية من تطورات أثرت تأشيراً مباشراً في مصير تلك الموقعة من ناحية أخرى . ذلك أن الخلل الذى اعترى الجبهة الصليبية فى حطين لم ينشأ ليلة الموقعة ولم يكن وليد عام أو بعض عام ، وإنما تمتد جذور ذلك الخلل وخلفياته سنوات عديدة الى الورا .

ولاشك فى أن الرجوع الى ما قبل حطين بثلاث عشرة سنة على وجه التحديد أمر قد يثير التساؤل ، ولكننا نبادر فنقول ان سنة ١١٧٤م (٥٦٩هـ) تحتل فى نظرنا أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية ، نظراً لأنها شهدت حدثين هاميين كان لكل منهما أثره المباشر وغير المباشر فى تكييف الجبهتين الاسلامية والصليبية قبيل حطين : الحدث الأول، هو وفاة نور الدين محمود فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤، والحدث الثانى هو وفاة عمورى الاول ملك الصليبيين فى بيت المقدس بعد ذلك بشهرين تقريباً (١١ يوليو ١١٧٤) .

أما الحدث الأول فقد نجم عنه انطلاق صلاح الدين يوسف ابن أيوب ليرث سيده نور الدين محمود لا فى ممتلكاته فى مصر والشام فحسب ، بل أيضاً فى سياسته الخاصة بتأميين الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية ، والاعداد لحركة جهاد دينى واسعة ضد الصليبيين من ناحية أخرى . وأما الحدث الثانى فقد ترتب عليه حرمان الصليبيين من رجل والرجال قليل . ذلك أن عمورى الاول الذى توفى سنة ١١٧٤ كان أقدر

حكام الصليبيين المعاصرين ، وأوسعهم خبرة ، وأعمعهم تجربة
واكثرهم قدرة وجرأة على محاربة المسلمين في الشام ومصر
من أجل حماية الكيان الصليبي في الشرق (٢) .

حفيقة ان بلدوين الرابع الذي خلف أساه عموري الأول
في عرش مملكة بيت المقدس اتصف بالذكاء والاخلاص ، والرغبة
في الصمود في وجه الاخطار الداخلية والخارجية التي واجهت
الكيان الصليبي في بلاد الشام . ولكن الرغبة شيء والقُدرة
على التنفيذ شيء اخر . ذلك أن بلدوين الرابع اعتلى عرش
المملكة الصليبية سنة ١١٧٤ وهو في الثالثة عشر من عمره ،
وأميب في مرحلة الملوغ بالجذام - فلقب بالمجذوم - مما
حطم طاقته وفت من عضده ، وأقعدته عن النهوض بالامانة التي
كان يود فعلا أن ينهض بها . ولم يلبث أن توفي وهو في
الراعة والعشرين من عمره سنة ١١٨٥ - أي قبل موقعة حطين
سعامين - تاركاً الكيان الصليبي في بلاد الشام في حالة من
الفوضى ظهرت أشارها في حطين .

وطوال الفترة التي حكم فيها الملك بلدوين الرابع ،
والتي استمرت احدى عشرة سنة - كان في صراع مع المرض ، فهو
يريد أن يفعل شيئاً ولكنه لايقوى على أن يفعل شيئاً ، ولذا
أخذ يتخط في قراراته ، وأسرف في التشكك فيمن حوله ،
وأعطى أذناً صاغية لمستشاري السوء الذين استغلوا حالته
لتحقيق مآربهم الخاصة . . . وأدى هذا كله الى حالة سيئة
من التشاحن والتباغض وسوء النوايا ، سادت العلاقات بين
الأمراء الصليبيين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين رجال الدين ،

William of Tyre: Deeds Done Beyond the sea (٢
Vol. 2, p p.395-396.

(Translated and Annotated by Babcock and Krey,
New York 1943) ويذكر المؤرخ وليم الصوري أنه كتب تاريخه الشهير بين
على طلب وتكليف من الملك عموري الأول .

وبين الجميع وملك بيت المقدس ، وذلك قبيل معركة حطين .

ويحكى المؤرخ وليم الصوري - الذى يعتبر مصدرنا المعاصر والرئيسى فى تقويم أحوال الصليبيين فى تلك الفترة - أنه عندما كان رئيس شمامسة صور ، عهد اليه الملك عمورى الأول بالاشراف على تربية ابنه الصغير بلدوين (الرابع) فبذل غاية جهده فى تثقيفه وتدريبه وفق أرقى قواعد السلوك ومستويات التعليم المعاصرة . وبينما يلعب الصغير ذات يوم مع مجموعة من رفاقه ، أخذ الاولاد يقرصون بعضهم بعضاً باظافرهم ، ويصرخون عندما يتعرض أحدهم لقرصه من رفيقه ، ماعدا بلدوين الصغير الذى كان يتحمل أقوى القرصات فى ذراعه دون أن تظهر على وجهه علامة للانفعال أو الألم . وقد ظن وليم الصوري فى أول الأمر أن هذا دليل على قوة احتمال ملك المستقبل ، ولكنه سرعان ما اكتشف أن الصبي فاقسد الاحساس ، ميت الشعور ، وأن ذراعه شبه مخدر ، مما جعله يسرع بعرض الامر على ابيه ، وعيشتا حاول الملك علاج ابنه وولى عهده ، فعرضه على عدد كبير من الاطباء دون جدوى . وكانت هذه الظاهرة - كما يقول وليم - نذيراً بمرض الجذام الخبيث الذى بدأت اعراضه تظهر على بلدوين بعد فتسرة قصيرة (٣) .

وهكذا توفى عمورى الأول خامس ملوك - أو سادس حكام - بيت المقدس الصليبيين ، صاحب الدور العريض فى مجابهة نور الدين ، وقائد الحملات الصليبية الشهيرة فى مصر ، والرجل الذى استطاع أن يفرض هيئته وكلمته على كافة أمراء الصليبيين داخل المملكة وخارجها ، والذى استطاع أن يحظى بتأييد امبراطور الروم فى القسطنطينية ... توفى سنة

William of Tyre: Op.cit. Vol. 2, p p. 397-(٣)
398.

William of Tyre: Op.cit. Vol. 2, p p. 400-
404.

١١٧٤ ليخلفه ابن قاصر عليل ، قد يحظى بعطف قلة من الامراء ولكنه لا يحظى باحترام غالبية الامراء . وسرعان ما ظهرت مطامع الامراء ، وبرزت خلافاتهم على السطح ، واشتد التنافس والتحاسد بينهم ، وهى أمور تتفح عادة عندما يحس امراء الطليبيين بالشام بعدم وجود قوة كبرى يهابها الجميع وتفرض احترامها عليهم .

وكان آن بدأت اولى صفحات الصراع بين الامراء بسبب التنافس حول الظفر بالوصاية على الملك القاصر ، حتى استطاع الامير ميلون دى بلانسي Milon de Plancy أن يفوز بالمنصب ، مما مكنه من الهيمنة على شؤون المملكة . ويرورى وليم الصورى أن قيام ميلون بالوصاية على الملك الصغير ، وانفراده بالنفوذ فى المملكة ، أشار نقمة بقية امراء المملكلا لأنه تجاهلهم فضلا عن أنه عاملهم باستعلاء وازدراء . ولكن لم يلبث أن ظهر على المسرح ريموند الثالث امير طرابلس ، الذى كان قد قضى ثمان سنين فى أسر نور الدين محمود (١١٦٤ - ١١٧٢) حتى اطلق سراحه ، وعندئذ نظر اليه عامة الطليبيين فى الشام وكأنه نطل عظيم . وكان أن طالب ريموند الثالث بأحقية - دون غيره - بالوصاية على الملك الصغير ، نظرا للقراية التى تربطه به من جهة ، ولانه أقوى الامراء الطليبيين بالشام من جهة ثانية ، فضلا عن أنه عندما وقع أسيرا فى قبضة المسلمين فانه عهد الى الملك عمورى - والد لدوين - بالوصاية على امارته طرابلس ، ولو قدر له أن يموت فى الأسر ، لكانت طرابلس من نصيب عمورى . ولم يلبث أن انتهى التنافس بين ميلون وريموند بمقتل الاول فى اواخر سنة ١١٧٤ ، فقام ريموند الثالث بالوصاية على الملك والمملكة لمدة ثلاث سنوات . وزاد من نفوذ ريموند انه استحوذ على طرية واقليم الجليل بعد أن تزوج من الاميرة اشيفا Eschiva أرملة والتر - امير ذلك الاقليم سابقا -

وبذلك غدا ريموند الثالث أقوى أمراء الطليبيين بالشام .

وهكذا أخذت الأمور تتعقد في مملكة بيت المقدس الطليبية نتيجة لقيام ملك مريض في عرش المملكة فـ في السنوات الحاسمة التي سبقت حطين . وحدث ذلك في الوقت الذي أخذ صلاح الدين يستعد سياسيا وحربيا للمعركة الفاصلة بينه وبين الطليبيين . وبدلا من أن يتعاون ملك بيت المقدس مع كبار الأمراء لتكوين جبهة قوية يواجهون بها الجبهة الاسلامية التي وضع أساسها نور الدين محمود ، والتي نجح صلاح الدين في احيائها ودعمها . . . ، اذا بالملك بلدوين الرابع تحت تأثير حالته الصحية يتشكك في كبار الامراء ويتوهم أنهم يتآمرون في الخفاء ضده لخلعه من العرش .

من ذلك أنه حدث بعد انتهاء فترة وصاية ريموند الثالث على الملك والمملكة ، أن اتفق بهويموند الثالث أمير انطاكية مع ريموند الثالث أمير طرابلس على القيام سنة ١١٨٠ بزيارة لبيت المقدس ، وذلك دون ترتيب سابق مع الملك بلدوين الرابع . وعندما فوجيء الملك المريض بوصول الاميرين من شمال الشام ، انزعج وتوهم موءامرة خطط لها الاميران لخلعه واقتسام المملكة بينهما . ويمور المورخ المعاصر وليم الصوري حال الملك فيقول انه " خشي أن يقوم هذان الاميران بثورة ضده تستهدف خلعه والسيطرة على زمام الامور في المملكة ، لاسيما وأن حالة الملك الصحية أخذت تتفاقم وتزداد سوءا مما أصابه بالقلق البالغ .

وبمرور الايام صارت أعراض الجذام تزداد وضوحا عليه ، مما فت في عضده وجعله يتشكك في نوايا من حوله ... " (٤) .

وكان من الممكن التخفيف من الآثار الناجمة عن مرض الملوك بلدوين الرابع لو وجدت حوله بطانة مخلصه تحسن توجيهه وتصدقه النصيحة . ولكن الملك المريض أحاطت به بطانة من أهل سوء ، هدفها الاستئثار بالنفوذ والسلطان . وعلى رأس هذه البطانة كانت الملكة الوالدة التي اتصفت بالانانية وحب السيطرة ، فضلا عن أخيها - خال الملك المريض - وقهرمان المملكة ، وجماعة أخرى من الانتهازيين وذوى المصالح الخاصة . (٥)

ويبدو أن الفترة القصيرة التي قضاها ريموند الثالث في وصايته الأولى على الملك والمملكة ، وما قام به في تلك الفترة من جهود في مقاومة صلاح الدين والمسلمين ، أظهرته فعلا أمام الرأي العام المليبي في بلاد الشام في صورة الرجل القوي القادر على توجيه السفينة إلى بر الأمان وسط بحر زاهر بالعاصير . وكان ذلك مما استثار خوف الملك بلدوين الرابع من أمير طرابلس ، وربما حققه عليه ، وبخاصة أن ذلك الأمير كان من الناحية العرقية أقرب أمراء الملبيين إلى ملك بيت المقدس الذي لم ينبج من خلفه .

ولم يرض العقلاء وبعيدو النظر من أمراء المملكة - وهم قلة - عن موقف الملك بلدوين الرابع من أمير طرابلس وطبرية ، وأخذوا يعملون حسابا لما قد يترتب على حرمان المملكة من معونة ريموند الثالث الذي هو أقوى أمراء الملبيين بالشام من جهة ، وأقوى أفعال الملك بوصفه أميراً على الجليل وطبرية ، من جهة أخرى . ويعلق وليم الصوري على ذلك الوضع بترديد قول المسيح " كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت" (٦) .

Idem, p.p. 459-460.

(٥)

(٦) انجيل متى ، اصحاح ١٢ (٢٥) .

ولاقصاء أمير طرابلس عن وراثة عرش المملكة ، أخذ الملك المريض يبحث في عجلة عن عريس لشقيقته الكبرى - الأميرة سيبيل - التي كان زوجها ولیم دی مونتفرات قد توفي. وكان أن اختار الملك لشقيقته جاي لوز جنان الذي حضر من فرنسا وتزوج الأميرة سيبيل سنة ١١٨٠ . ولم يكن هذا الاختيار موفقا لما عرف عن جاي لوزجنان من جبن وضعف شخصية وتذبذب في الرأي . هذا فضلا عن أن أمراء الصليبيين بالشام لم يرحبوا بجاي لوزجنان ولم يرتاحوا إليه ، ولم يحفظ باحترامهم .

وينتقد المؤرخ المعاصر ولیم المورى هذه الخطوة المتعجلة من جانب بلدوين الرابع ، فيقول " انه كسان يستطيع الملك أن يعثر لأخته على زوج من نبلاء المملكة أعظم شأنًا وأرجح عقلا وأوفر مالا وثروة ، وأكثر نفعًا للملكة من جاي لوزجنان . ولكن الملك لم يدرك أن العجلة في الندامة " (٧).

ومرة أخرى يعلق ولیم المورى - وهو معاصر ، يكتب من واقع مشاعره وأحاسيسه - على اختيار جاي لوزجنان وصيًا على المملكة ، فيقول ان هذا الاختيار قبول بالرفض والغضب ، اما لأن بعض أمراء المملكة كانت لهم مطامعهم الشخصية ، واما لأن البعض الآخر - الذين غلبوا الصالح العام - رأوا ، أن جاي لوزجنان ليس الرجل الكفء الذي يتطلبه الموقف ، وأنه دون تحمل المسؤولية . ولم يرحب بذلك الاختيار الا الذين رأوا فيه مصلحة خاصة لانفسهم . أما عامة الناس فقد كثر همسهم ، وتضاربت آراؤهم واختلفت كلمتهم... " (٨).

William of Tyre; Vol.2, p. 446.

(٧)

Idem, p. 493.

(٨)

وهذا هو الرجل الذى قدر له أن يلى عرش مملكة بيت المقدس فى مرحلة من أخطر مراحل تاريخها ، وأن يخرج على رأس الصليبيين لينازل صلاح الدين فى حطين .

ولا أدل على افتقار الصليبيين الى زعامة رشدة فى الدور التمهيدي لموقعة حطين ، وعلى استهتار كبار الأمراء بالملك بلدوين الرابع ثم بالملك جاي لزوجنان - عندما تولى عرش المملكة - من سلوك ارناط أمير شرقى الأردن ، وهو السلوك الذى سبب كارثة نزلت بالصليبيين فى حطين . والمفروض فى ارناط أن يكون فصلا تابعا لملك بيت المقدس ، ياتمر بأوامره ويلتزم بتنفيذ توجيهاته . ولكن ارناط أخذ يتصرف - وبخاصة تجاه المسلمين وصلاح الدين - بطريقة استقلالية ، لاتخلو من رعونة وهوج ، متناسلا الظروف التى يمر بها الصليبيون فى مواجهة عدو قوى جمع فى قنضته بين مصر والشام .

وكان الملك بلدوين الرابع قد بادر بعقد هدنة مع صلاح الدين سنة ١١٨٠م ليأمن خطره ^(٩) ، ولكن ارناط الذى عرف بالقدر ونقض المواثيق لم يراع تلك الهدنة فأخذ يعتدى على المسلمين ، بل لقد حاول غزو الحجاز وأوغل فى صحراء العرب حتى تيماء سنة ١١٨١ ، وهى التى وصفها صلاح الدين فى احدى رسائله الى الخليفة العباسى بأنها "دهليز المدينة" ^(١٠) ولم يعد ارناط من حملته الفاشلة الى مقره بالكرك الا بعد أن نهب فى طريقه قافلة مسلمة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة ، وأسرى رجالها . وكان أن غضب صلاح الدين ، وأرسل الى الملك بلدوين الرابع يشكو له فعل ارناط ، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين . وعندئذ انزعج الملك بسدوره

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ .
(١٠) ابو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج٢ ، ص٢٣٠ .

وأرسل الى فعله أرناط بأمره ببرد الاسرى والمنهوبات الى صلاح الدين ولكن أرناط هزأ من الملك المريضي ورفض الاستجابة لطلبه ، بل لقد أعلن أنه سيواصل سياسته وأنه لا يتقيد بالهدنة التي عقدها سيده مع المسلمين (١١).

وكان أن استمر أرناط في سياسته الطائشة ، فقام في أواخر سنة ١١٨٢ بحملة في البحر الأحمر ، أغار فيها على عيذاب على الساحل المصري ، ثم انتقل الى شاطيء الحجاز ، وشرع في الزحف على المدينة ، لولا أن لحق به الاسطول المصري ورجاله ، مما اضطره الى الفرار بعد أن وقع معظم رجاله في الأسر (١٢).

ولو كان هناك ملك قوى على عرش مملكة الملبيين في بيت المقدس ، لما جروء فصل من أفضاله على اتيان ما أتى به أرناط من افعال طائشة غير مسئولة . ولكن وجود ملك مريض لا حول له ولا قوة ، جعل كبار أمراء المملكة يتصرفون وكأنهم لا كبير لهم . وحدث ذلك في الوقت الذي أخذ صلاح الدين يدعم مركزه ، وينزل بالملبيين ضربات متفرقة ، مرة في شمال الشام ، وأخرى في جنوبها ، وثالثة على الساحل ، ورأى المورخ ولمس المورى هذه الاحداث ، فلم يسعه الا أن يرسل زفرة حزينة قال فيها :

" كأن الله أراد أن يعاقبنا على آثامنا ، فدب الشقاق والخلاف بين الامراء والنبلاء مما انعكست آثاره على أوضاعنا . ولم يستطع خيرة أمرائنا حنكة وشجاعة أن يخفوا استياءهم لأن الملك المريضي ترك زمام الامور في هذه الظروف القاسية لجاي لوزجان ، وهو في نظرهم أمير مغمور محدود القدرات والمواهب . ولذا فانهم لم يتحمسوا لمحاربة صلاح الدين وتركوه يدعم جبهته ويعيث فسادا في اراضى الملبيين وممتلكاتهم .

أما عامة الناس فإنهم يتساءلون عن السر في تقاعس أمراءهم وعدم تحمسهم لمحاربة صلاح الدين والحد من خطره." (١٣)

وفي تلك المرحلة الحساسة أخذ بعض بيرونت المملوكية يد سون لجاي لوزجان عند الملك ، الذي كان في تلك المرحلة الخطيرة من مرضه على استعداد ليستجيب لأي اتجاه ، فأخذ الملك يفكر في اقضاء جاي لوزجان عن الوصاية على المملوكية . وكان أن تم ذلك ، كما تم تعيين بلدوين الخامس - ابن الاميرة سيبيل من زوجها الأول وليم مونفترات - شريكا لبلدوين الرابع في حكم المملوكية ووريثا لبلدوين الرابع في العرش (١١٨٣) وذلك للقضاء على أي أمل لجاي لوزجان في وراثة العرش (١٤) . ولم يكتف بلدوين الرابع بكل ذلك ، بل تمادى في اظهار العداء لجاي لوزجان ، فسعى في تطليق أخته سيبيل منه ، بل لقد رفض أن يسمح للملك بدخول عسقلان عندما حاول ذلك (١٥) . وقد رد الملك على ذلك بعقد مجلس في بافا أعلن فيه عزل جاي لوزجان ، واختيار ريموند الثالث - أمير طرابلس وطبرية - وصيا على المملوكية وعلى بلدوين الخامس الصغير . وقد بادر ريموند بتعيين الأمير جوسلين الثالث دي كورتناي مشرفا على بلدوين الخامس ، لأن الأخير كان معتل الصحة ، فخشي ريموند عليه أن يموت فيتهم هو بالتخلص منه ليخلو له العرش .

والحق أن ريموند الثالث كان باعتراف المعاصرين جميعا أملح شخصية لأن يوجه أمور الصليبيين في تلك المرحلة الحرجة . وقد أشنى وليم الصوري على شجاعته وعقله . بل لقد أشار كتاب المسلمين الى مقدرته ومكانته ، وذكر بعضهم أنه مرشح لشغل عرش المملوكية . من ذلك أن الرحالة

William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, 497. (١٣)

Idem, Vol. 2, p.p. 501-502. (١٤)

Idem, p. 507. (١٥)

ابن جبير الذى زار بلاد الشام فى تلك الفترة - سنة ١١٨٤
قال عن الملك بلدوين الرابع :
" محبوب لا يظهر قد ابتلاه الله بالجذام ... وكبر الشان
فى الافرنجية اللعينة القومس اللعين (ريموند الثالث)
صاحب طرابلس وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الافرنج ، وهو
الموءهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . (١٦)
ومهما يكن من أمر ، فان بلدوين الرابع المجدوم لم يلبث
أن توفى فى مارس ١١٨٥ ، فتصرف الوصى ريموند الثالث بحكمة
وتعقل ، وعقد هدنة مع المسلمين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ -
١١٨٩) ، حتى يتمكن الصليبيون من تنظيم بيتهم .

على أن بلدوين الخامس لم يلبث أن توفى هو الآخر وهو
فى التاسعة من عمره فى اواخر اغسطس ١١٨٦ . وعندئذ اتضح
أن كثيرا من أمراء المملكة - فضلا عن هرقل بطريك بيوت
المقدس نفسه - كانوا يخشون بأس ريموند الثالث وسطوته ،
ويفضلون أن يعتلى عرش المملكة ملك ضعيف من شاكلة جاي
لوزجنان ، يسهل عليهم التلاعب به . وكان أن أخذ هؤلاء
يتصرفون بسرعة ، فأقنع جوسلين دى كورتنائى زميله ريموند
بالذهاب الى طبرية لدعوة أمراء المملكة هناك بعيدا عن
موءامرات المتآمرين ، فى حين تعهد جوسلين بنقل رفقات
بلدوين الخامس الى بيت المقدس ليدفن هناك . ولم يكـد
ريموند يرحل ، حتى انكشفت خيوط الموءامرة ، فأرسل جوسلين
بعض القوات لاحتلال صور وبيروت ، فى حين بقى هو فى عكا ،
واعلن سيبيل - أخت بلدوين الرابع وزوجة جاي لوزجنان -
ملكة . وسرعان ما سيطرت سيبيل وزوجها جاي لوزجنان على بيت
المقدس والموانى الساحلية ، وذلك بمساعدة جوسلين من
جهة ، وهرقل بطرق بيت المقدس واراناط صاحب الكرك من جهة
أخرى . (١٧)

(١٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٩ - تحقيق د . حسين نصار (القاهرة ، ١٩٥٥)
Estoire d'Eracles (Rec. Hist. Cr. Occ. II, (١٧)
p.p.25-28.

أما ريموند ، فقد اتجه بسرعة الى نالس ، والتف حوله عدد من الامراء ، وأعلنوا جميعا ان ما حدث لا يتفق ووصية الملك يلدوين الرابع . ولكن هرقل - بطرق بيت المقدس - سادر بتتويج سييل وزوجها جاي لوزجان في كنيسة القيامة . وعندئذ تسرب الامراء - واحد بعد آخر - الى بيت المقدس ليعربوا عن ولائهم للملك الجديد (١٨) .

وهكذا حدث سنة ١١٨٦ - أي قبل حطين بأقل من عام ان أعتلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ملك اختير لضعفه وتردده وعدم شاته . وترتب على هذا الاختيار شرح خطير في الكيان الصليبي ببلاد الشام ، لأن أمير طرابلس - وشاركه في ذلك بوهموند أمير انطاكية - لم يقبل ذلك الوضع ، فكيف كان ينتظر منهما أن يعملوا باخلاص تحت زعامة جاي لوزجان يوم حطين ؟؟

وعندما نذكر ريموند الثالث أمير طرابلس ، فانما نذكر أقوى أمراء الصليبيين جميعا في ذلك الدور - نور حطين - واكثرهم قدرة ، وأعددهم نظرا ، ولم يستطع ريموند ان يبصر على ما أصابه من جرح عميق نتيجة لتتويج جاي لوزجان ، وانما صم على الانتقام ، وكان انتقامه عنيفا ، خطير الاثر بالنسبة للجبهة الصليبية في فجر حطين ، فأرسل الى صلاح الدين يطلب معونته ، " وانتمى اليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرج صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصر" (١٩) وفعلا أمدته صلاح الدين بمعونة عاجلة ، مما جعل الملك جاي لوزجان يرد على ذلك بحشد جيوشه في الناصرة لمهاجمة طبرية ، وهي المدينة الصليبية التابعة لأمير صليبي يعتبر من الناحية التنظيمية فصلا لملك بيت المقدس . ولولا وساطة بعض أمراء الصليبيين بين

جاء لوزجان وريموند الثالث ، لحدث عندئذ صدام حربي بين هاتين القوتين الطيبيتين في الوقت الذي كان صلاح الدين يعبأ قواته لخوض المعركة الفاصلة ضد الصليبيين جميعا . ومع ذلك ، فان ريموند لم يهدأ " فراسل صلاح الدين وانتمى اليه ، على قول المؤرخ المعاصر ابن الأثير . (٢٠)

وكان أن دارت حروب متقطعة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس في ذلك الدور . ويأخذ وليم الصوري على الصليبيين في تلك الحروب سوء تخطيطهم وعدم محاولتهم استغلال الظروف القاسية التي كانت تحيط أحيانا بصلاح الدين وجيوشه ، مثل قلة الزاد وندرة الماء في بعض المواقف . بل لقد وصف وليم الصوري جيوش صلاح الدين عندئذ - قبيل حطين - بأنها تألفت من جموع كبيرة العدد تفيض حماسة ، ولكنها تفتقر الى الدراية بأساليب القتال وفن الحرب .

ولم يكن ريموند الثالث أمير طرابلس هو وحده الذي "قويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته ، وبت السرايا في بلادهم " (٢١) ، وانما فعلت ذلك - قبيل حطين مباشرة - زوجة أمير انطاكية ، ذلك أن بوهيموند الثالث أمير انطاكية كان قد طلق زوجته البيزنطية تيودورا كومنين ، وتزوج من أخرى اسمها أورجليز سنة ١١٦٨ ثم لم يلبث أن هجر هذه الزوجة الأخيرة سنة ١١٨٣ وعاش بين أحضان زوجة ثالثة اسمها سيبيل . ولم ترض الكنيسة ورجالها في أنطاكية عن ذلك الوضع ، فصدر قرار الحرمان ضد الأمير بوهيموند واتهم بزواج أكثر من امرأة في وقت واحد ، وهو ماتحرمه الكنيسة . ولكن بوهيموند لم يرضخ ، ووقع في عداة مريبير مع الكنيسة ، وربما مع المجتمع الصليبي في بلاد الشام بأسرها

(٢٠) المصدر السابق ، نفس السنة .

(٢١) William of Tyre, Op.cit., Vol.2, p. 472.

أما زوجته الأخيرة سبيل فقد عبرت عن نقيمتها على الكنيسة وعلى المجتمع الصليبي كافة بالاتصال سرا بصلاح الديسن ، وإطلاعه على تحركات الصليبيين وأسراهم أولا بأول . يذكر ابن الأثير أنها " كانت ترأس صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التي يوءثر علمها" (٢٢) . أما أبو شامة فيقول : " وكانت امرأة ابرنس انطاكية - وتعرف بدام (مدام) سبيل في موالة السلطان (صلاح الدين) ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلععه على أسراهم ، والسلطان يكرمها لذلك ويهدى إليها انفس الهدايا (٢٣) .

وهكذا حرمت مملكة بيت المقدس - قبيل حطين مباشرة - من معونة أقوى إمارتين صليبيتين على مسرح بلاد الشام . حقيقة أن أميرى أنطاكية وطرابلس اضطرا تحت تأثير الرأى العام الصليبي الى الانضواء تحت لواء مملكة بيت المقدس فى معركة حطين ، ولكننا نشك فى أن اسهامهما فى تلك المعركة كان اسهاما جادا بنية خالصة وانما جاء ذلك تخوفا من اتهامهما بالتقاعس عن نصره الصليب فى مواجهة خطر كاسح .

ويأسف ولیم الصورى لأن الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس أصيب قبيل موقعة حطين مباشرة - فى الوقت الذى كان صلاح الدين يحشد جيوشه لتلك الموقعة عند رأس الماء قرب طبرية - بحمى مفاجئة ، جعلت اسهامه فى معركة حطين اسهاما مبتورا ، مما حرم الصليبيين من جهوده وحسن يلائه (٢٤) .

وخلاصة القول أنه اذا كانت موقعة حطين سنة ١١٨٧ قد دارت وبلاد الشام فيها ثلاث وحدات صليبية كبرى ، هـى

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

(٢٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢٤)

مملكة بيت المقدس و امارتا انطاكية و طرابلس ، فان لنا
أن نتصور مدى ما أصاب الجبهة الصليبية من تصدع نتيجة
للشقاق الذى دب بين المملكة من ناحية و الامارتين
الصليبيتين من ناحية أخرى . و زاد من خطورة الأمر أن الشرخ
امتد الى الهيئات الدينية التى كان عليها أن تقف الى
جانب هذا الطرف أو ذاك من الاطراف المتنازعة . و قد رأينا
أن هرقل بطرق بيت المقدس اختار قبل حطين مباشرة أن يقف
الى جانب جاي لوزجنان ضد ريموند أمير طرابلس . و اذا ذكرنا
بطرق بيت المقدس ، فانما نعنى رجل الدين الاول فى المجتمع
الصليبي بالشام ، الذى يترأس الكنيسة فى مدينة المسيح ،
و يشرف على كنيسة القيامة أم الكنائس المسيحية ، مما جعل
لكلمته و رأيه وزنا فى قلوب جمهرة الصليبيين . حتى هيئات
الرهبان الفرسان التى طالما أبلت فى محاربة المسلمين لم
تستطع أن تظل بمنجاة من ذلك الصراع الداخلى ، فى الجبهة
الصليبية ، فقام الداوية بدور ملحوظ فى تأييد قيـام
جاي لوزجنان ملكا و ابعاد ريموند الثالث عن عرش بيـت
المقدس ، وهو أمر لم يغفره لهم امير طرابلس الذى كانت
لداوية ممتلكات و معاقل داخل حدود امارته و على مقربة منها .

و بالاضافة الى مكان هناك من شقاق بين امارتى انطاكية
و طرابلس من ناحية و مملكة بيت المقدس من ناحية أخرى ،
وجدت هناك انقسامات داخلية فى كل وحدة من هذه الوحدات
الثلاث . فكثير من أمراء المملكة المفروض فيهم أن يكونوا
أفضالا و اتباعا لملكها ، لم يكنوا له الاحترام الكافى .
و اذا كان بعضهم قد أيدوا قيامه فى الحكم فانهم فعلوا
ذلك لاعتقادهم انه أسس قيادة من ريموند أمير طرابلس .
و يكفى أن نشير الى سلوك أرناط أمير شرقى الاردن الذى
استمر حتى يوم حطين يعمل فى رعونة فى اتجاه مستقيل ،
غير عابى بالتعليمات التى يصدرها الملك جاي لوزجنان ،

متبعاً نفس السياسة التي اتبعها مع الملك بلدوين الرابع من قبل : هذا في نظره ملك ضعيف غير ثابت الرأي مهتـز الشخصية ، وذاك أيضاً ملك ضعيف بسبب مرضه وعدم قدرته على مواجهة الظروف . وفي ليلة حطين جاهر ارناط الامير ريموند بعدائه ، واتهمه بأنه يجامل المسلمين " ويريدهم ويميل اليهم " (٢٥) .

ولا أدل على التناقض داخل الجبهة الصليبية من أن امارة الجليل التي كانت جزءاً من مملكة بيت المقدس والتي كان مغروراً في أميرها أن يكون تابعاً لملك بيت المقدس ، كانت بما فيها مدينة طبرية من ممتلكات ريموند امير طرابلس والد اعداء ملك بيت المقدس .

أما انطاكية فكان أميرها بوهيموند الرابع في عداًء مريمع الكنيسة ورجالها بسبب علاقاته النسائية . ويحكى وليم الصوري أن بوهيموند أمير انطاكية لم يعباً لقرار الحرمان الذي أصدره بطرق انطاكية ضده . " وانتقم لنفسه بالاساءة الى البطريرك والاساقفة وسائر رجال الكنيسة ، كما انتهك حرمة الموءسات الكنيسية في امارته وكذلك الموءسات الديرية واستولى على ممتلكاتها . وقيل انه شرع فعلاً في محاصرة البطريرك ورجاله مما اضطرهم الى الهروب " . ولم يرض كثير من نبلاء انطاكية عن مسلك أميرهم ، فانشقوا عليه مما أوقع الامارة في حالة سيئة من الفوضى أحدثت شرخاً عميقاً في بنيانها . (٢٦)

هذه كلها تيارات داخلية مزقت الجبهة الصليبية قبيل موقعة حطين ، وكان لها أثرها في تحديد مصير تلك الموقعة . بالإضافة الى هذه التيارات هناك عوامل أخرى مساعدة أسهمت

(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ
William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, p. 454. (٢٦)

فى زعزعة الجبهة الصليبية فى تلك المرحلة . وعلى رأس هذه العوامل ينبغى ان نضع فى الاعتبار أن الاقدار شاءت أن تدور موقعة حطين فى وقت حرم الصليبيون من معونة أقرب القوى المسيحية اليهم ، وهى دولة الروم أو الدولة البيزنطية . ومهما يقل عن العداء المذهبى بين الصليبيين الغربيين الكاثوليك من جهة ، والروم البيزنطيين الارثوذكس من جهة أخرى ، ومن موقف القسطنطينية واباطرتها غير الودى من الصليبيين منذ وصول مقدمات الحملة الصليبية الاولى الى الشرق ، فان شمة حقيقة ينبغى ألا تغيب عن انظارنا عند دراسة الحركة الصليبية ، هى أن الروح الدينية عند المسيحيين جميعا شرقيين وغربيين - كانت فى حلقات معينة من تاريخ تلك الحركة تسمو فوق مشاعر الكراهية المذهبية . وقد حدث اكثر من مرة أن تعاون الارمن مع الصليبيين ، ووضع الصليبيون الغربيون ايديهم فى أبسدى الروم الارثوذكس ، وذلك على الرغم مما هو هناك من خلافات عميقة بين هذه الكنائس الثلاث . وكان محور التعاون فى تلك الحالات هو ضرب المسلمين سواء فى اقليم الجزيرة أو فى الشام أو فى مصر .

من ذلك أنه ماكاد نجم نور الدين محمود يبزغ على مسرح الشام ، وينجح فى ضم دمشق على طريق الجبهة الاسلامية سنة ١١٥٤ ، حتى بادر ملك بيت المقدس - بلدوين الثالث - الى محالفة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، وتاكيد الحلف عن طريق زواج الملك من ابنة أخ الامبراطور . وكان أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم الامبراطور بحملة كبرى ضد حلب ، الأمر الذى أزعج نور الدين ، فأرسل الى "ولاية الاعمال والمعاقل باعلامهم ماحدث فى الروم وبيعشهم على استعمال التيقظ والتاهل للجهاد فيهم" (٢٧) . ولم يكن

(٢٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٤ .
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٢٣ .

نور الدين عندئذ قد فرغ من مشاكله في بلاد الشام ، فوافق على عقد هدنة مع الامبراطور واطلاق جميع من كان لديه من اسرى الصليبيين الذين تراوح عددهم بين ستة آلاف وعشرة آلاف .

ومرة أخرى ماكاد نور الدين محمود يشبث أقدامه في مصر ويستولى على الموصل مما جعل الجبهة الاسلامية المتحدة تمتد من الفرات الى النيل - حتى أحس الصليبيون في الشام بأنهم غدوا مطوقين من الشمال والجنوب . وكان أن أبحر عموري الأول ملك الصليبيين في بيت المقدس الى القسطنطينية سنة ١١٧١ طالبا مساعدة امبراطور الروم في فك طوق الحصار الاسلامي على الكيان الصليبي بالشام . وكان أن تم التوصل الى اتفاق يقضى بالقيام بحملة مشتركة ضد مصر لطرد قوات نور الدين منها وتأمين الجبهة الصليبية. من ناحية الجنوب (٢٨)

ولم تحل وفاة عموري الأول دون استمرار الاتصالات بين القسطنطينية وبيت المقدس ، وخاصة بعد أن ظهر صلاح الدين على مسرح الأحداث في صورة القوة الضاربة التي أمسكت بزمام الامور في مصر والشام ، والتي أخذت تكيل الضربات للصليبيين حيناً في شمال الشام وأحياناً في جنوبه ، وفي هذه المرة جاءت الخطوة الاولى من جانب الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذي أرسل سنة ١١٧٧ سفارة الى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس المريض ، يعرض عليه احياء فكرة القيام بحملة مشتركة ضد مصر . ولكي يكسب الأمير عرضه صفة جدية ، أرسل الى عكا أسطولاً من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين للمشاركة في غزو مصر . ولكن الروم لم يلبثوا أن لمسوا عدم جدية الصليبيين في التنفيذ بسبب مرض ملك بيت المقدس واضطراب امور المملكة الصليبية ، فسحبوا اسطولهم (٢٩) .

William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, p.361. (٢٨)

Idem, p. 369. (٢٩)

وبهذه الروح ظلت دولة الروم والدولة البيزنطية تشكل درعا للصليبيين بالشام في فترات متقطعة ، رغم ماطفد على سطح العلاقات بين الطرفين أحيانا من عداوات بسبب الخلاف المذهبي حيناً وبسبب مشكلة أنطاكية أحيانا . ويثنى المؤرخ المعاصر وليم الصوري على امبراطور القسطنطينية مانويل كومنين ويمتدح سياسته تجاه الصليبيين وحبه للكاثوليك الغربيين وتسامحه معهم ، حتى غدت بلاده مقصد الكثيرين من كافة أنحاء الغرب الكاثوليكي (٣٠) .

ولكن شاءت الظروف أن تنقلب الأوضاع رأسا على عقب قبيل حطين ، إذ توفى الامبراطور مانويل كومنين المتعاطف مع الصليبيين ضد المسلمين سنة ١١٨٠ ، فخلفه لمدة ثلاث سنين ابنه الامبراطور الكسيوس الثاني كومنين (١١٨٠ - ١١٨٣) وكان الكسيوس هذا صبيا في الثالثة عشر من عمره عندما اعتلى عرش الامبراطورية ، فقامت بالوصاية عليه أمه وابن عمه . وفي تلك الفترة القصيرة حدث تحول جذري في سياسة الامبراطورية تجاه المسلمين والصليبيين جميعا ، فتم إرسال مبعوث من القسطنطينية الى القاهرة سنة ١١٨٠ - ١١٨١ عقد صلحا مع صلاح الدين . وفي هذا الملح أطلق الامبراطور الجديد سراح مائة وثمانين أسيرا من أسرى المسلمين كانوا في حوزة الروم (٣١) .

ثم كان أن حدث الانقلاب الكبير في فجر موقعة حطين ، إذ قامت ثورة عنيفة في دولة الروم أو الدولة البيزنطية ، شارك فيها بعض كبار رجال الدولة ، وتزعما اندرونيق كومنين الذي تمكن من اعتلاء عرش الامبراطورية (١١٨٣ - ١١٨٥) .

(٣٠) Idem; Vol.2, p. 461.
(٣١) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ .

ومنذ اللحظة الاولى أظهر أندرونيق عداء شديدا للكاثوليك الغربيين ، فطاردهم فى شتى أنحاء دولته ، واضطروا الى الفرار فى السفن الى الجزر والبلاد القريبة مما انعكست صورته بوضوح على العلاقة مع الملبين بالشام (٣٢).

وزادت العلاقات سواء بين دولة الروم والمليبيين بالشام عندما اعتلى عرش الامبراطورية اسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥) وهو الامبراطور الذى واكب عهده أحداث حطين ، فاستمر على سياسة سلغيه المباشرين فى الحفاظ على حسن العلاقة مع صلاح الدين من ناحية ومعاداة الملبين الكاثوليك من ناحية أخرى . ولانالغ عندما نقول ان هذا الامبراطور نظر بعين الارتياح الى ما حصل بالمليبيين فى حطين ، وما عقب ذلك من استيلاء المسلمين على بيت المقدس ، لأنه رأى فى ذلك فرصة لاستعادة هيمنة الكنيسة الارثوذكسية على الأماكن المسيحية المقدسة .

وقد تواتر فى المصادر المعاصرة أن صلاح الدين بادر عقب فتحه بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس تخبره بما تم على يديه من الفتوح، وليسلم اليه مائة وتسعين من رعايا الدولة البيزنطية كما كانوا قد وقعوا فى يده أثناء حروبه ضد الملبين . وكان أن رد عليه الامبراطور البيزنطى مهنتا (٣٣) مطالبا بوضع كنيسة القيامة وغيرها من الاماكن المسيحية المقدسة تحت اشراف رجال الدين الارثوذكس الذين تعينهم حكومتهم القسطنطينية ، ويعقد اتفاق بين صلاح الدين والامبراطور "على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه" (٣٤)

William of Tyre: Op.cit., Vol.2, p.p.466-467 (٣٢)

(٣٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٨ .

(٣٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٤٠ .

هذا هو موقف دولة الروم أو الامبراطورية البيزنطية وحكامها من الصليبيين والمسلمين ابان معركة حطين ،.....
ورحم الله سياسة الامبراطور مانويل كومنين الذى صاهر ملك بيت المقدس الصليبي والذى دخل معه فى مشاريع لضرب المسلمين فى مصر والشام ، بل الذى أرسل فعلا قوة بحرية ضاربة الى عكا لمشاركة الصليبيين فى غزو مصر .

ولكن هكذا شاءت الاقدار أن يدخل الصليبيون معركة حطين وقد حرموا من مساعدة أقرب القوى المسيحية فى الشرق اليهم . وبعبارة أخرى ، فان الصليبيين خاضوا معركة حطين وهم مقطوعون عن بقية العالم المسيحى ، ففى الشرق لا حلف ولا نصير ، ومركزهم فى الغرب بعيد فى عصور ضعفت وسائل الاتصال والانتقال ، بحيث لم يسمع الغرب باخبار حطين الا بعد أن وقعت الواقعة .

لقد كان الصليبيون فى الشام أشبه بجزيرة منقطعة وسط محيط اسلامى واسع . وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يستطيع الاعتماد على ركائز قوية فى مصر وفى اقليم الجزيرة فضلا عن شمالي الشام ، كان الصليبيون فى بلاد الشام بعددين عن نجدة سريعة تنقذهم مما هم فيه . وقد حدث أكثر من مرة أن أرسل صلاح الدين وهو بالشام الى نائبه بمصر يأمره بالخروج على رأس الجيوش من مصر للضغط على الجهة الصليبية من ناحية الجنوب (٣٥) .

كذلك كانت الاساطيل المصرية فى موانئ دمياط والاسكندرية رهن اشارة صلاح الدين لتخرج الى مياه الشام تساعد فى احكام الحصار على مدينة ساحلية أو تخفف وترفع الحصار عن مدينة أخرى تعرضت لهجوم الصليبيين (٣٦) . أما الصليبيون فكانوا لا يستطيعون الحصول على معونة من الغرب

William of Tyre: Vol.2, p. 476. (٣٥)

ابن واصل : مغرغ الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .
(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

الا بعد اتصالات قد تستغرق أشهرا طويلة . وهذه كلها دون شك عوامل ساعدت فى تحديد مصير الصراع الذى دار بين قوات صلاح الدين والمليبيين فى حطين .

* * *

ويعد ، فانه من حق شهداء حطين وأبطالها علينا أن نترحم عليهم ، وأن نمجد روح الجهاد فى سبيل الله التى دفعت المسلمين - أتراكا وكراديا وعربيا وتركماني - الى الوقوف يوم حطين جنبا الى جنب كأنهم بنيان مرصوص ، ترفرف من فوقهم راية لا اله الا الله محمد رسول الله ، وقد ندوا جميعا وراء ظهورهم متاع الحياة الدنيا ، وهجروا ديارهم واولادهم ونساءهم ، لا يذكرون شئا الا الجهاد والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله ... حتى حقق الله لهم النصر والغتخ المبين .

ولكن من حق التاريخ علينا أيضا ألا ننسى وجود عوامل مساعدة أسهمت فى تحديد مفاصل معركة حطين . ومرة أخرى نقول ان التاريخ لا ينفى مطلقا أن ينظر اليه بعين واحدة . التاريخ الصادق له عينان .

* * *

مئذنة بلا مسجد

دراسة عن المئذنة المستقلة المنسوبة الى جامع
الامير قراقجا الحسى بحارة السادات المتفرعة
من درب الجماميز بالقاهرة
د. حسنى نوييسر
كلية الآثار - جامعة القاهرة

تمهيد :

ورد بكراسات لجنة حفظ الاثار العربية معلومات هامة
عن المئذنة المنسوبة الى جامع الامير قراقجا الحسى الذى
يرجع تاريخه الى سنة ٨٤٥ هـ يدرب الجماميز بالقاهرة .
وهى معلومات تلقى الضوء على وضع هذه المئذنة وماحولها
من مساكن حديثة لاتمت صلة الى المئذنة أو المسجد الاثرى.
فقد ذكر فى تقرير اللجنة رقم ٣٤٩ مجموعة ٢٣ لسنة
١٩٠٦ م مايلى :-

" عرض على القسم الفنى بلجنة حفظ الاثار العربية طلب من
شخص يدعى عثمان حسن للترخيص له ببناء بيت ملائق لمنارة
الجامع . وحيث أن البيت يحيط بالمنارة من جوانب ثلاث
والجهة الرابعة مظللة على حارة السادات ، وحيث أن المئذنة
منفصلة عن الجامع ، وحيث كان دخولها فى بناء ملك الغير
مما تكثر مضاره ، فضلا عن تعذر الوقوف على ماطرأ على
أساساتها من أسباب الخلل والسقوط وأستحالة اجراء عمليات
المرمة والتقوية .

لذلك يرى القسم الفنى عدم الترخيص بى بناء جديد
تصل بالمنارة والنظر فى عزلها عن البناء .

ويستطرد التقرير فيذكر أن بناء المارة غريب فى
بناه بل نادر لانها منعزلة عن الجامع بواسطة الحارة
وتتمل به عن طريق معبره مطروحه فوق سطح الجامع ، وكانت

هذه الحارة من الحواري التي تغلق قدما بواسطة ساس
لاتزال آثاره موجودة في سفلى المنارة والجامع . وحيث
أن التنظيم المزمع وضعه يأخذ جزءا من الواجهة البحرية
للجامع وجانبها من الواجهة البحرية للمنارة لتركها
بارزة في وسط الطريق ، لذلك ولحرص القسم على حفظ هذين
الأشرفين مما يرى أن يطل من نظارة الأشغال تعديل خط
تنظيم الحارة واعتبار واجهة الجامع حدا من الجهة
القبلية تبعا لذلك الحد المقابل من الجهة الأخرى وتبعد
بعدا كافيا عن الواجهة البحرية للمنارة . وفي هذه الحالة
تنزع ملكية القطع المجاورة من جميع الجهات إلا الجهة
القبلية . فإذا لم توافق مصلحة التنظيم على ذلك تنزع
ملكية قطعة من الأرض بعرض ١٥ م من جوانب المنارة الثلاث
لأجل أنعزالها تماما .

وفي التقرير رقم ٣٥٩ لسنة ١٩٠٦ م الفقرة (٥) محضر
١٤٧ ص ٩٠ - عدلت نظارة الأشغال العمومية خط التنظيم
حول المنارة وأبقتها خالية من جوانبها من الأبنية على
مسافة مترين .

الدراسة

يجمع كل من تناول جامع الأمير قراقا الحسنى بالبحث (١)
على ربط المئذنة التي تقع بالجهة المقابلة له على حارة
السادات - بمنشآت الجامع الكبير الذى شيده الأمير قراقا

(١) على مبارك : الخط التوفيقية ج ٥ ص ٧٦
، سعاد ماهر (الدكتور) : مساجد القاهرة ج ٤ ص ١٤٢
عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) : وشيخة الأمير قراقا
الحسنى - دراسة ونشر وتحقيق المجلد ١٨ ج ٢ صفحات
١٨٣ - ٢٥١ ديسمبر ١٩٥٦ م .
حسن جوده (الدكتور) : مساجد أمراء جقمق صفحات
٣٨ - ٣٩ .
Abou - Seif (D.), The minarets of Cairo, p.
124, fig. 58.

الحسنى عام ١٨٤٥هـ / ١٤٤١ م / ٤٢م أشر رقم ٢٠٦ وذلك على الرغم من أنه يفصل بين المئذنة والجامع حارة السادات ويعزو البعض هذا الانفصال^(٢) بين بدن المئذنة وبقية مساحة الجامع بعدم وجود موقع متميز أو ممكن لنساء المئذنة ضمن المساحة الكلية للجامع^(٣). ولكن بدراسة وثيقة الامير قراقجا الحسنى التى قام بنشرها أستاذنا الفاضل الدكتور عبداللطيف أبراهيم^(٤) سنة ١٩٥٦ م - تبين لى أن هذه المئذنة لانتخى الجامع الكبير الذى شيده الامير قراقجا الحسنى بل كانت ضمن كيان آخر عبرت عنه وثيقة الامير بأنه " مسجد^(٥) وسيل " . وكان هذا المسجد من النوع المعلق الذى يصعد اليه بعدد من الدرج وفى أسفله عدد من الحوانيت^(٦) كما أنه كان يشتمل على سبيل^(٧) ظل موجودا حتى العصر الحديث . وقد أندثر المسجد وكذا السبيل الملحق به بينما بقيت المئذنة صامدة الى اليوم . ومن خلال الدراسة التى أقدمها فى هذا البحث سأحاول أن أثبت أن المسجد المعلق القديم هو صاحب المئذنة وليس جامع قراقجا الكبير كما هو متفق عليه بين جمهرة الاثريين وذلك للأسباب التالية : -

- (٢) حسن جوده (الدكتور) : المرجع السابق ص ٤٠
(٣) تعجب المرحوم حسن قاسم من ذلك فقال " يلغت النظر فى هذا المسجد (يقصد قراقجا) مئذنته الظاهرة الغربية فى استقلالها عن الجامع وخروجها عنه مباشرة مما لا يوجد لدينا نظيره الا فى جامع منجك بالحطابة وجامع شمس الدين بالمحلة . وهذه المئذنة وان كانت تظهر فيها بعض المخالفة عن المألوف من مآذن العصر الآن الادعى للتأمل فيها استقلالها (انظر) : حسن قاسم : المزارات ص ١٠٩ ، محمد عبدالستار (الدكتور) نظرية الوظيفة بالعمائر الدينيه ص ٢٤٥
(٤) انظر الحاشية رقم (١) من هذا البحث .
(٥) الوثيقة : سطر ٦١
(٦) الوثيقة : سطر ٥٦
(٧) على مبارك : الخطط ج ٣ ص ١١

أولا : من حيث الموقع :-

يوصف موقع جامع قراقجا الحسنى فى وشيقة الامير بأنه " بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى زويلة والخرق بخط المسجد المعلق^(٨) بدرب الغنامة على يمنا السالك من درب النيدي طالبا جامع شتاك وغيره " .
وفى عصر بناء الجامع (سنة ٨٤٥هـ) كان يتوصل الى خط المسجد المعلق عبر قنطرة " طقزدمر^(٩) " التى يتوصل منها الى البر الغربى للخليج المصرى والى حكر طقز دمر .
ثم عرفت هذه القنطرة بعد ذلك بقنطرة " درب الجماميز^(١٠) .
ولما ردم الخليج عام ١٨٩٨م أختفت هذه القنطرة .
وموقعها اليوم عند نقطة التقاطع بين شارع بورسعيد^(١١) مع شارع درب الجماميز وشارع السلطان الحنفى بالقرب من حى السيدة زينب . ومن الواضح أن المسجد المعلق كان أقدم فى بنائه من جامع قراقجا الكبير بدليل أن موقعه يتعين من خلال المسجد المعلق^(١٢) . ولكن الى من ينسب المسجد المعلق صاحب هذا الخط الذى عين موقع قراقجا الحسنى عليه اختلفت الروايات فى نسبة هذا المسجد المعلق وموقعه ، فذكر على باشامبارك^(١٣) أن المقصود بالمسجد المعلق

(٨) الوشيقة : سطور ١٢ : ١٣

(٩) يذكر المقرئى فى خطه أن هذه القنطرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق (انظر) الخطط ج ٢ ص ١٤٧ أنشأها الامير طقزدمر الحموى أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون ليمر من عليها الى حكره ، وتزايدت العمارة فى هذا المكان بعد بناء القنطرة فسكن به الاجناد وكثر بناء المساجد فيه . الخطط ج ٢ ص ١١٦ : ١١٧ .

(١٠) عبدالرحمن زكى (الدكتور) : القاهرة تاريخها وآثارها ص ١١٩ .

(١١) محمد رمزى تعليقات حواشى النجوم الزاهرة

(١٢) الوشيقة : سطور ١٢ : ١٣

(١٣) على مبارك : الخطط ج ٤ ص ٧٩ .

الوارد في المصادر التاريخية هو جمع "حارس الطير (١٤)".
الذي سناه الامير سيف الدين أسنغا في عصر النصر محمد (١٥)
بن قلاوون، وأن هذا الجامع - كان - بدر الجماميز ولسه
منارة وجواره ثلاثة حوانت موقوفة عليه وشعاره مقامة.
وعدة المقريزي من الجوامع التي تجدد بعد الثمان مائة،
وموقعه في رأس حارة النيدي.

وقد وافقه على هذا الرأي أسنادى الدكتور عبد اللطيف
ابراهيم (١٦). بينما يرى المرحوم حسن قاسم (١٧) أن منشى
المسجد المعلق هو الامير بكتمر السعدى المعروف بحارس

(١٤) أورد على مبارك ترجمة لهذا الامير نقلا عن المقريزي
حينما تكلم عن دار حارس الطير اسنغا الذي ترقى في
الخدمة في عهد الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار نائبا
للسلطنة في عصر الناصر حسن ، ثم عزله ، ثم تعين بعد
ذلك في نياة غزة فأقام بها شهرا ، ثم قي عليه
واحضر مقيدا الى الاسكندرية سنة ٧٥٢هـ فسجن بها ، ثم
اخرج فأقام بها بطالا ، ثم نقل الى نياة غزة سنة ٧٥٦هـ
(انظر) الخطط التوفيقية ج ٤ ن ٧٩ .

(١٥) حكم مصر ثلاث فترات هي: ٦٩٣هـ، ٦٩٨هـ، ٧٠٩هـ: ٧٤١هـ
١٢٩٣م، ١٢٩٩م، ١٣١٠م: ١٣٤٦م (انظر)
احمد السعيد سليمان (الدكتور): تاريخ الدول الاسلامية ص ١٦٢
أما عن وظيفة حارس الطير التي تكلم عنها المقريزي
فانه لم يرد لها كتابات منقوشة على الاثار وذلك لقله
شأن هذه الوظيفة. وقد أورد عنها أسنادى الدكتور حسن
الباشا مرادفا لهذه الوظيفة باللغة الفارسية فذكر أن
"حواندار" أصله "حيوان" العربية ودار الفارسية ، بمعنى
ممسك والمعنى الكلى ممسك الحيوان ، والجمع "حواندارية"
وهو من ارباب الوظائف من الاتباع والحواشي والخدم .
وعرفت هذه الوظيفة في العصر المملوكى وكان صاحبها يتصدى
لخدمة طيور الصيد من الكراكي وغيرها ويحملها الى مواضع
تعليم الجوارح (انظر): حسن الباشا: الفنون والوظائف ج ١ ص ٤٣٢

(١٦) عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور): المرجع السابق ص ٢٢٢ تحقيق رقم ٤

، عبد الرحمن زكى (الدكتور): موسوعة مدسنة القاهرة ص ٢٢٨ .

(١٧) حسن قاسم: المزارات ص ١٣٥ .

الطير المؤيدى (١٨) ثم الاشرفى (١٩) سنة ٨٢٦ هـ وذلك استنادا الى معلومة وردت عن أحد شيوخ هذا المسجد التقطها من المؤرخ السخاوى (٢٠) حيث ذكر أن " الشيخ عبد القادر بن عمر عين فى مشيخة بكتمر بدرب النيدى مما يؤكد - من وجهة نظر الاستاذ حسن قاسم - أن المقصود بحارس الطير هو الامير بكتمر السعدى .

وأورد لنا صاحب كتاب النجوم الزاهرة (٢١) ترجمة وافية للامير بكتمر السعدى فذكر " انه أحد أمراء الطبلخانات - أمير أربعين - بالديار المصرية ، رومى الجنس ، تربى فى دار استاذة سعد الدين (٢٢) بن غراب ، وأنه كان فقهيا بارعا فى العربية والتركية شجاعا عارفا بالفروسية توفى يوم الخميس ١٣ ربيع الاخر سنة ٨٣٠ هـ .

وحدد الاستاذ حسن قاسم (٢٣) موقع المسجد المعلق - من وجهة نظره - بأنه فى مقابل جامع وسيل يوسف الكردى أشر رقم ٢١٣ الى جانب المنزل رقم ١٠ وأنه مثخرب وأطلاله ماثلة . وفى تصورى أن الاستاذ حسن قاسم قد جانبه الصواب أيضا فى تحديد موقع المسجد المعلق وكذا تحديد صاحبه أو منشئه .

-
- (١٨) المؤيدى نسبة الى السلطان المؤيد شيخ المحمودى .
(١٩) الاشرفى نسبة الى السلطان الاشرى برسباى الدقماقى .
(٢٠) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٨٢ .
(٢١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ١٥ صفحات ١٤٧ : ١٤٨
(٢٢) لهذا الامير خانقاه بشارع بورسعيد باقبة (انظر) فهرس الاثار الاسلامة تاريخها ٨٠٣/٨٠٨ هـ - ١٤٠٠م من فترة حكم السلطان فرج بن برقوق اشر رقم ٣١٢ .
(٢٣) حسن قاسم : المزارات ص ١٣٥ .

فمن حيث صاحبه فهو الامير قراقجا الحسنى الذى دلت حجة وقفه على جملة الكبير على أنه هو نفسه صاحب المسجد المعلق ومن أنشأه .

وأما موقعه أى المسجد المعلق فكان فى موقع المئذنة المتبقية منه ، وكان لهذا المسجد واجهتين أحدهما تطل على الشارع السالك^(٢٤) (درب الجصمير) الحالى والاخرى تطل على درب^(٢٥) جهركس أو (حارة السادات) الحالية .

وفى الدراسة التالية سأفرد السطور التى وردت بوشيقة الامير قراقجا الحسنى والتى سبق أن نشرها أستاذى الفاضل الدكتور عبداللطيف أبراهيم^(٢٦) بما يفيد فى تحديد أسم منشئ هذا المسجد وكذا موقعه بما نصه :-

سطر ٤٩ وجميع المكان الكامل
سطر ٥٠ أرضا وبناء انشاء الواقف المشار له فيه
وعمارته الكاين بالخط المذكور تجاه المكان
الموصوف^(٢٩) .

-
- (٢٤) الوشيقة : سطر ٥١
(٢٥) الوشيقة : سطر ٥٦
(٢٦) أنظر الحاشية رقم (١) من هذا البحث .
(٢٧) تفيد هذه العبارة أن هذا المكان بكامله من انشاء الامير قراقجا الحسنى وليس مرمة أو تجديدًا بل هو انشاء جديد .
(٢٨) المقصود بذلك الخط هو خط المسجد المعلق (أنظر الحاشية رقم ٩ من هذا البحث)
(٢٩) يقصد الكاتب بذلك الجامع الكبير الذى شيده الامير قراقجا الحسنى عام ٨٤٥ هـ ولا يزال موجودا بحالة طيبة بشارع درب الجصمير أثر رقم ٢٠٦

- سطر ٥١ المحدود أعلاه شتمل على واجهتين مستنيتين بالحجر
الفص النحت (٣٠) أحدهما شارعة بالطريق السالك
بها بانان .
- سطر ٥٢ أحدهما مربع (٣١) نعتبه سفلى كدانا وعليا حجر (٣٢)
ماء عليه فردة باب يدخل منه الى سلم يصعد من
عليه الى .

-
- (٣٠) الحجر الفص النحت : نوع من الحجر المصهذب استعمل في
العمائر المملوكية ذات الشأن يكون على هيئة مداميك
من اللونين الابيض والاحمر ، وقد ورد في معظم وثائق
عبد المليك التي تناولت وصف المعمار (انظر) .
عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) : المرجع السابق ص ٢٢٣ .
- (٣١) الساب المربع : هو الساب ذو العقد المستقيم أو العتب
المستقيم أى ليس مقنطرا عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور)
دراسات تاريخية وأثرية ص ٣١ ، ٧١ .
- (٣٢) يقصد الكاتب بذلك أن العتب العلوى كان من الحجر
المليس بالرخام ، وقد ورد هذا المصطلح بعدة صيغ
أخرى منها عتب موشح بالرخام - عتب مليس بالرخام -
حفر وتنزيل - حفر ودفن . وكانت العادة رسم الشكل
المطلوب على الحجر والرخام ثم ازالة طبقة منسه
عمقها ٥ رسم ، ثم ينزل الرخام مكانها ملصقا على
وسادة من الجص (انظر) عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور)
وشيقة قراقجا ص ٢٢٤ .
- وقد عرفت هذه الطريقة في عصر السلطان برساي واستعاض
المعمار بها عن التلبيسات الرخامية الحقيقية لقلو
ثمنها وصعوبة تنفيذها فبدأت تظهر على منشآت الامراء
أمثال جاني بك في مسجده بالمغربلين (٨٣٠هـ - ٢٧/١٤٢٦
أثر رقم ١١٩ ومدرسة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلة
(٨٣٠هـ - ٢٧/١٤٢٦ أثر رقم ١٩٢ ، كما توقيع لواحد
من صناع هذه الطريقة الذين عاشوا في العصر المملوكى
الجركى هو " عبدالقادر النقاش " الذى وقع باسمه
على ايوان القبلة بمسجد قمصاى الاسحاقى بالدرب الاحمر
(٨٦/٨٨٥ هـ - ٨١/١٤٨٠ م) أثر رقم ١١٤ (انظر) :
حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد ج ٢ شكل ٠٩٦ غير
أن هذه الطريقة أفسدت كثيرا من الواجهات الاثرية
بسبب تساقط مادة المعجون لتعرضها للشمس والرطوبة
(انظر) حسنى نويصر : مدرسة الامير فيروز الساقى
ص ١٧٧ شكل ٦ .

سطر ٥٣ ثلاثة أروقة يشتمل كل منها على منافع (٢٢) وحقوق
وطبقة (٢٤) مرحلة (٢٥) وأغاني (٢٦) وسطح ومرحاض

مسقف نقبا

سطر ٥٤ مدهون حريريا مفروش الارض بالبلاط مسبل للجسدر
البياض (٢٨) سطات مطلات على الطريق سفل ذلك
حانوتان .

-
- (٢٣) هي المرافق الخدمية التي تلحق دائما بالمناطق السكنية من دورات المياه والحمامات ودخلات الازييار وما الى ذلك مما يحتاجه المقيم .
- (٢٤) الطبقة : تكون غالبا حجرة أو خزانة أو حجرتين للنوم توجد بهما طاقات للتهوية والاضاءة ، وقد يعلو الطبقة مسروقة . عبد الطيف ابراهيم : المرجع السابق ٢٩
- (٢٥) الطبقة المرحلة : هي طبقة مرتفعة قليلا بلاسلم أولعلها طبقة فيها رسوم حاشطية ذات صور للرجال (انظر) المرجع نفسه : ص ٢٣٤ . وقد يكون المقصود بذلك (طبقة مرحلة) بالحاء أى بعده عن بقية المنطقة بمعنى أن تكون منعزلة عن بقية الأروقة .
- (٢٦) الاغاني وجمعها أغانيات : لهذا المصطلح عدة أشكال منها ممرات علوية ذات مقاعد خلف نوع من المشربيات الخشب الخرف تحجب الجالس خلفها ، وتكون متقابلة وتطل على الدور قاعة أو الايوان الذي تعلوه . وقد تشتمل الاغاني على حجرات صغيرة ذات طاقات ومرحاض . وكانت تفرش بالبلاط وتسبل جدرها بالبياض وتسقف بالخشب . وقد تطل الاغاني من ناحية أخرى على الشارع وعلى حديقة - المرجع السابق ص ٢٢٢ . والاغاني في هذا الاثر المدارس كانت تطل على حوش كشف حوله عدد من الحواصل .
- (٢٧) الدهان الحريري : مصطلح عند أرباب النجارة يدل على جودة الصناعة ودقة التلوين فالسقف أملس كالحرير ويرجع ذلك الى استعمال الزيت في دهان الخشب المصقول وبعد أن يمتص الخشب الزيت يرسم على سطحه الزخارف النباتية والهندسية الملونة ثم يغطى بطبقة رقيقة من الشمع تجعله أملس كالحرير . المرجع السابق ص ٢٢٢ : ٢٢٣ .
- (٢٨) المقصود بمصطلح مسبل الجدر بالساض أى مغطى بالملاط المرجع السابق ص ٢٢٤ .

- سطر ٥٥ وبهذه الواجبة أيضا حانوتان ويشتمل كل من الحوانت
المذكورة على مصطبة (٣٩) وداخل وأغلاق والواجهـة
سطر ٥٦ الثانية بدرب جهركس (٤٠) بها بان أحدهما مربع
بعثة سفلى كدانا وعلبا حجر ماء يدخل منه السى
دهليز يتوصل منه .
سطر ٥٧ الى مسجد (٤١) والى سبيل (٤٢) به صهريج (٤٣) مبنى فى
تخوم الارض على فوهته (٤٤) خرزه رخاما بسقف معرق
بالذهب وهو معقود ثلاث

- (٣٩) كانت الحوانيت فى العصور الوسطى غير مسامته للطريق
العام بل لها أرضية مرتفعة عنه بمقدار متر على هيئة
مصطبة يفرش عليها البائع بضاعته ويغلق على واجهـة
الحانوت أبواب تستخدم فى بعض الاحيان ك مظلة للحانوت
تحميه من حرارة الشمس ومطر الشتاء . وكانت المصاطب
تبنى من الحجر أو من الاجر . وكان المحتسب يراعى
نظافتها وعدم خروجها على خط التنظيم حتى لا يضر المار
ولا الجار (انظر) عبداللطيف ابراهيم (الدكتور) :
المرجع السابق ص ٢٢٤ .
(٤٠) المقصود بذلك الدرب حاليا حارة السادات المتفرعة
من شارع درب الجمايز .
(٤١) هذا هو المسجد المقصود ، وهو مسجد معلق كما سياتى
فى سطور الوثيقة ، يوجد بأسفله عدد من الحوانيت
سأتناولها بالافراد فى هذا البحث .
(٤٢) كان هذا السبيل موجودا حتى زمن على مبارك (١٨٢٣ /
١٨٩٣م) وذكره فى خطه ج ٣ ص ١١ الا أن هذا السبيل
غير موجود حاليا وأن أخبرنى بموقعه بعض المسنين من
أهل المنطقة وهو نفس الموقع الذى حددته الوثيقة
الشرعية للامير قراقجا الحسنى (انظر) المسقط الافى
بشكل ٣ من هذا البحث .
(٤٣) يتكون السبيل من ثلاثة مستويات أولها الصهريج ويبنى
فى تخوم الارض وثانيها حجرة التسبيل المعدة للشرب
والثالث يكون كتاب لتعليم أيتام المسلمين . ويغضى
الصهريج عادة قباب ضلعة مقامة على قناطر وأكتاف
(انظر) : حسنى نصير : مدرسة جركسية ص ٣٢ حاشية (٥)
(٤٤) الخرزة : قطعة مستديرة من الحجر أو الرخام يغطى
بها فوهة الصهريج (انظر) حسنى شويصر: سبيل
السلطان قايتباى ص ١٢ .

سطر ٥٨ قيب وقنطرتان وبالمسجد المذكور محراب لطيف (٤٦)
قوصرة كرىدى (٤٧) مفروق (٤٨) بالذهب وبه ثلاث
كتيبات (٤٩) وشاكان حديدا
سطر ٥٩ يعلو ذلك قمریات (٥٠) زجاجا وبالسيل المذكور
شباك كبير برسم سقى الماء يعلوه شرفات خشبا
مدهون ويعلوا

- (٤٥) تسمى قباب الصهاريج فى الوشائق المملوكية بالقباب
المقالى وهى من النوع الضحل تحمل على قناطر واكتاف
عبد اللطيف أبراهيم الدكتور : دراسات فى الاثار ص ٤٦١
- (٤٦) المقصود بذلك أن المحراب صغير على واجهته حنيصة
معقوده (قوصرة) كما توضع على واجهة الايوان قوصرة
كبيرة من الحجر المشهر . عبد اللطيف أبراهيم : وثيقة
قراقجا الحسنى ص ٢٢١ .
- (٤٧) الكردى : حلية كانت تستخدم لتزيين الايوانات فيوجد
على المدخل كردان متقابلان متماثلان بحملان معبصرة
من الخشب ، وينتهى الكردى بذيلى مقرنص أو تاريخ
أو جورنق وقد يكون ساذج بدون قرنصة . عبد اللطيف
أبراهيم (الدكتور) دراسات ص ٤١ . والحق أن كاتب
الوثيقة لم يوفق فى التعبير عن هذه المنطقة فظهرت
العبارة غامضة حيث أدمج القوصرة مع الكردى مع
أن القوصرة خاصة بالمحراب والكردى خاص بالواجهة
التي تطل على الصحن أو المجاز . وقد عرف هذا النوع
من الكردى فى عصر السلطان برسباى فظهر فى منشآت
بعض أمرائه مثل الأمير فيروز الساقى فى أيوان القبلة
حسنى نوبصر : مدرسة فيروز ص ١٧٢
- (٤٨) مفروق بالذهب : مصطلح يفيد أن هذه الكردى الخشبية
جلدت بالذهب .
- (٤٩) الكتبية : جمعها كتيبات وهى الدواليب الحائطة فى
المسجد أو المدرسة لحفظ المصاحف والمربعات الشريفة
(انظر) وثيقة قراقجا ص ٢٢٦
- (٥٠) القمریات : مفردھا قمرية وهى شبابيك من الجص المخرم
أو الحجر أو الخشب ، وقد تكون مستديرة أو مقنطرة
وقد تعشق بالزجاج الملون (انظر)
عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) دراسات فى الاثار
الاسلامية ص ٣٤٧

- سطر ٦٠ الحانوتان المجاوران للصهريج رواق يشتمل على
ايوان ودور قاعة (٥١) وخزانة (٥٢) ومرتبه (٥٣)
وكرسى (٥٤) خاصه وأغانين (٥٥)
- سطر ٦١ ومطبخ وطبقة وسطح ويعلوا ظهر الصهريج (٥٦) والمسجد
والقاعة الاتى (ذكرها) فيه معالم رواقين لسم
تكمل عمارتهما والباب
- سطر ٦٢ الثانى من البابين (الثانين) مقنطر بعتبة سفلى
كدانا يدخل منه الى دهليز بمصطبة بصدرة مفسروش
بالسلاط مسقف (٥٨) لوحا

-
- (٥١) الدور قاعة : مساحة موجودة بين رواقين أو ايوانين
يكون سقفها أعلى من بقية أسقف الأروقة أو الإيوانات
المحيطة به . عباس حلمى (الدكتور) تطور المسكن ص
١٦٢ وعن مصطلح (دور قاعة) أنظر : محمد هندادوى :
المعجم فى اللغة الفارسية ص ١٤٨ .
- (٥٢) الخزانة : قد تكون دولا حائطى أو تكون غرفة نومية
ملحقة بالايوان .
- (٥٣) المرتبة : مصطلح له معان كثيرة منها : دخله فى
ترتفع أرضيتها عن أرضية الدور قاعة . عبداللطيف
أبراهيم : المرجع السابق ص ٢٣٥ .
- (٥٤) المقصود بذلك أن هذا الايوان مخصص له كرسى مراحض
تأج له .
- (٥٥) سبق التعليق على هذا المصطلح فى رقم (٣٦)
- (٥٦) تعبير خاطئ من كاتب الوثيقة ، إذ المفروض أنه
يعلو ظهر السبيل وليس الصهريج لان الصهريج مبنى فى
تخوم الأرض وفوقه غرفة السبيل .
- (٥٧) الباب المقنطر : عكس المربع ، والمقنطر ينتهى بشكل
عقد أيا كان نوعه . المرجع السابق ص ٢٣٦ .
- (٥٨) مسقف لوحا وفسقية : نوع من السقوف جيدة الصنع ، يكون
بسط وفى وسطه فسقية أو صرة مربعة أو مشمنه ، وقد
يكون فى وسط السقف فسقية كبيرة تستخدم كمنور سماوى
وحولها حليات مقرنصة مثلما هو موجود بايوان القبلة
بمدرسة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلى (انظر)
حسنى نويصر : مدرسة الامير فيروز ص ١٧٢ أو بتوسط
السقف صرة مفضمة كما هو الحال فى سقف مدرسة و خانقاة
السلطان برقوق بسين القصرين (انظر)
PAPA DOPOULO (A.) , Islam and Muslim art, pl. 149.
عبداللطيف أبراهيم (الدكتور) المرجع السابق ص ٢٣٥
حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد ج ٢ شكل ١٤٣

- سطر ٦٣ وفسقية تتوصل من ذلك الى القاعة الموعود بذكرها
فيه وهى المشتملة على ايوان ودور قاعة وخزانة
وطبقة علو بابها .
- سطر ٦٤ وطبقة مرجلة ومطبخ ومرحاض خاص بها سفلى ايوانها
منفعة هى بين السقوف وبهاشباك برسم (٥٩) نزح الماء
من
- سطر ٦٥ الصهريج وكنسه ويتوصل من الباب المقنطر الذى هو
بين البابين الاولين الى أربعة حواصل أحدها سفلى
مدار
- سطر ٦٦ السلم يشتمل كل منها على باب يغلق عليه فردة باب
مسقف عقدا (٦٠) قناطر وساحة كشف ولذلك حدود أربعة
الحد
- سطر ٦٧ القلى ينتهى الى الشارع تجاه الجامع المذكور
وفيه الحوانيت الاربعة والابان الاولان وشباك السبيل
وشباك
- سطر ٦٨ المسجد والحد البحرى ينتهى الى أملاك تجرى فى
ملك ملاكها والحد الشرقى الى زقاق داخل درب

(٥٩) كان لكل صهريج مبنى فى تخوم الارض - منزل خاص به
أطلقت عليه الوثائق سلم طرابلس (سلم فيق مصور
بين جدارين) وكانت الصهاريج تنظف مرة كل عام قبل
ملئها فتمسح وينظف معلق بجدرانها من فطريات الماء
ويرم جدرانها وتخر ثم تملأ بالروايا من وسط بحر
النيل فى أوان الفيضان . وقد وجد لبعض الاسئلة أكثر
من صهريج كما هو الحال فى سبيل قايتباى الملحق
بوكالته بالازهر وكذا سبيله الملحق بمدريسته بجبانة
المماليك . حسنى نويصر : سبيل السلطان قايتباى ص ١٣
(٦٠) المقصود بذلك أن أسقف هذه الحواصل كانت على هيئة
أقبية من عدة طارات (أنظر)
عبداللطيف أبراهيم (الدكتور) : المرجع السابق ص ٢٢٦

سطر ٦٩ جهركس (٦١) وفيه البابان الباقيان والحد الغربي
الى الفرن يحد ذلك كله وحدوده وحقوقه وما يعرف
سطر ٧٠ بذلك وينسأله من الحقوق الداخلة فيه والخارجة عنه

(٦١) الملاحظ أن كاتب هذه الوثيقة غير دقيق في تحديد
الاتجاهات الصحيحة للأشرف سواء ما يتعلق بالجامع الأمير
قراقا وواجهاته أو ما يتعلق بالمسجد الصغير المعلق
الذي كان مواجهها لهذا الجامع . فمثلا في بداية تحديد
موقع المسجد ذكرت الوثيقة أن للمسجد واجهتان أحدهما
شارعة بالشارك السالك . وموقع هذه الواجهة بالنسبة
للبناء هي الواجهة الشمالية الغربية المطلقة على
درب الجمامير حاليا وذكر كاتب الوثيقة أن بهذه
الواجهة أربعة حوانيت بالإضافة الى بابين أحدهما
يوصل الى سلم والثاني يوصل الى ساحة كشف . والواجهة
الثانية هي المطلقة على درب جهركس أو حارة السادات
الحالية وبها بابان أحدهما يوصل الى السبيل
والباب الثاني يوصل الى المسجد .
الأن الكاتب في نهاية الكلام عن المسجد أختلط
عليه هذا التحديد فذكر أن الحد القبلي به أربعة
حوانيت في حين أن بها حانوتان فقط والأربعة حوانيت
موجوده بالحد البحري ، كما أنه يوجد بالحسد
الشرقي بابان وهذا الضلع يطل على زقاق ضيق
متفرع من درب جهركس . (أنظر الوثيقة سطور ٦٦ : ٧٠)

دراسة تخطيطية لعمارة المسجد الدارس المنسوب اليه المئذنة

الناظر الى موقع المئذنة الحالي يجد أنها تبدأ من أرض حارة السادات وماحولها خلاء من جميع الجهات ، وربطت المئذنة من عند كرسيها عند الطابق الاول بمعبرة من الخشب لايدل مظهرها على القدم والاصالة ، بل هي معبرة حديثة . وبدراسة ماورد عن هذه المنطقة بوشقة الامير قراقجا الحسنى يتبين لنا مايلسى :-

أن الكتلة البنائية التى تتحدث عنها الوثيقة ككيان مستقل كان يشغلها المسجد المعلق وهذه الكتلة لاتزال موجودة بحدودها الاجمالية القديمة (شكل ١) . وأن الفراغ الذى حول المئذنة - حالياً - كان يشغله السى اليمين الحانوتان بهذه الواجهة ، والفراغ الموجود على يسار المئذنة كان يشغله باب الصعود الى المسجد .

غير أنه حدث اعتداء على هذه المساحة فى العصر الحديث فقسمت الى أكثر من عقار ، فشغل الزاوية الغربية العقار رقم ٤٣ ، بينما شغلت الزاوية للجنوبية بعدد من المحلات التجارية ملك ورشة " حسن شابت* " . فى حين يشغل الواجهة الشمالية الغربية المطلة على درب الجمايز (الشارع السالك) العقار رقم ٥٢ وباسفله سعة حوانيت تجارية من العصر الحديث . ويستفاد من دراسة وثيقة الامير قراقجا الحسنى عن المسجد أنه كان يتكون مما يأتى:-

الطابق الارضى (شكل ٢)

الواجهة الجنوبية الغربية : تطل على حارة السادات أو درب جهركس القديم . يشغل الركن الجنوبي من هذه

(*) راجع ماورد عن ذلك فى التمهيد .

الواجهة صهريج لخزن ماء السيل سنى فى تخوم الارض .
وكانت عمارته تتكون من ثلاث قناب ضحلة محمولة على
عامودين ، وله فوهة عليها خرزة من الرخام . وقد نصت
وثيقة الامير قراقجا الحسى على أن يصرف مبلغ (٦٢) من
المال فى كل سنة لملء الصريج من سحر النيل عند زيادته
وليس من ماء الخليج - وذلك بقدر ما يتكلف من مال دون
تحديد .

والى جوار الصهريج - على سطح الرى - باب (رقم ١
شكل ٢) يوصل الى سلم صاعد كان يوصل الى حجرة السيل
وهى حجرة تطل على درب جهركس شبك السيل . وهذا
السيل استمر الى العصر الحديث (٦٣) .

وقد نصت وثيقة الامير قراقجا الحسى على أنه كان
يعمل بهذا السيل (٦٤) مزملاتى (٦٥) - أو صت أن يكون من
أهل الخير والدين براتب شهرى قدره ثلثمائة وخمسون درهما
على أن يسقى الماء كل يوم بالسيل المذكور من أول النهار
الى آخره فى أيام الفطر وفى كل ليلة من ليالى شهر رمضان
من كل سنة من بعد أذان المغرب والى ما بعد صلاة التراويح .
كما أن عليه كنس السيل ومسحه ونقل الماء من الصهريج
الى السيل . والباب الثانى بهذه الواجهة يوصل الى سلم
صاعد الى المسجد المعلق فى الطابق الاول (رقم ٢ بشكل ٢) .
الواجهة الشمالية الغربية بالطابق الارضى :-

-
- (٦٢) الوثيقة : سطور ١٦١ : ١٦٢ .
(٦٣) على مبارك : الخطط ج ٣ ص ١١
(٦٤) الوثيقة : سطور ١٤٦ : ١٥٠
(٦٥) المزملاتى : هو الشخص الموكول اليه تنظيف الماء
وترويقه وتبريده للشاربين بعد اضافة ماء الزهر اليه
كما أن عليه غسل الأواني وحفظها (انظر)
حسى نويصر : سبل السلطان قايتاى ص ١٧

كانت تطل على الشارع السالك - حاليا درب الجماميز
وبهذه الواجهة باب (رقم ٣ شكل ٢) يوصل الى سلم صاعد
الى الطابق الاول . وكان بهذه الواجهة أربع حوائط ، كما
كان يوجد باب رابع بهذه الواجهة يوصل الى ساحة كسيف
وأربعة حوامل كانت معده لخرن أدوات المسجد ويشغل هذه
الواجهة حاليا العقار رقم ٤٣ وبه فى المستوى الارضى سبعة
محللات تجارية

الطابق الاول

كان يشغل الطابق الاول من هذا المكان مسجد يتوصل
اليه من سلم بوالواجهة الجنوبية الغربية (شكل ٣) وهذا
المسجد من النوع المعلق يشتمل على أيوان واحد صدره
محراب عبرت عنه الوثيقة بأنه " قوصرة لطيفة " أى معقود
بعقد صغير ، ويطل هذا الايوان على مجاز أو دور قاعة .
وعلى واجهة الايوان كرديان من الخشب المجلد بالذهب كما
كان للمسجد ثلاث كتبيات لحفظ المصاحف والربعات الشريفة
وشنا كان من الحديد . وقد وقف الامير قراقجا الحسنى هذا
المسجد (٦٦) لله تعالى تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على
العبادات واذن للمسلمين بالدخول اليه وال صلاة فيه وصار
حق الواقف فيه كحق رجل واحد من المسلمين .

وتطل الواجهة الشمالية الغربية فى هذا الطابق على
درب الجماميز - بثلاث نوافذ على هيئة قمريات من الجص
المعشق بالزجاج الملون . تفتح هذه القمريات على ثلاثة
أروقة يتقدمها منافع خدمية موجودة بدھليز يتقدمها . كان
للاروقة سقف من الخشب معالج بالدهانات المختلفة أسمته
الوثيقة " دهان حريرى " كما كانت جدر الاروقة مسلسلة
بالساض .

الطابق الثاني (الكتاب الملحق)

نصت وشيقة الامير قراقجا الحسنى على أنه خصص الطابق
الثانى من السناء لىنشىء عليه كتابا لتعليم أيتام
المسلمين - لم يكن شرع فيه حنى وقت كتابة الوشيقة (٦٧)
وأن هذا الكتاب كان يشغل المساحة العلوية للمسجد والسبيل
أسفله وكان يشتمل على رواقين خصا لجلوس عشرة (٦٨) من
أيتام المسلمين قاصرين عن درجة البلوغ يجلسون كل يوم
بهذا الكتاب مع مؤدبهم للتعلم ويتقاضون راتبا شهريا
قدره ستون درهما لكل واحد منهم ، كما كان يصرف لهم
ومؤدبهم كسوة (٦٩) سنوية فى شهر رمضان من كل عام بقدر
ما تتكلف . واشترطت الوشيقة على أن يكون المؤدب (٧٠) من
أهل الخير والدين حافظ لكتاب الله عن ظهر قلب يتقاضى
راتبا شهريا قدره ٢٥٠ درهما .

وعليه أن يجلس الأيتام العشرة الموجودين بالكتاب
كل يوم من بكرة النهار الى أذان العصر لتعليمهم ما تيسر
له من تعلم القراءة والخط العربى خلال يوم الثلاثاء
من كل أسبوع فانه يجلسهم من بكرة النهار الى أذان الظهر
فقط وان تكون أجازتهم يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكان
على هؤلاء الأيتام قبل انصرافهم فى كل يوم أن يقرأوا سورة
القاتحة ويختمون على النبى صلى الله عليه وسلم ويهدون
ثواب ذلك الى الواقف وذريته .
..... وبعده

(٦٧) الوشيقة :	سطور ٦٢ :	٦٣
(٦٨) الوشيقة :	سطور ١٥١ :	١٥٣
(٦٩) الوشيقة :	سطور ١٦٠ :	١٦١
(٧٠) الوشيقة :	سطور ١٥٣ :	١٥٨

فانه يتضح مما سبق دراسته أن الكتلة الدارسة في هذا الموقع كانت تشتمل على المسجد المعلق الذى ورد ذكره فى هذا الخط - خط المسجد المعلق - وأن المئذنة التى بقيت كانت تابعة له ، وهذا يجعلنا أمام احتمالين :-

أولهما : أن هذا المسجد - وهو الاقدم - كان له مئذنة ، وحينما بنى الامير قراقجا الحسنى جامعة الكبير المواجه للمسجد المعلق - بناه بدون مئذنة - واستفاد من وجود المئذنة القديمة وربط بين الاثنين بساباط حل مكائه المعبرة الحديثة .
وثانيهما أن يكون لجامع قراقجا الحسنى الكبير مئذنة - سقطت فى زمن غير معلوم - وضاعت معالمها . وقام أهل المنطقة ببناء هذه المعبرة الحديثة .

ومن ثم قامت لجنة حفظ الاثار العربية (٧١) التى أشرفت على ترميم جامع قراقجا والمئذنة ووجدت مئذنة بلا مئذنة فربطت بين الاثنين عند ترميمها للجامع بالمشروع المنوة عنه فى تمهيد هذه الدراسة .

وفى تصورى أن الاحتمال الاول هو الاقرب الى الحقيقة ذلك أن الامير قراقجا الحسنى أمر ببناء غرقة بأعلى جامعة الكبير - فوق الايوان البحرى - وقفت برسم رئيس (٧٢) المؤذنين لجلوسه عند قراءة العقيدة وتنهيض المؤذنين للاذان ، بينما لم تذكر شيئاً عن موقع المئذنة .

(٧١) راجع كراسات لجنة حفظ الاثار العربية التقارير :-

- رقم (٥) لسنة ١٩٠٥ م ص ٩١

- رقم (٣٤٩) لسنة ١٩٠٦ م ص ٨

- رقم (٣٥٩) لسنة ١٩٠٦ م ص ٩٠

- رقم (٣٦٣) لسنة ١٩٠٧ م ص ١١

(Comité de conservation des monuments de L'art Arabe comptes rendus de l'exercice 1914, fasc. 31' pls. xix-xxii, pp.14-

(٧٢) الوثيقة : سطور ٩٣ : ٩٤

وفي نفس الوقت تعين للمثدنة تسعة (٧٣) من المؤذنين خصصوا للتناوب على الاذان في ثلاث جوق كل جوقه من ثلاث مؤذنين يتداولون على المثدنة . وكان كل واحد منهم يتقاضى راتبا شهريا قدره مائتان درهم هذا بالاضافة الى وظيفة الميقات التي تحدد وقت دخول الصلاة في كل وقت .

وأكدت الوثيقة على أن يكون الاذان في الجامع الكبير يوم الجمعة - من فوق دكة (٧٤) المؤذنين الموجودة بايوان القلعة بالجامع الكبير .

عمارة المثدنة

تبدأ هذه المثدنة بقاعدة صماء من الحجر من أرض حارة السادات وذلك حتى مستوى سطح جامع قراقبا الذي يقف تجاهها . وفوق هذه القاعدة - كرسى المثدنة الذي شكل على هيئة مكعب شطفت زواياه العلوية (شكل ه) وحددت حواف كرسى المثدنة بجفت لاعب وميمات تحصر بينها شكلا هندسيا عبارة عن طبق نجمي غائر في الحجر .

ويعلو كرسى المثدنة بدن مئمن برز منه أربع مشرفات (بلكونات) صغيرة محمولة على مقرنصات حجرية موجهة لاحياء المدينة ليعلن من عليها بالاذان شكل ٤ .

ويتوج البدن المئمن طراز من الكتابة بالخط النجمي (٧٥) المملوكي تشمل نصا قرآنيا (٧٦) بصيغة سم الله الرحمن الرحيم ان ربكم الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش بغشى الليل النهار بطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .

(٧٣) الوثيقة : سطور ١١٤ : ١١٥

(٧٤) الوثيقة : سطر ١١٧

(٧٥) قرأ الدكتور حسن جودة النص من قبل ص ٥٠

(٧٦) سورة الاعراف : آية ٥٤

وزخرف البدن المثلث في زواياه بحزم من أعمدة ثلاثية مندمجة تحمل عقدا منكسرامشعا .

ولزيادة المساحة التي تحمل شرفة الطابق الاول من المثلثة استخدم المعمار صفوفاً من القوسات ذات الدلايات وشرفة هذا الطابق مهدمة منذ أمد بعيد ولا يوجد لها سواتر تحمي المؤذن ، في حين أنها كانت محمية بسواتر حجرية مفرغة على هيئة زخارف نباتية وهندسية في زمن الانشاء .

ويتحول بدن المثلثة في الطابق الثاني الى شكل أسطواني يستدق كلما أرتفعنا الى أعلى به باع معقود شكل ٦٠ . على البدن الاسطواني بجفت لاعب مفلور من أعلاه وأسفله ويتوج البدن الاسطواني طراز آخر من الكتابة النسخية (٧٧) على الحجر بصيغة : - (بسم الله الرحمن الرحيم) " الله لا اله الا هو الحي (٧٨) القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا ساذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم " .

ويعلو الشريط الكتابي مقرنات بدلايات حاملة لقمة المثلثة التي شكلت بطراز القلة ويلفت النظر في هذه المثلثة شيان هامان هما :-

أولا النصوص الكتابية القرآنية الموجودة عليها . فقد اختار الكاتب الآية رقم ٥٤ من سورة الاعراف والاية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة وهذا الامر غير مألوف بالنسبة للاشرطة الكتابية المتعارف على كتابتها في عصر العمالك الجراكسة .

(٧٧) سبق ان قرأ الدكتور حسن جودة هذا النص في رسالته ص ٥١
(٧٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

فقد جرى العرف على أن تسنخ لذلك الايات القرآنية الدالة على الصلاة أو الاعلان عنها أو سورة الجمعة (٧٩) أو يكون عليها نصوص تحديد أو نصوص تأسيس كما هو الحال فى المئذنة التى حددها السلطان الناصر بن قلاوون فى مدرسة والده السلطان المنصور (٨٠) قلاوون بين القصرين وكذلك

(٧٩) مثلما هو موجود بشكل جيد على مئذنة مدرسة السلطان قايتباى بجبانة الممالك التى ورد عليها عدة طرز كتابية قرآنية منها شريط يحوى سورة الجمعة بمائمه :- " بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاساذا قضت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون سورة الجمعة : آية ١٠ وباعلى البدن الاسطوانى للمئذنة يوجد النص القرآنى التالى :-

" بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسيحوه بكرة واصيلا هو الذى يلقى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمومنين رحيمًا تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم اجرا كريما " .

ومن الواضح أن هذه النصوص تلائم تماما الغرض الوظيفى من المئذنة وهو الاعلان للصلاة وحث للمؤمنين على أدائها (انظر) :-

حسنى نويصر : منشآت السلطان قايتباى الدينية ج ١ ص ١٢٩ : ١٣٠ وانظر أيضا :

Lane poole (s.) Social life in Egypt, P. 122
....., The art of the Saracens in Egypt, P. 100
Beadeker (K.) , Egypte et Sudan, pp. 108: 109.
Franz (pascha) , Die grabe moschee Qait Bai, taf. 4 .

(٨٠) نص هذه المئذنة : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله أمر بتجديد هذه المأذنة فى أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد وذلك عند ظهور الايات المنزلية وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة فى شهر سنة ثلاث وسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام (انظر) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ج ١ ص ١١٧

نصوص التأسيس في مؤذنتي السلطان المؤيد (٨١) شيخ
المحمودى ساب زويلة ٢٤/٨١٨ هـ
وتعتبر ديفونشير (٨٢) وجاييه (٨٣) أن هذه النصوص التي
تضمنتها المعادن من الحليات الجميلة التي استخدمها
المعمار لتزيين المؤذنة في العصر المملوكى الجركسى .
وثانيهما : النمط الزخرفى على البدن الاسطوانى للمؤذنة
شكل ٦ وهو الذى شكل على هيئة جفت لاعب مضمور
من اعلاه وأسفله . ويعتبر هذا النمط من
الزخرفة آخرمثال له فى العمارة المملوكية
فى القاهرة .

وقد وجدت لهذه الوحدة الزخرفية أمثلة قديمة تعود
الى عصر المماليك البحرية لعل أقدمها ما هو موجود على
البدن الاسطوانى لمؤذنة مدرسة أسنغا الابو بكرى (٨٤) بدرب
سعادة بحى الازهر بالقاهرة - أشر رقم ١٨٥ (٧٧٢هـ - ١٣٧٠م)

(٨١) نص المؤذنة الغربية : عمل هذه المؤذنة المباركة
العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز وكان
الفراغ أول رجب سنة أشتين وعشرين وثمان مائة
أما نص المؤذنة الشمالية : أمر بانشاء هذين
المنارين المباركين سيدنا ومولانا السلطان الملك
المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره وذلك بنظر العبد
الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ فى
شهر شعبان المعظم قدرة من سلا ثلاث وعشرين وثمان
ماية (انظر) :
حسن قاسم المزارات الاسلامية ص ٤٥ (وانظر أيضا)
حسن عبدالوهاب : المساجد ١ ص ٢٤٠ عن نصوص مؤذنة
مسجد يحيى زين الدين ومؤذنة الامير يشك بمسجد
الامام الليث : المرجع نفسه ص ١٩٩ : ٢٠٠

Devonshire , Some Cairo mosques, P. 73. (٨٢)

Geyet l'art Arabe, pp. 198 : 206. (٨٣)

Abou Seif (D.) , The minarets of Cairo, p.(٨٤)

105 . fig . 21 . 43 .

شكل ٧ و ٨ . وفتن مهندس خانقاه السلطان فرج (٨٥) بن برفوق بجانة الممالك بهذا العنصر فزوق به البدن الاسطواني فى المئذنتين - أشر رقم ١٤٩ (١٣/٨٠١ هـ - ١١/١٤٠٠ م) شكل ١٠ و ٩ . كذلك ظهر هذا العنصر على البدن الاسطواني لمئذنة مدرسة السلطان برساي (٨٦) بشارع المعز لدين الله حى الاشرفية أشر رقم ١٧٥ (٢٩/٨٢٦ هـ - ١٤٢٢ / ٢٥ م شكل ١١ و ١٢ . وظهر نفس العنصر على مئذنة جامعة (٨٧) بالخانكة .

وفى عصر السلطان برساي (٨٣٤ : ٨٤١ هـ) طبقت زخرفة الجفت المصفور لأول مرة على القبة الطوبية (٨٨) التى شيدها السلطان لاحدى زوجاته (جلبان) أم خديجة ابنة شيك الجركسى وهى القبة المعروفة بجانة الممالك بقية " خديجة أم الاشرف " شكل ١٣ أشر رقم ١٠٦ (٨٤٥/٨٣٥ هـ - ١٤٣٠ / ١٤٤٠ م) . ثم زخرفت بها القبة الملحقة بمدرسة الامير تغرى بردى بالصليبة - أشر رقم ٢٠٩ (٨٤٤ هـ - ١٤٤٠ م) .

واخيرا ظهر هذا الجفت المصفور ولاحر مرة على البدن الاسطواني للمئذنة المنسوبة الى جامع قراقجا الحسى والتى تؤرخ بنفس فترة بناه بينما هى فى الواقع تعود الى زمن أقدم من ذلك حين كانت جزءا من المسجد المعلق .

Hau & Wier(G) , Mosques du Caire, pl.154. (٨٥)

Briggs (M.) Muhammadan architecture in Egypt and Palestine, pp. 177: 118, fig. 106. (٩)

Abou Seif (D.) , Op. cit., fig. 22 (١٠)

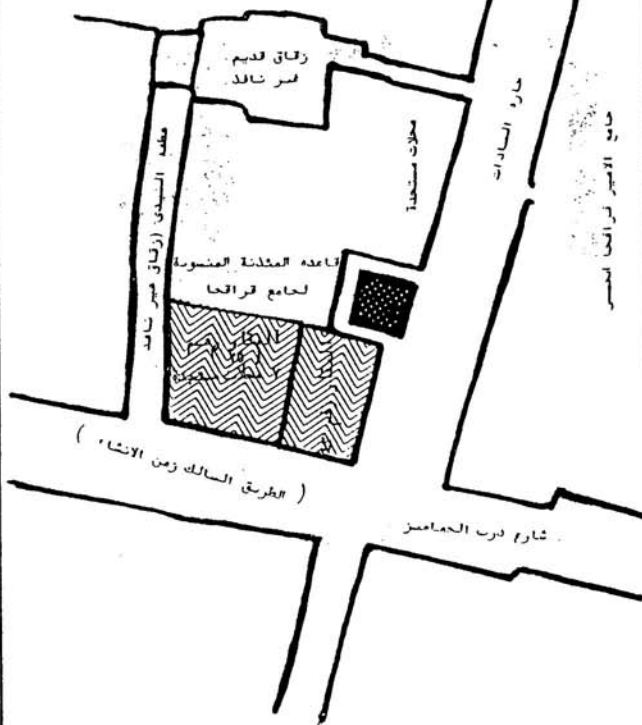
Ibid., pl. 53. (٨٦)

(٨٧) حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد ج ٢ شكل ١٦٩

(٨٨) حسن عبدالوهاب : خانقاة فرج بن برفوق وماحولها لوحة ٢٩

(1951) موقع المئذنة المتبقية من المسجد المعلق

وحولها العقارات المنسجدة على أرضه

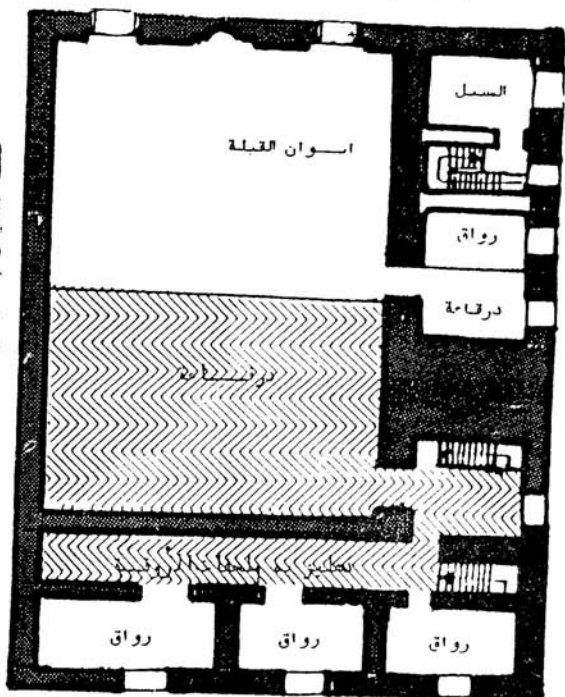


شكل (٢) مسقط الخي (تخلي) للدور الارضي سفلى المسجد

المعلق من واقع وشبكة الامير تراقيا الحسنى

زقاق قدم (حاليا حوش مشترك للاستطراق

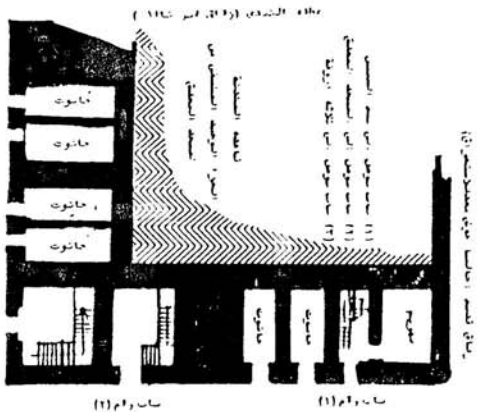
مظلة السيدى (حاليا زقاق غير نافذ



شارع السادات (درب شهرکس) من وشبكة الامير تراقيا

شارع درب الحماميز (الطريق السالك زمن الانشاء)

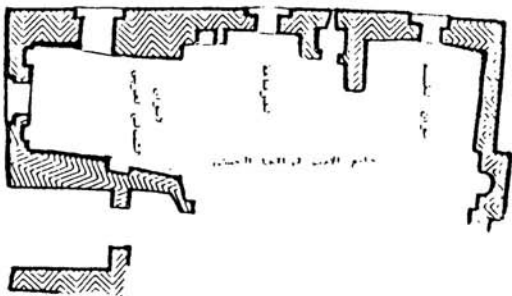
شكل ٢٠ - ساحة طين الخبيث - سقاية أولى من ساحة
 السقاية وبساحتها من وادي بستانة الأبرص من وادي الخبيث

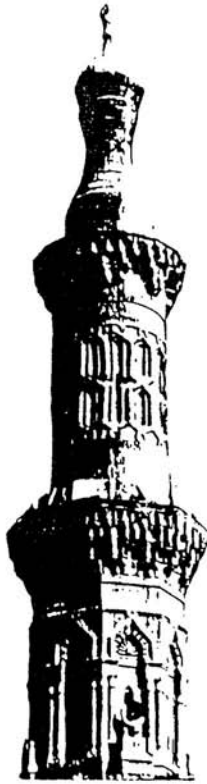


ساحة رقم (١) - السقاية - ساحة من وسطية الأبرص - وادي الخبيث

ساحة رقم (٢) - السقاية - ساحة من وسطية الأبرص - وادي الخبيث

مادة السقاية (أرض مفرقة من وادي الأبرص - وادي الخبيث)

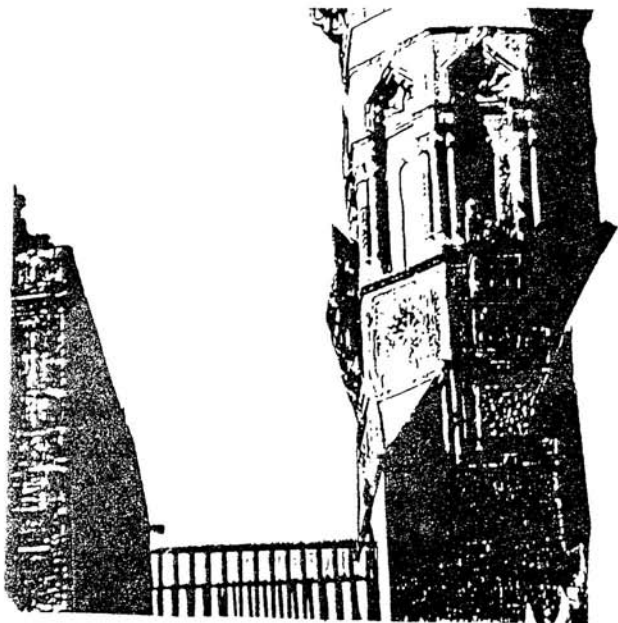




(شكل ٤) المئذنة المنسوبة لحامع الأمير قراقجا

الحسنى بحارة السادات المتفرعة من درب الجماميز

بالقاهرة أشر رقم ٢٠٦ ٨٤٥ هـ - ٤٢/١٤٤١ م



(شكل ٥) قاعده المئذنة المنسوبة لجامع الأمير
قراجا الحسنى والقنطرة التى تربطها به من أعلى سطحه .



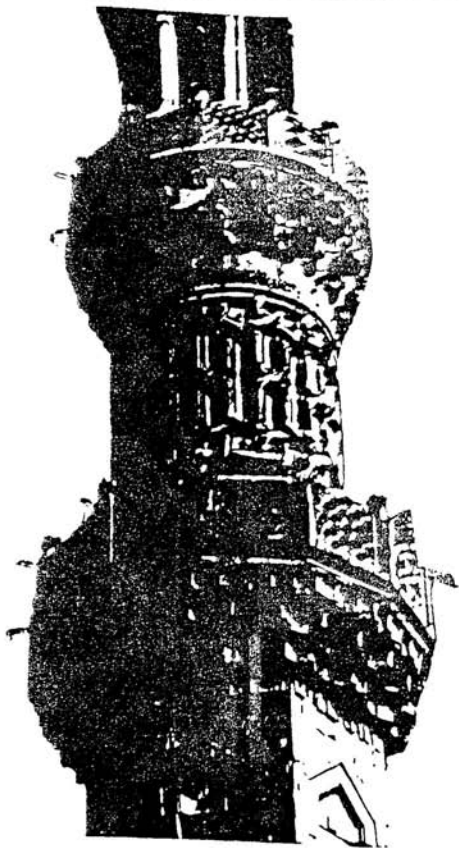
(شكل ٦) تفصيل لرخفة الجفت المنفخور على البدن

الاسطوانى لمئذنه الجامع المنسوب للأمير قراجا

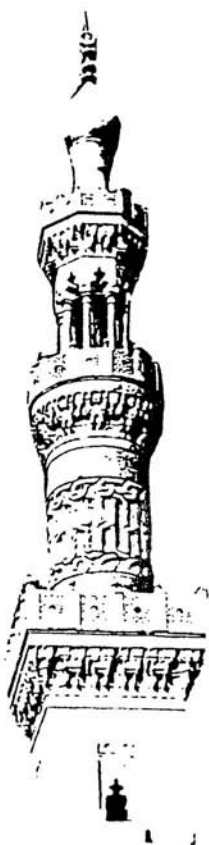
الحسنى بالقاهرة



(شكل ٧) مئذنه مدرسة الأمير اسبنا الأبو بكرى بدر ب
سعادة بحى الأزهر بالقاهرة أشر رقم ١٨٥ ٧٧٢ هـ ٠٣٧٠ م



(شكل ٨) تفصيل لزخرفة الحفت الممففور في البدن
الاسطواسى لمتذنه مدرسة الأمير اسنبنا الأبو بكرى
بدر ب معادة بالقاهرة



(شكل ٩) زخرفة الجفت المضفور في البدن الاسطوانى
لمئذنه خانقاة فرج بن برفوق بجانسة المعاليك

أشرف رقم ١٤٩ ٨٠٣ / ٥١٣ - ١١/١٤٠٠ م



(شكل ١٠) تفصيل لرخيفه الجفت المظفور على البسطن

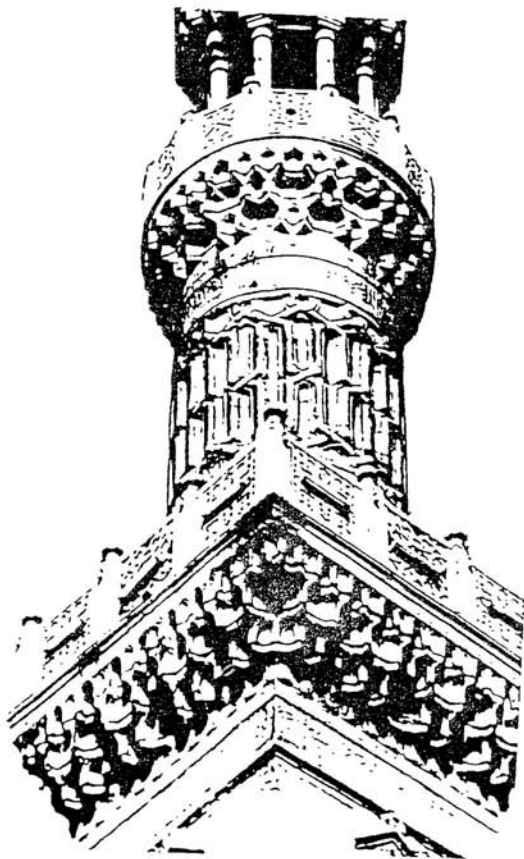
الاسطواني لمثلته خانقاة فرج —————

برقوق بجبانة المماليك .



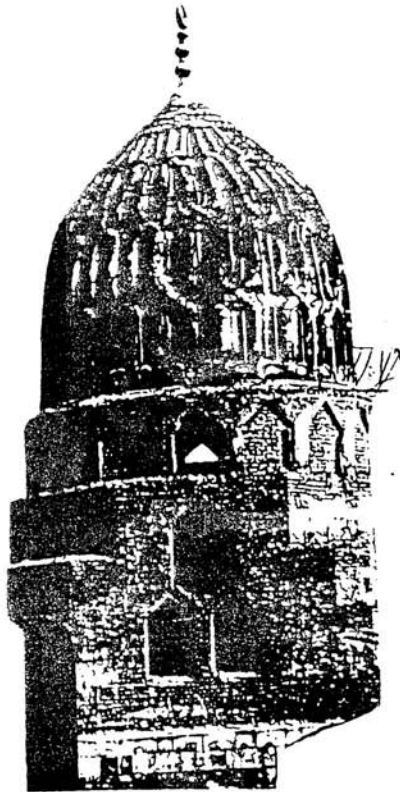
(شكل ١١) رخفته الحفت المظفور على البدن الاسطوانى،
لمئذنه مدرسة السلطان برسباى بشارع المعز بالقاهرة

أشر رقم ١٧٥ - ٢٩/ ٨٢٦ - ٢٥/ ١٤٢٢ م

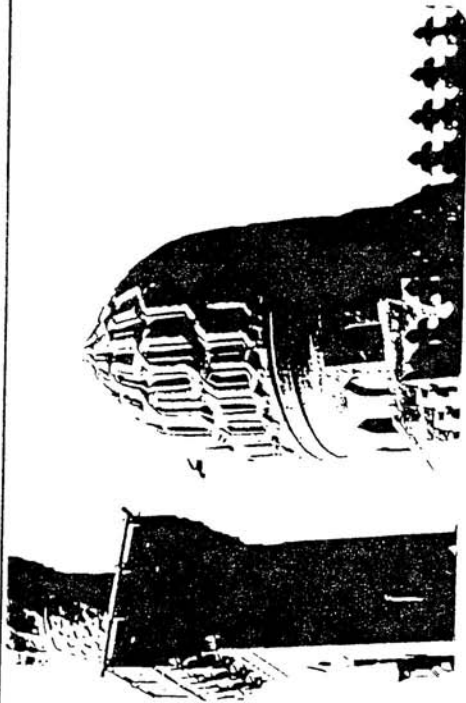


(شكل ١٢) تفصيل لزخرفة الجفت المفقور على البدن

الاسطوانى لمئذنه مدرسة السلطان برسباى بالقاهرة



(شكل ١٣) زخرفه الحفت المظفور مطبقه على خوذة القببة
الضريحية لخديجة أم الأشرف المنسوبة الى السلطان برسيای
بجبانة الممالیک أشر ١٠٦ - ٨٢٥ / ٥٤٥ - ١٤٣٠ / ٤٠م



الشكل ١٤ : رمزها الحمت المعمور مشقة على حوذة السما
الخرابطة المطلقة معادرا الأوسر تعوى سرود بالنسبة بالقاهرة
أثر راند ٢٠٩ - ٨٤٤ هـ ١٤٤٠ م

مصادر ومراجع البحث

- القرآن الكريم

أولا : المصادر المنشورة :-

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبوالمحاسن)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

١٦ جزء طبعة دار الكتب

- السخاوى (شمس الدين محمد)

الضوء اللامع لاهل القرن التاسع

١٢ جزء طبعة القدس ١٣٥٣ هـ

- المقرئى (تقى الدين أحمد)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

جزءان طبعة بولاق

ثانيا : المراجع العربية

- أحمد السعيد سليمان (الدكتور)

تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة

جزءان القاهرة ١٩٦٩ م

- حسن الشاشا (الدكتور)

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية

٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٦ م

- حسن جودة القصاص (الدكتور)

مساجد أمراء جقمق - رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية

الآثار جامعة القاهرة ١٩٨٦ م

- حسن عبدالوهاب (خبير أثرى)

تاريخ المساجد الأثرية جزءان القاهرة ١٩٤٦ م

خانقاه فرج بن برقوق وماحولها - مطبوعات المنظمة

العربية للتربية والعلوم والثقافة القاهرة ١٩٧٩ م

- حسن قاسم

المزارات الإسلامية والآثار العرسية فى مصر والقاهرة

المعزية القاهرة ١٩٤٢ م

- حسنى محمد شويصر (الدكتور)
سل السلطان قاننای بمدينة القاهرة - رسالة
ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ١٩٧١ م
منشآت السلطان قاننای الدينة بمدينة القاهرة
رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية الاثار جامعة
القاهرة ١٩٧٥ م
منشأة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلة بالقاهرة
مجلة الازهر عدد صفر ١٤٠٣ هـ - نوفمبر ١٩٨٢ م -
مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة (مدرسة
الامير سودون من زادة) مطبعة نهضة الشمس
القاهرة ١٩٨٢ م
- سعاد ماهر محمد (الدكتورة)
مساجد القاهرة وأولياؤهم الصالحون
٥ أجزاء القاهرة ١٤٠٤ هـ -
١٩٨٢ م
- عباس حلمى (الدكتور)
تطور المسكن المصرى من الفتح العربى حتى الفتح
العثمانى - رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة جامعة
القاهرة .
عبدالرحمن زكى (الدكتور)
القاهرة - تاريخها وآثارها من جوهر القائد الذى
الجرتى المؤرخ القاهرة ١٩٦٦ م موسوعة مدينة
القاهرة القاهرة ١٩٦٩ م .
- عبداللطيف أبراهيم (الدكتور)
وشيقة الامير قراقجا الحسنى - دراسة ونشر وتحقيق
مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٣ ديسمبر
١٩٥٦ م
دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق عصر المماليك

- سلسلة الدراسات الوثائقية - الوثائق في خمسة
الآثار - مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم القاهرة ١٩٧٩ م
- وثيقة بيع - نشر ودراسة وتحقيق - مجلة كلية الآداب
جامعة القاهرة المجلد ١٩ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٧ م
- وثيقة وقف مرسور الشلى - نشر ودراسة وتحقيق
مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢١ ج ٢
نومبر ١٩٥٩ م
- على (باشا) مبارك
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة
٢٠ جزء ١٤ فى أربع مجلدات
بى لاق ١٣٠٦ هـ
- فهرس الاثار الاسلامية بمدينة القاهرة
مصلحة المساحة ١٩٥١ م
- كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ١٨٨٢ / ١٩٠٥ / ١٩٠٦ /
١٩٠٧ / ١٩١٤ م
- محمد عبدالستار (الدكتور)
نظرية الوظيفة بالعمائر الدنسة المملوكية
المباقية بمدينة القاهرة - رسالة دكتوراه مخطوطة
بجامعة أسيوط كلية الآداب ١٩٧٩ م
- محمد هندأوى
المعجم فى اللغة الفارسية

شالسا : المراجع الافرنجيهه : -

- ABOU SEIF (D.) The minarets of Cairo, A.U.C. Caoiro 1985.
- BEADEKER (K.), Egypte et Sudan, paris 1908.
- BRIGGS (M.), Muhammadan architectur in Egypt and Palestine, Oxford. 1924.
- Comite de conservation des monument de l'art Arabe comptes rendus de l'exercice 1914.
- DEVONSHIRE (L.) , Some Cairo mosques and their founders, London, 1921.
- FRANZ (pascha), Die grabe mosche du Sultan Kait Bai.
- GAYET (A.), L' art Arabe, paris 1893.
- HAUT. & WIET (G.), Mosques du Caire, paris 1932.
- LANE POOLE (X.), The art of the Saracens in Egypt London, 1866.
- Social life in Egypt, London, 1892.
- PAPA DOPOULO, Islam and Moslim art London, 1980.

مصر والمصريون عندهيرودوت

(قراءة في الكتاب الثانى)

د. عبد الحليم محمد حسن

كلية الآداب - جامعة القاهرة

"ملاً الدنيا وشغل الناس ٠٠٠ فما أكثر ما رددت الايام
اسم هيرودوت وما أكثر ما سترده ، وما أكثر ما نظر الناس
في تراثه وما سينظرون ، وما أكثر ما كتبوا عنه وما
سيكتبون" .

هكذا كتب العلامة الراحل الدكتور أحمد بدوى فى مستهل
مقدمته القيمة للكتاب الثانى من "التواريخ" لابي التاريخ ،
الذى نقله الى العربية عالم الدراسات اليونانية الراحل
الدكتور محمد مقر خفاجه^(١) ، وما أظن أنه كتب غير الصواب
فعلى كثرة الموضوعات فى التاريخ القديم التى لم تحسظ
بالاهتمام الواجب من جانب الدارسين ، الا أن هيرودوت
وكتابه الثانى يجذبان الباحثين فينظرون فى الكتاب من
جديد ويعيشون عصر كاتبه ، ثم لا يلبثون ان يضيفوا مزيدا
من الكتابات الى الابحاث والدراسات المتركمة .

ولا شك فى أن الكتاب الثانى ، أو "الاحاديث المصرية"
LOGOI AIGYPTIOI كما يفضل هيرودوت نفسه ان يسميه ،
قد صادف - مع باقى "التواريخ" - اقبالا وحقق نجاحا خاصا
بين جمهور القراء والدارسين ، منذ صدره فى حياة هيرودوت
نفسه^(٢) ، لم تحققه كتب اخرى كثيرة من التراث القديم .

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد مقر خفاجه ، تقديم
وشرح الدكتور احمد بدوى ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
جميع نصوص الكتاب الثانى المقتبسة فى بحثنا هذا تعتمد
على هذه الترجمة .

(٢) W.W. How and J.Wells, A Commentary of Herodotus (Oxford, 1936), I, pp. 36-37; A.D. Momigliano, Studies in Historiography (London, 1969), pp. 127-141 passim.

فاستحق - بعارة الدكتور احمد بدوى - " ان يكون كتساب الدهر الخالد الذى لا يهرم ولا شيخ " ولا مراة فى أن هذا النجاح يرجع بالدرجة الاولى الى الشراء غير العادى فى مادته والى عبقرية هيروdot الفذة فى رواية القصص المثيرة المندفقة بالحوية والتي لا تخلو ابدا من طرافة تشتمل على عقل القارىء فتملكه حتى وان لم يصدق مضمون بعضها ، وفى هذه " الاحادث المصرية " اظهر هيروdot بوضوح - وهو اليونانى الصميم - تفوق المصريين على اليونانيين (٣) . وقد بلغ تعاطف " أبى التاريخ " مع مصر والمصريين ان اعطى اذنا صاغية لمصادره المصرية واولوية على بنى جلدته وسابقه من اليونانيين (٤) . فلا عجب ان اتهمه بعض الاقدمين بانه " صديق البرابرة " (٥) . كما سلم جمهور الباحثين المحدثين بان الرجل كان يميل الى المصريين .

وفى الحقيقة ان من يقرأ هيروdot يشعر ، كما سوف نوضح ذلك بجلاء ، بانه كان يعى جيدا ابرز الاسباب التى توءد تفوق مصر على اليونان ، وعلى وجه الخصوص طسول تاريخها واستدامة حضارتها . غير ان الملاحظ ان مصر ، وان كانت تحتل عند هيروdot مكانة متميزة تتناسب مع دورها التاريخى الفريد فى الماضى ، الا انها قد لا تتناسب مع دورها فى عصر هيروdot نفسه . فمما يدعو الى التامل ان هيروdot اختص مصر بتلك المكانة فى زمن كان دورها السياسى فيه فى شرق البحر المتوسط قد تقلص بشكل حاد ، فقد كانت مصر وقتئذ مجرد ولاية فى امبراطورية فارسية مترامية الاطراف ، وبالتاكيد لم تكن اكبر ولا اهم جوهره فى التاج

(٣) احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .
(٤) انظر على سبيل المثال الفصل الخامس والاربعين من الكتاب الثانى ثم قارن أيضا بالفصل الثانى .

(٥) Plutarch, De Malignitate Herodoti, 12: J. J. Myres, Herodotus, Father of History (Oxford, 1953), P. 19.

الفارسي . ومع ذلك لم يعط هيرودوت فارس ذاتها او الفرس انفسهم نفس الاهتمام الذي اخص به مصر والمصريين . وقد يدهشنا ذلك بوجه خاص اذا تذكرنا ان " التواريخ " في جملته ووحدته انما يدور حول محور واحد ، وهو تاريخ الحروب والوقائع بين اليونانيين والفرس .

فالبناء الاساسي الذي اختاره هيرودوت لقصة هذا الصراع ينقسم بوجه عام الى ثلاثة اقسام رئيسية . واول هذه الاقسام يتناول الاحداث التي ادت الى ظهور فارس بوصفها القوة العظمى في عالم شرق البحر المتوسط . (الكتب الثلاثة الاولى) . وثانيهما يعرض للاحداث التي احبطت مطامح الملك داريوس DARIUS الاول (٥٢١ - ٤٨٦ ق م) في الغزو والفتح ، وكيف ان اليونانيين الايونيين شاروا ضد الفرس واورطسوا معهم بعض بنى جلدتهم من بلاد اليونان البلقانية ، الذين استطاعوا ان يتحدوا بنجاح الملك الفارسي ، وتمكنت أثينا من رد فارس مهزومة في موقعة ماراثون (MARATHON) (٤٩٠ ق م) الشهيرة . (الكتب من الرابع الى السادس) . وثالثت الاقسام وآخرها يتناول كيف ان الملك كسيركيس XERXES (٤٨٥ - ٤٦٥ ق م) ، وقد ورث عن ابيه مشروع معاقبة اليونانيين البلقانيين الذي لم يحسم ، خطط وشرع في تنفيذ غزوه الشامل لبلاد اليونان البلقانية . ولكنه تجرع هزيمة مريعة سواها شخصيا في سلاميس SALAMIS (٤٨٠ ق م) ، او من خلال قواده في بلاتايا PLATAEA وميكالي MYCALE (٤٧٩ ق م) . (الكتب من السابع الى التاسع) (٦) .

(٦) قارن S.Usher, The Historians of Greece and Rome (Methuen and Co. Ltd., 1970), P.4.
من المعروف ان تقسيم " التواريخ " الى تسع كتب ليس من عمل هيرودوت نفسه ، وانما بعض علماء الاسكندرية في زمن متأخر (بعد عام ٢٨٠ ق م) غير ان التقسيم عكس بصورة فعالة السناء الاساسي الذي اداره المؤلف حتى ==

وكما نرى فان "التواريخ" له خطة واضحة في ذهن هيرودوت ، وهو اشبه ما يكون بملحمة تتصاعد احداها حتى تصل الى ذروتها - ملحمة الصراع بين اليونانيين والفرس ، والتي تصل الى ذروتها بهزيمة الفرس على ايدي اليونانيين . وفي هذه "الملحمة" لا تلعب مصر دورا حاسما . وقد لاحظ بحق عالم في الدراسات المصرية (٧) " ان ثورات مصر ضدالفرس ارتبط اغلبها بمصائر الفرس في نزاعهم الطويل مع الاغريق ، وذلك في عالم اصحت موازين القوة والاقتصاد فيه في ايدي الفرس من ناحية والاغريق من ناحية اخرى" . فالحقيقة ان تطورات الصراع بين الفرس واليونانيين كان لها في الغالب اثر - ايجابي او سلبي - على موقف مصر من الاحتلال الفارسي ومدى نجاح الثورة فيها . اما جوهر الصراع الكبير ذاته بين الفرس واليونانيين ، وهو موضوع "ملحمة" هيرودوت فلم يكن لمصر فيه دور بارز . ومع ذلك فقد وجد هيرودوت من الاسباب ما حمله على التضحية بالتوازن العام لمؤلفه واستطرد باسهاب في "احاديثه المصرية" . وهكذا جاء الكتاب الثاني - كله - وهو اكبر الكتب التسعة ، بعد الكتابين الاول والثامن - مقحما بصورة ملفتة بين حديثه عن قرار الملك الفارسي قمبيز CAMBYSES (٥٢٩ - ٥٢٢ ق م) بغزو مصر (الفصل الاول من الكتاب الثاني) ، وبين حديثه عن دوافع الغزو ووقائع (٨) (الفصول الخمس عشرة الاولى من الكتاب الثالث) .

واسباب هذا الاستطراد الضخم يبسطهاهيرودوت نفسه

== ان السادحين المحدثين لم يأخذوا عليه سوى هنات بسيطة
انظر A.R.Burn, Herodotus, The Histories
(٧) عبد العزيز صالح ، "الشرق الأدنى القديم" القاهرة ١٩٨٤
ص ٣١٤ .
(٨) قارن Burn, Op.Cit., p. 17.

للقارىء فى وضوح تام : "سأبدأ الان الكلام عن مصر فرى اسباب ، لانها - دون غيرها من بلاد العالم اجمع - تحوى عجائب اكثر وآثارا تجل عن الوصف ، ومن أجل ذلك، ساطبيل الحديث عنها"^(٩) . فالقيمة الحضارية الفريدة التى كانت مصر لا تزال تجسدها ، هى التى املت على هيروdot هذا الاستطراد ودفعتة الى هذه الاطالة .

وهيروdot كان يونانيا آسيويا . فهو سليل اسـرة معروفة فى مدينة هاليكارناسوس HALICARNASSUS ، حيث ولد وبلغ مرحلة الشباب وهاليكارناسوس هذه مدينة دورية - كارية ذات صبغة ايونية فى جنوب غرب آسيا الصغرى^(١٠) ، والى جوارها كان يقع باقى اقليم كاريا CARIA الواسع . والى الشمال قليلا كانت تقع ايونيا IONIA بسواحلها وجزرها . وهذه المنطقة كلها - القسم الشرقى من عالم بحر ابجه - تمثل فى الحقيقة أول وأعمق الروابط بينالعالم اليونانى ومصر . ان التقدم المبر الذى حقته الحضارة اليونانية من مراكزها الاوروبية فى القرن الخامس ق.م ، والدورالتاريخى الدولى البارز والنشيط الذى قامت به هذه المراكز - خاصة اثينا - فى تلك الفترة ، يجعلنا فى كثير من الاحيان ننسى بسهولة زائدة انه فيما يتعلق بموضوع علاقات مصر الوثيقة ببلاد اليونان ، فانها كانت فى الحقيقة فى مجملهاعلاقات مع اليونانيين الآسيويين فى الاطراف الشرقية للعالم اليونانى وليست مع بلاد اليونان البلقانية . والجدير بالذكر فى هذا السياق ان كلمة "هلينيين" اليونانية لا تترجم قط فى النصوص الديموتيقية سوى بكلمة " وينن - WYN-N " وهى الكلمة المصرية لمعنى " الايونيين " . بل ان كلمة "حانيوت" التى كانت تدل احيانا على الاجانب عموما بالنسبة لسكان

(٩) الكتاب الثانى ، ٣٥ .

Myres, Op.Cit., pp. 2-3.

(١٠)

وادي النيل ، ثم صارت تطلق على مجموعة الشعوب التي كانت تسكن آسيا الصغرى ، انتهى بها الامر فيما يبدو ان اصبحت تطلق على الايونيين وحدهم (١١) .

فأول اتصال مباشر فيما نعرف بين اثينا ومصر كان قبل منتصف القرن الخامس بقليل ، وكانت مصلحة اثينافي محاربة الفرس وشل حركتهم وكذلك حاجتها الى قمح وادي النيل هي الدوافع الحقيقية للتحالف مع ايناروس INAROS بن بسماتيك الماوى ، الذى كان قد تزعم ثورة ضد الفرس فى غرب الدلتا . ففى عام ٤٥٩ ق.م وصل الى مصر اسطول اثينى كبير لمساعدة الثورة ، وكانت الحالة حينئذ تبشر بالنجاح . ذلك ان ايناروس كان قد تمكن بالفعل من هزيمة قوات الاحتلال الفارسية وقتل قائدها . غير ان حامية منف كانت لا تزال تقاوم ، كما كان هناك اسطول فارسى صغير فى النهر يشد من ازرها . فامكن بسرعة التخلص من هذا الاسطول ، وسيطر الاثينيون وحلفاؤهم على النهر - حسيما بينبنا شو كيد يدس - وافلحوا فى استرداد منف . ومع ذلك تمكنت الحامية الفارسية من التحصن فى قلعة داخل المدينة ودافعت عنها بنجاح . وهكذا استمر حصارها حتى عام ٤٥٦ ق.م . ولكن بعد وصول الجيوش الفارسية الجرارة انتهت الحملة الاثينية فى مصر بكارثة محققة وهلك اغلب رجالها ومعهم الامدادات التى ارسلتها اثينا وحلفاؤها ، فى حين وقع ايناروس نفسه فى قبضة الفرس فقتلوه (٤٥٤ ق.م) (١٢) . وصحيح ان الثورة

(١١) جان فركاتيه ، قداماء المصريين والاغريق ، ترجمة محمد على كمال وكمال دسوقى ، مراجعة محمد صقر خفاجه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٦ - ٣٩ .

(١٢) Thucydides, I.104, 109-110; P. Meiggs. The Athenian Empire (Oxford, 1972), pp. 101-108, 267; H.S. Smith, A visit to Ancient Egypt (Life at Memphis and Saqqara, C. 500-30 B.C.), England 1974, p.3.

استمرت في الدلتا بقيادة اميرتايوس AMYRATAEUS، الا انها حوصرت في المستنقعات بينما استعادت فارس بالفعل سيطرتها على كل مصر . ولقد حاول الزعيم الاثيني كيمون CIMON بعد ذلك ، اثناء قيامه بحملة في قبرص (٤٤٩ ق م) ان يقدم العون الى امير تايوس ، فارسل اليه ستين سفينة ، ولكنها عادت مسرعة دون ان تفعل شيئا ، على ما يظهر بسبب مصرع كيمون في قبرص^(١٣) . ولا مرأء فى ان الحملة الاثينية فى مصر كانت نكبة على اثينا واثرت بشكل مباشر فى مركزها وفى سياستها فى شرق البحر المتوسط ، وهزت من مكانتها بين حلفائها الايونيين ، حتى انها وجدت نفسها مغلولة اليدين فى محاولة استعادة قبضتها على الحلف^(١٤) ، فاخذت تفكر جدا فى اقامة وفاق مع الملك الفارسى .

هكذا كانت الحملة الاثينية فى مصر بداية مثيرة فى علاقات بلاد اليونان اللقانية مع مصر ، ولكن لم يكتب لها التواصل فى ذلك الوقت ، بل ان "صلح كاللياس PEACE OF CALLIAS (٤٤٩ ق م) كان يعنى فى الحقيقة - بين امور اخرى - تخلى اثينا تماما عن مصر للفرس ، كما سوف نشير بعد قليل .

وعلى النقيض من ذلك نجد ان علاقة مصر باليونانيين الاسيويين او الشرقيين علاقات قديمة ومتجددة على السدوام حتى عصر كاتينا (وبعد عصره بلا جدال ، وان كان هذا خارج مجال دراستنا هذه) . اما انها علاقات قديمة ، فهى تعود على الاقل الى بداية عهد بسماتك PSAMMETICHUS الاول (٦٦٤ - ٦١٠ ق م) . فطبقا لرواية هيرودوت ، كان "الرجال البرونزيون" الذين استخدمهم هذا الملك فى الوصول الى

Thucydides, I.112; Meiggs, Op.Cit., p.126.^(١٣)
Meiggs, Op.Cit., pp. 111,116,118;123-124. ^(١٤)

عرش مصر جنودا مرتزقة من " الايونيين و الكارييين"،
وبمساعدهم تمت له السيادة على كل وادى النيل (١٥) . وقد
اجزل لهم بمساتيك العطاء وشجعهم على الاستيطان فى مصر
بان اعطاهم اراضى ليسكنوها فى الدلتا . وكان هؤلاء عنصرا
هاما من عناصر توثيق الصلات بين مصر وعالم شرق بحر ايجيه .
وهيرودوت نفسه بقرر انه " يسكنى هؤلاء مصر وبفضل اتصال
اليونانيين بهم عرفنا تماما كل ما جرى بمصر ابتداء من
حكم بمساتيك وما بعده " (١٦) .

واما انها متجددة على الدوام ، فان الملوك الذين
حكموا مصر بعد بمساتيك الاول ساروا على نهجه ، فجنودوا كل
من استطاعت اموالهم تجنيدهم من المرتزقة الايونيين
والكارييين (١٧) . ويخبرنا هيرودوت ان الملك ابريس
IPRIES (٥٨٨ - ٥٧٠ ق م) كان معه ثلاثون الف جندى
مرتزق من الكارييين والايونيين " (١٨) . بل ان اماسيس
AMASIS (٥٧٠ - ٥٢٦ ق م) اتخذ من الجند الكارييين
والايونيين حرسا خاصا له (١٩) .

ولا شك فى ان كثيرين من اهالى هاليكارناسوس ذاتها -
وطن هيرودوت - احترفوا الجندية فى خدمة مملك مصر . وهيرودوت
نفسه هو مصدرنا عن كيف ان احد مواطنيه ، ويدعى فانس
PHANES ، كان يعمل فى خدمة الملك اماسيس ، غير انه
حمل ضغينة على سيده فخانه ولجا الى قمبيز . ولما كان ذا
حيثية فى جيش مصر فانه كان يعرف معلومات دقيقة وخطيرة
عن الظروف الداخلية للبلاد ، فلا عجب ان كان لمشورته اكبر

(١٥) الكتاب الثانى ، ١٥٢ - ١٦٣ .

(١٦) نفسه ، ١٥٤ .

(١٧) J.Boardman, The Greeks Overseas (1973), pp. 113-114.

(١٨) الكتاب الثانى ، ١٦٣ .

(١٩) نفسه ، ١٥٤ .

الاشتر في انجاح عزوة الفرس لها وضما الى الامبراطورية
الفارسية (٢٠) .

كانت سياسة ملوك العصر الصاوى تتسم بالعطف على
اليونانيين وثقافتهم . وقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى ان
اشنين منهم على الاقل ، وهما بسماتيك الاول وامايسس ،
استحقا ان يطلق عليهما الكتاب اليونانيين القدماء لقب
PHILELLEN اى "محب لليونانيين" (٢١) . فيخبرنا
هيرودوت ان الملك نخاو الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) - او
نيكوس NEKOS بن بسماتيك كما يسميه - ارسل الى معبد
البرانخيد اى BRANCHIDAE فى ميليتوس ، الملابس التى
كان يرتديها اثناء قيامه بحملته الناجحة فى سوريا
(٦٠٨ ق.م) ، ووهبها لابوللون (٢٢) . وان امايسس " اشتهى
ان تكون له امرأة يونانية " ، فتزوج بالفعل من سيدة من
اهل كورينى (بركة) تدعى لاديكى (٢٣) . وانه - اى امايسس -
ساهم بمبلغ كبير فى اعادة بناء معبد دلفى الذى كان قد
احترق (٢٤) . وانه ارسل ايضا الهدايا الى بلاد اليونان ،
بصفة خاصة الى كورينى وليندوس وساموس (٢٥) . غير ان
نقراطيس تبقى اعظم مآثرة قدمها ملوك العصر الصاوى لليونانيين
وربما من المناسب ان نتذكر هنا ان مصدرنا الادبى الاول

(٢٠) انظر Herodotus, III, 4-7, 11; A.W. Lawrence, The History of Herodotus of Halicarnassus, The Translation of G. Rawlinson Revised and Annotated (Bloomsbury, 1935), p. 246 (Note on chapter 4, "Phanes")

(٢١) انظر Diodorus, I. 67. 809 فى وصف بسماتيسك الاول .
وهيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٧٨ ، فى وصف امايسس .
(٢٢) الكتاب الثانى ، ١٥٩ ، انظر ايضا ، Boardman, Op.cit., p. 113.

(٢٣) الكتاب الثانى ، ١٨١ .
(٢٤) نفسه ، ١٨٠ .
(٢٥) نفسه ، ١٨٢ .

والرئيسى عن نقراطيس هو هيرودوت نفسه (٢٦) . فيذكر مورخنا ان المدن التى ساهمت فى بناء الهلينيوم HELLENIUM - اكبر معابد المدينة واشهرها واكثرها روادا حسب روايته - هي خيوس CHIOS ونيوس TEOS وفوكايا PHOCAFA وكلازوميناى CLAZOMENAE ورودس RHODES وكنيدوس CNIDOS وهاليكارناسس - وطن هيرودوت - وفاسلسى PHASELIS وسيتيلينى MYTILENE . وان هذه المدن التسعة هي اما التى تعين القناصل الذين يشرفون على التجارة فى المدينة PROSTATAI TOU EMPORIOU . ومما تجدر ملاحظته ان هذه المدن جميعها مدن يونانية آسيوية - ليس بينها مدينة يونانية اوروبية واحدة . وغير هذه المدن التسعة يذكر هيرودوت ثلاث مدن اخرى ، كان لها اماكن عبادة منفصلة فى نقراطيس . فقد "بنى اهل اجينا AEGINA - على حده - معبدا لزيوس خاصا بهم ، وبنى اهل "ساموس" معبدا لهيرا ، والملطيون آخر لابللون" . ونلاحظ هنا ايضا انه فيما عدا جزيرة اجينا كانت هذه المدن مدنا يونانية آسيوية .

(٢٦) نفسه ، ١٧٨ - ١٧٩ . عن المصادر الادبية المتأخرة ، انظر M.M.Austin, Greece and Egypt in the Archaic Age (Proceeding of the Cambridge Philological Society, 1970, pp. 22-23, 29 الجدير بالملاحظة ان الادعاء القائل بان نقراطيس كانت موءسسه ملطية بذكرنا بالادعاء الطريف القائل بان "سايس" ، حاضرة مصر فى عصر الاسرة السادسة والعشرين ، اسسها اثينيون . انظر فى ذلك وعن نشأة نقراطيس انظر : - Austin, Op.Cit., pp.23-32, cf. F.W. Von Bissing, "Naukratis", (Societe Royale d'Archeologie d'Alexandrie, No. 39, 1951. pp. 35-45; C. Roebuck, "The Organization of Naukratis", (Classical Philology, XLVI, 1951), pp. 216-217.

وعندما ضاقت الحياة السياسية بهيرودوت في مدينته ، هجرها الى جزيرة ساموس القريبة (٢٧) ، حيث كان الساس هناك لا يزالون يذكرون هدايا اساس للجزيرة في اطارتوثيق صلات المودة والكرم بينه وبين وليكراتيس (٢٨) POLYCRATES (طاغتها من حوالى عام ٥٤٠ حتى ٥٢٢ ق.م)

وهكذا يتبين لنا ان هيرودوت ولد ونشأ في مدينة كانت هي وكل ما حولها يرتبط بروابط وشيقة مع مصر ، وفي الحقيقة كانت الظروف الجغرافية ملائمة تماما لاقامة صلات سهلة ومباشرة بين الدويلات اليونانية الآسيوية وبين مصر . وسرعان ما اصبح وادى النيل في عصر ملوك الاسرة السادسة والعشرين مركز جذب هام لليونانيين الآسيويين . ثم جاء الغزو الفارسى لكى يزيد - دون قصد بطبيعة الحال - من عمق هذه الصلات وسهولتها . فبعد منتصف القرن السادس ق م قليل ، استولى قورش الاكبر على بلاد اليونان الآسيوية . وفي عام ٥٢٥ ق م غزا خليفته قمبيز مصر . وبذلك وجدت مصر وبلاد اليونان الآسيوية نفسيهما معا تحت مظلة الامبراطورية الفارسية ، وفتحت ابواب مصر على مصاريعها امام اليونانيين الآسيويين . بهذا الصدد يسجل لنا هيرودوت في فقرة هامة ما لى : " اثناء حملة قمبيز في مصر وفد على الملاد عدد كبير جدا من اليونانيين لسبب او لآخر . فبعضهم كما كان متوقعا -

PH.-E. Legrand, Herodote, Introduction, (٢٧) notice preliminaire sur la vie 9-11; Burn, Op.cit., P. 11.

(٢٨) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٨٢ . انظر ايضا الكتاب الثالث ، ٣٩ - ٤٧ . الرسالة الى يوردها هيرودوت في هذه الفصول الاخيرة ، ويزعم ان اساس نعت بهسا الى بوليكراتيس ، ورد الاخير عليها ، يمكن طبيعة الحال الشك بسهولة في صحتها . غير انها تعكسان اهمية وعمق العلاقة بين اساس وبوليكراتيس ، على الاقل في تصور معاصر هيرودوت نفسه .

جاءوا بغرض التجارة ، وبعضهم جاءوا للخدمة فى الجيش ، ولكن آخرين بلا ريب زاروا مصر لمجرد حب الاستطلاع وليشاهدوا ما يمكنهم مشاهدته " (٢٩) .

وكلمات هيروdotus هذه واضحة ولا تدع مجالاً للشك فى الاثر الكبير الذى احدثه الغزو الفارسى على تطور العلاقات بين مصر والعالم اليونانى ، وحتى السياحة اليونانية فى مصر نشطت وراجت شكل ملحوظ . اما التجارة بين مصر وعالم بحر اجمه فقد ازدهرت على حين بفترة نتيجة لهذه المستجدات السياسية . فقد اوجد غزو الفرس لمصر وضمها الى الامبراطورية الفارسية عوامل عدة كان من شأنها اعطاء دفعة كبيرة لتجارتها الخارجية مع المدن الدول اليونانية الآسيوية . وابرز هذه العوامل تتمثل بطبيعة الحال فى المظلة الفارسية ذاتها التى شملت الطرفين معا . فلم تعد هناك حكومة مصرية تضع الحدود وتنظم وتقنن المعاملات الخارجية وفق مصالح قومية او محلية فى آخر الامر ، مهما كان تعاطف الملوك مع اليونانيين . وهيروdotus نفسه يؤكد لنا ان نقراطيس - على سبيل المثال - كانت فى ظل ملوك الاسرة السادسة والعشرين تتمتع بمكانة ممتازة جعلتها تحتكر التجارة مع العالم اليونانى . "فاذا بلغ احد ما داخل مص آخر من مصاب النيل ، وجب عليه ان يقسم انه لم يأت بمحض رغبته . وبعد القسم كان عليه ان سحر بسفينته وحمولتها الى المصب الكاينوى (حيث تقع نقراطيس) . واما اذا استحال عليه عليه ان ينقل بضاعته فى قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل الى نقراطيس" (٣٠) . غير ان نقراطيس فقدت خصوصيتها هذه بعد ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية اذ فتحت ابواب مصر على مزاريعها امام التجار اليونانيين الآسيويين دون قيود حتى اصحت البلاد تضم جاليات يونانية

Herodotus, III, 39.

(٢٩)

(٣٠) الكتاب الثانى ، ١٧٩ .

ولاية فارسية اخرى . وقد شجع هذا التدفق بلا ريب انه فى عهد الملك الفارسى داريوس الاول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) تم حفر ، او بالاحرى تم اعادة حفر القناة التى وصلت النييل بالبحر الاحمر عن طريق " وادى الطمليات " ، فربطت بذلك بين البحرين الاحمر والمتوسط^(٣١) ، وجعلت مصر بالتالى ، اكثر من اى وقت مضى ، حلقة اتصال رئيسية بين الشرق والعالم اليونانى .

ومنذ ان استعان سوماتيك الاول "بالرجال البرونزيين" ، لا نكاد نلاحظ حدثا حربيا هاما فى تاريخ وادى النييل لم يكن للمرتزقة الايونيين والكاريين دور بارز فيه^(٣٢). ولم يتوقف هذا الدور بعد ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية بل لعله زاد . فكما سبق ان لاحظنا مع ابي التاريخ . ان بعض اليونانيين الآسيويين الذين تدفقوا على مصر اثناء حملة قمبيز فيها ، جاءوا اليها بغرض الخدمة فى الجيش . وصحيح ان الاحتلال الفارسى لمصر (فى الفترة الاولى) استمر حتى عام ٤٠٤ ق.م ، غير ان المصريين لم يستكنوا له ابدا . بل لجأ كثيرون منهم فى مقاومته الى السلاح حتى اخذت رياح الثورة تهب على البلاد . وفى الفترة التى سبقت زيمارة هيروdot لمصر اندلعت فيها على الاقل ثورتان كبيرتان (٤٨٦ و ٤٦٠ ق.م) . هذا الصراع ضد الفرس اعطى بعدا جديدا لاستخدام المرتزقة اليونانيين . فكثير من اليونانيين - حسب قول الخطيب الامشى ديموشثينيس - دفعهم " الفقر والخبثه فى اثاره انفسهم " الى تقديم خدماتهم العسكرية التى كل من يدفع لهم . وهكذا كان هناك مرتزقة يونانيون حاربون فى صفوف المصريين ضد الفرس ، بينما كان هناك آخرون

(٣١) نفسه ، ١٥٨ .

(٣٢) انظر على سبيل المثال ، الكتاب الثانى ، الفصول ١٥٩ ،

حاريون في الجيش الفارس ضد المصريين (٣٣) . ومن ناحية اخرى كان الفرس يجندون قسما رئيسا من قواتهم من بين اهالي الولايات الفارسية ويضمنها مصر . فاذا كان الملك الفارسي كسيركسيس قد احرز نجاحا ما في معركة ارتيسسيوم ARTEMISIUM البحرية الشهيرة (٤٨٠ ق.م) فان ذلك، كما يؤكد هيرودوت ، كان على يد الجنود المصريين فسي اسطوله . "ففي تلك الموقعة البحرية من بين كل مقاتلي كسيركسيس ، الى المصريون بلاء حسنا ، فالى جانب بطولات اخرى كثيرة حققوها فانهم تمكنوا من أسر خمس سفن يونانية ومعها اطقمها" (٣٤) .

ولا مراة في ان الحروب الفارسة - اليونانية ، وان لم تلعب فيها مصر دورا حاسما ، قد ربطت ما بين مصر - بلاد اليونان الآسيوية ومصر الى حد كبير . فكما اشرنا من قبل ، ان النهاية المأساوية التي انتهت اليها الحملة الاثينية في مصر قد ادت الى اشارة مشاعر الاستياء بين حلفاء اثنا الايونيين على وجه الخصوص ، الذين شعروا انهم اتوا مهددين مرة اخرى بالفرس ، ورأى بعضهم ان توقعاتهم بالنسة لقوة اثينا ومقدرتها لم تكن صحيحة فامتنعوا عن دفع الخصة المقررة لها (٣٥) . ثم ما ليث اثينا ان اتجهت الى اقامة نوع من الوفاق فيما بينها وبين فارس ، وهو ما عرف فسي

Domosthenes, on the Navy-Boards, 31.cf. (٣٣)
Diodorus, XI-71; XV. 29, 41,92, XVI. 42.

Herodotus, VIII,17. cf. How and Wells, Op. (٣٤)
Cit., II, p. 239. See also Herodotus, VII,
34, 89; VIII, 68,100; IX, 32., Dio Chrysostom,
On Kingship, 45.cf. H.R.Hall, "The Restoration
of Egypt", (The Cambridge Ancient History, III,
1925, reprinted 1970), p. 315.

Meiggs, Op.Cit., pp. 123-124; V. Ehrenberg,(٣٥)
From Solon to Socrates, Greek History and
Civilization During the 6th and 5th Centuries
B.C. (London,1973), p.224.

التساريف باسم "ملح كاللياس" (٣٦) . وجوهر الاتفاق الاثيني - الفارسي كان في الحقيقة يقوم على فصل محدد لمناطق العمليات العسكرية والمصالح لكل منهما في عالم شرق البحر المتوسط . اذ اتفق الطرفان على ما يبدو على ان يكون الخط الوهمي الممتد من البوسفور في الشمال الى فاسيليس في الجنوب حدا فاصلا بين القوتين . وبمعنى آخر ان اثيناتخلت في الواقع عن ايونيا للفرس . ولكنها في نفس الوقت تخلت ايضا عن مصر (فضلا عن قبرص) (٣٧) . فاصح اليونانيون الاسويين وابناء النيل بذلك حلفاء من نوع ما في حقيقة الامر يجمعهم تشابه الظروف .

وكما نرى فان علاقات مصر ببلاد اليونان الآسيوية علاقات قديمة ترجع على الاقل الى القرن السابع ق.م وهي علاقات راسخة ومتعددة الوجوه ، ازدادت رسوخا وازدهارا بمرور السنين . ولم تفعل المستجدات السياسية في شرق البحر المتوسط سواء الغزو الفارسي لمصر او احداث الحروب الفارسية اليونانية ونتائجها ، سوى توثيق هذه الصلات وتشعبها . وكان طبيعيا ان تسيطر مصر بثقلها الحضاري على افق اليونانيين الآسيويين . ويعتقد المؤرخون المحدثون بحق ان مصر احتلت بالفعل المكان الاول في تأملات وافكار ودراسات

(٣٦) عن هذا الملح انظر

Meiggs, Op.Cit., PP. 129-151, 598-599; Ehrenberg, Op.Cit., PP. 446-447 (note 74) .

(٣٧) اذا صح ما تردد في بعض المصادر (وليس هناك ما يجزم بصحتها) من ان الاتفاق اشتمل على انشاء منطقة محايدة على ساحل آسيا الصغرى ، فان هذا الامر لا يغير من حقيقة ان اثينا ، ومعها وطفاءها من اليونانيين الاوروبيين قد تخلوا في الواقع عن بنى جلدتهم اليونانيين الاسويين . انظر : Ehrenberg, Op.Cit., P. 225 .

اليونانيين النابهين منذ ما قبل عصر هيرودوت (٢٨) ، فاذا كانت زيارة مصر قد اصبحت فيما بعد - وحتى نهاية العصر الروماني على الاقل - بندا اساسيا في قائمة معارف كل عظماء ومشاهير الرجال (٢٩) ، فان الدلائل تشير الى ان هذا التقليد بدأ اول ما بدأ بين اليونانيين الآسيويين ، والى ان عسدا كبيرا من علمائهم وكتابهم وفنانينهم حرصوا على زيارة وادى النيل . فالذين تدفقوا على مصر في العصر المصاوي لم يكونوا نقت جندا مرتزقة وتجارا - وان كان هو لا يلاشك هم غالبية المستوطنين الايونيين والكاريين . ففي الحقيقة كان كل القسم الجنوبي من ايونيا بصفة خاصة يرسل الى مصر السباح والدارسين من المشاهير ورجال العلم (٤٠) . فكثير من العلماء اليونانيين ، سوا قبل هيرودوت او في عصر هيرودوت نفسه ، ممن اهتموا عن قرب بمصر ، زاروها بفرض جمع المادة العلمية لاعمالهم . ولعل اشهر هؤلاء هو هيكاتايوس HECATAEUS الملطي ، ولكن كان هناك آخرون غيره بالتأكيد (٤١) . فهيرودوت لم يكن بأى حال اول النابهين الذين زاروا مصر من اليونانيين الآسيويين ، وانما سبقه اليها كثيرون ، ويبدو مؤكدا انه جاء الى مصر ومعه ذخيرة

W.H.Heidel, "Hecataeus and the Egyptian Priests in Herodotus, Book II, (American Academy of Arts and Sciences Memoirs, XVII, 2, 1935), P.11 note 270. (٢٨)

J.G. Milne, "Greek and Roman Tourists in Egypt (Journal of Egyptian Archaeology, 1916)pp. 76-80. اظر : (٢٩)

C.Sourdille, La Duree et l'Etendue de Voyage d'Herodote en Egypt. (Paris, 1910), P.70. (٤٠)

D.Mallet, "Les Rapports des Grecs avec l'Egypt" (Memoires Publies par les Membres de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire, 48, 1922), pp. 25-26, 36. (٤١)

من نتاج تأملات وافكار وتجارب سابقيه من الكتاب والرحالة
والعلماء الايونيين (٤٢) .

وجلى ان رحلة هيروdot الى مصر كانت من بين اخريات
رحلاته واطولها ايضا (٤٣) . وفى وسعنا ان نفترض انها كانت
ايسرها كذلك . ذلك انه جاءها بعد سنوات من نجاح الفرس
فى القضاء على ثورة ايناروس (٤٦٠ - ٤٥٤ ق م) الخطيرة
فى الدلتا ، وما صاحب ذلك من اباداة الحملة الاثينية ، كما
ذكرنا . وفضلا عن ذلك فقد جاءها بعد صلح كاليباس (٤٤)
اندى اخرج القسم الشرقى من بحر ايجه من دائرة الصراع الاثينى
الفارسى . وقد وفر هذان العاملان بلا جدال فرصة حقيقية
للامن وبعثا على الطمأنينة (٤٥) - اصف الى ذلك ظروف مصر
الجغرافية بوصفها بلد سهل الوصول الى جميع مراكزه الهامة
بطريق نهر النيل دون مشقة كبيرة - فحتى الاهرام وصل
اليها بسهولة فى قارب ، اذ كان الوقت فصل الفضان (٤٦) .

وكانت هناك عوامل اخرى جعلت من رحلة هيروdot فى
مصر يسيرة سهلة فالجاليات اليونانية كانت منتشرة فى رسوع
انبلاد . وفضلا عن ذلك فانه كان يستطيع ان يسلك طريقه

(٤٢) انظر : Burn, Op.Cit., pp. 25-27; How and Wells, Op.Cit., pp. 22-29; Myres, Op.Cit., pp. 23-23.
Sourdille, Op.Cit., pp. 5-28. (٤٣)

وهو يعتقد بان زيارة هيروdot قامت نحو اربعة شهور
من اواخر شهر يوليو او قبل ذلك بقليل حتى نهاية شهر
نوفمبر او بعد ذلك بقليل . وقد اخذ بهذا الرأى جمهور
المؤرخين المحدثين ، غير ان بعضهم يرى ان هيروdot
ربما قام برحلة ثانية لوادى النيل. انظر فى ذلك :

Myres, Op.Cit., P. 152/

How and Wells, Op.Cit., I, P. 5: "Herodotus' (٤٤
visit to Egypt may be dated almost certainly
after 449 B.C.", cf. Ibid., P. 411. (٤٥)

Ibid., P.411: "The Persians seem to have
been in peaceful possession of Egypt". (٤٦)
Myres, Op.Cit., P. 152.

بلغته اليونانية ابنا ذهب ، وداثما يرد من يفهمها ويستطيع ان يحدثه بها (٤٧) . فعن طريق المستوطنين اليونانيين بدأ بعض المصريين يتعرفون على اللغة اليونانية . ولم يكن هذا فقط النتيجة الطبيعية للمعاملات اليومية مع اليونانيين في الجيش وفي السوق ، ولكن ايضا لان هذه اللغة نالت تشجيعا رسميا بواسطة الملوك الصاويين . فهيرودوت يسجل لنا ان بسماتك لم يعط الايونيين والكاريين الذين ساعدوه في الوصول الى العرش اراضي ليسكنوها في الدلتا فحس ، بل ايضا "عهد اليهم بصية مصريين لتعلموا اللغة اليونانية" (٤٨) . وفي زمن هيرودوت كان عدد المصريين الذين يعرفون اللغة اليونانية ملحوظا . وطبعي بالنسبة لرحالة يوناني مثل هيرودوت كان المترجمون الذين يجيدون اللغة اليونانية ظاهرين بوضوح امامه اينما ذهب حتى انه عددهم طبقة من الطبقات السعة التي ظن ان المصريين ينقسمون اليها (٤٩) .

وقد افلا عن كل ذلك ، شمة عامل آخر جعل الكتاب الثاني يختلف عن باقى مؤلف هيرودوت في طابعه وفي ثراء مادته . فالدراسات النصية ترجح ان هيرودوت كتبه على حدة ، وبعد ان كان قد فرع بالفعل من كتابة باقى "التواريخ" ، ثم ادخله في مكانه الحالي آخر الامر . وبمعنى آخر ان الكتاب الثاني كان في ارجح الاحتمالات آخر جزء كتبه ابو التاريخ ، وهو لذلك يمثل مرحلة متأخرة في حياته ونضجه بعد التجربة والخبرة الطويلة (٥٠) .

Burn, Op.Cit., P.9.

(٤٧)

Diodorus, I, : انظر ايضا ، ١٥٤ ، الكتاب الثاني ،

(٤٨)

67, 8-9.

الكتاب الثاني ، ١٦٤ . قارن

(٤٩)

D.J.Mosley, "Greeks, Barbarians, Language and Contact", (Ancient Society, II, 1971) P.3.

How and Wells, Op.Cit., P. 14; cf. Myres, Op.Cit., P. 23: "Book II was a separate Composition".

ولا مراة في ان مصر الارض والنهر شغلت العلمماء
 والمفكرين اليونانيين مثلما شغلتهم حضارة وخصال شعب وادى
 النيل . فهيرودوت انما جسد الرأى السائد فى عصره عندما
 يمجّد النيل بوصفه اعظم الانهار جميعا واطولها ، فلا يوجد
 نهر آخر " يستحق ان يقارن - من حيث الحجم - بأحد فروع
 النيل " ، كما لا توجد انهار اخرى يمكن ان "تقاس بالنيل
 فى عظمتها" (٥١) . كان نهر النيل فى نظر هيرودوت فريدا فى
 بابه ، أشار فى نفسه شغفا شديدا ، لم ينكره ، لمعرفة
 طبيعته واسرار فيضانه وقوته التى اعتقد ان بها تختلف
 طبيعته عن سائر الانهار . بل انه شغل نفسه بتفصيلات دقيقة ،
 فحاول ان يجتهد لمعرفة "السبب فى ان النيل وحده - دون
 سائر الانهار - لا يهب على صفحاته نسيم" (٥٢) وفى الحقيقة
 كانت منابع النيل وطبيعته يشكلان لغزا مزدوجا امام العلمماء
 الطبيعيين اليونانيين قبل زمان هيرودوت وفى ايامه ، تأسر
 خيالهم وتفكيرهم العلمى معا . فهيرودوت يذكر لنا ان "بعض
 اليونانيين - وقد ارادوا ان يشتهروا بالحكمة - ذهبوا فى
 تفسير ظاهرة فيضانه ثلاثة مذاهب مختلفة" (٥٣) . وبمعنى آخر
 كانت هناك ثلاث نظريات يونانية على الاقل فى تفسير ظاهرة
 واحدة من ظواهر النيل ، ذكرها هيرودوت كلها لكى يدحضها
 ولكى يتبنى هو نفسه نظرية رابعة رأى انها الارجح (٥٤) . وألف
 ثوب عالم الطبيعة فتطوع لتفسير ظاهرة عدم هبوب الرياح
 على سطح النيل (٥٥) . ثم أسرت مشكلة سر منابع النيل ،
 مثلما أسرت أهل زمانه وما قبل زمانه من العلمماء اليونانيين
 الآسيويين (٥٦) . ولكن هنا امسك هيرودوت عن استخلاص نتيجة

(٥١) الكتاب الثانى . ١٠ .

(٥٢) نفسه ، ١٩ .

(٥٣) نفسه ، ٢٠ - ٢٣ .

(٥٤) نفسه ، ٢٤ - ٢٥ .

(٥٥) نفسه ، ٢٧ .

(٥٦) W.G. Waddell, Herodotus Book II (London, 1939), pp. 147-8.

محددة ، وحاول باللوب " الاستدلال من المعلوم على المجهول" ان يحيط عن قرب قدر استطاعته بهذا السر الغامض المزعج ، وذلك بعمل قائمة بالفروض المتعددة الخاصة بمصادر النهر (٥٧).

ومثلما اعتقد هيرودوت بان نهر النيل يختلف عن سائر الانهار ، تصور ايضا ان شعب وادي النيل يختلف عن باقي الشعوب . فقد قدم ابو التاريخ لما وصفه "بالحديث الطويل" عن مصر بتقرير قاعدة مشرة تربط في ظاهرها باحكام ما بين طبيعة البلاد ومناخها - على نحو ما اعتقد به هيرودوت - وبين طباع السكان وعاداتهم . "فنظرا لان مناخ مصر منقطع النظير ولان نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الانهار ، لذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم" (٥٨) . ثم يستطرد هيرودوت فيضع امام القارىء العديد من الامثلة التى تدل من وجهة نظره على صدق مقولته وسلامة القاعدة التى صاغها واتخذ منها مدخلا لفهم الشخصية المصرية فى عصره ، او بالاحرى اتخذ منها مدخلا لتقديم الشخصية المصرية لقرائه . وصحيح انه ذكر امورا نستطيع ان نفهمها بسهولة ونجد ما يوءدها فيما وصل الينا من تراث مصر القديمة ، بل ربما نلمس بقايا بعضها ما زالت حية فى عادات وسلوكيات اهالى مصر فى عصرنا هذا ، الا انها فى مجملها لا تكفى لتبرير مقولته بان المصريين اختلفوا كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم . كما ان بعضها لم يكن قاصرا بالتاكيد على ابناء النيل . غير ان هيرودوت لم يلبث ان اسرف فى تعميماته حتى ذكر امثلة يمكن اثبات زيف بعضها دون عناء بمجرد مقابلتها بما وصل الينا من تراث مصر القديمة . بل ان

(٥٧) الكتاب الثانى ، ٢٨ - ٣٤ .

(٥٨) نفسه ، ٣٥ - ٣٦ ، احمد دوى ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١٢٤ . وانظر ايضا :

How and Wells, Op.Cit., pp. 179-182.

بعضها الآخر يرفضها العقل او المنطق السليم من اساسها، حتى ان عالما في المصريات رأى من الخير الا يعلق عليها، "ذلك لان التعليق عليها قد يوهم القراء اننا نضعها موضع الجد ولو فعلنا لكنا اذا من الهازلين" (٥٩) .

ومع ذلك فنبغى ان نلتصم العذر هنا لابي التاريخ ، فقد كان جلال مجد مصر يروعه وقدم حضارتها يبهره ، فأمن بخصوصيتها وتفرداها بين سائر الأمم ، وحاول ان يجسد هذا الاعتقاد وان ينقله الى قرائه فانزلق في شرك المغالاة . وعلى اية حال فالأمثلة التي ذكرها قليلة في مجموعها ، واكثرها قليل الأهمية ، وكلها تقريبا تتعلق بتفاصيل الحياة اليومية ، ولا تدخل في مجال التقاليد او الاعراف الجوهريّة التي تقوم عليها المجتمعات .

فقد كان اليونانيون يدركون تماما انهم شعب "حديث" بالقياس الى شعب وادي النيل صاحب الحضارة العريقّة . فاذا كانوا في عالم اليوناني لم يجدوا اقدم من هوميروس وملحمته الهامّة والوديسا لاعطائهم احساسا زائفا بالبعد الزمني في ماضيهم ، فانهم في مصر وجدوا بالفعل العامل الرئيسي في وحدة الجنس البشري ، الا وهو " الزمن التاريخي" . فمصر هي اقدم البلاد ، تتفوق على غيرها بطول تاريخها وبعدها دورها في عمق الزمن .

وبهذا المفهوم يبدأ هيروdot في الحقيقة كتابه الثاني . وكعادته دائما فهو لا يترك فرصة تسنح له دون ان يمارس عبقرية القصاص فيه . فيذكر انه "قبل حكم بسامتيك (الاول) ،

(٥٩) أحمد بدوي ، المرجع السابق ، ص ١١٨ ، قارن ايضا :
Lawrence, Op.Cit., P. 160: "Such sweeping generalities could hardly be accurate and where they can be tested by the monuments it appears that truth has often been sacrificed to rhetorical effect".

كان المصريون يعتقدون انهم اقدم الناس في الوجود . ولكن لما تولى بسماتيك الحكم اراد ان يعرف اى الشعوب اقدم . ومنذ ذلك الحين يعتقد المصريون ان الفرجيين اسبق منهم ، وانهم انفسهم اقدم من الآخرين جميعا " . وبعد هذه المقدمة المثيرة للانتباه بحكى لنا ما سمعه من قصة التجربة التى زعم له رواها بان هذا الملك اجراها على طفلين حديثى المولد . ثم يخلص آخر الامر الى ان المصريين ، فى ضوء ما اسفرت عنه هذه التجربة المشوقة ، " اعترفوا وحكموا بأن الفرجيين اقدم منهم " (٦٠) .

والنتيجة غير المتوقعة "لتجربة بسماتيك" هذه تستجيب فى اغلب الظن الى مقاصد جدلية تكاد تكون واضحة غير مستورة . فعلى الرغم من ان هيرودوت يدعى بانسه سمع من كهنة هيفايستوس (بتاح) فى منف ان الامر قد حدث كما شرح ، الا ان القصة كلها تبدو يونانية الهوى وليست مصرية الاصل ، يرى المؤرخون المحدثون انها نسجت على منوال يونانى غريب على القصة المصرية ، ونشأت اغلب الظن بين بعض اليونانيين الذين ربما بدافع من الغيرة ارادوا ان يلقوا ظلالة من الشك على واحدة من ابرز سمات الحضارة المصرية واكثرها اشارة لمشاعر الفخر والاعتزاز عند المصريين ، الا وهى انهم اقدم الشعوب وان حضارتهم هى اقدم الحضارات . والقصة بعد ذلك تختلف فى بعض تفصيلاتها التى " يرويها اليونانيون فيما يروون من سخافات متعددة " - على حد تعبير هيرودوت نفسه (٦١) .

وعلى اية حال فان قصة "تجربة بسماتيك" فى حد ذاتها وبصرف النظر عن مدى صحتها تاريخيا ، تشير الى ان الموضوع المطروح فيها - قدم مصر وعراق شعبيها - كان اكثر ما يبهر

(٦٠) الكتاب الثانى ، ٢ .

(٦١) نفسه ، أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٦٥ .

اليونانيين ويشير اعجابهم عند اتصالهم بمصر ، وان كان الاعجاب تشوبه في بعض الاحيان مشاعر الغيرة والانكار فتشأ عنها مثل هذه القصص . وظاهر الامر ان ابا التاريخ لم يقتنع في الحقيقة ابداً باسطورة ان الفريجيين اقدم من المصريين . ففي مكان آخر من "التواريخ" يؤكد لنا بتلقائية وبصورة طبيعية تماماً ان الفريجيين كانوا في الاصل من سكان مقدونيا ، عرفوا فيها باسم البريجيين BRIGES ، ثم غيروا اسمهم في نفس الوقت الذي غيروا فيه وطنهم بهجرتهم الى آسيا الصغرى (٦٢) . وهكذا نتبين ان هيرودوت يؤكد - رغم قصة "تجربة بسماتيك" الطريفة - ان الفريجيين كانوا من اكثر الشعوب حداثة وانهم لا يمكن ان يصدوا امام حق المصريين في الادعاء بانهم اقدم الشعوب وهو ادعاء يقبله ويسلم به تماماً في باقى مؤلفه ، مثلما قبله وسلم به غيره من المؤرخين والفلاسفة والكتّاب اليونانيين (٦٣) .

ولا مراعاة في ان من بين الاسباب التي كانت تدفع الى الاعتقاد بان المصريين اقدم الشعوب ، وفرة الآثار العتيقة وشهادات السجلات التي كان الكهنة يعنون بتدوينها وحفظها في المعابد المصرية ، بل وايضا الشواهد الجيولوجية التي كان لها اثر كبير في كتابة التاريخ . فقد لاحظ هيرودوت (٦٤) - مثلما لاحظ آخرون غيره من قبله - من الشواهد الجيولوجية الواضحة ما يؤكد ان مصر (وبخاصة الدلتا) ارض مكتسبة وانها هبة النيل . فقد كانت "حسب اقوال الكهنة ، ووفقا لاعتقادي الشخصي" خليجا في البحر ، ثم كونت تربتها السوداء الخصبة رواسب الطمي التي جلبها النيل من اثيوبيا

Herodotus, VII, 73.

How and Wells, Op.Cit., pp. 155-156.

(٦٢)

(٦٣)

(٦٤) الكتاب الثاني ، ٥ ، ١٠ - ١٢ .

على مدى آلاف السنوات . ووفقا لتقدير هيرودوت استغرق النهر مدة من عشرة الى عشرين الف عام فى تكوين الدلتا وحدها وهكذا فان هذه الظاهرة الجيولوجية التى تتعلق بتكوين مصر كانت تظهر لطلاب المعرفة السعد الزمنى للتاريخ بصورة اوضح من اى مكان آخر فى العالم فى ذلك الوقت .

اما المصريين انفسهم فهيرودوت "لا يصدق ابدا انهم وجدوا فى نفس الوقت الذى تكونت فيه الدلتا التى سميها الايونيين مصر ، بل هم قد عاشوا منذ بدء الخليقة البشرية . ولما اخذت بلادهم فى الامتداد بقى الكثير منهم فى الورا ، بينما انحدر الكثيرون تدريجيا الى الارض الجديدة ، وايا كان الامر ، فقد كانت "طيبة" تسمى منذ القدم "مصر" (٦٥) . فقد كان هيرودوت واهل زمانه يعتقدون ان طيبة أم المدائن المصرية . ولعل هذا يرجع بالدرجة الاولى الى اصدااء امجاد مصر فى عصر الاسرة الثامنة عشرة عندما كانت طيبة عاصمة للامبراطورية المصرية ، اولى الامبراطوريات العظيمة فى الشرق الادنى القديم ، تلك الاصدااء التى لم يتوقف دويها على مر العصور حتى ان طيبة كانت هى المدينة المصرية الوحيدة التى تغنى هوميروس بمجدها على لسان بطل الالابذة - اخيليس - فاشاد بشراؤها واتساعها وعظمتها وقوتها (٦٦) . ولهذا كان سهلا على هيرودوت وغيره من اليونانيين ان يقبلوا بالتصور القائل بان "منا" - اول ملك على مصر من البشر على حد زعمهم - كان ملكا على طيبة ، "وان مصر فى عهده كانت كلها مستنقعا ما عدا ولاية طيبة ، بينما لم يظهر فوق

(٦٥) نفسه ، ١٥ .

The Iliad of Homer (translated by R. Lattimore, Chicago, 1951), IX, 381-4:
" . . . all that is brought in to Thebes of Egypt, where the greatest possessions lie up in the houses, Thebes of the Hundred gates, where through each of the gates two hundred fighting men come forth to the war with horses and chariots".

الماء جزء واحد من الارض التى توجد الآن شمال بحيرة مويريس
(بركة قارون) " (٦٧) .

وهكذا فان هيرودوت - فى حدود البعد الزمنسى الذى
افترضه لتكوين الدلتا ، طبقا للشواهد الجيولوجية - افترض
بالتالى بعدا زمنيا مماثلا على الاقل لازدهار الحضارة المصرية
فى الصعيد . وهو فى هذا بفرق بوضوح بين زمن حكم الآلهة
والفترة التاريخية الانسانية . فراه ، كما لو كان يقرر
حقيقة غير قابلة للنقاش ، انه " منذ سعة عشر الف عام
قبل ان يتولى امازيس الحكم " (٥٧٠ ق م) كانت مصراتزال
تحت حكم الآلهة ، وان الاله الحاكم وقتئذ كان هيراكليس
(حرى شاف - معبود اهناسيا) (٦٨) . وقبل زمان امازيس
بخمسة عشر الف عام ، كان يحكم مصر الاله ديونيسوس
(اوزوريس) . " ويؤكد المصريون انهم يعرفون ذلك بمنتهى
الدقة لانهم بحسبون السنين ويسجلونها باستمرار " (٦٩) " اما
آخر الملوك من الآلهة فهو " حورس " بن " اوزوريس " - ويسميه
اليونانيون " ابوللون " ، حكم بعد ان خلع تيفون (ست)
فكان آخر ملوك مصر من الآلهة " (٧٠) .

وصحيح اننا لا نناقش هنا هذه المفاهيم فى حد ذاتها
من منظور تاريخى - ولكن اهميتها تنحصر فى حقيقة تاريخية
اخرى تتعلق بهيرودوت نفسه ، وبالتأكيد بغيره من اليونانيين
الذين وفدوا على مصر ، وتتمثل فى الاحساس الطاغى - فى
مصر - بعمق الزمن التاريخى . ولم يكن ذلك الاحساس نابعا
من فراغ . ففي مصر كانت آثار الماضى العريق ما تزال تملأ
البلاد طولاً وعرضاً ، وتقف شاهداً على حضارة اصيلة تضرب
جذورها فى اعماق الماضى البعيد ، ابعد كثيراً من حضارة

٦٧) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ٤ .

٦٨) نفسه ، ٤٣ ، احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

٦٩) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٤٥ .

٧٠) نفسه ، ١٤٤ .

اي شعب آخر معروف في ذلك الوقت . ولو كانت الاهرام فقط
لكفت ، فانها - بعبارة هيرودوت - "تجل عن الوصف وان كلا
منها يكافئ" كثيرا من آثار يونانية ، حتى عظمها " . ولو
كان " اللابرنث" وحده لكفى ايضا وزيادة . ففي رأى هيرودوت
انه "لو قدر لامرء ان يجمع معرضا للمباني والاشار الفنية
التي شيدها اليونانيون ليدت عملا اقل من هذا اللابرنث"(٧١)

وفضلا عن ذلك فان مصر كانت تقدم للنابيين من زائريها
تجربة موءثرة انفردت بها بين حضارات الامم المعاصرة، وكان
هيرودوت احد هؤلاء النابيين . ففي طيبة نستطيع ان نتخيله
(ومن قبله هيكاتايوس الملطي الذي يذكر لنا هيرودوت انه
مر بنفس التجربة) وقد حبس انفاسه من الروعة والانبهار
والشعور بالرهبة عندما قاده كهنة زيوس (آمون) داخل
محراب ، " وارونى تماثيل خشبية ضخمة وعدوها فكان عددها
كما قالوا تماما ، لان كل كاهن كبير بقيم في حياته تماثالا
لنفسه . وفيما كان الكهنة يعدونها ويطلعوننى عليها
اكدوا لى ان كل ابن منهم كان خليفة لابيهِ ، بادئين بآخر
من مات منهم ومارين بهم جميعا حتى اتوا على ذكرهم جميعا" .
والذى يحبس الانفاس في هذه التجربة المثيرة هو ان عدد
التماثيل ، وبالتالي عدد اجيال كبار الكهنة ابا عن جد ،
كان خمسة واربعين وثلاثمئة تماثل ، وكلهم من البشر ،
فلم ينسبهم آخر الامر الى اله او بطل اسطوري(٧٢) .

وفي مصر وحدها كان في وسع هيرودوت ان يرى سجلات
وقوائم تضم اسماء مئات الملوك - من البشر - الذين حكموا
مصر ، والتي كان الكهنة لا يمانعون في قراءتها على زائريهم
من امثال هيرودوت المشغوفين بالبحث والتقصي عن تاريخ

(٧١) نفسه ، ١٤٤ .

(٧٢) نفسه ، ١٤٨ .

البلاد . ويحكى لنا ابو التاريخ عن تجربته الموءثرة فى
معد هيفايستوس (بتاح) فى منف عندما "تلا عليه الكهنة -
من شبت بردى - اسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكا آخرين بعد
"منا" (٧٣) ، حكموا مصر الواحد بعد الآخر . ثم روى لسه
الكهنة أخبار عشرة ملوك آخرين (٧٤) - على ما يبدو حتى
عصر طهرقه بن بيعنخى من ملوك الاسرة الخامسة والعشرين
النوبية (٧٥) . وهكذا تعرف هيروdot من سجلات المعابد على
"واحد واربعين وثلاثمائة جيل من البشر" (يضاف اليهم من
كان يعرف من ملوك الاسرة السادسة والعشرين) وقدرهير ودوت
الفترة الزمنية التى شغلها اولئك الملوك باربعين
وثلاثمائة واحدى عشر الف (١١٣٤٠) سنة (٧٦) .

وليس من اهتمامنا هنا ان نناقش صحة ، او بالاحرى شطط
هذا التقدير ، فموضوعنا هو مصر والمصريين عند هيروdot
نفسه . واذا كنا نحن لا نستطيع باى حال ان نحجب اعجابنا
عن الحضارة المصرية القديمة ويرونا جلالها ، خاصة بالنظر
الى طول تاريخها واستدامتها ، عندما نتذكر ان عصر الاسرات
فيها قد بدأ فى اواخر الالف الرابع او بداية الالف الثالث
ق.م . فما بال هيروdot الذى كان يعتقد ان ذلك العصر قد
بدأ قبل زمانه باكثر من مائة وعشرة قرون ، وكانت الحضارة
المصرية لا تزال - بعد كل هذه القرون - تنبض بالحياة امام
ناظريه . فى بلد عريق مثل هذا ، يهتم كهنته الى ذلك
الحد بتسجيل الاحداث وتدوينها على مر مئات الاجيال
وتوالى آلاف السنوات ، كان طبيعيا ان يرى هيروdot فى مصر
ام الحضارات ومستودع اسرار الماضى وحكمة الزمان .

(٧٣) نفسه ، ١٠٠ .

(٧٤) نفسه ، ١٠٢ - ١٤١ .

(٧٥) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ .

(٧٦) الكتاب الثانى ، ١٤٢ .

وهكذا نجده - في مصر - ستحرى عن صحة معلومات حتى ما يتعلق منها بـماضى اليونانيين انفسهم ، وهو مهيباً تماماً لتمديق كل ما يسمع . واقدام الاحداث فى ماضى اليونانيين المتواتر فى ذلك الوقت واكثرها جاذبية يتمثل فى قصة حرب طرواده حسما رواها امير الشعراء اليونانيين هوميروس ، والمدهش ان هيرودوت - وهو اليونانى الصميم الذى لم يخف ابدا اعجابه بهوميروس - استبعد الرواية فى الايذاة عن طروادة ، والتي كان اليونانيين يجمعون على التسليم بصحتها ، باعتبارها رواية باطلية او فارغة MATAIOS LOGOS . (٧٧) فقد سأل فى مصر عن حرب طروادة وعن قصة هيلينا . وفى اسهاب وحماس ظاهر روى لنا موبدا ما اعتبره "قصة هيلينا الحقيقية" التى سمعها من الكهنة المصريين . (٧٨) فالاسكندر (باريس) بن بريسام الطروادى لم يتمكن فى الحقيقة - طبقاً لهذه الرواية الجديدة - من اصطحاب هيلينا الى طروادة . فعلى غير ما فهم اليونانيون من اشعار هوميروس ، وعلى عكس ما صرح به من جاء بعده من كتاب الملاحم ، طوحت الاسكندر فى طريق العودة رياح عاتية مضادة فى بحر ايجيه لم تهدأ حتى حط على السواحل المصرية . وكان ملك مصر فى ذلك الوقت يسمى باللغة اليونانية "بروتيسوس" (= ست ناخت ، الذى حكم فى حوالى بداية القرن الثانى عشر ق.م ، وبه تبدأ الاسرة العشرون المصرية) - (٧٩) والطريف ان جمهور العلماء يجمعون على ان حرب طروادة وقعت بالفعل فى اوائل القرن الثانى عشر ق.م) . وعندما علم الملك المصرى بما حدث من امر هيلينا والخطيئة التى ارتكبت فى حق منلاوس - هكذا تمضى الرواية - احتفظ بهيلينا ضيفة عليه الى حين

(٧٧) نفسه ، ١١٨ . انظر ايضا :

How and Wells, Op.Cit., p. 14.

(٧٨) الكتاب الثانى ، ١١٢ - ١٢٠ .

(٧٩) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

حضر زوجها بنفسه لأخذها ، بينما امر الاسكندر بالرحيل عن البلاد ، وكان يود معاقبته على فعلته ، "لو لم اكن اهتم كثيرا بالا اقتل احدا من الاجانب الذين تطوح بهم الرياح ويأتون الى بلادى" - هكذا اورد هيرودوت على لسان بروتوريوس وقد رأى ابو التاريخ فى هذه الرواية تفسيرا منطقبالسير الاحداث . " فلم يصب اهل طروادة بخبل لدرجة انهم يعرضون انفسهم للخطر وكذا ابناؤهم ومدينتهم ليعاشر الاسكندر هيلينا" . ولكن لم يكن فى وسعهم ان يردوها للآخيين المطالبين بها ، لسبب واضح ، وهو انها لم تكن عندهم بالمرة ، وانما كانت عند ملك مصر . غير ان الآخيين ظنوا ان الطرواديين يسخرون منهم فلم يصدقوا قولهم حتى اقتحموا المدينة بالفعل" . وكان ذلك - وهذا رأى الخاص اعلنه - تدبيرا الهيا ليتضح للناس من هلاك اهل طروادة الذريع ان الالهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقاللاخطاء الجسيمة " .

هكذا رحب هيرودوت بسهولة ، ليس فقط بربط احداث حرب طروادة بتاريخ مصر ، وانما ايضا بتأييد الرواية المصرية على حساب الرواية اليونانية التقليدية ، بل وخلص من الرواية المصرية بحكمة دينية بليغة .

ولأن مصر اقدم كثيرا فى الوجود من غيرها، ولان السجلات المصرية وحدها هى التى يمكن ان تحكى عن احداث وقعت فى الماضى السحيق وتعود الى اكثر من سبعة عشر الف سنة ، عندما "كان حكام مصر آلهة يعيشون مع البشر ، وكان صاحب السلطان دائما واحدا منهم" (٨٠) - فان هيرودوت رأى مسن الطبيعى ان يرجع بالهة اليونان الى اصول مصرية . "فلقد جاءت اسماء الالهة كلها تقريبا من مصر الى بلاد اليونان" . هكذا يقرر ابو التاريخ دون تردد (٨١) . وفى مكان آخر

(٨٠) الكتاب الثانى ، ٤٣ ، ١٤٤ .

(٨١) نفسه ، ٥٠ ، انظر ايضا ٥٢ .

يوءكد " ان المصريين كانوا اول من سمى الالهة الاثنى عشرة
بالقاسها وان اليونانيين نقلوا ذلك عنهم " (٨٢) . ولقد
اشارت هذه التصريحات جدلا ساخنا بين المؤرخين المحدثين (٨٣)
ولا نظن ان الجدل حولها سوف يتوقف .

وهيرودوت فى الحقيقة لا يعنى بالضرورة ان الاسماء
الفعلية للالهة اليونانية قد جاءت من مصر . فهو نفسه
يشير مرارا الى اختلاف اسماء الالهة فى اللغتين المصرية
واليونانية ، كما سوف نرى . ولكن اسم الاله كان يتضمن
ايضا كامل خصائصه الفردية وذاتيته المميزة . وهكذا فان
نظرية هيرودوت تقول فى الواقع بان الالهة اليونانية رفعت
الى مرتبة الالهية وحددت صفاتها وخصائصها المميزة
وعبادتها فى مصر قبل ان تنتقل الى بلاد اليونان (٨٤) . ومع
ذلك فربما يكون للاسماء الفعلية للالهة اليونانية ومدى
تداولها فى مصر ، دور مساعد فى اعتناق هيرودوت لهذا
الرأى . فعلى ما يبدو انها كانت تستخدم بكثرة فى بعض
الاقساط فى مصر فى ذلك الوقت عند الاشارة الى نظائرها من
معبودات المصريين . فلما جاء هيرودوت الى مصر وسمع بتلك
الاسماء ، اختلط عليه الامر ، وتوهم انها مصرية وانها
انتقلت من مصر الى بلاده (٨٥) .

(٨٢) نفسه ، ٤ . انظر ايضا ١٧١ .

(٨٢) انظر على سبيل المثال R. Lattimore, "Herodotus and the Names of Egyptian Gods" (Classical Philology, XXXIV, pp.357-365; I.M. Linforth, Greek and Egyptian God" (Herodotus ii-50 and 52)", (Classical Philology, XXXV, 1940), pp. 300-301"; F. Dunand, Le Culte d'Isis dans le Bassin Oriental de la Mediterranee, (Leiden, 1973), pp. 69-70.

How and Wells, Op.Cit., pp. 191-192. (٨٤)

Lawrence, Op.Cit., P. 172.

(٨٥) انظر أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

فقد ادى استيطان اليونانيين مصر الى تزواج بعضهم وامتزاجهم ببعض ابناء النيل ، مما ادى بالتالى الى ظهور طبقة من المولدين - وهى حقيقة لدينا عنها شواهد اكيده منذ فترة مبكرة تعود الى مطلع القرن السادس ق.م . ففى نص شهير باللغة اليونانية (٨٦) ، نقش على ساق احدالتماثيل الضخمة لرمسيس الثانى فى ابي سمبل ، ويرجع الى عصر بسماتيك الثانى (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) ، نقرأ عن شخص يدعى "بسماتيك بن شيوكليس" PSAMMETICHUS SON OF THEOKLES الذى كان على ما يبدو يشغل مركزا قياديا فى الجيش المصرى فى ذلك الوقت . وجلي ان اسم الرجل مصرى ، فى حين ان اسم ابيه يونانى . وطبيعى ان يتأثرالمستوطنون اليونانيون وذريتهم بالعبادات المصرية العريقة وان يخضعوا لسلطانها ولدينا وثيقة اثرية ترجع الى نهاية القرن السادس ق.م . توءكد بما لا يدع مجالا للشك ان العجل " ابيس" - على سبيل المثال - كان مقدسا بين مجتمع من المتحدثين باللغة اليونانية فى الدلتا (٨٧) . وهيرودوت نفسه يسجل لنا انه فى الاحتفال الكبير بعيد ايزيس فى بوسيريس BUSIRIS فى وسط الدلتا (ابو صيربنا - جنوب سمبود) (٨٨) ، حيث كان المحتفلون من المصريين يلطمون الخدود فى ذكرى مصرع اوزوريس على يد اخيه ست ، كان " كل الكاريين الذين يسكنون مصر يبالغون ايضا فى عمل ذلك لدرجة انهم يقطعون جباههم بالمشارط ، ومن ذلك يتضح انهم اجانب غيرمصريين" (٨٩)

G.Dittenberger, Sylloge Inscriptionum (٨٦)
Graecarum (Leipzig 1903-1905-Hildesheim, 1970),
I, No.I, 1-2 R.Meiggs and D. Lewis, A selection
of Greek Historical Inscriptions, (Oxford, 1969),
No.7 (4), with P.13 note See also Boardman, Op.cit.,
PP. 113-114.

M.J. Vermaseren and G.J.F. Kater-Sibbes, Apis, (٨٧)
I (Leiden, 1975), No. 132 and Plate LXXVII.

(٨٨) الكتاب الثانى ، ٥٩ ، أحمد دوى ، المرجع السابق ، ص ١٦٠ .
(٨٩) الكتاب الثانى ، ٦١ .

وواضح ان هيرودوت كان فى وسعه ان يميز هو*لا* على انهم كاريين بالتحديد بسبب طريقتهم الخاصة فى الحداد . ولكن الرجال الذين رأهم ربما كانوا من اصول مختلطة ، وليس من المستبعد انهم كانوا يضمون آخرين تأثروا بهذا الاسلوب الخاص فى ممارسة الطقوس الجنائزية . وفى جميع الاحتمالات فان الايونيين ، او على الاقل اشخاصا من اصول أيونية ، شاركوا فى هذه الاحتفالات ، ولكنهم لم يلغثوا نظــــر هيرودوت بسلك مميز ، وربما كانوا ، مثل غالبية المشاركين فى الاحتفالات ، يلطمون الخدود .

وعلى ما يبدو ان محدثى هيرودوت هم الذين استرعوا انتباهه الى امر اسماء الآلهة . فهو يذكر لنا بصراحة انه "على حد قولهم" - اى على حد قول محدثيه من ابناء النيل - ان اوزوريس هو ديونيسوس . وهكذا نراه يرمى فيقول ان زيوس عند المصريين اسمه آمون ، ويطلق عليه ببساطة اسم زيوس الطيبى^(٩٠) . وان "فى اللغة المصرية "ابوللون" هو "حورس" و"ديميتير" هى "ايزيس" و"ارتميس" هى "پوسا سطيس"^(٩١) . وان لديه "ادلة كثيرة على ان المصريين لم ينقلوا اسم "هيراكليس" عن اليونانيين ، ولكن بالاحرى اخذه هو*لا* عنهم"^(٩٢) . بل وفى كثير من الاحيان يستخدم هيرودوت اسماء الآلهة اليونانية بحرية تامة ودون اى تحفظات عند الاشارة الى نظائرها من

(٩٠) نفسه ، ٤٢ . الجدير بالذكر ان افلاطون مر بتجربة مماثلة فى مصر بعد وقت غير طويل من زيارة هيرودوت ، فيذكر لنا ان اهالى سايس فى مصر يوءكدون ان الآلهة "نيت" هى "اشينا" فى اللغة اليونانية . انظر : Plato, Timaeus, 21 E.

(٩١) الكتاب الثانى ، ١٥٦ ، انظر ايضا ٥٩ .

(٩٢) نفسه ، ٤٣ . انظر ايضا :

Lawrence, Op.Cit., P. 167.

معبودات المصريين ، كما لو كانت أسماء مصرية (٩٣) .

فالواضح ان قدم الحضارة المصرية كان في الحقيقة - عند هيرودوت - عراقية يجب ان تحسب لها ، وهيبة ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار ، وجلال يحسن التسليم به . فلم يرد في خواطره ان يكون المصريون هم الذين نقلوا أسماء الآلهة من اليونانيين ، ببساطة " لان أسماء الآلهة ... وجدت دائماً منذ القدم في مصر " (٩٤) .

هذه العراقية جعلت ابو التاريخ يتصعب دائماً في نسبة اي ظاهرة يراها في مصر الى اصول غير مصرية . فاذا رأى تشابهاً بينها وبين غيرها في امر من الامور ، فالاولى بالتصديق ان تكون مصر هي الاصل والمنشأ ، وان يكون غيرها المقلد والناقل . فاذا لاحظ - على سبيل المثال - ان شمة اتفاقاً بين شعائر ديونيسوس (اوزوريس) في مصر وفي بلاد اليونان ، فانه لا يضع في اعتباره حتى احتمال ان يكون ذلك وليد الصدفة ، بل "ولن اقول ابداً ان المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ، لا هي ولا غيرها من العادات" ، وانما لابد ان يكون اليونانيون هم الذين نقلوها عن المصريين (٩٥) . وهكذا فانه جزم بان "الطقوس التي تسمى "اورفية" ... هي في الواقع طقوس مصرية" (٩٦) . واذا لاحظ شيوع انشودة حزينة في كثير من بلدان شرق البحر المتوسط ، يندب بها العزيز ممن يودعون الدنيا ، وانها "على الرغم

(٩٣) في مواطن كثيرة من الكتاب الثاني ، انظر على سبيل المثال الفصل الثالث والثمانين .

(٩٤) نفسه ، ٥٠٠ قارن : W.Spiegelberg (apud How and Wells, Op.Cit.,P. 453) : "Herodotus over-estimates the civilization of Egypt as the origin of Greek religion, because he was overpowered by the suggestion of its high antiquity"

(٩٥) الكتاب الثاني ، ٤٩٠ .
(٩٦) نفسه ، ٨١ .

من ان اسمها يختلف باختلاف الشعوب الا انها بالاجماع نفس الانشودة التى يئشدها اليونانيون باسم لئئوس" ، فـان هيرودوت يميل الى ارجاعها الى اهل مصرى قديم ، بحكم سبق مصر الزمنى (٩٧) .

والسبق الزمنى فى الوجود وفى الحضارة سند دائم لاسنتاجات جاهزة فىوءكد ابو التاريخ " ان المصريين سبقوا الشعوب الى اقامة الاعياد العامة والمواكب العظيمة ، وعنهم تعلمها اليونانيون" ويضيف ، موءمنا على صدق مقولته "ودلىلى على ذلك انها تقام عند المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون الا منذ وقت قريب" (٩٨) . وفى هذا السياق يرى ان عبد "ديمئير" الذى يسمئسه اليونانيون ئئسموفوريا" يعود فى الحقيقة الى اهل مصرى ، " وان بنات داناوس هن اللائئ نقلن هذا العيد من مصرى وعلمنه النسوة" فى بلاد اليونان (٩٩) . واذا تصور ابو التاريخ " ان علم العرافة فى طيبة المصرية يشبه ذلك الذى فى "دودونا" ، فانه يعلن ذلك بعد ان بحدثنا - استئنادا الى ما يصفه "بالمعلومات الدقيةة" التى سمعها من كهنة آمون فى طيبة - بان امرأة مصرية مقدسة من طيبة هى فى الواقع التى انشأت وحى "دودونا" فى بلاد اليونان . وهو ادعاء يدعمه هيرودوت بحماس ، ليس فقط برواية ائسرى موءيدة بنسبها الى عرفات دودونا انفسهن ، وانما ايضا بتحليله الشخصى واجتهاده فى تفسير ما سمع . ثم يضيف فى ثقة " ان العرافة عن طريق فحص الضحايا جاءت الى بلاد اليونان من مصر ايضا" (١٠٠) .

(٩٧) نفسه ، ٧٩ .

(٩٨) نفسه ، ٧٩ .

(٩٩) نفسه ، ١٧١ .

(١٠٠) نفسه ، ٥٤ - ٥٧ . قارن How and Wells, Op. Cit., P. 192: "Deeply impressed with the antiquity of Egypt, Herodotus was prepared to drive everything from it".

وربما كان هيرودوت مستولا - دون قصد - عن تقديم مصر بوصفها بلد الشوايت ، لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور (١٠١) فعلى مدى احد عشر الف عام - هكذا قال الكهنة لهيرودوت فصدقهم - "لم يحدث اى تغيير فى مصر ، فيما تغلته الارض ، ولا فيما يوجد به النهر ، فيما يتعلق بالامراض او الموت" . وذلك على الرغم من انه فى نفس الحقبة المزعومة " غيرت الشمس مناطقها المألوفة اربع مرات ، فاشرقت مرتين حيث تغرب الآن ، وغربت مرتين حيث تشرق الآن" (١٠٢) اما المصريون انفسهم "فهم يتجنبون اتخاذ العادات اليونانية ، وجملة القول انهم يتجنبون عادات الناس جميعا دون استثناء" (١٠٣) وفى مكان آخر يجمع هيرودوت رأيه فى شخصية المصريين - المحافظه بقوله : "يتمسك المصريون بتقاليد اسلافهم ، ولا يزيدون عليها مطلقا اى جديد" (١٠٤) .

وفى الحقيقة ان المصريين كانوا - ربما اكثر من اى شعب آخر فى زمن هيرودوت - يدركون اصلتهم العرقية . "فهم فى رأى انفسهم " الناس" وغيرهم من اشباه الناس ، لسانهم الهى مقدس والسنة غيرهم - من اشباه الناس - رطانة" (١٠٥) . وليس فى هذا ما يدهشنا . ولكن ما يدهشنا حقيقة هو ان هيرودوت نفسه - وهو اليونانى الغيور - ادعى لهذه الرواية المصرية . فهو لم يسلم فقط بوصف اليونانيين فى مصر فى عصر بسماتيك الاول بكلمة " اجانب" (١٠٦) XEINOI .

١٠١) قارن : Myres, Op.Cit., p. 153.

- ١٠٢) الكتاب الثانى ، ١٤٢ .
- ١٠٣) نفسه ، ٩١ . انظر ايضا ٤٩ .
- ١٠٤) نفسه ، ٧٩ .
- ١٠٥) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- ١٠٦) الكتاب الثانى ، ١٦٩ .

وهو ما قد يبدو منطقيا على اية حال ، وانما اشار اليهم في موضع آخر ببساطة باعتبارهم "اعاجم" (١٠٧) ALLOGLOSSOI الاكثر من ذلك انه يسجل بصراحة - ودون ان نشتم منه بادرة احتجاج - " ان المصريين يسمون كل من لا يتكلمون لغتهم بريرا" (١٠٨) BARBAROI وهذه الكلمة الاخيرة ، كما هو معروف - يونانية غير مصرية ، استخدمها اليونانيون ، ومن بينهم هيروdot نفسه (١٠٩) ، في وصف غيرهم من الشعوب التي لا تتكلم اللسان اليوناني . ومع ذلك ، فقد قبل هيروdot من محدثيه من المصريين الذين تكلموا معه بلغته ، ان يستخدموا ذات الكلمة اليونانية ، ولكن في التعبير عن مفهوم مصرى يجردها في الحقيقة من مدلولها الاصلى ، ويجعل من اليونانيين انفسهم ، ومعهم باقى الشعوب الاخرى ، "برابرة" في نظر المصريين .

فان يكون المصريون اقدم شعوب العالم ، فذلك سبب خاص في حد ذاته يوكد اولويتهم ، حضاريا - على غيرهم . وفضلا عن ذلك فان الناس كانوا يعتقدون ان القدم ونباله العرق صفتان متلازمتان (١١٠) . وهكذا نرى هيروdot يردد قول الكهنة بان المصريين " هم اول من عرف السنة الشمسية" ، "وكانوا اول من سمى الالهة الاثنى عشر بالقابها" ، "وكانوا اول من اوقف للاله الهياكل والتماثيل والمعابد ، وهم اول من حفر الصور على الاحجار" (١١١) وهو يعتقد بان المصريين

"Protoi gar houtoi en Aigypto : ١٥٤ ، نفسه ، (١٠٧) alloglossoi katoikisthesan".

"Barbarous de pantas hoi : ١٥٨ ، نفسه ، (١٠٨) Aigyptioi kaleousi tous me sphisi homoglossous".

(١٠٩) انظر على سبيل المثال ، نفسه ، ١٦٧ .
(١١٠) How and Wells, Op.Cit., PP. 155-156 .
(١١١) الكتاب الثاني ، ٤ .

هم اول من اكتشف علم المساحة الذى انتقل الى اليونانيين . (١١٢)
وان المصريين كذلك هم اول القائلين بخلود السروح" (١١٣)
"وانهم يزيدون كثيرا عن سائر الناس فى التقوى" (١١٤) "وانهم
اول من راعى السنة التى تحرم مجامعة النساء فى المعابد ،
كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال" (١١٥) . وهو
يمتدح فيهم حبهم للنظافة ، "فهم يفضلون النظافة على حسن
المظهر" (١١٦) ، وكذلك طريقة الحياة التى يتبعونها مراعاة
لصحة ابدانهم ، حتى انهم كانوا - فى نظره - من "اصح
الناس عامة" (١١٧) وهو يشيد باخلاقهم ويظهر بوضوح احترامهم
لشيوخهم ، فلا يباريهم فى ذلك بين الشعوب الاخرى - حسب
قوله - سوى اللاكيدايمونيين ، فالمصريون " عندما يقابل
الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ، ويتحنون جانبا .
وعندما يقبل عليهم الشيوخ ، يقومون من مقاعدهم" (١١٨) .
وفلا عن ذلك ، فالمصريون - عند هيرودوت " يبرزون سائر
البشر فى البراعة" (١١٩) ، " وهم يهتمون دون سائر الناس
اهتماما كبيرا بتمرين الذاكرة . وهم ، فى العلم يتفوقون
كثيرا على كل الشعوب التى خبرتها" (١٢٠) . وقد اعجبه فى
هذا السياق بصفة خاصة تقدم علوم الطب عندهم وقيامها على
مبدأ التخصص (١٢١) . وهو بعد ذلك يمتدح قوانينهم ويظن انها
قوانين حسنة ، وفى يقينه ان "سولون" المشرع الاثينى الاشهر ،

(١١٢) نفسه ، ١٠٩ . انظر ايضا ٨٢ .

(١١٣) نفسه ، ١٢٣ .

(١١٤) نفسه ، ٣٧ .

(١١٥) نفسه ، ٦٤ . انظر ايضا ٩٢ .

(١١٦) نفسه ، ٣٧ .

(١١٧) نفسه ، ٧٧ .

(١١٨) نفسه ، ٨٠ .

(١١٩) نفسه ، ١٢١ .

(١٢٠) نفسه ، ٧٧ .

(١٢١) نفسه ، ٨٤ ، أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩٠-١٩٢ .

نقل بعضها ووضعها للأشنيين ، وان هوءلاء الاخيرين كانوا ما
يزالون يطبقونه فى ايامه ، " اذ لم يوجه اليه اى طعن" (١٢٢).
ومجمل القول ان المصريين - عند هيروdot وبعبارته
- "هم احكم البشر" (١٢٣) .

* * *

١٢٢) الكتاب الثانى ، ١٧٧ .
١٢٣) نفسه ، ١٦٠ .

الجيش الغزنوى

اعداده وتنظيماته الحربية

د. محمود عرفة محمود

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تمهيد :

وجه سيكتكين (١) - مؤسس الدولة الغزنوية (٢) منذ ولى غزنة سنة ٩٧٧/٥٣٦٦م من قبل السامانيين ، اهتمامه الى توسيع رقعة ولايته ، فاستولى على بست (٣) وقصدار (٤) ، ثم اتجه بفتوحاته نحو المشرق وبخاصة بلاد الهند (٥) - التى احرز فيها عدة انتصارات (٦) ، كان لها أثرها فى اعلاء شأن الغزنويين وتدعيم نفوذهم .

لما خلف الامير محمود بن سيكتكين اباه فى حكم الغزنويين سنة ٩٩٧/٥٣٨٧م (٧) ، سار على نهج ابيه فى توسيع

(١) سيكتكين : هو الامير ناصر الدين سيكتكين بن جوقى الملقب بقراجكم - التحق بخدمة سيده ، البتكين - سبسالار السامانيين - وتدرج فى المناصب حتى صار حاكما على غزنة ، قراجكم : كلمة تركية تتألف من مقطعين ، قرا بمعنى اسود ، بكجم بمعنى زعيم او شجاع .
انظر ، ميرخوند:روضة الصفا (القسم الرابع من المجلد الرابع) ص ١ .

2) Bosworth:Notes on the Preghaznavids of eastern Afghanistan, P. 16.

(٢) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة من أعمال كابل.

ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الاول ، ص ٤١٤ .

(٤) قصدار : ناحية مشهورة قرب غزنة تقع على بعدثمانين فرسخا جنوبى بست .

ياقوت :المصدر السابق ،المجلد الرابع ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

5) Moreland: A short History of India, P.142.

6) Lane-Poole: Mediaeval India under the Mohammedan rule, P.17.

(٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ١٨٥ .

Nazim: The Time and Life of Mahmoud of Ghazna, P. 39, Moreland: A short History of India, P. 144.

رقعة بلاده ، وامتداد نفوذها ، فبسط سلطانه على ملك السامانيين فى خراسان وبلاد ما وراء النهر سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م (٨) ، كما فتح بلاد الغور (٩) ونشر الاسلام بين اهلها واتخذ الامير محمود الغزنوى لقب سلطان (١٠) ، ونفذ اليه الخليفة القادر بالله الخلع ولقبه "يمين الدولة وامين الملة" (١١) .

امتدت فتوحات السلطان محمود الغزنوى الى بلاد الهند (١٢) - التى اصطبغت حملاته فيها بصيغة الجهاد الدينى (١٣) ، ويرجع اليه الفضل فى توطيد قواعد الاسلام وترسيخها فى قلوب اهل البلاد المفتوحة فقد غزاها خمس عشرة مرة على مدى سبع وعشرين عاما (١٤) . من سنة ٣٩١- ٤١٧هـ / ١٠٠٠ - ١٠٢٦م ، فتح خلالها اعظم قلاعهم واهم مدنهم واخضع ملوك الهند وحطم الاصنام ونشر الاسلام فى ولاياتها (١٥)

-
- (٨) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
حمد الله مستوفى : تاريخ كزيده ، ص ١٤٦ .
(٩) بلاد الغور : بلاد واسعة تغلب عليها الطبيعة الجبلية وتقع بين هراة وغزنة .
الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٥٧ .
(١٠) نثام الملك : سياست نامه ، ص ٥١ .
(١١) هلال بن الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ١٣٢ .
Habib: Sultan Mahmoud of Ghaznin, P. 37.
Dunbar: A History of India, P. 90.
(١٢) انظر حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ، ص ٣٢٤ ، ص ٣٣٠ .
(١٣) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ج ١ ، ص ٩٠ .
(١٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٨٥ .
السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٦ .
(١٥) العتبى : تاريخ اليميني ، ج ١ ، ص ٣٦ .
Panikkar: A Survey of Indian Hist., P. 113.
(١٥) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ، ص ٩٥ - ٩٦ .
علق العتبى على ذلك بقوله "وغزا (السلطان محمود الغزنوى) الملتان فاجتاحها وتوغل فى الهند عودا على يد فنكا جراحها واذل لقاحها وجاس رباعها وافتتح صياصيهسا واقام عن بيوت الاصنام مساجد الاسلام وعن مشاهد البهتان معابد التوحيد والايمان .
انظر ، السمينى ، ج ١ ، ص ٣٨ .

واتخذ من لاهور (١٦) مقرا لحكومته فى الهند .

لما ولى الامير مسعود عرش الغزنويين بعد وفاة ابيه سنة ٥٤٢١هـ/١٠٣٠م واصل فتوحاته فى بلاد الهند فاستولى على قلعة سرستى الجبلية - جنوبى كشمير ، كما فتح قلعتسى هانسى وسوينيات فى ربيع الاول سنة ٥٤٢٨هـ/١٠٣٧م ، وواصل مودود بن مسعود واخوه ابراهيم فتوحاتهم فى بلاد الهند حتى بلغت قلعة أجود - التى تقع على بعد مائة وعشرين فرسخا من لاهور (١٧) .

اعتمد الغزنويين فى تحقيق طموحاتهم منذ قيام دولتهم على قوتهم الحربية ، فبفضل جيوشهم استطاعوا توسيع رقعة بلادهم ومد نفوذها الى شمال الهند شرقا ، والعراق العجمى غربا ، وخراسان وطخارستان وجزء من بلاد ما وراء النهر فى الشمال ، وسجستان فى الجنوب - كما ضموا الى ممتلكاتهم خوارزم وطيرستان واصبهان (١٨) .

١ - تعبئة الجيوش الغزنوية فى حالة الحرب

كان للتنظيم الحربى نصيب موفور من عناية الغزنويين لتكوين جيش قوى يحمى دولتهم ، ويساعدهم على تحقيق آمالهم التوسعية وليكون عوناً لهم فى جهادهم ضد المناوئين لهم ، فضلا عن نشر الاسلام .

وليس من شك أن التعبئة تعطى صورة واضحة عن مدى اهتمام الحكام الغزنويين بتنظيم جيوشهم واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من عتاد وسلاح ، وتزويدها بالاحتمال والموءن اللازمة لتحقيق النصر .

(١٦) لاهور : مدينة عظيمة مشهورة فى بلاد الهند .

ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الخامس ص ٢٦ .

(١٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ١٢٧ .

Moreland: A short History of India, P. 148.

(١٨) جمال سرور: تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ٩٢ .

لم يختلف أسلوب تعبئة الجيش الغزنوي في بدايته تكوينه على عهد سبكتكين عن الطريقة التقليدية - التي تتميز بحشد صفوف المقاتلة في فرق تتألف كل منها من خمسمائة مقاتل^(١٩) ، بتناوب القتال تمعا لطول مدة الحرب ، فكانت تعبئة تلك الفرق تتألف من الفرسان والمشاة مع استخدام الفيلة ، وذلك في الحرب التي دارت رحاها بين سبكتكين وأبي علي السيمجوري^(٢٠) التي انتهت بهزيمة السيمجوري سنة ٥٣٨٥هـ/٩٩٥م^(٢١) .

اهتم محمود بن سبكتكين بتدريب الجيش الغزنوي واعداده اعدادا جيدا ، فتطورت تعبئة الجيش على عهده من طريقة الحشد العام الى ترتيب الفرق على شكل اقسام تتألف من المسمنة والميسرة والقلب والجناحين فضلا عن المقدمة والساقة والطلائع .

فلما عزم السلطان محمود الغزنوي على محاربة ايلك خان - الذي سار نحو خراسان يريد الاستيلاء عليها سنة ٥٣٩٧هـ/١٠٠٧م^(٢٢) ، اتجه الى بلخ واتخذ منها موقعا متقدما ثم اقام معسكره على بعد أربعة فراسخ منها بالقرب من قنطرة جرخيان لتعبئة قواته ، فوضع صفوف الجند في اقسام التعبئة طبقا لاجناسهم وعناصرهم ، فجعل في القلب الاكراد والعرب وسائر الجند الهنود بقيادة أبي نصر احمد بن محمد الغريغوثي - والي جوزجان ، ومعهم أبو عبد الله

(١٩) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ١٣ .
(٢٠) السيمجوري : هو ابو علي محمد بن ابراهيم السيمجوري - صاحب جرجان ، وكانت الحرب قد قامت بينهما بسبب تطلع السيمجوري للاستيلاء على خراسان - التي كان الامير نوح بن منصور بن نصر الساماني قد منحها للامير محمود بن سبكتكين سنة ٥٣٨٠هـ/٩٩٠م .

انظر ، البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٢١٥ .
(٢١) العتيبي : تاريخ اليميني ، ج ١ ، ص ٩٦ .
، الكرديزي : زين الاخبار ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٦ .
(٢٢) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٢ - ٢٦ .

محمد بن ابراهيم الطائي وعلى رأسهم جميعا أخوه نصر بن سيكتكين ، ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش ومعه الفرسان والرجالة ، وندب للمسيرة ارسلان الجاذب فيمن تحت قيادته ، وحصن الصفوف بنحو خمسمائة قبل عليها تجافيف الفيول . بينما اتخذ السلطان مركزه بين المقدمة والقلب راكبا فيلته المغتلمة (الهاشجة) (٢٣) .

أما في موقعة ناردين (٢٤) سنة ١٠١٤هـ/١٠١٤م (٢٥) ، فقد تطورت طريقة التعبئة ، فجعل السلطان محمود الغزنوي الجيش كتائب تتألف كل كتيبة من مائة الى ألف من الفرسان والرجالة تبعاً لموقعها من التعبئة ، وجعل لكل كتيبة منها كوكبة من الخيل ، وجعل السلطان أخاه الامير نصر ابن سيكتكين في الميمنة و ارسلان الجاذب في الميسرة ، بينما عين أبا عبدالله محمد بن ابراهيم في المقدمة على رأس العرب ، وجعل في القلب الحاجب التانتاش (٢٦) .

كانت الفيلة توضع في المقدمة حماية للقوات ، وارهاب أعداء الدولة ، فلما أمر السلطان محمود الغزنوي بتعبئة الجيش حين شرع في المسير الى بلاد ما وراء النهر تقدمت الفيلة بدروعها وبكامل عدتها لتأخذ مكانها امام

(٢٣) العتبي : تاريخ اليميني ، ج ٢ ، ص ٨٤ - ٨٦ .

(٢٤) ناردين : تقع وسط مملكة الهند .

ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٩ .

(٢٥) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢٦) العتبي ، تاريخ اليميني ، ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٩ .

، ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٤٣ .

، التونتاش : هو ابو سعيد التونتاش - كبير الحجاب ، وكان مملوكا تركيا التحق بخدمة الجيش الغزنوي ، وما زال يتدرج في المناصب حتى صار قائدا للجيش في عهد سيكتكين ، ثم اختاره السلطان محمود الغزنوي حاجبا له وقائدا لغلمان القصر ، وواليا على خوارزم .

انظر ، البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ١٣ .

الفرسان والرجالة (٢٧) . أما أهل الخدمة فكانوا يعاونون في الساقفة حتى لا تسببوا في اعاقفة حركة القوات الاساسية وفي نفس الوقت يكونوا على مقربة منهم لتأدية دورهم عند اعتراض الجيش أى معوقات ، فلما حارب السلطان محمود الغزنوى ولاية نندا - ساقليم خوارزم اعترض الجيش غابات كثيفة فتقدم الحدادون والنجارون وقاطعوا الاحجار فعبدوا الطريق وقطعوا الاشجار والاحجار سنة ١٠٠٩هـ / ١٠٠٩م (٢٨) . وكان قارعوا الطبول ونافخوا الابواق يعاونون على اجناب القوات ، فلما أمر السلطان محمود ببدا القتال في حروبه ببلاد ما وراء النهر ، نفخوا الابواق ، وضربوا الاصناج الكبيرة ، ودقوا الدفوف ، فأصموا الاذان من الاصوات ، وقد علق الكرديزى (٢٩) على ذلك بقوله : " لما سمع الترك قرع طبول الحرب ، قذف جماعة منهم بانفسهم فى المماء (نهر جيحون) خوفا وذعرا " .

تطورت تعبئة الجيش الغزنوى فى عهد السلطان مسعود الغزنوى - الذى ولى عرش السلطنة بعد وفاة ابيه السلطان محمود بن سكتكين (٣٠) ، فصارت تسيير وفق تنظيم محكم ، تبتدا بعقد اجتماع لمجلس شورى الحرب يحضره كل من الوزير والسبسالار (٣١) والعارض ورئيس ديوان الرسائل (٣٢) وكبار الحجاب برئاسة السلطان ، للتشاور وتبادل وجهات النظر ،

-
- (٢٧) الكرديزى : زين الاخبار ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٢٨) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٢ - ٢٦ .
(٢٩) انظر ، زين الاخبار ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٣٠) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٦٤ .
(٣١) السبسالار : من اسبسالار أى كبش الكتبية أو رئيس الجيش انظر ، العتبي : تاريخ اليمينى ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
(٣٢) كان رئيس ديوان الرسائل يتلقى الرسائل الواردة من ميادين الحرب فيعدها لرفعها الى السلطان فضاغن مهامه التقليدية فى زمن السلم .
انظر ، Bosworth: The Ghaznavids, P. 91 .

فاذا ما اتخذ قرار الحرب انضم الى الاجتماع بدعوة السلطان ، كبار القادة واصحاب الولايات وبعض الحجاب المختاريين ، فضلا عن الموكل بالاصطبلات السلطانية .

كان مجلس شورى الحرب يعقد وفقا للموقف الحربى ، ففى سنة ١٠٣٢هـ/١٤٢٦م اجتمع السلطان مسعود الغزنوى مع الوزير الاستاذ الرئيس أحمد حسن^(٣٣) والخواجة ابى سهل محمد بن حسن الزوزنى - رئيس ديوان العرض ، و ابى نصر مشكان - صاحب ديوان الرسائل - وبعض كبار الحجاب . ولما قرر المجلس ارسال جيش قوى الى خراسان^(٣٤) لمحاربة السلاجقة ، ذهب رسول السلطان فدعا اصحاب الولايات التى تقع فى طريق مسير الجيش لضمان الامدادات والمعونة^(٣٥) .

لما حلت الهزيمة بالجيش الغزنوى على أيدي السلاجقة فى شعبان سنة ١٠٣٢هـ/١٤٢٦م ، اجتمع مجلس الحرب على الفور للوقوف على الاسباب التى أدت الى تلك الهزيمة واقتصر الاجتماع على الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل وسورى - صاحب ديوان خراسان ، وجلسوا عند مدخل البستان الموءدى الى قصر السلطان ، وكانوا يتبادلون الرأى لايجاد الوسائل التى تكفل تفادى وقوع الهزيمة فى الحروب المقبلة^(٣٦) .

ولما جاءت الانباء من خراسان^(٣٧) وجوزجان وسرخس^(٣٨)

-
- ٣٣) هو أحمد حسن الميمندى - ولى الوزارة منذ عهد السلطان محمود الغزنوى سنة ١٠١٣هـ/١٤٠٤م ثم عزل سنة ١٠١٨هـ/١٤٠٩م - واعاده السلطان مسعود الغزنوى فعلا شأنه وصارت له مكانة عالية فى تدبير شئون الدولة زمنى الحرب والسلام . انظر العروضى ، السمرقندى : جهار مقالة ، ص ٢٨ .
- ٣٤) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٦ .
- ٣٥) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٥ .
- ٣٦) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٥١٨ .
- ٣٧) ميرخوند : المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- ٣٨) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان تقع بين نيسابور ومرو . ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٨ .

بأن السلاجقة واتباعهم من تركمان العراق يشيرون الفتن في ولايات السلطنة ، رأى السلطان عقد مجلس شورى الحرب ، فاجتمع مع الوزير واركمان الدولة وذلك في شهر صفر سنة ١٠٣٣/٥٤٢٧ م ، وقد استقر الرأي في هذا الاجتماع على إرسال سباشى - كبير الحجاب^(٣٩) على رأس عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل الى خراسان ، وان يربط الفريق العربى والكردى من الجيش بقيادة ابي الحسن العراقى فى هراة - وأن يمثل الجميع لامر كبير الحجاب ويعملون حسب ما يشير به (٤٠) .

كما استدعى السلطان مسعود الغزنوى مجلس شورى الحرب فى شوال سنة ١٠٣٤/٥٤٢٨ م حين قرر المسير الى الهند وفتح قلعة هانسى^(٤١) ، فاجتمع بالوزير والعارض ورئيس ديوان الرسائل والحاجبين بكتغدى وابى نصر ، وبعد التشاور ، أمر ان يسير ابنه مودود الى بلخ وبصحبه الوزير على رأس جيش كامل الالهة ، وأن يذهب الحاجب سباشى الى مرو على رأس جيش آخر لمنع التركمان من دخول البلاد ، وترتيب شحنات كاملة فى طوس^(٤٢) وقهستان وهراة والمدن الاخرى^(٤٣) .

كان السلطان الغزنوى بأمر الوزير بالتوجه الى الديوان ليهيئ ما يلزم من الجند والعمال بعد اتخاذ قرار الحرب ، فيقوم الوزير باستدعاء نقيب الجيش

(٣٩) كان كبير الحجاب يختص بنقل الاوامر السلطانية الى كبار رجال الدولة ويرفع حاجاتهم ومراسلاتهم الى السلطان ، والاشراف على مقر السلطان ، كما كان يعهد اليه بقيادة الجيش فى حالة الحرب .

(٤٠) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٥ .

(٤١) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٤٢) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ .

باقوت : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ص ٤٩ .

(٤٣) البيهقى ، المصدر السابق ، ص ٥٧٥ .

واعطاهم الاوامر السلطانية وما يحتاجون اليه من النفقات ،
فيعهدون بدورهم للمقدمين باعداد جنودهم وتجهيزهم للعرض ،
فلما تقرر ارسال ابي سهل الزوزني على رأس جيش الى السرى
والعراق سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٣م (٤٤) ، أمر السلطان مسعود الغزنوي
وزيره أن يلزم الديوان لاعداد العدة للتنفيذ ، كما استدعى
أمين القصر وكاتب الغلمان لاختيار الغلمان وقادتهم لتدعيم
الجيش (٤٥) . أما الجنود والقادة - الذين يشكلون الفرق
الرئيسية في الجيش فكانت تسجل اسماءهم في جرائد لتقرير
نفقاتهم ومرتباتهم قبيل العرض ، فذكر البيهقي ، أن السلطان
مسعود طلب جريدة ديوان العرض فجيء بها ، ولما حضر
العارض صار يقرأ أسماء المقدمين والجنود والبيهقي يسجل
اسماءهم (٤٦) .

كذلك اهتم سلاطين الغزنويين باستعراض الجيش المزمع
ارساله في مهمة حربية ، فلما تقرر ارسال احمد على
نوشكين الى كرمان لتوطيد سلطان الدولة عليها سنة ٤٢٥هـ /
١٠٣٣م (٤٧) ، كتبت المنشورات السلطانية بذلك ، ثم أمر
السلطان ان تتلى عليه جريدة العرض ، وبعد ان فرغ سار
الى ميدان شاهبهار ليستعرض الجيش - الذي كان يتألف من
أربعة آلاف فارس ، ألفان من جند الهند ، وألف من الترك ،
وآلف من الكرد والعرب - فضلا عن خمسمائة راجل من كل صنف
بقيادة مقدميهم ، وكان الجيش في عدة كاملة (٤٨) . كما
وقف السلطان على رهوة في ربيع الاخرة سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م في
أبهة فائقة يحيط به جميع أركان الدولة والى جانبه ولده

(٤٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٠ .

(٤٥) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٤١٨ .

(٤٦) انظر ، المصدر السابق ، ص ٧١٨ .

(٤٧) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٦ .

، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع
ص ٣٨٠ .

(٤٨) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٤٥٧ .

الامير مودود لاستعراض الجيش المزمع انفاذه الى خراسان لتصدى للسلاجقة ، وكان الفرسان والرجالة مجهزين فى كامل هبئتهم ، ووقفت الفيلة المختارة عليها السروج والعماريات^(٤٩) . بينما اتخذ الجنود مواقعهم على هيئة افواج متباعدة ، وظهر على رأس الجيش القائد سباشى فى زينة بالغة مما أشار اعجاب السلطان^(٥٠) .

كان القائد الذى يقع عليه اختيار السلطان لتنفيذ المهام المكلف بها يحظى باهتمام كبير ، ويتجلى ذلك فى قيامه بتقليد القادة الخلع الفاخرة وتلقيبهم بالقباب تناسب مكانتهم ، فأمر السلطان محمود الغزنوى بقبائين مركزشين بالذهب وسيفين بحماثل مرصعة بالجواهر ومنحها لأرياق - صاحب جيش الهند ، والغازى السبسالار ، ووضع حماثل السفين بيده فى عنقهما سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م^(٥١) ولما قرر السلطان مسعود الغزنوى ارسال تاش فراش - قائدا على الجيش المتجه الى جرجان وطبرستان - أمر أن يعدوا له خلعة فاخرة تشتمل على منطقة من ذهب وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبي وستة أفيال فحول وعشر بذلات خاصة وكوسات ورايات^(٥٢) . وكانت خلعة قائد جيش الهند رائعة ، فلما مثل بين بدي السلطان فى صفر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ، أمر السلطان الخازن ان يأتى له بطوق مرصع كان قد أعد من قبل ، فاتوا به فأخذه السلطان وأدنى منه القائد (تلسك) الهندى^(٥٣) فطوق به عنقه بيده ، ثم جاء ابو الحسن

(٤٩) العماريات : الهوادج العالية .

(٥٠) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٥ - ٥٣٦ .

(٥١) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(٥٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٢٩١ .

(٥٣) تلك : هو تلك بن جاوسن - نائب السلطان وقائد جيش الهند .

انظر، حسن أحمد محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ٢٥١

الكاتب العراقي ، فخلعوا عليه سالارية (قيادة) الكرد والعرب (٥٤) .

كذلك عنى السلطان بتزويد قادة الجيش الفرنسوى بالوصايا اللازمة لتحقيق النصر قبيل تحرك القوات الى ميادين الحرب ، فمن ذلك وصايا السلطان مسعود للقائدين بكتكين جوكانى وبيرى والقادة التابعين لهما بعد انتهاء الاستعراض والخلع عليهم بقوله : "كونوا عقلاء يقظيين وامنعوا الجند من التعدى على الناس سوا في بلادكم أو في غيرها من بلاد الاعداء حتى لا يقع ظلم على أحد وحينئذ تلتحقون بجيش التوتناش (٥٥) ادوا واجبكم خير اداء ، واثتمروا بأمره ولا تخالفوه فى شيء (٥٦) . فقالوا جميعا سماعا وطاعة . ومما يجدر ذكره أن سلاطين الغزنويين كانوا يهتمون بالتوكيد على طاعة القائد العام للجيش مهما تعددت القيادات ، لتجنب الفرقة ونزاع الراى ، وحتسى يتسنى للقائد اتخاذ القرار المائب خلال القتال ، فلما وقع اختيار السلطان مسعود على عشرة من القادة لمحاربة السلاجقة فى نسا (٥٧) سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٦م (٥٨) ، وولى الحاجب بكتغدى قائدا عاما (٥٩) ، أكد عليهم فى وصاياه طاعته وامثال أوامره فقال : " ان هذا الرجل هو قائدكم - وهو خليفتنا ، فاطيعوه جميعا فان أوامره كأنها أوامرنا (٦٠) "

-
- (٥٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .
(٥٥) كان هذا الجيش قد أرسل الى التوتناش خلال قتاله ضد على تكين الخارجى بالقرب من سمرقند سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣٢م .
ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٥ - ٧٦ .
، العتبى : تاريخ اليمينى ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .
(٥٦) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٦٢ .
(٥٧) نسا : مدينة بخراسان تقع بين سرخس ومرو وابيسورد ونيسابور .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ٢٨٢ .
58) Osborn: Islam under the khalifs of B.P.320.
(٥٩) الكرديزى : زين الاخبار ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
(٦٠) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٧ .

فقبلوا الارض جميعا وقالوا سمعا وطاعة .

كان من تقاليد الغزنويين فى اعداد جيوشهم وتعبئتها للحرب ، الحاق أقسام من مخازن الحرب المتنقلة بالجيوش خلال تحركاتها - وهى عبارة عن خزائن كبيرة بها مئات من الاسلحة والمعدات الكاملة تحمل على ظهور الابل ، لتزويد الجند بما يحتاجون اليه خلال المعركة - كما كان يعين أحد نواب العارض لمرافقة الجيش للاضطلاع بصرف نفقات الجند وارزاقهم ومكافآتهم ، فاختير ابو سهل احمد على لمرافقة الجيش الذى أرسل الى خراسان سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٧م (٦١) ، وعهد اليه فضلا عن ذلك بالحل والعقد والاشبات والاسقاط وتديبير شؤون الجيش فى خراسان (٦٢) .

اهتم الغزنويين بترتيب البريد على طرق الاتصال بين الجيش ومقر السلطنة حتى ترد الاخبار تباعا ، وكان يختار لهذه الخدمة الفرسان الممتازون (٦٣) ، فلما احرز الجيش الغزنوى النصر على الامير البويهى علاء الدولة بن كاكويه فى الرى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٧م (٦٤) ، جاءت البشرى مع ثلاثة من الفرسان ، فسر السلطان بذلك ودقت الطبول ونفخ فى الابواق وخلع على المنشرين . وكانت الرسائل تكتب بالرموز (وهو ما يعرف بنظام الشفرة فى العصر الحاضر) ، فذكر البيهقى ان الرسائل كانت توضع مع الملطفة المعممها (مفتاح الرمز) بعد حل رموزها وتحويلها الى اللغفة الواضحة فى خطاب فتقدم للسلطان للاطلاع عليها (٦٥) .

61) Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin, P.44.

(٦٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٦ .

(٦٣) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٥١٩ .

(٦٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع ، ص ٣٨١ .

(٦٥) انظر ، تاريخ البيهقى ، ص ٧١٦ - ٧١٧ .

٢- خطط الغزنويين الحربية :

اتبع الغزنويون في حروبهم خططا محكمة وضعت باتقان ، كانت على جانب كبير من التطور والرقى ، بعد ان اكتسب القادة والجند الخبرات اللازمة للقتال في مختلف مبادئ الحرب ، فتحقق بذلك للغزنويين انتصارات باهرة في بلاد الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها من بلدان المشرق ، ويتجلى أسلوب الغزنويين في القتال من تلك الرسالة الهامة التي انفذها أميرك البيهقي - صاحب خراسان الى السلطان مسعود الغزنوى ، وقد وصف فيها مراحل القتال - الذى دار بين التونشاش - قائدالجيش الغزنوى وبين على تكين - صاحب خراسان - الذى كان قد خرج على طاعة السلطان ، وترجع اهمية الرسالة الى أن أبا الفضل محمد بن حسين البيهقى قد خطها بيده واوردها لنا فى كتابه المعروف بتاريخ البيهقى ، فقال : "وجلس استاذى (ابو نصر مشكان) فى الديوان ونادانى ، وشرعت فى نسخ الرسائل وكانت لاميرك البيهقى" (٦٦) .

ذكر أميرك البيهقى فى رسائله ، أن التونشاش لما وصل على رأس الجيش الى دبوسية (٦٧) ، وقف على رهوة وخطب فى الجند ليث الحماس فى نفوسهم فقال : "ايها الاحرار سوف يقابلنا خصم لدود ماكر وله جيش متحد ، سقاتلونكم مستميتين ٠٠٠ فكونوا يقظين فطينين ، وسددوا انظاركم الى رابتي التى معى فى قلب الجيش ، فاذا تراخيتم والعيادباله اختلت أموركم ، أن نهر جيحون العظيم امامكم والشقصة بعيدة سينكم وبين المفتر فى خوارزم ، والحق انى لن اولى

٦٦ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٧ .
٦٧ دبوسية : بليدة من أعمال الصغد من بلاد ماوراء النهر .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثانى ص ٤٣٧ .

ظهرى فرارا ولو تركتمونى وحيدا ، فأى وجه تقابلون
السلطان بعد ذلك ، وقد اعذر من انذر . فقالوا : لقد
أنصفتنا وسنقاتل حتى الموت" . فلما ظهرت طلعة على
تكوين ، أمر ان تدق الطبول وان بنفخ فى الابواق ايداننا
بيد . الفال - وتنبيهها للجند ومقدميهم ونقبائهم للتقدم
نحو العدو . ثم أمر ان تزحف الطلائع من اربع جهات ، بينما
وقف القائد فى القلب وجعل فى الجناحين مما يلى القلب
اقوى رجال الجيش حتى يتمكن من امداد الميمنة أو الميسرة
بالدعم اللازم عند الحاجة ، وعين على الميمنة بكتكيب
الجوكانى وبيرى الآخور ، بينما جعل سالار تاش على الميسرة
مع ثلثة من الجيش السلطانى وعبأ واساقتين قويتين . ومن
القلب اخذ يوجه الى الطلبة اكثر الفرسان خبرة وكفاءة
بينما تقدم القائد حاملا رمحہ متقدما الصفوف مما اثار
الحماس فى نفوس الجند ، وقادهم الى تحقيق النصر (٦٨) .

كان السلطان مسعود الغزنوى يحرص على اصدار تعليمات
القتال لفرق الجيش حتى يتحقق بذلك التنسيق والتعاون فيما
بينها ، فلما خرج على رأس الجيش لمحاربة السلاجقة فى
بيداء سرخس (٦٩) سنة ١٠٣٨/٥٤٣٠ - ١٠٣٩م (٧٠) امتطى السلطان
فيلته فى القلب ، وكان على الميمنة السبهسالار على دايه
وعلى الميسرة الحاجب الكبير سباشى ، وعلى الساقه ارتكين ،
وقام الرجال بحفر الخنادق حول المعسكر ، وكان المقدمون
قد اتخذوا مراقفهم فى الميمنة والميسرة والجناحين وعند
مخازن الذخيرة والمقدمة والساقه ، بينما رتب السلطان عدة

٦٨ السبهقى : تاريخ السبهقى ، ص ٣٦٧ - ٣٧٢ .

، ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٥ .

٦٩ سرخس : مدسنة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو .

ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٨ .

٧٠ الراوندى : راحة الصدور وأية السرور ص ١٦٢ .

، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٧ .

طلائع احتياطة من جهات المعسكر الاربع لحمايتها لسيلا - وكانت تعليمات السلطان لقائد المسرة : " اذهب على رأس الميسرة وفكر مليا واصغ لامرنا وارقب حركاتنا فحين نكر على العدو احمل انت فى دقة على ميمنته ويحمل السبسالار على ميسرته ، وساراقب المعركة وأرسل الحكم الامدادات من الجناحين . بينما اعطى قائد الساقة تعليماته قائللا : " والتفت حتى لا يحدث خلل فى الامدادات واحرس الطريق حراسة دقيقة" (٧١) .

أما خطة الغزنويين فى مهاجمة الحصون فكانت تتم بمحاصرة الحصن من جميع الجهات ثم تنصب المجانيق ويتم ذلك الحصن باستخدامها بالتعاون مع ضاربي السهام ، وفى الحرب التى دارت بين الغزنويين والغور سنة ١٠١٠/١٠١١-١٠١١ (٧٢) أمر السلطان محمود الغزنوى بضرب الكوسات وأن ينزل الجيش حول الجهات الاربع للحصن الرئيسى ونصب المجانيق - التى اخذت فى ذلك الحصن ، ولما حاول الغور المقاومة على الابرار - امر السلطان غلمان الخاصة ان يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بالسهام ، فتم لهم فتح الحصن (٧٣) .

أما فيما يتعلق بالفنائم ، فكان السلطان الغزنوى يضع قواعد توزيعها بعد انتهاء القتال ، فأمر السلطان محمود الغزنوى ان ينادى فى الجند : "لقد وهبنا المال والذهب والفضة والرقيق للجيش ، أما الاسلحة فحب تسليمها" (٧٤) لأنها تصير ملكا للدولة فتحمل الى خزائن السلاح لتزويد الجيوش المرسله فى مهام قتالية جديدة .

(٧١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٦ - ٦٣١ .

(٧٢) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٣٠ .

، ابن خلدون:العبروديون المبتدأ والخبر،المجلد الرابع ص ٣٦٩

(٧٣) البيهقى : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٧٤) البيهقى : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٣ - اعداد الجيش الغزنوى فى زمن السلم

لم يقتصر دور الجيش الغزنوى على الخروج الى مآدس الجهاد من أجل الحرب والقتال ، بل شارك الجند افرادالشعب فى الاحتفالات والمواسم والاعياد ، فضلا عن تعبئة الجيش لاستقبال الرسل وكبار المبعوثين فى المناسبات المختلفة .

لما عزم السلطان مسعود الغزنوى على المسير من اصبهان الى نيسابور لخلافة ابيه فى عرش السلطنة ، اعد له الفازى الحاجب - سبهسالار خراسان استقبالا كبيرا احتفاءا بمرور السلطان فى ولايته ، فركب السبهسالار جواده واستدعى اليه النقباء وقال : "سبغى ان يوعز الى الجند لستهيئوا للتعبيثة ويسيروا لبراهم مولانا ، وعلى الطلائع والمقدمين ان يحسنوا الخدمة" (٧٥) - وبدأت الجنايب تسير بكامل اسلحتها ودروعها والغلمان المجهزون بالعلامات وذيل الخاصة وفى اثرهم افواج خيالة كل مقدم بتمهيد حسن وعدة كاملة ، ومروا فوجا فوجا ، وعلى كل فوج قائده ، بينما وقف كثير من الفرسان والحشم للتحية وكانت الاعلام تمتد الى مسافات بعيدة من ابواب قصر شادباخ ، وكان السلطان مسعود قد اخذ مكانه فى صفة التاج (٧٦) .

كانت تعبئة الجيش الغزنوى فى الاحتفالات بالمواسم والاعياد تأخذ شكلا مبهرا ، ففي الاحتفال بعيد الاضحى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، استقل السلطان فيله ميمما شطر مرج شاهبهار فى موكب حافل ، وكان الوزير أحمد حسن الميمندى والعارض ابو سهل الزوزنى والخواجه ابو نصر مشكان - رئيس ديوان الرسائل يحيطون بغيل السلطان ، وتعالى قبل الضحى قرع الطبول والكوسات ، وارتفع نغير الابواق ، فوقف الجميع

(٧٥) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٦ .

(٧٦) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

وتقدم ثلاثة من مقدمى الجيش المحمودى متمنطقين بالاحزمة الذهبية ، وسبعة آخرون بالمناطق القضية يتلوهم خسامم السلطان - جوهر آيين ، يتبعهم عدد من المقدمين وحجاب السلطان ، فكانت الخيول تمر والمقدمون يقفون لتأدية التحية للسلطان عند الوصول الى موقفه العالى (٧٧).

أما تعبئة الجيش فى المناسبات الخاصة فتتجلى فى مناسبة وفاة القادر بالله وخلافة القائم بأمر الله سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م (٧٨) . فلما انفذ الخليفة القائم بأمر الله رسولا من قبله الى السلطان مسعود الغزنوى لحضور مراسم التعازى واخذ البيعة ، دعا السلطان كبير الحجاب وقائد الغلمان والعارض وصاحب ديوان الرسائل ، وتقرر ان يمثل مبعوث الخلافة فى الحضرة السلطانية فى غرة شهر المحرم سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م . فأعد كبير الحجاب وجماعة من المقدمين جميع ما يلزم لاعداد الجند وغللمان السراى فوقف اربعة آلاف من غلمان السراى فى صفين من جهة القصر مقسمين الى عدة كتائب ، ألفان منهم بقبعات ذات ركنين ومناطق شمينه ، وألفان آخران بقبعات ذات اربعة اشربة ، كما وقف ثلثمائة من خاصة الغلمان عند ممرات السهو مما يلى مجلس السلطان بالبسة فاخرة وقبعات ذات ركنين ومناطق ذهبية وديابيس من ذهب ، واصطف الجند بأسلحتهم فى صفين بالبستهم الحريرية المختلفة الالوان ومعهم العماريات والرايات ليستعرضهم الرسول اثناء مروره بينهم ، وتعالى اصوات الابواق والطبول والكوسات ، فلما رأى الرسول هذا المشهد العجيب اخذته الدهشة . وخلال ذلك تقدم ركسب السلطان قبيل الظهر وأمامه اربعة آلاف من الغلمان على

(٧٧) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ .
(٧٨) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، ص ٥٦ - ٥٧ .
Muir: The Caliphate, P. 579-580.

تلك الزينة ، وكان القائد سكتغدى من ورائه وفي اشـره
غلمان الخاصة - وراية السلطان وأصحاب الرتب والحجاب فى
المقدمة ، ومن ورائهم كبير الحجاب - سلكاتكين ، والوزير
أحمد حسن الميمندى يسير خلف السلطان مع الوجوه واعيان
الحضرة ، ثم نفخ فى الابواق الذهبية اعلانا باتخاذ السلطان
مكانه الجليل ايذانا ببدء العرض (٧٩) .

خاتمة البحث

يتجلى من دراسة تقاليد الفرزنويين في اعداد جيوشهم وتعبئتها أن هذه الجيوش قد بلغت مستوى عال من التدريب والكفاءة فكانت فخرا للدولة في زمنى الحرب والسلام .

كانت تعبئة الجيش الفرزوى في حالة الحرب لا تختلف عنها في زمن السلم ، ولا يميز الحاليتين الا نوع الالبسة وصنوف السلاح التى كان يحملها الجند في كل مناسبة .

تطورت أساليب القتال الفرزوية من طريقة الحشد العام على عهد سيكتكين - مؤسس الدولة الى اتباع أنظمة مختلفة طبقا للموقف القتالى في ساحات الجهاد ، وطبيعة المعركة مع العدو ، فاتخذ الفرزنويين الطلائع المتقدمة والطلائع الاحتياطية لحماية أجناب القوات واقسام التعبئة . كما كان قائد الجيش يزود أقسام التعبئة اثناء القتال بالامدادات من الاحتياط العام الموجود فى الجناحين المتاخمين للقلب .

كانت الرسائل المتبادلة بين الجيش فى ميدان القتال وبين الحضرة السلطانية تكتب بالرموز (الشفرة) حتى لا يقف العدو على محتواها . وكانت مفاتيح الرمز تحفظ فى ديوان الرسائل حيث يقوم رئيس الديوان أو نائبه بتحرير الرسائل لبلغتها الواضحة قبل عرضها على السلطان . حرصت الدولة على الاحتفاظ بالاسلحة بعد انتهاء الحرب دون غيرها من الغنائم للانتفاع بها فى تزويد الجيوش ، بينما كان يتم توزيع الغنائم الاخرى على الجنود .

على الرغم من الانتصارات الكبيرة التى حققها الجيش الفرزوى فى ميادين عديدة واتساع فتوحاته وخاصة بلاد

الهند ، الا أن هذا الجيش منى هزائم فى حروبه ضد السلاجقة مما كان له اسوأ الاثر فى اضمحلال الدولة وسقوطها . وترجع اسباب هذه الهزائم الى اختيار مجلس شورى الحرب لعدد من القادة الشبان - الذين لا يتمتعون بالخبرة والتجربة - اللازمة لخوض الحرب فضلا عن قائد كبير السن مثل يكتغدى - الذى اعترض على تعدد القيادة ، وأبدى رغبته فى التنحى عنها : " انى عبد مطيع ولكن قد قيل ان القدر لا ينضج اذا كثر الشركاء ، وأنا رجل قد بلغت من الكبر عتيا ووهسن عظمى وضعف نصرى ، ولا يجوز النقص فى القيادة ، فانه يؤدى الى خلل عظيم فيوء اخذنى به السلطان (١) " . غير ان السلطان أمر على ارسال يكتغدى قائدا عاما .

كذلك لعبت الاحمال الثقيلة وسوء التدريب دورا هاما فى عجز الجيش الغزنوى واعاقه حركته ، لان الجند كانوا مضطرين الى حماية أنفسهم وحماية متاعهم الثقيل ، بينما كان السلاجقة يتمتعون بخفة الحركة وكانت احمالهم بسيطة . كانت الهزيمة العظمى للجيش الغزنوى فى موقعه داندانقان سنة ٤٣١هـ / ١٠٤٠م ، فقد خاض الجيش الغزنوى المعركة فى يوم شديد الحرارة والموءن قليلة ، والعلف لا وجود له والدواب هزيلة ، وقد مر السلطان مسعود الغزنوى فى الطريق على كثير من أفراد جيشه بجرون جيادهم ويبكون ، فامتألاً قلبه حسرة ، وقال : " ما أسوأ حال هذا الجيش " (٢) .

* * *

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٦ .
(٢) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية

- * ابن الاثير : (ت ١٢٣٨/٥٦٣٠ م) ابوالحسن على بن ابي الكرم .
(١) "الكامل في التاريخ" - ٩ اجزاء (الجزءان ٧ ، ٨) - دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨ م .
* أحمد محمود الساداتي :
(٢) "تاريخ المسلمين في سبة القارة الهندية" -
الجزء الاول - القاهرة ١٩٥٨ م .
* الاصطخري : (ت ٩٥٢/٥٣٤١ م) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي
(٣) "المسالك والممالك" - تحقيق محمد جابر عبد
العال - القاهرة ١٩٦١ م .
* ابن الجوزي : (ت ٥٩٧/١٢٠٠-١٢٢١ م) جمال الدين ابو الفرج
عبد الرحمن .
(٤) "المنتظم في تاريخ الملوك والامم" - ١٥ اجزاء
(الجزء الثامن) حيدر آساد الركن ١٣٥٩ هـ .
* حسن أحمد محمود :
(٥) "الاسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العرسى
والتركي" - الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٢ م .
* حسن الباشا :
(٦) "الالقب الاسلامية" - مكتبة النهضة المصرية
١٩٥٧ م .
* ابن خلدون : (ت ١٤٠٥-١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد
(٧) "العبر وديوان المبتدأ والخبر" - ٥ مجلدات
(المجلد الرابع) - دار الفكر ، بيروت ١٩٧٩ م
* ابن خلكان : (ت ١٢٧١/٥٦٨١ م) شمس الدين ابو العباس احمد
ابن ابراهيم .

(٨) "وقيات الاعيان وأنباء انباء الزمان" -

تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - القاهرة
١٩٤٨ م .

* السبكي : (ت ١٣٧١/٥٧٧١-١٣٧٦ م) ابو النصر عبدالوهاب

ابن علي بن الكافي .

(٩) "طقات الشافعية الكبرى" - المطبعة الحسينية

- القاهرة ١٣٢٤ هـ .

* العتبي : (ت ١٠٣٦/٥٤٣١ م) ابونصر محمد بن عبد الجبار

(١٠) "تاريخ المنى" ، مطبوع على هامش الفتح

الوهبي على تاريخ ابي نصر العتبي للشيخ احمد
ابن علي المنيني (دمشق) - المطبعة الوهبية
١٣٨٦ هـ .

* القزويني : (ت ١٢٧١/٦٨١ م) ابو عبدالله زكريا بن

محمود القاضي .

(١١) "آثار البلاد واخبار العباد" - دار مصادر

- بيروت ١٩٦٨ م .

* محمد جمال الدين سرور :

(١٢) "تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق" - دار

الفكر العربي ١٩٧٦ م .

* هلال بن الصابي : (ت ١٠٥٦/٥٤٤٨ م) ابو الحسين هلال بن

المحسن بن ابي اسحق .

(١٣) "رسوم دار الخلافة" - نشر ميخائيل عسواد

بغداد ١٩٦٤ م .

* باقوت الحموي : (ت ١٢٢٦/٥٦٢٦ م) شهاب الدين ابو عبدالله

الحموي الرومي .

(١٤) "معجم البلدان" - ٥ مجلدات - دار مصادر

بيروت ١٩٧٩ م .

ثانيا : المصادر الفارسية

- * البيهقي : (ت ١٠٦٦/٥٤٧٠ م) ابو الفضل محمد بن حسين البيهقي .
- (١) "تاريخ البيهقي" - نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت - مكتبة الانجلو ١٩٥٦ م .
- * حمد الله المستوفى : (ت ١٣٦١/٥٧٥٠ م) حمد الله بن ابي بكر بن احمد بن نصر المستوفى القزويني .
- (٢) "تاريخ كزيده" - ملحق بتاريخ بخارى للرشخى - نقله الى العربية أمين عبد المجيد يدوي - ونصر الله مبشر الطرازي - دار المعارف بمصر
- * الراوندى : (ت ١٠١٩/٥٥٩٩ م) محمد بن على بن سليمان
- (٣) "راحة الصدر واية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية" - ترجمة ابراهيم أمين الشواربى وعبد النعم حسنين وفؤاد عبد المعطى الصياد - القاهرة ١٩٦٠ م .
- * العروى السمرقندى : (ت ١١٦٤/٥٥٦٠ - ١١٦٥ م) احمد بن عمر بن على النظامي .
- (٤) "جهاز مقاله" - شرح وتحقيق محمد بن عبيد الوهاب القزويني - تعريب يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٩ م .
- * الكرديزى : (ت ١٠٥٠/٥٤٤٢ م) ابو سعيد عبد الحى الضحاک
- (٥) "زين الاخبار" ترجمه عن الفارسية عفاف السيد زيدان - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ م .
- * ميرخوند : (ت ١٥١٧/٥٩٠٣ م) محمد بن خواند شاه بن محمود
- (٦) "روضة المفا" - (القسم الرابع من المجلد الرابع) ترجمة وتعليق احمد عبد القادر الشادلى .

* نظام الملك : (ت ١٠٩٧/٥٤٨٥ م) نظام الملك ابو عيسى

الحسن بن على .

(٧) "سياسة نامه" ترجمة السيد محمود العزاوي-

القاهرة ١٩٧٥ م .

* * *

ثالثا : المراجع الاجنبية

* BOSWORTH: C.E.

(1) "The Ghaznavids, their Emperian of Afghanistan and Eastern Iran (993-1040 A.D.)" - Edinburgh.

(2) "Notes on the preghaznavids of Eastern Afghanistan" (The Islamic quarterly) - Oxford, 1965.

* DUNBAR: G.

(3) "A History of India from the earliest to the present day".

* HABIB: M.

(4) "Sultan Mahmood of Ghaznin"- New Delhi, 1967.

* LANE-POOL: Stanley

(5) "The Mohammedan Dynasties" - Paris, 1925.

(6) "Mediaeval India under Mohammedan Rule" London , 1917.

* MORELAND: W.H.& Chatterjee (Atul Chandra)

(7) "A short History of India"- London, 1936..

* MUIR: W.

(8) "The Caliphate, its rise, decline, and fall"- London, 1924.

* NAZIM: M.

(9) "The time and life of Mahmoud of Ghazna"
Cambridge, 1931.

* OSBORN: D.

(10)- "Islam under the Khalifs of Baghdad"
London, 1877.

* PANIKKAR: K.M.

(11) "A survey of Indian History" -Bombay,
1956.

* * *

نائب السلطنة فى القاهرة
فى عصر دولة المماليك البحرية
د. لىلى عبدالحواد اسماعيل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

كان منصب نائب السلطنة واحدا من المناصب الادارية الكبرى ، التى عرفتها مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، حتى ان الخالدى صاحب المقصد الرفيع وضع نائب السلطان على رأس ارباب الوظائف بالقاهرة ، اذ جعل ترتيبه الاول بينهم^(١) . والنائب هو الذى يقوم مقام السلطان فى عامة اموره أو فى غالبها ، اما المعنى اللغوى للكلمة فهى اسم فاعل من ناب ينوب فهو نائب ، ويقال ناب فلان عن فلان. ينوب نوبا ومنايا ، واذا قام مقامه فهو نائب . واطلق هذا اللقب فى المصطلح التاريخى على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجا عنها فى قرب أو بعد وفما ذكر القلقشندى^(٢) .

وقد عرف السلاجقة منصب نائب السلطنة ، وكان النائب عندهم هو الوالى نفسه ، الذى ينوب عن السلطان فى حكم احدى ولايات السلطنة ، واستمر هذا المنصب فى عصر الاتاىكة ثم انتقل الى الدولة النورية ، ومنها الى الدولة الايوبية^(٣) . فمئذ عصر صلاح الدين اشغل سلاطين مصر بحروبهم مع الصليبيين فى الشام ، واضطروا لترك مصر لفترات طويلة ، و لذلك اقتضت الضرورة وجود من ينوب عنهم ، ويعتمدون عليه فى ادارة شئون البلاد ، وفى حكمها اثناء غيابهم عنها^(٤) . من ذلك انه عندما خرج صلاح الدين لقتال الصليبيين بالشام فى عام ٥٧٣هـ /

-
- (١) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٤ .
 - (٢) القلقشندى ، صح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ .
 - (٣) حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .
 - (٤) سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

١١٧٨ م جعل اخاه العادل نائبا عنه (٥) .

وعندما آلت السلطنة الى العادل سف الدين اخى صلاح الدين ، استناب ابنه الكامل عند خروجه الى بلاد الشام لقتال الصليبيين فى عام ١٢١٠/٥٦٠٧ م ، وجعله القائم بامور البلاد فى غيابه (٦) . كذلك انتاب السلطان الكامل بدوره ابنه الصالح نجم الدين ايوب عند خروجه الى بلاد الشام فى عام ١٢٢٨/٥٦٢٥ م . ولكنه اشرك معه الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، ليقوم بالانصراف على تحصيل الاموال وتسيير امور المملكة . ثم عاد السلطان الكامل واستناب ابنه العادل على مصر ، عندما خرج لصد المغول فى عام ١٢٢٢/٥٦٢٩ م ، واصطحب معه الصالح ايوب (٧) .

على ان منصب نائب السلطنة ظل فى العصر الايوبى منصبا مؤقتا ، بمعنى ان النائب يحل محل السلطان فى حالة غيابه عن البلاد فحسب ، وينتهى دوره بعودة السلطان اليها . ولكن حدث عندما تولى الصالح ايوب السلطنة فى عام ١٢٤٠/٥٦٣٨ م ان جعل منصب نائب السلطنة منصبا دائما ، وذلك لحد من سلطة الوزير ، واصبح نائب السلطنة بصفته الجديدة يلى السلطان فى المرتبة ويتمتع بكل ما كان يتمتع به الوزير من قبل ، الامر الذى ادى الى اضعاف مكانة الوزير بعد ان طفى نائب السلطنة عليه واستحوذ على ما كان له من سلطات (٨) . وكان الامير حسام الدين بن ابي على الهذبانى (٩) هو

(٥) انظر ابو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ابن تغرى

بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ١٦١ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٢ - ١٣٠ .

(٧) انظر ابن واصل ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٧ ، ج ٥

، ص ١٦ - ١٧ ، وانظر ايضا : محمد محمد امين ، " الملك

الصالح نجم الدين ايوب " رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ١٩

، ص ٢١ .

(٨) محمد محمد امين ، الصالح ايوب ، ص ١٤٩ .

(٩) ولد الامير حسام الدين بن ابي على الهذبانى بحلب فى عام

٥٩٢ هـ ، وكان من كبار رجال دولة الصالح ايوب ، ثم

استدعاه وولاه نيابة السلطنة بديار مصر ، واقامه مقام ==

اول من تولى منصب نائب السلطنة بصفته الجديدة ، وذلك فى عام ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م ، وظل حسام الدين يشغل هذا المنصب حتى وفاة الصالح ايوب ، وعندما خلفه ابنه توران شاه فى السلطنة عين الامير جمال الدين اقوش النجيبى^(١٠) بدلا من حسام الدين فى عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م^(١١) .

وفى ظل النظام الاقطاعى الذى طبقته الدولة الايوبية على نطاق واسع كان نائب السلطنة فى العصر الايوبى يقطع اقطاعا ، فذكر ابن واصل ان الملك الصالح نجم الدين ايوب اقطع نائبه حسام الدين الهذيانى الخبز الذى كان بيد اسد الدين الكاملى ، وهو احد الامراء الذين قضى عليهم الصالح ايوب^(١٢) .

كذلك صارت دار الوزارة^(١٣) هى مقر نائب السلطنة فى العصر الايوبى ، اذ يذكر ابن واصل ان الصالح ايوب انزل

-
- == نفسه ، انظر ترجمته : العماد الحنبلى ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٢٩٦ ، اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ - ٥٦ ، وانظر ايضا ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
- (١٠) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٢٤ - ٢٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨١ .
- (١١) المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، العنى عقد الجمال ج ١ ، ص ٢٣ .
- (١٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ - ٣٨ .
- (١٣) يبدو ان المقصود بدار الوزارة هنا ، دار الوزارة الكبرى ، وهى تلك الدار التى بناهاها افضل بن بدر الجمالى فى العصر الفاطمى فى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م بجوار القصر الشرقى الكبير وسكن سلاطين الايوبيين هذه الدار منذ عهد صلاح الدين حتى عهد الكامل ثم اصحبت تسمى بالدار السلطانية بقلعة الجبل . انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٣ ، حاشية ١ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ، حاشية ٢ .

نائبه حسام الدين الهذاني بدار الوزارة بالقاهرة بعدان
ولاه نيابة السلطنة ، وذلك لكون قريبا منه ، ويمل السى
خدمته فى اكثر الاوقات لمنادمته ومجالسته والاستضاءءة
برأيه (١٤) .

ولما كانت دولة المماليك استمرارا - من ناحية كثير
من النظم - لما كان عليه الوضع فى دولة سنى ايوب ، فان
منصب نائب السلطنة استمر فى عصر الدولة الجديدة ، وان هذا
فى صورة منصب مؤقت لم تتضح معالمه فى اول الامر حتى كان
عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وعندئذ اصح مناصبا دائما ،
واخذت تتحدد معالمه ودرجاته ومراسمه واختصاصاته على نحو
ما سنرى .

وكان الامير علاء الدين ايدكين البندقدار الصالحى (١٥)
هو اول من شغل منصب نائب السلطنة بصفته المؤقتة - فى
عصر دولة المماليك البحرية ، اذ اختاره السلطان المعز
ايبك فى ١٣ شوال من عام ٦٤٨ هـ / ١٨ يناير ١٢٥١ م ليشغل
هذا المنصب عند خروجه من القاهرة لقتال الملك الناصر
صاحب حلب ، واخذ الامير علاء الدين يمارس مهام منصبه ،
فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل لترتب
الامور وكشف المظالم (١٦) .

وفى عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م رتب المعز ايبك الامير سيف
الدين قطز فى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكان قطز
واسع النفوذ اشيرا عند السلطان فعاونه على تثبيت ملكه

١٤) ابن واصل ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ ، ٣٧٣ ، المقريزى ، السلوك
ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

١٥) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ١٥٥
، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٦٥ ، ابن كثير ، البداية ، ج ١٣ ، ص ٣٠٥ -
٣٠٦ .

١٦) المقريزى ، السلوك ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٣ ، العينى ، عقد
الجمان ج ١ ، تحقيق محمد محمد امين ، ص ٣٩ - ٤٠ .

وتدعيم اركانہ (١٧) . وظل قطر يشغل منصب نائب السلطنة في عهد المنصور على بن المعز ايبيك ، ويؤكد ذلك ما ذكره كل من المقریزی والعيني في حوادث عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ، وعام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م من ان الامير سيف الدين قطر ظل على عادته نائبا للسلطنة في عهد المنصور على وصار مدير دولته (١٨) .

وعندما اعتلى قطر عرش السلطنة اتخذ من الامير عز الدين ايدمر الحلي او الحلبي (١٩) نائبا لسلطنته بمصر عند خروجه لقتال المغول ، واعلن المقریزی ذلك صراحة (٢٠) . هذا في حين يذكر العيني ان الامير فارس الدين اقطاي المستعرب (٢١) هو الذي كان نائبا عن قطر بقوله : " فلما وصل بيبرس هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر الى الدهليز ، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاي المستعرب وهو الذي كان اتابكا لنور الدين على بن الملك المعز ايبيك التركماني ، فلما تسلطن قطر ، اقره على نيابة السلطنة بالديار المصرية (٢٢) ويبدو ان فارس الدين اقطاي المستعرب حمل اللقب ، ولكن قطر عند خروجه لمحاربة المغول في الشام استناب بمصر الامير عز الدين الحلي (٢٣) .

وبعد ان استقرت الامور للسلطان الظاهر بيبرس ، استناب مملوكه الامير بدر الدين بيليك الخازندار (٢٤) في ذي القعدة

-
- (١٧) المقریزی ، المصدر السابق ، نفس الجزء والقسم ، ص ٣٨٤ .
(١٨) المقریزی ، نفس المصدر ، ص ٤٠٥ ، العيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، التحقيق ، ص ١٣٩ ، ٢١٦ .
(١٩) انظر ترجمته في المنهل ، ج ٣ ، ص ١٧١ ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .
(٢٠) انظر المقریزی ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ . وانظر ابن دقماق ، الجوهر الثمين ص ٦٦ .
(٢١) انظر ترجمته في المنهل ، ج ٢ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .
(٢٢) العيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، التحقيق ، ص ٢١٦ .
(٢٣) ابن ايبيك الدواداري ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٦٢ .
(٢٤) الامير بدر الدين بيليك الخازندار ، استتراه السلطان الظاهر ورباه من صغره ، وكان خازنداره ثم استناداره في الامر ، وتوفي بيليك في ربيع الاول ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م عن ==

سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م ، وفوض اليه شئون الدولة ، وصار صاحب
الحل والعقد بالديار المصرية ، ينفذ الامور من غير مشورة
السلطان ، ويتصرف في امور المملكة التصرف المطلق . ثم
وسع السلطان الظاهر في اختصاصات نائبه الامير بدر الدين ،
ففوض اليه النظر في امر الجيوش بقطع الاقطاعات ، كما فوض
اليه امر الرعايا وكشف ظلماتهم (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) (٢٥) .

ويعد الامير بدر الدين بيليك الخازندار اول نائيب
دائم في عصر دولة المماليك البحرية ، وقد استمر يشغل
منصبه هذا طيلة حياة السلطان الظاهر بيبرس ، وعندما كان
الامير بدر الدين يصاحب السلطان ويخرج معه الى بلاد الشام
لقتال المغول^(٢٦) ، كان السلطان الظاهر بيبرس يعيّن
نائبا اخر مؤقتا لحين عودة نائبه الدائم الامير بدر الدين
بيليك الخازندار . من ذلك ما ترويه المصادر من ان السلطان
الظاهر بيبرس كان يستنوب الامير عز الدين الحلبي اثناء خروجه
الى بلاد الشام لقتال المغول ، وكان يجعله في خدمة ولده
الملك السعيد ومعه الصاحب بهاء الدين بن حنا وذلك كما
حدث في اعوام ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ، ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م (٢٧) .

== خمسة واربعين عاما ، اما كلمة بيليك فتعني باللغة
التركية العالم او الحكيم ، انظر ترجمته في المنهل ، ج ٣ ،
ص ٥١٢ - ١٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ق ٢ ،
ورقة ٣٧٣ وانظر ايضا المفضل ، النهج منشور في P.O.T.
N.5, P.401 XII ، ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٨٦ - ٨٧ ، المقرئزي
، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٨ .

(٢٥) المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ، النويري ، المصدر
السابق ، ج ٢٨ ، ورقة ٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ابن دقماق ، الجوهر
الشمين ، ص ٦٨ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٣١٠ .
(٢٦) انظر ابن تغرى بردي ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ،
ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ،
ص ٢٩ - ٣٠ ، ٩٩ ، النويري ، المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ورقة
٣٥٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ،
المفضل ، النهج .

P.O.T. XII, P.421

(٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٧٠
٢٢٨ ، ٢٩ ، النويري ، المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ورقة ١١٠ ==

واستمر الامير عز الدين الحلى يعمل كنائب غيبة
للسلطان الظاهر بيبرس ، ويحل محله فى حالة غيابه عن
البلاد هونائيه الدائم الامير بدر الدين حتى عام ٦٦٧هـ/
١٢٦٨م ، وهو العام الذى توفى فيه الحلى ، ويرجع ذلك
الى ان الحلى كان كما ذكر ابن تغرى بردى "من اكبر امراء
الدولة واعظم مولا عند الظاهر بيبرس ، وكان نائب السلطنة
عنه بالديار المصرية فى غيبته عنها لوثوقه به واعتماده
عليه" (٢٨) .

وبعد وفاة الامير عز الدين ايدمر الحلى ، وعند خروج
السلطان الظاهر الى الشام فى جمادى الاخرة من عام ٦٦٩هـ/
يناير ١٢٧١م ، وصحبته ولده الملك السعيد ونائيه الامير
بدر الدين بيلىك الخازندار - اصاب عنه بالقاهرة الامير شمس
الدين اقسنقر الفارقانى (٢٩) كنائب غيبة (٣٠) .

وظل الامير اقسنقر الفارقانى يعمل كنائب غيبة فى
القاهرة خلال الاعوام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م - ٦٧٥هـ/١٢٧٦م فى اوقات
خروج السلطان الظاهر بيبرس ونائيه بدر الدين بيلىك الى
بلاد الشام لقتال المغول (٣١) .

== ١٢٧ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق
ص ٧٨ ، المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٥-١٠٦ .
(٢٨) ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ١٧١ ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .
(٢٩) الامير اقسنقر الفارقانى من مماليك نجم الدين صاحب صلاح
الدين ، ثم اتصل بخدمة السلطان الظاهر بيبرس ، وتقدم
عنده وجعله السلطان استادارا كبيرا ، وولاه نيابة الغيبة
لوثوقه به ، ثم ولى اقسنقر نيابة الحضرة لفترة قصيرة
وتوفى فى عام ٦٧٧هـ عن خمسين عاما ، انظر ترجمته فى
المنهل ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ - ٩٦ ، اليونينى ، ذيل مسرأة
الزمان ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣٠) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ١٨٠ - ١٨١
المفضل ، النهج منشور فى
P.O.T. XII, P. 527.

(٣١) النويرى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ورقة ٣٥٠ ، ابن
الفرات ، ج ٧ ، ص ٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ،
ص ١٦٥ - ١٦٦ ، الكتبى ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٢٩ -
٣٠ ، ص ٩٩ ، اليونينى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

بتضح مما سبق انه منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس بدأت تتحدد درجات منصب نائب السلطنة ، وبدأت تتضح معالمه ، وبدا واضحا انه منذ ذلك العهد انقسمت النيابة الى درجتين او قسمين وهما : نيابة السلطنة بالغيبة ونيابة السلطنة بالحضرة . والحق ان كثيرا من أنظمة الحكم والادارة فى عصر دولة المماليك اخذت تتبلور فى عهد السلطان الظاهر بيبرس بالذات (٣٢) .

أولا : نيابة الغيبة :

نائب الغيبة كما جاء فى التعريف هو الذى يتترك اذا غاب السلطان والنائب الكافل اى نائب الحضرة لآخاد الشوائر وخلص الحقوق (٣٣) ، وكان السلطان عند خروجه من البلاد ورحيله عنها - يكتب لنائب الغيبة "تذكرة" والتذكرة هى مكتوب من السلطان لنائيه ، يذكره فيه بتفاصيل ما يوكل اليه وما يطلب منه عمله اثناء غياب السلطان عن البلاد وقد اورد لنا كل من القلقشندى وابن الفرات نسخة تذكرة سلطانية كتبت عن السلطان الصالح على ابن المنصور قلاوون عند سفره الى الشام للامير زين الدين كتبغا عند استقراره نائبيا للسلطنة وهى من انشاء احمد بن المكرم الكاتب (٣٤) .

وتتضمن التذكرة فصولا توضح ما كان يطلب من نائب الغيبة عمله ، فكان عليه ان يتشدد فى تنفيذ احكام الشرع الشريف ، وان يعمل على نشر الحق والعدل والانصاف فى جميع ارجاء البلاد . وكان على نائب الغيبة فى داخل القاهرة ان يوفر ما يكفل لها الحراسة والحماية وذلك باصدار

(٣٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٣٠ .
(٣٣) العمري ، التعريف ، ص ٦٥ . وانظر ايضا القلقشندى ، صح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧ - ١٨ .
(٣٤) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٩١ - ٩٨ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

اوامره نالا يمشى احد فى ضواحيها ليلا ، ولا يخرج احد من بيته الا لضرورة ماسة ، وان يضاعف الحراسة فى الليل على السجون ، وان يرتب جماعة من الجنود اشبه بالخبراء للطواف حول المدينة ، والتأكد من اغلاق ابواب الدروب ، وغيرها ، وتفقد اصحاب الرباع ، وتأييد من يخل بمركزه منهم . كذلك كان على نائب الغيبة ان يشرف على خليج القاهرة وحفره ، وان يهتم بجسور ضواحي القاهرة ، وذلك بالعمل على تعريضها وحسن رصفها ، وحفظها من الطارق عليها ، وعليه ايضا ان يتفقد القناطر والترع ويصلح ما تهدم منها .

اما فى خارج القاهرة فكان على نائب الغيبة ان يتصل بالولاة ، ويحثهم على ضرورة ترتيب الخبراء فى بلادهم لحمايتها وحفظها ، ويؤكد عليهم لاستخلاص الحقوق الديوانية واموال الخراج من جهاتها ، ويحث النائب الولاة ايضا على عدم الفتور واظهار العجز والتقصير . ويكتب لهم ايضا بالا يحمل احد من العربان سيفا ولا رمحا ولا سلاحا ، وانه لسن يسمح لاحد منهم بشراء سلاح من القاهرة ، ومن يخالف هذه الامور يوءدب .

وجاء فى التذكرة ايضا تعليمات لنائب الغيبة تتعلق بالشغور ، وضرورة الحفاظ عليها والاحتراز على المعتقلين بها ، والتبقيظ لمهمات الشغل ، واستمالة التجار ومعاملتهم بالعدل والرفق حتى يأتوا الى الشغور ، وعدم الاسراف فى فرض الرسوم المقررة على المراكب القادمة الى الشغل ، ولا يقلل متحصلها فى نفس الوقت . وعلى نائب الغيبة ايضا ان يحصل الاقمشة والامتعة على اختلاف انواعها ، وكذلك الجوارى والمماليك وغيرها .

ولم تغفل التذكرة امر الامراء والجنود الفائبين فى ميادين القتال ، فقد جاء فيها انه على النائب الاهتمام بمصالحهم اثناء غيابهم ، واستخلاص حقوقهم لنوابهم

وغلمانهم ووكلائهم - وهكذا شملت التذكرة كل امر من الامور
التي تتعلق باحوال البلاد وحماتها ومسالحتها .

وكانت التذكرة تقرأ على المنابر لسمعها سائر الناس
ويعملوا بها وما جاء فيها ، ومن يخل بكون جزاءه العقاب .

وعلى هذا فان نائب العيبة كان يحل محل السلطان ويقوم
بمهامه في حالة غيابه عن البلاد في حرب أو صيد أو حج . ونظرا
لانه كان ناشئا موقتا ، يشغل منصبه لفترة محدودة لذلك
كانت لقابه محدودة ، فلا يعبر عنه بالكافل كنائب الحضرة أو
النائب الدائم ، ومع ذلك فانه كان يتمتع بالسلطة والنفوذ
اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه ، فقد وصف لنا المؤرخ
بييرس الدوادار الامير زين الدين كتيفا الذي تولى نائبة
الغيبة في عهد السلطان الاشرف خليل بقوله : " انه كان نائب
السلطان في الغيبة ومضاهيه في الهيئة " (٣٥) .

شانيا : نيابة الحضرة :

وهي النيابة العظمى ، ويعبر عن صاحبها بالنائب
الكافل (٣٦) وكافل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم في كل ما
يحكم فيه السلطان ، ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير
وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليمه
السلطان ، وبقمة النواب لا يعلم الرجل منهم الا على ما
يتعلق بخاصة نيابته ، وجميع نواب الممالك تكاتبه في غالب
ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان ،
وهو يستخدم الجند من غير مشورة السلطان ويعين الامراء
لكن بمشاوره السلطان . ولذلك فهو اعلى نواب السلطان

(٣٥) بييرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ٩٩ ، تحقيق زبيدة عطا ،
ص ٣١٧ .

(٣٦) الكافل في اللغة هو الذي يكفل الانسان ويعوله ، ويستعمل
هذا اللقب باضافة اء النسب اليه فيقال (الكافلي)
وهو يشير الى نوع الوظيفة التي تنتمي اليها الملقب ،
وهو نائب السلطنة بالحضرة . انظر حسن الباشا ، الالقاب
ص ٤٣٤ - ٣٥ .

رتبة واكثرهم تميزا ، وهو سلطان مختصر بل وهو السلطان
الشانى (٣٧) .

وكان نائب السلطنة بالحضرة يجمع بين النيابة والكفالة
اي نيابة السلطنة المعظمة وكفالة الممالك الاسلامية الشريفة
مصر وشاما وسائر البلاد الاسلامية (٣٨) .

اما عن القابه فهى تظهر بوضوح تام فيما اورده لنا
العمرى من رسم الكتابة اليه على النحو التالى : " اعز
الله انصار الجناب الكريم العالى الاميرى الاجلى الكبيرى
العالى العادلى الموءيدى الممهدى المشيدى الزعيمى الزخرى
المقدمى العونى الغياثى المرابطى المشاغرى المظفرى
المنصورى الاتابكى الكافلى الفلانى ركن الاسلام والمسلمين
سيد الامراء فى العالمين اتابك الجيوش مقدم العساكر زعيم
الجنود عاقد البنود ذخر الموحدين ناصر الغزاة والمجاهدين
غياث الامة وغوث الملة مشيد الدولة كافل الممالك منجد
الملوك والسلاطين" (٣٩) .

اما عن مراسم تعيين نائب السلطنة بالحضرة فعند
تعيينه كان يكتب له تقليد (٤٠) بذلك وقد اورد لنا القلقشندى
نموذجين من تقاليد نواب السلطنة عامة ، كما اورد نسخة
بتقليد نيابة السلطنة بالقاهرة ، كتبت عن السلطان اسى

٣٧) العمرى ، التعريف ، ٦٥-٦٦ ، مسالك الابصار ، تحقيق
ايمن فوءاد ، ص ٥٤-٥٦ ، الخالدى المقصد ، ورقة ١٢٤ ،
القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، ج ٧ ، ص ١٥٤ -
١٥٥ ، ج ١١ ، ص ١٣٤ . وانظر ايضا : عبد المنعم ماجد
، نظم دولة المماليك ورسومهم ، ص ٤٣ .
٣٨) العمرى ، التعريف ، ص ٦٥-٦٦ ، القلقشندى ، ج ٧ ، ص ١٥٤-١٥٥ .
٣٩) العمرى ، التعريف ، ص ٦٦ . وانظر ايضا حسن المشاشا ،
اللقاب الاسلامية ، ص ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤٣٦ ،
٤٥٥ - ٤٥٨ ، ٥٢٣ .

٤٠) تقليد والجمع تقاليد ويقال قلده امر كذا ، اذا وليته
ايها ، وهو مأخوذ من القلادة فى العنق ، ويقال قلبد
المرأة فتقلدت . انظر القلقشندى ، المصدر السابق ج ١١ ، ص ١٠١ .

بكر بن الناصر محمد بن قلاوون للامير طقز دمر (٤١) عند توليه نيابة السلطنة في عام ١٣٤١هـ/١٧٤٢م (٤٢) . كذلك اورد لنا الشجاعى نسخة تقلد نيابة السلطنة للامير طشتمر حمص اخضر (٤٣) ، كتبت عن السلطان الناصر احمد ابن الناصر محمد (٤٤) .

وفي بعض الاحيان كان التقليد يكتب عن الخليفة . وغالبا ما كان ذلك يحدث في حالة صغر سن السلطان الجالس على العرش . ففي عام ١٣٤١هـ/١٧٤٢م قام الخليفة بكتابة تقليد الامير سيف الدين قوصون (٤٥) بنيابة السلطنة ، وذلك لصغر السلطان كجك ، الذى لم يتجاوز السادسة من عمره (٤٦) .

(٤١) الامير طقز دمر بن عبدالله الحموى الناصرى ، اصله من مماليك الملك الموحّد عماد الدين اسماعيل صاحب حمص ، ثم انتقل الى ملك الناصر محمد ، فولاه عدة مناصب ، وزوجه من احدى بناته ، وتولى طقز دمر نيابة السلطنة في عهد ابنه المنصور ابوبكر ، وتوفى طقز دمر في عام ١٣٤٥هـ/١٧٤٦م ، انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٤٢ (٤٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ١٣٧ - ١٤٨ .

(٤٣) الامير طشتمر حمص اخضر ، سمي بذلك لانه كان يحب اكل الحمص ، وولى نيابة السلطنة في شوال ٧٤٢هـ ، في سلطنة الناصر احمد ، ولم يستمر بها اكثر من اربعين يوما قسّر عليه بعدها ، واعتقل بالكرك ، وقتل عام ٧٤٣هـ ، انظر ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد واولاده ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ابن حبيب ، تذكرة ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

(٤٤) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٤٥) الامير سيف الدين قوصون ، ولى نيابة السلطنة في عهد كجك في عام ٧٤٢هـ فاستبد بالامور لصغر سن السلطان ، غير ان بعض الامراء قبضوا عليه وسجنوه ، ثم نفوه الى شفر الاسكندرية . انظر ترجمته في ابن حجر ، الدرر ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ - ٤٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ٣٨ - ٤٣ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٩٣ - ٩٤٠ .

(٤٦) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

ويهمنا من التقليد طرته (٤٧) التي يكون عنوانها "تقليد شريف" ويكتب في طرة تقليد نائب السلطنة "تقليد شريف" بان يفوض الى المقر الكريم العالى الامير الكبير الكفلى (٤٨) فلان الغلانى - باضافة لقب السلطان المسـ كالناصرى مثلا - نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الاسلامة اعلاها الله تعالى على اعمل العوائد ، واكمل القواعد ... (٤٩) .

اما عن نوع الورق الذى كان يكتب عليه تقليد نائب السلطنة او النائب الكافل فهو من قطع الثلثين (٥٠) ، ويكتب عليه بقلم الثلث الثقيل (٥١) ، وكان التقليد يقرأ فى الايوان المعروف بدار العدل (٥٢) من القلعة حضرة السلطان

-
- (٤٧) الطرة فى الاصطلاح عبارة عن طرف الدرج من اعلاه ، ثم اطلقت على ما يكتب فى رأس الدرج مجازا . وهى فى الاصل مأخوذة من طرة الثوب اى طرفه ، ويجوز ان تكون مأخوذة من الطر بمعنى القطع ، لان الطرة مقطوعة عن كتاسـ المتن ويفعل بينهما بياض - انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (٤٨) الكفلى لقب ارفع مرتبة من الكافلى لانه غلب عليه الاختصاص بنائب السلطنة وذلك لعلو مرتبته ، انظر حسن الباشا ، الالتقاء ، ص ٤٣٩ .
- (٤٩) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٤٧ - ٤٨ ، ج ١١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٦ .
- (٥٠) القلقشندى ، ج ١١ ، ص ١٠٧ .
- (٥١) يراد بقطع الثلثين من الورق ثلثا الطومار من كامل المنصورى ، وعرض درجة ثلثا ذراع بذراع القماش المصرى ايضا ، وتكتب فى هذا النوع من الورق مناسير الامراء والمقدمين وتقاليد النواب الكبار والوزراء ، واكابر القضاة ومن فى معناهم . انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٩٠ .
- (٥٢) ايوان دار العدل انشأه المنصور قلاوون ، ثم حسده الاشرف خليل ، ثم هدمه الناصر محمد فى عام ٧١١هـ ثم اعاد بناءه وزاد فيه فى عام ٧٣٥هـ واندر هذا الدور الان ، ومكانه اليوم الارض القائم عليها جامع محمد على وملحقاته بالقلعة ، انظر العمري ، مسالك الامصار - تحقيق ايمن فؤاد ، ص ٣٦ ، حاشية ١ - المقربرى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

والامراء وسائر ارباب الدولة (٥٣) .

وبعد ان يتم التقليد بحرى التحليف ، اى يؤدى النائب الجديد يمينا على طاعة السلطان والعمل بما فيه صالح البلاد والعماد ، اذ جرت العادة على نحو ما يذكر القلقشندى - انه اذا استقر نائب من النواب فى نيابة السلطنة حلف ذلك النائب عند استقراره (٥٤) .

ويبدو ان نائب السلطنة كان يؤدى اليمين ثلاث مرات على ثلاثة ايام على التوالي ، اذ يذكر ابن ابيك ان السلطان بيبرس الجاشنكير خلع على الامير سيف الدين سار (٥٥) خلعة النيابة بعد التحليف بدار النيابة ، واستمر التحليف ذلك اليوم واليوم الثانى واليوم الثالث (٥٦) .

ثم يخلع السلطان على نائبه خلعة النيابة ، ويجرى عليه اقطاعاتها ، فقد فوض السلطان الاشرف خليل نيابة السلطنة الى الامير بدر الدين بيدرا المنصورى (٥٧) ، وخلع عليه على عادة نواب السلطنة ، واجرى عليه ما كان جار

٥٣) المقرئى، السلوك ، ج ٣، ١، ص ٢٢٥ ، الشجاعى ، الناصر محمد، ص ١٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥ .

٥٤) القلقشندى ، صح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣١٩ .

٥٥) الامير سيف الدين سار المنصورى من مماليك المنصورقلاوون تولى نيابة السلطنة فى عام ٦٩٨هـ ، فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون ، واستمر فيها ما يزيد عن عشر سنوات ، ثم قس عليه الناصر محمد لاتفاقه مع جماعة من الامراء على قتله ، وتوفى سار فى ٧١٠هـ . انظر ابن حجر ، الصدر ج ٢ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٦٩ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٩ ، ابن اسى ، بدائع ، ج ١ ، ص ٤٣٥ - ٤٢٦ .

٥٦) ابن ابيك ، الدر الفاخر ، ص ١٥٨ .

٥٧) الامير بدر الدين بيدرا المنصورى اصله من مماليك المنصورقلاوون ، ثم ترقى حتى تولى نيابة السلطنة فى ٦٨٩هـ فى عهد الاشرف خليل ، وقتل بيدرا على يد الامير كتيبا فى ٦٩٣هـ/١٢٩٤م . انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ - ٩٥ ، ابن الغرات ، ج ٨ ، ص ١٨٨ ، ابن حبيب ، تذكرة ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

على الامير حسام الدين طرنتاي (٥٨) - النائب السابق من الاقطاعات وغيرها (٥٩) وكذلك خلع السلطان الناصر احمد بن الناصر محمد على نائبه طشتمر حمص اخضر في عام ١٣٤١هـ/١٧٤٢م خلعة هائلة بطراز زرکش وترکیبة زرکش زائد عن العادة (٦٠)

وبعد ان يرتدى نائب السلطنة تشريف النياية او خلعتها، يخرج في موكب عظيم ، يعرف "بموكب النياية" مع اكابر الامراء ، ثم يجلس في دست النياية ثم يمد سماطا يعرف "بسماط النياية" يجلس فيه مع اكابر الامراء . وكان السلطان ينعم احيانا على النائب بزيادة اقطاعه من اجل سماط النياية هذا ، فقد انعم السلطان الملك المظفر حاجي على نائبه ارقطاي في عام ١٣٤٧هـ/١٣٤٦م بناحيته المطرية والخصوص زيادة على اقطاعه من اجل سماط النياية (٦١) . واولى نواب السلطنة السماط عناية خاصة ، فقد حرص الامير سيف الدين قوصون نائب السلطنة في عهد السلطان كجك على زيادة راتب سماطه واكثر من الحلوى والدجاج والاوز ونحو ذلك (٦٢) .

واخيرا يجلس نائب السلطنة في شاك النياية لمباشرتها وممارسة اختصاصاته . وكان يجلس والحجاب بين يديه والامراء

٥٨) حسام الدين طرنتاي تولى نياية السلطنة في عهد المنصور قلاوون في رمضان ٦٧٨هـ/١٢٨٠م ، وبعد وفاة قلاوون قسّم ابنه الاشرف خليل على طرنتاي ، وعذبه حتى مات فسي ٦٨٩هـ . وعنه انظر : بيبرس الدوادار ، زبدة ج ٩ ، التحقيق ، ص ٣١٩ - ٢٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ص ٣٨٣ - ٨٤ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٦١ .

٥٩) بيبرس الدوادار ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢٠ ، الثويرى نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٥٢ ، ابن الفسرات ، ج ٨ ، ص ١٠٢ .

٦٠) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

٦١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٥٢ ، المفريزى السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٠ ، ٧١٨ .

٦٢) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ٣٢ ، المقربرى ، نفسه ، ص ٥٨٠ .

في خدمته ، واحيانا كان الوزير جليسا بس بدبه ، وكذلك موقعو الدسا لامضاء ما يرسم به (٦٣) .

دار النياية :

اما عن مقر نائب السلطنة فهو دار النياية ، يقيم فيها لممارسة مهام منصبه . واول من بنى هذه الدار هو السلطان المنصور قلاوون ، بناها في عام ١٢٨٧هـ/١٢٨٨م في قلعة الجبل ، وكانت هذه الدار تقع امام دركاة^(٦٤) القلعة ، التي ينتظر بها الامراء حتى يوءذن لهم بالدخول ، اذا ما دخلوا من باب القلعة الاعظم . وكان الامير حسام الدين طرنتاي نائب السلطنة في عهد المنصور قلاوون ، هو اول من سكن هذه الدار واقام بها (٦٥) .

على ان المصادر لا تذكر مقر اقامة نواب السلطنة الذين سبقوا حسام الدين طرنتاي والذين تولوا هذا المنصب قبل انشاء دار النياية في عام ١٢٨٧هـ/١٢٨٨م . وربما اقام هؤلاء في دار الوزارة كما فعل نواب الاجييين ، وربما ان مناصب نائب السلطنة لم يكن قد استقر الاستقرار

(٦٣) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ٦١ ، المقرئى ، نفسه ،

ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ .

(٦٤) الدركاة لفظ فارسي مركب من قطعين : در بمعنى/وكناه بمعنى محل وهي العتبة والفضاء او الممر او باب الساحة الصغيرة المربعة او المستطيلة التي تلى الباب وتؤدي الى داخل البناء . ومن اغراضها ان المار بالشارع والطريق لا يطلع على ما بداخل القلعة مثلا .

انظر : محمد محمد امين ، وثائق من عصر سلاطين المماليك

، ص ٣٣٩ ، حاشية ١ .

(٦٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، القلقشندى ، صح

الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ،

ص ٢٢ ، حاشية ٤ ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٦ ، حاشية

الفعلى فى بداية عصر سلاطين المماليك الحربية ، ثم بدأ يأخذ هذه الصفة فى عهد السلطان المنصور قلاوون مما دفعه الى انشاء دار النيابة .

وتتألف دار النيابة من ايوان وشاك وعدة قاعات من بينها قاعة تعرف بالقاعة الحسامية . وكان نائب السلطنة يجلس فى الايوان مع الامراء لتناول سباط النيابة ولماقشة اى امر من الامور الهامة . اما الشياك فكان نائب السلطنة يجلس فيه لممارسة مهام منصبه وبعض اختصاصاته ، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان الامير الحاج آل ملك (٦٦) نائب السلطنة فى عهد الصالح اسماعيل يجلس فى شياك النيابة طول نهاره ولا يمل من ذلك ولا سأم (٦٧) . أما القاعات فيبدو انها كانت لسكنى نائب السلطنة فيذكر النويرى فى حوادث عام ١٣٢٦/٥٧٢٧م ان السلطان الناصر محمد انعم على الامير سيف الدين الماس الحاجب (٦٨) بسكنى دار النيابة فيما عدا القاعة الحسامية ، فانه رسم افرادها ، ويذكر النويرى فى موضع اخر ان الامير طشتمر حمص اخضر سكن هذه القاعة الحسامية (٦٩) .

(٦٦) الامير الحاج آل ملك بن عبد الله الحوكندار من كبار الامراء ، تولى نيابة السلطنة فى المحرم من عام ١٣٤٣/٥٧٤٤م ، وظل يشغل هذا المنصب حتى تسلطن الاشرف شعبان ، الذى اخرجه من مصر الى دمشق وجعله نائبا عنه فيها ، ثم قبض عليه ، وتوفى مقتولا بسجن الاسكندرية فى عام ١٣٤٦/٥٧٤٧م . انظر ترجمته فى المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٥ - ٨٨ ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ . ابن حجر ، الدرر ، ج ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٠ ، ايس حبيب ، تدكرة ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٦٧) ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٦ .
(٦٨) الامير سيف الدين الماس الحاجب من مماليك الناصر محمد ابن قلاوون ، وكان جاشكنبرا ، ثم تنقل فى المناصب حتى صار حاجب الحجاب . ثم شغل منصب النيابة بالقية ، ثم قبض عليه ، وخنق فى صفر ٥٧٣٤هـ ، وتعنى كلمة الماس (ما يموت) . انظر ترجمته فى المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٩ - ٩١ ، الدرر ، ج ١ ، ص ٤٣٨ - ٤٠ ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
(٦٩) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٣١ ، ورقة ٧٤ ، ص ٧٥ .

استمر نواب السلطنة يسكنون دار النياحة ويجلسون في شباكها حتى اطلق السلطان الناصر محمد بن قلاوون النياحة ثم امر بعد ذلك بهدم هذه الدار في عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦ م ، وازيل الشاك الذى كان يجلس به حسام الدين طرنتاى نائب السلطان المنصور قلاوون في الشامن من ربيع الاخر من هذا العام (٧٠) .

وعندما اعدت نياحة السلطنة في عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م واستقر بها الامير سيف الدين قوصون ، اقام في موضع من باب القلعة ، وادار حوله درايزين بحجبه عن الزحمة من كثرة الناس ، وصار يجلس في هذا المكان ، ويمد فيه سماطه ثم مالبت ان يبنى قاعة لجلوسه مع الامراء من داخل باب القلعة وفتح فيها شباكا يطل على الدركاة ، وجلس فيه مع الامراء وذلك في جمادى الاولى من عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م (٧١) .

ولكن لم تكتمل دار النياحة في عهد الامير قوصون اذ ما لث ان قبض عليه ، وحاول خليفته في نياحة السلطنة الامير طشتمر حمص اخضر - عمارة دار النياحة ، ولكن قبض عليه ايضا دون ان يكمل عمارتها (٧٢) . وعندما تولى الامير اقسنقر السلارى (٧٣) نياحة السلطنة ، شرع في تعميم دار

-
- (٧٠) المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، السلوك ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٤١١ .
- (٧١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٨٠ ، ابن تغرى سردى ، النجوم ، ج ١٠ ص ٣٢ ، ابن حجر ، الدرر ج ٣ ، ص ٤٣ ، ٤٢ .
- (٧٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٠٤ ، الشجاعسى ، تاريخ الناصر محمد ، ص ٢٣٥ .
- (٧٣) الامير اقسنقر السلارى ، ولى نياحة السلطنة في عهد الناصر احمد ثم في عهد الصالح اسماعيل في عام ٧٤٣ هـ ، ثم قبض عليه في المحرم من عام ٧٤٤ هـ وارسل الى الاسكندرية حيث سخن بها ثم قتل في سجنه في عام ٧٤٥ هـ ، ولقب بالسلارى لانه كان من ممالك الامير سلار . انظر ترجمته في المنهل ، ج ٢ ، ص ٤٤٩-٥٠٠ ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٠٥ ، ابن حسب ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ٤٣ ، ٥٨ .

النيابة في صفر من عام ١٣٤٢/١٣٤٣ م ، وفتح بها شاكبا ، ثم جلس في دار النيابة بعد ان تمت عمارتها وبذلك يكون الامير آقسنقر السلاري اول نواب السلطنة الذين اقاموا في سدار النيابة بعد تجديدها واعادتها (٧٤) . وظل نواب السلطنة يجلسون في هذه الدار ويقيمون فيها حتى عهد النائب تمران في عهد فرج بن سرقوق ، فحجرها ولم يقم بها (٧٥) .

اعمال نائب السلطنة بالحضرة واختصاصاته :

كان نائب السلطنة بالحضرة يشارك السلطان في كثير من الاعمال فيوقع على المراسيم والمناشير (٧٦) ويعين الامرة ويمنح لقب الامارة ، فقد انعم الامير قوصون نائب السلطنة في عهد كجك في عام ١٣٤١/١٣٤٢ م ، على واحد وعشرين مملوكا من المماليك السلطانية بامريات ، منهم ستة طلخاناساه والبقية عشرات كما امر من حاشيته واقاربه ستمين امرا ، واكثر من العطاء وبذل الاموال (٧٧) . كذلك جعل السلطان الناصر حسن نائبه ببيضا روس (٧٨) تحدث في المملكة فخرج

- (٧٤) المقریزی ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ ، الشجاعی ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
(٧٥) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، محمود رزق سلم عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ١١٧ .
(٧٦) عن المناشير بتوقيع النائب الكافل عليها ، انظر القلقشندی ، صح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٧ ، وانظر ايضا محمد محمد امين ، "منشور بمنح اقطاع" بالمجلة التاريخية المصرية (١٩٨١ - ١٩٨٢ م) ص ١٣ - ١٥ .
(٧٧) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن نفري بردی ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٣ .
(٧٨) الامير سيفاروس من حملة امراء الناصر محمد بن قلاوون ، ولي نيابة السلطنة في عام ١٣٤٧/١٣٤٨ م ، ثم قضى عليه في اول سلطة الناصر حسن في ٧٥١ هـ ، ثم اطلق سراحه ، ونقل الى نيابة حلب ٧٥٢ هـ ، وتوفي في عام ١٣٥٢/٧٥٤ م انظر نرحمته في الدرر ، ج ٢ ، ص ٤٤-٤٥ ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٤٨٦-٨٩ ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ - ٩٤ .

الاقطاعات للاحتاد والامرات للامراء مصر والشام (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) (٧٩) .

وكان نائب السلطنة ايضا يرتب في الوظائف ، واما ما هو جليل منها كالوزارة والقضاء وكتابة السر^(٨٠) والحيش ، فانه ربما عرض على السلطان من صلح وقل ان لا نجاب^(٨١) وجاء في وصية لنائب سلطنة التاكيد على التخير للوظائف^(٨٢) وكان نائب السلطنة يقوم احيانا بعزل ارباب الوظائف فقد فوض السلطان الاشرف شعبان لنائبه الامير منحك اليوسفي^(٨٣) في عام ٧٧٥هـ/١٢٧٣م ان يعزل من يشاء من ارباب الدولة ، ويولى من يشاء ، ويقرر في سائر اعمال المملكة من اراد

- (٧٩) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٥١ .
(٨٠) يسمى من يتولى هذه الوظيفة بكتاب السر وهو صاحب ديوان الانشاء ، ويقوم بقراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة اجوبتها اما بخطه او بخط كتاب الدست ويجلس بدار العدل بين يدي السلطان لقراءة القصص عليه والتوقيع عليها بخطه ، وترجع اليه امور القضاة ومشايخ العلم في سائر المملكة .
(٨١) لمزيد من التفاصيل انظر : المقریزی ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، السكي ، معد النعم ص ٣٠ .
(٨٢) العمرى ، المسالك ، ص ٥٥ ، المقریزی ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٨٤ .
(٨٣) العمرى ، التعريف ، ص ٩٢ .
(٨٤) الامير سيف الدين منجك من كبار الامراء تولى الوزارة في سنة ٧٤٨ هـ بينما كان اخوه سيغاروس نائبا للسلطنة ثم عزل منها . وفي عام ٧٧٥ هـ عهد اليه الاشرف شعبان ساية السلطنة والنظر فى الاوقاف والخاص والوزارة انظر : ابن حنبل ، تذكرة ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ابن اسباب ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥٢٠ ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

وان يخرج الطلخانات ، والعشرات بسائر الممالك الشامية . (٨٤)

ومن اختصاصات نائب السلطنة ايضا النظر في الاحاس
ففي بعض الاحيان كان السلطان بغوض للنائب الاشراف على
ديوان الاحاس (الاوقاف) فقد خلع السلطان الناصر محمد
ابن قلاوون على الامير ببيرس الدوادار وولاه منصبا نيابة
السلطنة ونظر الاحباس ، وكذلك خلع السلطان الاشراف شعبان
في عام ١٣٧٥هـ / ١٣٧٣م ، على الامير منجك نيابة السلطنة
والنظر في الاحباس والاقواف ، وجعل له التحدث في الخاص
والوزارة (٨٥) ، ولذلك كان على النائب " اجراء الاوقاف
على شرط كل واقف" على نحو ما جاء في وصية لنائب سلطنة . (٨٦)

كذلك كان من اختصاص نائب السلطنة " الجلوس لكشف
المظالم والنظر فيما يقدم اليه من القصص (٨٧) بشكايات
الناس" . فكان نائب السلطنة يعقد مجلسا عاما للناس ،
يحضره كبار موظفي الدولة ، واريبات
الوظائف بها . ويقف الحجاب بين يده ثم تقدم اليه القصص
ويذكر القلقشندي ان العادة جرت على ان يكون عند نائب السلطنة
كاتب من كتاب الدست ، يجلس بين يديه لقراءة القصص عليه ،

(٨٤) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥ ، ابن اياس
المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٣٢ .

(٨٥) السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥
ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤١٧ ، ٤٤٦ ، وانظر
ايضا محمد محمد امين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية
ص ١١١ - ١١٢ .

(٨٦) العمري ، التعريف ، ص ٩٣ .
(٨٧) القصص مفردتها قصة ، وهي الطلب او الالتماس ، وسميت
قصصا على سبيل المحاز من حيث ان القصة اسم للمحكى
في الورقة لا لنفس الورقة ويجب ان يشترط في القصة
الايجاز والاختصار مع تلخيص الغرض المطلوب والقرب
من فهم المخاطب . انظر القلقشندي ، صح الاعشى ،
ج ٦ ، ص ٢٠٢ .

وتنفذ ما يكتب عنه . فاذا رفعت القصة الى النائب قرأها عليه كاتب الدست ، وامثل امره فيها ، واصح في القصة ما يجب اصلاحه ، وضرب (اى حذف) ما يجب الضرب عليه ، وزار بين سطورها ما تقضيه الزيادة . ثم تدفع القصة الى النائب الكافل ، فيكتب على حاشيتها في الوسط آخذا جهة اسفلها الى جهة اعلاها بقلم مختصر الطومار^(٨٨) ما مثاله "يكتب" ثم تحمل القصة بعد ذلك الى كاتب السر ، فعطيها لبعض كتاب الانشاء فيكتبها^(٨٩) .

وعند قراءة القصة على النائب ، كان ينظر فيها ايضا فان كان مرسومه فيها بكفى اصدره عنه ، اما اذا كان لا يكفى فيها الا مرسوم السلطان ، فانه بعد ان يطلع عليها يأمر بكتابتها ، واصدارها الى السلطان مع التنبية على انها باشارة النائب ، وذلك لان السلطان لم يكن يتصدى لقراءة القصة وسماع الشكاوى بنفسه بل كان يعتمد على نائبه في ذلك ، ويكتفى هو بان يأمر بكتابة مثال او صورة اصطلاحية معينة ، تقدم اليه فيوقع عليها بالعلامة السلطانية^(٩٠) .

اما عن نوعية القصة التي كانت ترفع لنائب السلطنة ، فمنها ما كان يتعلق بقلّة الاخبار (الاقطاعات) وضعف

٨٨) قلم مختصر الطومار هو قلم يكتب به النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها ويبدو انه يؤخذ من لب الجريد الاخضر او من القصب الفارسي او من قصب اليوم الابيض الغلظ الاناسيب ، لمزيد ممن التفاصيل انظر : القلقشندى ، صح الاعشى ج ٢ ، ص ٤٥٤ .

١٠ ج ٣ ، ص ٥٩ .

٨٩) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٩٠) القلقشندى ، ج ٤ ، ص ١٧ ، العمرى ، مسالك الاصهار ص ٥٦ ، المقريرى ، الخطط ج ٢ ، ص ٢١٥ ، اما عن العلامة السلطانية فتمثل في حالة المظالم ان يكتب السلطان عليها اسمه . انظر المقريرى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، حاشية (١) .

الاقطاعات . فبعد ان تم الروك (٩١) الحسامي في سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م ، غصب الاحساد على مثالهم التي فرقها عليهم منكوتمر نائب السلطنة لانها تناقضت عما كانت عليه من قبل في عهد المنصور قلاوون وذهبوا اليه بشكون ضعيفا وقلتها وقالوا له : " انا لم نعتد بمثل هذا ، فامان تعطونا ما نقوم بكفاتنا والا فخذوا اخياركم ، وامانخدم الامراء او نقيم بطالين (٩٢) " . غير ان منكوتمر لم يتصت الى شكواهم ، والقي القبض عليهم وسجنهم ، كما حسس للسultan حسام الدين لاجين فكرة القبض على جماعة من الامراء ممن شكوا قلة اخازهم ، وقبض على جماعة منهم بالفعل ، وارسلوا الى سجن الاسكندرية (٩٣) .

ومن القصص ما تكون خاصة بطلب زيادة اقطاع ، فحدث ان رفع احد امراء العشرات ويدعى علاء الدين القلنجقي قصة لنائب السلطنة الامير الحاج آل ملك يطلب فيها زيادة اقطاعه ، وكان الحاج ييمقت من يطالب بزيادة اقطاعه ، فوقع له عليها سمانتي فدان من الحبل الاخضر زيادة على ما بيده (٩٤) .

-
- (٩١) الروك كلمة مأخوذة من الكلمة القبطية روشن ومعناها قياس الارض بالحبل والروك هو قياس الارض الزراعية في بلدمن السلاذ لتقدير الخراج عليها وهو ما يعرف في الوقت الحاضر بعملية " فك الزمام " وتعديل الضرائب . ولمزيدمن التفاصيل عن الروك الحسامي انظر: المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٣-٨٤٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٠-٩٥ . ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .
- (٩٢) سطل والجمع سطلون وهم الاجناد والامراء العاطلون من اعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لكسر سنهم اولغضب السلطان عليهم او اضطرار الى الاخفاف او حب الانسروا والاستعداد . انظر سعيد عاشور ، العصر المماليكي ص ٢٩٧ .
- (٩٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٥ . ابن اياس ، المصدر السابق ج ١ ، ص ٣٩٧ .
- (٩٤) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٣ . الشعاي ، تاريخ الباصر محمد ، ص ٢٥٧ ، ابن حجر ، الدرر ، ج ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

اما عن الشكايات التي كانت تعرض على نائب السلطنة ،
فبعضها كان يشكو اصحابها البطالة ، مثلما حدث فـسى ذى
الحجة من عام ١٣٤٧/٥٧٤٨م عندما وقف نحو مائتين ممن كانوا
بخدمة الامراء - للنائب سيفاروس يشكون البطالة ، فقام
النائب بتوزيعهم على كل امير مائة ثلاثة اشخاص ، وعلى كل
امير طيلخاناه اثنين ، وعلى كل امير عشرة واحدا ، واذالم
بكن لدى الامير اقطاع كبير ، رتب للواحد منهم مائة درهم
وارديين غلة فى الشهر (٩٥) .

ومن الشكايات ايضا ما يتعلق بالمشاجرات التى قد
تحدث بين شخصين ، فقد حدث فى شعبان من عام ١٣٥١/٥٧٥٣ م ،
ان سب رجل يدعى ابن ايوب الشراييسى محتسب القاهرة ابن
الاطروش ، واخذ يهزا به ، ثم وثب عليه والقاءه عن بقلته
وركب صدره ، وتدخل الناس وخلصوا ابن الاطروش بعد جهد ،
وكانت عمامته قد تباعدت ، وانكشف رأسه فطلع ابن الاطروش
الى الامير قبلاى (٩٦) نائب السلطنة يشكو له ما حدث ، فاحضر
النائب ابن ايوب وضربه وحسسه (٩٧) .

وكان هناك من النواب من كان متساهلا لين الجانب ،
يحنو على اصحاب الحوائج ولا يرد سائلا شيئا ، ولا يمنع عن
احد شيئا يطلبه ، بل يلى للناس طلباتهم على الفسور ،
ويقضى حوائجهم ، ومن هؤلاء النواب الامير اقسنقر السلارى ،
الذى كان قلمه اخضر لا يرده عن احد ، ولا قدمت له قصة الا
وكتب عليها ، بل واكثر من ذلك كانت تقدم له القصة وهو
يأكل فيتترك اكله ، ويكتب عليها بدون ان يعرف ما فيها ،

(٩٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٥١ .
(٩٦) الامير قبلاى اصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، ولى
نيابة الكرك ثم الحجوبية الثانية بمصر ، ثم الحجابية
الاولى او الكبرى بها ، ثم نيابة السلطنة ، وتوفى
فى عام ٧٥٦ هـ ، انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ،
ص ٣٢١ .

(٩٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٧٦ .

ولذلك قصده الناس من الاقطار بسألون الاراضى ونباتات القلاع وولايات الاعمال والرواتب واقطاعات الحلقة ، فلم يرد احدا ساله او طلب منه شيئا (٩٨) .

هذا فى حين ان هناك من النواب من كان يكتب على القمص ما يكتب صاحبها او رافعها ومن هؤلاء النواب الامير الحاج ، الذى كتب على قصة سال رافعها ان يسقط ما عليه من الدين "ومن تقاضى ديون الناس يوفىها" (٩٩) . كذلك تعاطم بعض النواب تعاطما زائدا ، ومن هؤلاء طشتمر حمص اخضر الذى كان اذ اتته قصة باقطاع او غيره ، اخذها وطرد من هى باسمه واحدق به (١٠٠) .

كان نائب السلطنة يقوم ايضا بتوزيع الاقطاعات ولكنه اخص بتوزيع بعض الاقطاعات دون البعض الاخر ، فكان السلطان يقوم بتوزيع الاقطاعات على الامراء والمقدمين ، بينما يقوم نائبه بتوزيع الاقطاعات على الاجناد اى اجناد الحلقة (١٠١) فبعد ان رآك السلطان المنصور حسام الدين لاجين ارض مصر فى عام ١٢٩٧هـ/١٢٩٧م فيما عرف بالروك الحسامى قام السلطان بتفرقة المثالات (١٠٢) على الامراء والمقدمين ، هذا فى حين

(٩٨) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ، المقرئى ، السلوك ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٣٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٥٨٧ .
(٩٩) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٤٠ .
(١٠٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٠٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٦٣ .

(١٠١) اجناد الحلقة : هم احدى الطوائف الثلاث الاساسية التى يتألف منها جيش المماليك ، وهذه الطوائف هى المماليك السلطانية ومماليك الامراء واجناد الحلقة ، وهم ممالك السلاطين ، والامراء السابقين واولادهم ، واحترف هؤلاء الجندة واصحوا بمشاة جيش ثابت للدولة ، ومرساتهم من ديوان الجيش . انظر سعد عاشور ، العصر المملوكى ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(١٠٢) المثالات مفردا مثال وهو عبارة عن ورقة رسمية او وثيقة رسمية لتقرير اقطاع لشخص جديد على الانقطاع بكنهها =

تولى نائبه الامير سيف الدين منكوتر تفرقة مثالات الاجناد حيث جلس في شباك دار النسابة ، ووقف الحجاب بين يديه ، واعطى لكل تقدمة مثالاتها ، واستمر على ذلك اياما (١٠٢) ، وفي اليوم العاشر شرع منكوتر في تفرقة المثالات على الحلقة والبحرية وممالك السلطان وغير ذلك (١٠٤) .

وفي عام ١٣٤٢هـ/٧٤٣م جلس الامير آقسنقر السلاوي نائب السلطنة بدار النياية ، ورسم له ان يعطى الاجناد الاقطاعات التي عبرتها (١٠٥) من ثلثمائة دينار الى اربعمائة دينار ، ويشاور فيما فوق ذلك (١٠٦) . كذلك رسم السلطان الناصر حسن في ذي القعدة من عام ١٣٤٧هـ/٧٤٨م لنائبه بيبيغاروس بان يخرج الاقطاعات للاجناد (١٠٧) . كذلك قام الامير منجك نائبا للسلطنة في عهد الاشرف شعبان باخراج اقطاعات الحلقة

== ناظر الجيش ، ويبين بها مقدار ما خصه بالفدان من الارض الزراعية التي تستغلها وحدودها ، واسم الاقليم والقرية والحوض الكائن فيها الارض التي خصت له . انظر السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٤ ، حاشية ٦ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٠ . حاشية ٣ ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٣ ، حاشية ٢ ، محمد امين ، منشور بمنح اقطاع ، ص ٩ - ١٠ .

١٠٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٥ - ٤٦ ، ابن تغرى بردى النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٤ .

١٠٤) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٩١ ، بيبيرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ، ص ٣٩ - ٩١ .

١٠٥) العرة كلمة اصطلاحية معناها مقدار المساحة ، وقد تطلق على مقدار ما يكون في حيازة كل شخص من الارض ، كما تطلق على مقدار مساحة كل ناحية او اقليم ويقابلها في الوقت الحاضر زمام كذا او مديرية كذا . اما في الاصطلاح المالي فهي تعنى مقدار المربوط من الخراج او الاموال على كل اقطاع من الارض . انظر النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٣ ، حاشية ١ ، سعيد عاشور ، العصر الممالكي ص ٤٣٤ .

١٠٦) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٨٠ ، المقريزي السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٢١ .

١٠٧) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٥١ .

التي عبرتها ستمائة دينار فما دونها (٥٧٧٥/١٣٧٣م) (١٠٨) .
وبذلك ارتفعت عيرة الاقطاعات التي كان يخرجها نائب السلطنة
من ثلثمائة دينار الى ستمائة دينار .

وفى بعض الاحيان كان نائب السلطنة يخرج اقطاعات
الامراء . فقد فوض السلطان الملك المنصور على بن الاشرف
شعبان لثائبه الامير اقمتر المصاحبى (١٠٩) أن يخرج الاقطاعات
للأمراء والاجناد ونواب المماليك ، والا يكون لاحد معه تحكم (١١٠)
(٥٧٧٨/١٣٧٦م) . كذلك اخرج الامير سيف الدين قوصون نائب
كجك اقطاعات الامراء (١١١) .

وكان نائب السلطنة يقوم بعرض اجناد الحلقة لتوزيع
الاقطاعات عليهم او ليوقر من اقطاعاتهم ، فحدث ان قام
النائب الحاج آل ملك فى رمضان من عام ٥٧٤٥/١٣٤٤م بعرض
اجناد الحلقة ليوقر منهم اقطاع الشيخ العاجز والجندي المستجد (١١٢)
كذلك كان نائب السلطنة يقوم بعرض الاجناد لانتقاء القادرين
منهم على اداء الخدمة العسكرية وارسالهم الى ماديسن
القتال أو لتأديب العربان فيذكر العمري ان نائب السلطنة
يقوم "بتفقد العساكر المنصورة وعرضها وانهاصم لنواقل
الخدمة وفرضا (١١٢)" فحدث فى عام ٥٧٥٤/١٣٥٣م ،
ان رسم بتجريد اجناد الحلقة الى بلاد الصعيد لتأديب

-
- ١٠٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى ،
النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥ .
١٠٩) اقمتر بن عبدالله المصاحبى الخنلى ، من جملة الامراء
ترقى حتى ولى نيابة دمشق ، ثم ناسة القاهرة فى عام
٥٧٤٧هـ واستمر بها حتى توفي فى القاهرة فى عام ٥٧٧٩هـ /
١٣٧٧م ، وسمى بالخنلى لكثرة مبالغته فى الطهارة
والوفوء . انظر ترجمته فى المنهل ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ ،
النجوم ، ج ١١ ، ص ١٩١ .
١١٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، المقرئى ،
المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ .
١١١) الشجاعى ، الناصر محمد ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .
١١٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٧٢ ، راطر: محمد
محمد امين ، منشور بمنح اقطاع ، ص ٧ .
١١٣) العمري ، التعريف ، ص ٩٢ .

العران ، فنام الامير سيف الدين فيلاى نائب السلطنة عرض مقدمى الحلقة ، وعين منهم تسعين مقمدا ، و اضاف الى كل مقدم جماعة ، وعرضت اوراق اسمائهم على السلطان والامراء وتم الاختيار منهم ورسم بتجهيزهم لتأديب العريان فى المعبد (١١٤) .

وقام نائب السلطنة ايضا عرض اجناد الحلقة وذلك بسبب دخول جماعة كبيرة من اصحاب الحرف والصناعات فى جملتهم ، اذ حدث منذ عهد اولاد الناصر محمد واحفاده ان تنازل كثير من اجناد الحلقة عن اقطاعاتهم للآخرين بمال أو بمقايضة بغيرها ، ونتيجة لذلك كثر الدخلاء فى الاجناد ، حتى صار اكثرهم من اصحاب الحرف والصناعات مما ادى الى تدهور الجيش المملوكى فى هذا العصر ، ولذلك اصبح عرض الاجناد ضروريا ، ولهذا السبب قام الامير بييغا طغر نائب السلطنة بعرضهم فى ذى الحجة من عام ١٣٥١/٥٧٥١م (١١٥) .

ابطل الامير الحاج كذلك فى عام ١٣٤٣/٥٧٤٤م ، واثناء توليه النيابة النزول عن الاقطاعات والمقايضات بها ، بعد ان انتشر ذلك بين الاجناد ، حتى ان جنديا قاسم آخر باقطاعه ومبلغ الفين وخمسمائة درهم ، اقبضه منها الفين فالزمه الحاج بحمل الالفين لسبب المال ، ولذلك كف الاجناد عن المقايضات (١١٦) .

ولم يقتصر دور نائب السلطنة على عرض اجناد الحلقة ومقدميها فحسب بل كان يقوم احيانا بعرض المماليك السلطانية ولكن باوامر من السلطان ، ففي عام ١٣١٩/٥٧١٩م أمر السلطان

(١١٤) المقرئى ز السلوك ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٩٠١ ، ٩١١ .
(١١٥) لمزيد من التفاصيل انظر المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣

، ص ٨٣٠ - ٣١ .
(١١٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٣ .

الناصر محمد نائبه ارغون الناصري (١١٧) بعرض المماليك ،
ففرق منهم واخرج منهم ثمانين الى الشام ، فرقسهم على
الامراء هناك ، ثم اخرج جماعة منهم من الطاق (١١٨) ، وكان
النائب يشترك مع السلطان ايضا في عرض الممالك ، فقد جلس
السلطان حاجي مع نائبه الامير ارقطاي (١١٩) في شوال من
عام ٧٤٧/١٣٤٦م لعرض الممالك ، وانتقى من كل عشرة اثنين
وزاد اقطاعاتهم واكرامهم ، وقدم منهم جماعة (١٢٠) .

ومن اختصاصات نائب السلطنة ايضا رئاسة ديوان الجيش
اذ يذكر القلقشندي ان هذا الديوان كان لايجتمع الا برئاسته
ولا يكون له خدمة الا عنده ولا اجتماع له بالسلطان في امر
من الامور ، وما كان من الامور المعضلة التي لا بد من احاطة
السلطان بها علما ، فانه يعلمه به تارة بنفسه وتارة بمن
يرسله اليه (١٢١) .

وكان نائب السلطنة يخرج على رأس الجيش الى بلاد
الشام لمشاركة السلطان في قتال المغول ، كذلك كان يخرج

(١١٧) الامير ارغون الناصري اطله من ممالك الناصر محمد بن
قلاوون ، اشتراه ورباه وادبه ورقاه الى ان جعله دوادار اربع
الامير بيبرس ، ثم ولاه نياطة السلطنة في عام ٧١٢هـ ، وظل
ارغون يشغل هذا المنصب طيلة ١٦ عاما ، ثم ولى نياطة حلب
وتوفي في ربيع الاخر من عام ٧٣١/١٣٣١م . وعنه انظر المنهل
، ج ٢ ، ص ٣٠٦-٣٠٨ ، الدرر ، ج ١ ، ص ٣٧٤ ، الدرر الفاخر ، ص
٤٤ ، ٣٢٢ ، النويري ، نهاية الارب ج ٣ ، ق ٣ ، ورقة ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١١٨) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٧٣ .
(١١٩) الامير ارقطاي بن عبد الله المنصوري ، اطله من ممالك
المنصور قلاوون ، وجعله الناصر محمد من جملة امرائيه ،
ثم ولاه نياطة حمص وصفد ثم حلب ، وجاء ارغون الى مصر
وولى نياطتها نحو عامين في عهد المظفر حاجي ، وتوفي
في عام ٧٥٠هـ . انظر ترجمته في المنهل ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ،
النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ - ٢٥٤ ، الدرر ، ج ١ ، ص ٣٧٦ ،
تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

(١٢٠) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٢١ .
(١٢١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٠ ، وانظر ايضا : العمري
مسالك الابصار ، التحقيق ، ص ٥٦ ، المقريزي ، الحطط ،
ج ٢ ، ص ٢١٥ .

يخرج بالجيش لتأديب الخارجيين على السلطان والقضاء على حركات التمرد والفتن ، اذ يذكر صاحب معبد النعم ان من مهام نواب السلطنة " النظر في امر المفسدين من قطاع الطرق واهل الفتن والغلظة والتشدد عليهم" (١٢٢) .

ومن نواب السلطنة الذين خرجوا مع السلطان الى بلاد الشام لقتال المغول الامير بدر الدين بيليك الخازن سدار نائب السلطنة في عهد الظاهر بيبرس والامير حسام الدين طرنتاي نائب السلطان المنصور قلاوون (١٢٣) (١٢٨١/هـ ٦٨٠م) ، والامير بدر الدين بيدرا نائب السلطان الاشرف خليل (١٢٤) ، كذلك خرج الامير حسام الدين لاجين نائب العادل كتيفا (١٢٩٥/هـ ٦٩٥م) بالعساكر الى بلاد الشام (١٢٥) . كما قام الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة في عهد الناصر محمد ابن قلاوون (١٢٩٩/هـ ٦٦٩م) بدور هام وبارز في قتال المغول

-
- (١٢٢) السبكي ، معبد النعم ، ص ٢٣ .
(١٢٣) لمزيد من التفاصيل عن خروج الامير بدر الدين بالجيش انظر ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ورقة ٣٥٠ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٢٩ - ٣٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ، المفضل ، النهج ، منشور في P.O.T. XIV, pp. 382,421. اما عن خروج حسام الدين طرنتاي فانظر : ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ١٤٦ - ١٥٠ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ، ص ٢٠٩ ، النويري ، المصدر السابق ، ج ٢٩ ، ورقة ٧ ، ٩ ، المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ - ٩٤ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٢ - ٢٢١ .
(١٢٤) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن تغري بردي ، النجوم ج ٨ ، ص ١٥ ، المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٤ - ٨٥ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٥٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٣٧١ .
١٢٥) ابن تغري بردي ، النجوم ج ٨ ، ص ٦١ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٢ .

في بلاد الشام ، وبعد انتهاء القتال عاد الى مصر على رأس الجيش (١٢٦) .

وكان نائب السلطنة يخرج ايضا لتأديب الخارجين على طاعة السلطان ففي عام ١٢٨٧/٥٦٨٦م ارسل السلطان المنصور قلاوون نائيه حسام الدين طرنطاي بالجنود للقبض على سنقر الاشقر ، الذي اظهر العصيان للسلطان ، وتسلطن بدمشق ولقب نفسه بالملك الكامل ، وخرج على طاعة السلطان المنصور قلاوون ، ووصل طرنطاي بالفعل الى قلعة صهيون (في طرف جبل من اعمال حمص) وحاصر سنقر الاشقر بها حصارا شديدا ، حتى اضطر سنقر ان يطلب الامان من حسام الدين فامانه وعندئذ سلمه سنقر الحصن ، فرتب حسام الدين فيه واليا عن السلطان واقام به رجالا ، ثم عاد الى مصر مصطحبا معه سنقر الاشقر (١٢٧) .

اما عن خروج النائب بالجيش لتأديب العربان ، فقد خرج الامير حسام الدين طرنطاي ايضا في اوائل عام ٥٦٨٩/ ١٢٩٠م ومعه جماعة من الامراء والعساكر الى الوجه القبلى لتأديب العربان ، وقتل منهم جماعة ، وحرق بعضهم بالنار واخذ خيولهم وسلاحهم ، بل واخذ رهائن منهم ، وعاد الى قلعة الجبل سالما (١٢٨) . وعندما تزايدت سطوة العربان في الصعيد في عام (٧٠٠ - ٥٧٠/١٣٠٠ - ١٣٠١م) وكثر

(١٢٦) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ج ٨ ، ص ١١٦ ، ابن ايك ، الدر الفاخر ، ص ١٥ ، ٣٩ ، المقریزی ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٦ - ٨٩٦ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(١٢٧) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٤ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤٩ - ٥٠ ، ابن حسب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، بيبرس الدوادار ، المصدر السابق ، ج ٩ ، التحقيق ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

(١٢٨) ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٠ .

فسادهم ، وحرموا الجنود والامراء من اقطاعاتهم بالمعدن ، ونهبوا وسلبوا وقتلوا عالما كثيرا ، بل وفرضوا ضرائب على التجار وارباب المعاش بسيوط ومنفلوط ، واستخفوا بالولاء ، ورفضوا دفع الخراج ، توجه السهم الامير سيف الدين سلاز نائب السلطنة بجماعة كبيرة من الامراء والمقدمين ونجح في ايقاع الرعب في قلوبهم ، وقضى على فسادهم (١٢٩) كذلك خرج الامير قشتمر المنصوري في عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م الى الصعيد ليحفظ تلك الجهة من تمرد العربان (١٣٠) .

لعب نائب السلطنة ايضا دورا هاما في القضاء على الفتن في داخل البلاد فقد نجح الامير زين الدين كتفغا - اثناء توليه ناية السلطنة - في القضاء على الفتنة التي اشارها الوزير علم الدين سنجر الشجاعي في صفر ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م واعاد الامان والاطمئنان الى البلاد ، وعادت الحياة الى القاهرة من جديد ، بعد ان اغلقت ابوابها وتوقف العمل فيها بالاسواق (١٣١) ونجح الامير كتفغا ايضا في العام التالي ٦٩٤هـ/١٢٩٥م في القضاء على الفتنة التي اشارتها الممالك السلطانية الذين توجهوا الى القلعة وحاولوا احمارها ، ولكن ساءت محاولتهم بالفشل ، اذ تمكنت حامية القلعة من القبض عليهم بمساعدة الامير زين الدين كتفغا ، ثم جلس الامير كتفغا على باب القلعة لتأديبهم ، ف ضرب رقاب بعضهم وقطع احدى ارجلهم ، ونفى بعضهم ونجح بذلك في القضاء على هذه الفتنة (١٣٢) ، كذلك تصدى

(١٢٩) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن ابيك ، الدر ، ص ٦٣-٦٤ ،
بييرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ، ص ٤٥١ -
٤٥٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٢١ - ٢٢ .
(١٣٠) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٦٥ .
(١٣١) ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(١٣٢) لمزيد من التفاصيل انظر: بييرس الدوادار ، المصدر السابق
ج ٩ ، التحقيق ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص
١٩١ - ٩٢ ، المفضل ، النهج منشورفي: P.O.T. XIV ،
pp. 581-32. النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٨٠ .

الامير اقسنقر السلارى (١٣٤٣/٥٧٤٣ م) للامير رمضان اخسى السلطان الصالح اسماعيل ، الذى حاول انتهاز فرصة خروج السلطان الى سرحة سرياقوس وقام بفتنة يساعده فيها جماعة غير ان الامير اقسنقر اجره على الفرار ، بل وارسل وراثه من يتعقبه حتى تم القبض عليه وعلى ممالিকে (١٣٣) .

حرم بعض نواب السلطنة على تطبيق تعاليم الشريعة الاسلامية ، واقامة منار الشرع وجاء فى وصاياهم " ضرورة تقوى الله وتنفيذ الاحكام الشرعية ومعاضدة حكاهما واستخدام السيوف لمساعدة اقلامها (١٣٤) " . ومن هـوء لاء النواب نذكر الامير الحاج آل ملك ، نائب سلطنة الصالح اسماعيل ، فقد امر الحاج فى المحرم من عام ١٣٤٣/٥٧٤٤ م ، بهدم خزانة البنود ، وتسويتها بالارض ، وكانت فى ذلك الحين حانة يسكنها اسرى النصارى ، ويبيعون فيها الخمر ، ويفتحون ابوابها للمقامرين ويمارسون فيها اعمال الفسق والبغى (١٣٥) . وبعد هدمها اقيم مكانها مسجدا ودورا ، غير ان الناس عزفوا عن الصلاة فى هذا المسجد فكتب احسد الشعراء هذه الابيات على لسان هذا المسجد وارسلها الى الحاج يقول :

انا مسجد سمت بيت عبادة

عارى الملابس ليس فى حصير

هجر الموءذن والمطلى جانبى

وجفانى التهليل والتكبير (١٣٦)

١٣٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ .

١٣٤) العمرى ، التعريف ، ص ٩٢ .

١٣٥) لمزيد من التفاصيل انظر : الشجاعى ، الناصر محمد ،

ص ٢٥٤-٢٥٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٠-٤١ ،

ابن تغرى بردى . النجوم ، ج ١٠ ، ص ٨٨ ، وما يلبها ،

ابن اساس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

١٣٦) ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٥٠٠ .

كذلك تشدد الامير الحاج فى منع الخمر وغيره من المحرمات ، وتبع اهل الفساد ، فقام بالقضى على عدد كبير من شربة الخمر وباعته وضربهم عرانا وكشف رؤسهم وشهرهم ، ونادى ان من اشترى عنبا بالقنطار قبض عليه ، بل واكثر من ذلك منع الحاج الفرنج من ان يحملوا الخمر الى الاسكندرية (١٣٧) . وفى ربيع الاخر عام ١٣٤٤/٥٧٤٥ دله بعض العامة على موضع يباع فيه الخمر والحشيش فاحضر اولئك الذين سيعونها ، وضربهم فى دار النيابة بالمقارع وشهرهم وخلق على ذلك العامى واقامه عنه فى ازالة المنكر فصار يهاجم البيوت لاخذ الخمر منها (١٣٨) .

كذلك منع الامير الحاج آل ملك الناس من ضرب الخيم على شاطئ النيل بالجزيرة وغيرها للنزهة ، لانها كانت محل فساد كبير لاختلاط الرجال فيها بالنساء وتعاطيهم المنكرات (١٣٩) .

وحرص الامير الحاج كذلك على اقامة الملوات فى اوقاتها ، وعلى تحريم القمار والمقامرة ، فامر الباعة فى الاسواق وكل من يعملون بها ان بقوموا للصلاة امام دكاكينهم عند سماع الاذان ، وان يفرشوا حصرا فى الطرقات ويصلوا عليها ، كما خص لكل سوق اماما وموءذنا (١٤٠) اما بالنسبة للقمار فقد حرم الحاج القمار والمقامرة ، فباطل بعض وسائل التسلية التى انتشرت فى عصر سلاطين الممالك واتخذت طابع المقامرة التى عرفت باسم (الملعب) ومن بينها المناطقه بالكباش والمناقرة بالديوك ، والمصارعة والملاكمة والمشابكة والمعالجة (رفع الاثقال) وغيرها

(١٣٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٦ - ٤٧ .

(١٣٨) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ .

(١٣٩) المقرئى ، نفسه ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٢ .

(١٤٠) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٥١ .

من الالعاب التي تتم بطريق المقامرة والرهان (١٤١) .

وكان نائب السلطنة يخرج كذلك بنفسه الى بلاد الشام ليرتب امورها ، وذلك اذا كان السلطان قاصرا او صغيرا ، ويعين ارباب الوظائف بها ، فقد خرج الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م الى الشام ، وذلك في سلطنة الناصر محمد الثانية عندما كان السلطان صغيرا والامر كله بيد نائبيه الامير سلار . وعندما وصل الامير سلار الى دمشق جلس بدار العدل بها مع الامراء والقضاة ، وخلص على صاحب عز الدين حمزة ابن القلانسي وولى قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة قضاء دمشق ، كذلك ولى قاضي القضاة شمس الدين محمد بن صفى الدين الحريري قضاء الحنفية ، وولى ايضا الامير سيف الدين اقجبا المنصوري شد الدواوين اى التفتيش عليها ومراجعة حساباتها ، كما ولى سلار امين الدين يوسف الرومي حاسبة دمشق ، وولى تاج الدين بن الشيرازي نظر الدواوين ، وخلص على الامير ارجواش نائب قلعة دمشق ، وانعم عليه بعشرة الاف درهم (١٤٢) .

ثم قام الامير سلار بتعيين نواب السلطنة بالشام على نحو ما رسم السلطان له ، فأقر الامير جمال الدين الافرق على عادته نائبا بدمشق ، وفوض الى الامير زين الدين كتبغا نيابة حماة ، كما فوض الى الامير شمس الدين قراسنقر نيابة حلب ، وفوض الى الامير سيف الدين قطلبات نيابة السلطنة بالفتوحات بالمملكة الطرابلسية ، واعاد الامير سيف الدين كراى المنصور الى نيابة صفد على عادته .

(١٤١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٢ ، وانظر ايضا سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٠٦ .
(١٤٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠١ ،
سنويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقه ١١٨ .

وبعد ان استقرت احوال دمشق والوضاع فى الممالك الشامية ، عاد سلا ر الى الديار المصرية (١٤٣) .

وكان سائر نواب الشام يكتبون نائب السلطنة فى مهام الامور المتعلقة بشباتهم ، كما يكتبون السلطان ، ويراجعونه كما يراجع السلطان وكانوا يلقبونـــــــــــــــــه فى مكاتباتهم له (بكافل الممالك الاسلامية) (١٤٤) ، كذلك حرص نواب الشام على حسن علاقاتهم بنائب السلطنة فى القاهرة ، فكانوا يرسلون تقادهم له فى المناسبات ، وفى عام ١٣٥٠/٥٧٥١م عندما خرج الامير بييفاروس نائب السلطنة للحج تواردت اليه تقادم نواب الشام والامراء بديــــــــــــــــار مصر (١٤٥) .

ومن بين الاعمال التى كان نائب السلطنة يشترك فى اشراف عليها حفر الخلجان ، واصلاح وترميم الجسور ، وانشاء جسور جديدة اذا ما اقتضت الضرورة ذلك ، كما كان نائب السلطنة يخرج للاحتفال بوفاء النيل ويقوم بتخليق المقياس اى تعطييره بالزعفران وماء الورد ، وكسر سد الخليج .

فعندما شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج ، الذى عرف باسم "الخليج الناصرى" (١٤٦) فى عام ١٣٢٤هـ/١٣٢٤م ، فوض هذا العمل الى نائبه ارغون الناصرى ، فقام معه المهندسون وارباب الخبرة بيمسح شاطئ النيل ،

(١٤٣) النويرى ، المصدر السابق ، ج ٢٩ ، ورقة ١١٨ .
(١٤٤) العمرى ، التعرف ، ص ٦٦ ، القلقشندى ، صح الاعشى ، ج ٤ ص ١٦ ، المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .
(١٤٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢١ .
(١٤٦) يمر هذا الخليج من خارج القاهرة الى سرياقوس ، حيث بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون قصوره ونقل الميدان من تحت القلعة الى هناك وكان يمكن للمراكب عن طريق هذا الخليج ان تسير فى النيل محملة بالغلال وغيرها الى قصور السلطان فى سرياقوس . انظر : المقرئى ، المواعظ ج ٢ ، ص ١٤٥ ، وانظر ايضا : قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٣١ - ٣٢ .

بقصد اختيار المكان الذي يبدأ منه حفر الخليج ، وبعد ان تخير موضع يبدأ منه الحفر ، كتب ارغون السى ولاة الاعمال باحضار الرجال للحفر (١٤٧)

وزاد النيل فى عام ١٣٤٣/٥٧٤٤م زيادة كبيرة بعد وفائه ، فركب النائب الحاج آل ملك الى جسر بركة الحبش (١٤٨) ومعه جماعة من الامراء ، واقام ثلاثة ايام حتى اتقن بعض الجسور (١٤٩) ، واشترك الامير طقز دمر نائب السلطنة ايضا فى عام ١٣٤٨/٥٧٤٩م فى قياس النيل ، وفى عمل جسر ليدفع الماء بقوة الى بر مصر وبولاق ، واشرف على عمس للامم لهذا الجسر (١٥٠) .

اما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فكان هذا الاحتفال يتم على مرحلتين الاولى تخليق المقياس (اى تعطيره) والثانية كسر سد الخليج ، وكان السلطان يشارك بنفسه هو ونائبه فى هذا الاحتفال ، ولكن لم يحرض معظم سلاطين المماليك على حضور هذا الاحتفال ، ولذلك كان السلطان يعهد الى نائبه بالمقياس بهذا الاحتفال بدلا منه (١٥١) .

واذا كان نائب السلطنة يشارك فى الاحتفال بوفاء النيل ، فانه كان يقوم بدور فعال ايضا حينما يحل القحط بالبلاد وتعرض للازمات الاقتصادية فى شهر رجب وشعبان من عام ١٣٦٤/٥٧٦٦م وفى عهد السلطان الاشرف شعبان ارتفعت الاسعار وزاد الغلاء ، وزاد عدد الفقراء نتيجة لانخفاض منسوب مياه النيل ، فجمع الامير منجك نائب السلطنة

(١٤٧)المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٦١ - ٦٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٨١ - ٨٢ .
(١٤٨) عن بركة الحبش انظر المقريزى المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(١٤٩) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٨ .
(١٥٠) المقريزى ، المصدر السابق نفس الجزء والقسم ، ص ٧٦٢ .
(١٥١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاحتفال انظر : قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٤٣ - ٤٥ .

الفقراء والمحتاجين ، وقام بتوزيعهم على الاغنياء وعلى
الامراء والتجار ، وذلك ليضمن لهم العيش والاستمرار فى
الحياة (١٥٢) .

وكان نائب السلطنة خرج ايضا لصلاة الاستسقاء فعندما
توقف النيل عن الزيادة فى ربيع الاول من عام ١٣٧٥/٥٧٧٢م ،
واضطربت احوال الناس وازداد قلقهم وتكالبوا على شراء
القمح ، خرج الامير اقتصر عند الغنى ، نائب السلطنة -
فى عدد من الامراء مع سائر الناس لصلاة الاستسقاء (١٥٣) .

ولم يكن نائب السلطنة يساهم فى حل الازمات الاقتصادية
التي تتعرض لها البلاد فحسب ، بل اكثر من ذلك كان يشارك
فى الاشراف على اطفاء الحرائق التي تتعرض لها السلاد .
ففى عام ١٣٢١/٥٧٢١م ، وفى عهد السلطان الناصر محمد بن
قلاوون ، تعرضت القاهرة لحريق هائل قام به النصارى بعد
هدم كنائسهم فنزل نائب السلطنة الامير ارغون من القلعة
وجميع من بها ، وجمع اهل القاهرة ، ونقل المياه على
جمال الامراء من المدارس والحمامات والابار لاطفاء الحريق (١٥٤)
وعندما وقع حريق بالقاهرة فى عام ١٣٥٠/٥٧٥١م ركب الامير
بيسغاروس نائب السلطنة وجماعة من الامراء بمماليكهم ،
ووصلوا الى مكان الحريق ، وهناك نزلوا عن خيولهم ،
ورفعوا العامة من اللهب (١٥٥) .

(١٥٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٥ ، ابن اياس
بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٤٠

(١٥٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ .
(١٥٤) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ،
ق ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٦ .
(١٥٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨١٦-١٧ ولمزيد من التفاصيل
انظر : ص ٨١٦-٨١٨ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣٥-٣٦ .

ديوان النيابة :

ويساعد نائب السلطنة فى القيام باختصاصاته واداء
اعماله ديوان يعرف باسم "ديوان النيابة" وكان هذا
الديوان يتألف من ناظر وكاتب ودوادار ونقباء . امما
الناظر فهو من كبار الموظفين الذين اشتركوا مع النائب
فى تصريف اموره ، وكان ناظر ديسوان نائب السلطنة
الامير سيف الدين ارغون يدعى شرف الدين عبد الرحمن وقد
استدعاه القاضى فى ٦ ربيع الاول من عام ٧٢٦هـ/١٢٢٥، وفوض
اليه نظر النظار (١٥٦) .

اما كاتب نائب السلطنة ، فكان كما يذكر القلقشندى
يقراً عليه القصص وينفذ ما يكتب عنه (١٥٧) ، وبين بين
كتاب نواب السلطنة شرف الدين يعقوب كاتب الامير شمس
الدين قراسنقر ، وكان قد قسض عليه فى عام ٧٦٦هـ/١٢٩٦ م ،
وضرب حتى مات تحت الضرب على حد تعبير المقرئى (١٥٨) .

كذلك كان الاسعد غبريال كاتب الامير سيف الدين
ارغون نائب السلطنة ، وكان قد تم القبض عليه ايضا فى
عام ٧١٢هـ/١٣١٣ م ، "لانه كان كثير الظلم ، ونقل الى استاذة
امور تضر بالدولة ٠٠٠ وبعد القبض عليه ضرب بالمقارع
واقعت الحوطة على موجوده" (١٥٩) .

ويساعد نائب السلطنة ايضا دوادارا ، وهو الذى يحمل
له الدواة ، ويقدم له القصص والشكايات ، ويقوم بايلاغ
الرسائل عنه ، ولذلك يذكر السكى من بين اعمال نائب
السلطنة "النظر فى امر دواداره" ، فميزان سابه دوادار
ولذلك عليه الاحتياط فى امره ، وعدم الاصغاء اليه فيما

(١٥٦) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٣١ ، ورقة ٦٦ .
(١٥٧) انظر ما سبق ص .
(١٥٨) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .
(١٥٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

بقوله ، بل يستوضح الحال ويستكشفه من بطانة الخير (١٦٠) ؛
ويذكر كل من المقریزی وابن ایاس فی حوادث عام ٧٧٨ هـ /
١٣٧٦ م ، ان قاضی القضاة برهان الدین ابن جماعة طلب
دوادار الامیر اقتصر الصحی الحنلی نائب السلطنة ونهره
فی مجلسه ، لانه ضرب رب دین بحضرة مديونه (١٦١) .

اما النقباء فيساعدون نائب السلطنة في تأدية الخدمات
الصغيرة ، فحدث في ربيع الآخر من عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ان كان
الامير الحاج جالسا بشباك النيابة ، فمرت به جمال تحمل
خمرا ، فبعث نقيباً بنظر ائین تدخل ويأتيه بالجمال (١٦٢) .
وكان من عادة الامير الحاج ان يجلس بشباك النيابة طول
نهاره وتروح اصحاب الوظائف ولا يبقى عنده الا النقباء
البطالة ، الذين لم يعهد اليهم سائ خدمة يوءدونهم
اليه (١٦٣) .

وكان لديوان النباة اقطاعات ، ومما بدل على ذلك
ان الامير بدر الدين بيدرا نائب سلطنة الاشرف خليل اخذ
اقطاع الامير حسام الدين طرنتاي - النائب السابق عليه -
واضاف اليه الكثير من النواحي التي اشتراها لديوانه من
مقطيعها ، وبلاداً استحوذ عليها (١٦٤) . وعندما تم السروك
الحسامي في عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م تقرر اقطاع نيابة السلطنة من
اعظم الاقطاعات ، واكثرها متحصلاً ، فكان من جملة الاعمال

-
- ١٦٠) السبكي ، معيد النعم ، ص ٢٤ .
١٦١) المقریزی ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٤ ، ابن ایاس
يدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٦٥ .
١٦٢) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ .
١٦٣) ابن تغرى بردی ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٦ .
١٦٤) بيبيرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق
ص ٣٢٠ .

القوصية مرج بنى هميم (١٦٥) ، وكفورها ، وسمهنول (١٦٦) وكفورها ودواليبها (١٦٧) ومعاصرها وخرجة مدينسة قووي وادفو ، وهذه النواحي يزيد متحصلها من الغلال خاصة على مائة الف وعشرة أردب ، هذا فضلا عن الاموال والاعسسال والشمار والاعنام والاحطاب وغير ذلك (١٦٨) .

وكان بديوان النيابة اقطاعات للجند ايضا ، ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي في حوادث عام ١٢٩٨هـ/١٢٩٨م من ان الامير منكوترم نائب السلطنة في عهد المنصور حسام الدين لاجين " كان اول من نزل عن اقطاعات الجند التي كانت في ديوان النيابة ، ومتحصلها في السنة الف اردب غلة (١٦٩) .

وبعد ان ابطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة السلطنة في عام ٧٢٧هـ وعزل نائبه الامير سيف الدين ارغون ، فرق اقطاع النيابة ، فاعطى الامير سيف الدين بكتمسر الساقى منية بنى خصيب (في الصعيد) واعطى الامير سيف الدين مائة فارس وتقدمة الف من جملة تقدمه نائب السلطنة واعطى بقية اقطاع النيابة زيادة على اقطاعات الامر : مماليكه (١٧٠) .

علاقة نائب السلطنة بالوزير :

لاشك في ان النفوذ الواسع الذي تمتع به نائيب

(١٦٥) عن الاعمال القوصية انظر ابن الجيعان ، التحفة السنية ، ص ١٩٠-١٩٥ ، اما عن مرج بنى هميم ، فانظر ص ١٩٥ من المصدر نفسه .

(١٦٦) سمهنود او سمهود وهي بلدة قريبة من فرشوط بمركز نجع حمادى بمديرية قنا الحالية .

(١٦٧) دواليب مفرد هادولاب وهي الالات العجلة المستعملة في الزراعة والصناعة انظر : سعيد عاشور ، العصر الممالكي ، ص ٤١٧ .

(١٦٨) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ١٠٠ ، المقريزي ، السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٣ - ٤٤ .

(١٦٩) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٥٨ .

(١٧٠) النويرى ، المصدر السابق ، ج ٣١ ، ورقة ٨٤ .

السلطنة جاء على حساب مكانة الوزير ، الذى اصح بلسى نائب السلطنة فى المرتبة ، بمعنى انه صار الرجل الثالث فى الدولة بعد ان كان الرجل الثانى . ويشير المقريزى الى ذلك بعبارة نصها :

"ان وضع الوزير انه اقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه ، غير انها (اى الوزارة) انحطت عن ذلك بنسابة السلطنة (١٧١) " . وليس ادل على ذلك من ان الامير سيف الدين كوندات الساقى (١٧٢) نائب السلطنة فى عهد الملك السعيد امر الوزير صاحب بهااء الدين بن حنا أن يجلس بين يديه ، وان لا يوقع الا بامره (١٧٣) . كذلك استبدد الامير سيف الدين منكوتر نائب السلطنة فى عهد حسام الدين لاجين بالسلطة ، واضعف من نفوذ الوزراء "فصار الوزير بين يديه يمثثل مراسمه ، ويستعطف مراحمه ، ولايمض امر الا بامره (١٧٤) " .

واصح نائب السلطنة يتحدث كذلك فى امر الوزارة ، ويعين من يملح لها فعين الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون التاج بن سعيد الدولة وزيرا ، واستدعاه ، وامره ان يرتدى خلعة الوزارة وعندما رفض ان يرتديها حلف سلار لئن لم يلبسها ضرب عنقه فخاف التاج ولبسها فى المحرم ١٣٠٤/٥٧٠٤م وقبل يد الامير

(١٧١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .
(١٧٢) الامير سيف الدين كوندات كان زميل الملك السعيد فى المكتب وهما صغيرين ، فقامت بينهما صلة الود ، واصبح كوندات بعد ذلك احد خاصكية الملك السعيد ، وولاه الاخير نيابة السلطنة فى عام ٦٧٧هـ ، وفى عام ٦٨٠هـ قبض عليه الملك المنصور : انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، بيسرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ص ١٥٢ .

(١٧٣) النويرى ، المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ق ٢ ، ورقة ٣٧٨ ، المفضل ، النهج ، منشور فى P.O.T.XIV, P. 463.
(١٧٤) المفضل ، النهج ، منشور فى P.O.T.XIV, P.600

سلار ، مما يظهر الى اى مدى ضعفت سلطة الوزير وانحط منصبه (١٧٥) .

وكان نائب السلطنة يعامل الوزير - فى بعض الاحيان- بمنتهى العنف والقسوة ، واذا ما ارتكب اى خطأ ، وكان يحاسبه حسابا عسيرا ، مثلما فعل الامير سلار بالوزير ناصر الدين محمد بن الشيخى ، اذ اتهمه سلار باخذ مال السلطان ، وقبض عليه ، وامر الحاجب بضربه ، فضربه على راسه الى ان خرب شاشه (١٧٦) ، ثم سلمه لشد الدواوين ، وامره بمعاقبته ومعاقبة ممالিকে ، وكان بأمر شاد الدواوين بين الحين والحين بضرب الوزير ابن الشيخى بالمقارع واستمر يعاقبه حتى مات (١٧٧) .

ولهذا كان من الطبيعى ان تسوء العلاقة بين الوزير ونائب السلطنة وان يتحدين الوزير الفرص ليجد من سلطة نائب السلطنة ومن نفوذه ، ويحاول ان يستخف به معتمدا فى ذلك على تقربه من السلطان وعلاقته الودية به ، فنجد ان الوزير ابن السلعوس (١٧٨) ، بدأ يستخف بنائب السلطنة الامير بدر الدين بيدرا ، ولا يلتفت اليه ، ويحاول لمشاركته فى وظيفته ومعارضته فيما يقصد فعله ، وتعطيل ما يؤمر

(١٧٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٦ .
(١٧٦) الشاش هو ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .
(١٧٧) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، المصدر السابق ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩ - ١١ .

(١٧٨) كان ابن السلعوس فى بداية حياته تاجر من اهل دمشق ثم تقرب من وزير دمشق صاحب تقى الدين ، واخذ ينتقل فى المناصب حتى ولى حبة دمشق فى عام ٦٨٧هـ ، ثم نظر ديوان الاشرف خليل بالشم ، ثم نقله الاشرف الى نظر ديوانه بمصر فى ٦٨٩هـ ، وعندما ولى الاشرف خليل السلطنة ، جعله وزيرا له فى عام ٦٩٠هـ ، لمزيد من التفاصيل انظر :

ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

به (١٧٩) حتى طفى نفوذه على نفوذ النائب ، واعتمد فى ذلك على صلته القوية بالسلطان الاشرف خليل وعلاقته الودية به .

وظل الوزير ابن السلعوس بتريص بالنائب بيدرا ويتحين الفرص للابقاع به ، وواتته الفرصة فى عام ١٢٩٢/٥٦٩٢ م ، حينما خرج السلطان الاشرف خليل الى الصعيد وسبقه ابن السلعوس اليها ، ليجهز له الاقامات ، فلم يجد ما يكفى لتجهيزها ، فى حين وجد ان املاك بيدرا قد اتسعت وشملت البلاد وكثرت اقطاعاته وامواله وامتلت شوانه بالغللال ، فانتهز هذه الفرصة ليوغر قلب السلطان عليه ، وارسل يقول له : " هذا بيدرا قد اكل البلاد واستولى عليها وما ترك للسلطان شيئا " . فتغير السلطان على نائبه بيدرا ، وحقد عليه حقدا كان يظهره حينما ، ويخفيه حينما آخر (١٨٠) .

وفى عام ١٢٩٣/٥٦٩٣م كان العداء قد اشتد بين ابن السلعوس ونائب السلطنة الامير بيدرا ، وفى المحرم من هذا العام خرج السلطان الاشرف خليل للصيد بجهة الحيسرة واصطحبها معه ، وعندما وصل السلطان الى تروجه - على مقربة من الاسكندرية - سبقه وزيره الى مدينة الاسكندرية لتجهيز الاقمشة والاستعمالات للسلطان ، ولحاصل الاموال من المدينة ، ويرتب احوالها ، فلما دخل ابن السلعوس مدينة الاسكندرية ، وجد نواب الامير بيدرا قد استولوا على المتاجر والاستعمالات (الاقمشة) وغير ذلك ، فكتب للسلطان

(١٧٩) النويرى ، نهاية العرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٥٣ ، ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٠٩ .
(١٨٠) سيرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٣٤٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٣ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٥٤ ، النويرى ، نهاية العرب ج ٢٩ ، ورقة ٧٠ - ٧١ ، المفضل النهج ، ج ٢ ، منشور فى : P.O.T.XIV, pp. 562-63.

يخبره بذلك ويغريه ببديرا ، فاشتد غضب السلطان ، واستدعى ببديرا ، واغلظ له في القول ، واهانه في وجود الامراء الخاصكية (١٨١) وتوعده بانه لابد وان يمكن ابن السلعوس من ضربه بما لا يذكر (١٨٢) . ونجح الوزير ابن السلعوس بذلك في الايقاع بنائب السلطنة وتشيويه صورته عند السلطان .

وبعد مقتل الوزير ابن السلعوس ، تولى الوزارة الامير علم الدين سنجر الشجاعى في صفر من عام ٥٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، فاحكم امر البلاد وهابه الناس وصار يستخف بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون لصغر سنه ، ولذلك اصحح هو صاحب الحسل والعقد في البلاد في تلك الايام ، بل وحدثه نفسه بالسلطنة ، ولذلك بذر بذور الفتنة بين الامراء وبين الامير زين الدين كتبغا نائب السلطنة ، بل وسعى في اتخاذ كافة الحيل للقبض على الامير كتبغا وجماعة من الامراء المواليين له ، مستعينا في ذلك بالممالك السلطانية وبعض الخاصكية ، كذلك اتفق الوزير الشجاعى مع الامير سنجر البندقدارى على انه عندما يطلع كتبغا الى قلعة الجبل بعد انتهاء الموكب يقبض عليه هو ومن معه من الامراء . غير ان هذه المؤامرة لم تغلح اذ علم بها الامير كتبغا فاحتاط لنفسه ، واخبر الامراء المقربين له فاخذوا حيطتهم (١٨٣) .

ودبر الشجاعى مؤامرة اخرى للقبض على كتبغا ، عندما

١٨١) الخاصكية قسم من الممالك السلطانية ، يجعلهم السلطان حرسه الخاص ، وهم يلازمون السلطان في خلواته وفي اوقات فراغه ، ويجهزون في المهمات الشريفة ويسوقون المحمل ، لمزيد من التفاصيل انظر : المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٤ حاشية (٤) .

١٨٢) بييرس الدوادار ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٤٨ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٨ ، المغزل ، النهج ، منشور فى : P.O.T.XIV, pp. 567-86 ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٦٦ .

١٨٣) لمزيد من التفاصيل انظر : السويرى ، نهاية لارب ٢٩٠-٢٩١ ، ورقة ٧٨ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٧٨-١٧٩ ، ج ١٨٠ .

كان يستعد للخروج في الموكب وبصحبه الامراء ، غيّر أن كتبنا اكتشف هذه المؤامرة ايضا ، وطلب من السلطان أن يرسل في طلب الشجاعي ، ولكنه امتنع عن الحضور ، وعندئذ زحف كتبنا على القلعة وحاصرها وبداخلها الشجاعي ، وقطع عنها الماء وانتهى الامر بالقبض على الوزير الشجاعي وقتله في صفر ١٢٩٣هـ/ ١٢٩٤م (١٨٤) .

على ان النفور الشديد والعداء المستحکم الذي اتسمت به علاقة الوزير سائب السلطنة انما كان مرجعه في الاصل الى حسد الوزير على السائب ، فقد انتزع منه نفوذه واصبح السائب يتمتع بالسلطة والنفوذ فضلا عن الجاه والثروة الواسعة ، اذ يلاحظ ان نواب السلطنة كان معظمهم على درجة كبيرة من الشراء ومن هؤلاء النواب حسام الدين طرنتاي (١٨٥) والامير سيف الدين سلاز (١٨٦) والامير سيف الدين قوصون (١٨٧) والامير بكتمر الساقى (١٨٨) وغيرهم .

١٨٤) لمزيد من التفاصيل انظر: النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٧٨ - ٧٩ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٨١-١٨٢ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٤٢ - ٤٦ ، ابن ايباس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٨١ - ٨٤ .

١٨٥) عن شراء حسام الدين طرنتاي انظر: ابن كثير ، البدايية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٨ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٠٠ - ١٠٢ ، ١٠٧ ، النويرى ، المصدر السابق ، ج ٢٩ ، ورقة ٥١ ، المفضل ، النهج ، P.O.T. XIV, pp. 535-36 المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٨٤ .

١٨٦) عن شراء الامير سلاز انظر: ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، الشوكانى ، السدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩٧-٩٩ ، ابن ايباس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٤٣٦-٣٨ .

١٨٧) وعن شراء قوصون انظر: ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ - ٤٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٩١-٩٢ ، ابن ايباس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

١٨٨) عن شراء بكتمر الساقى انظر : العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٩ ، ص ١٠٥ .

اما عن علاقة نائب السلطنة بالسلطان ، فقد قامست بينهما - في بعض الاحيان - علاقات طيبة ، تسيء بالحس والمودة ، بل ان السلطان كان يعتبر نائبه ابنسا له ، "فيحله محل الولد " على حد تعبير النويرى (١٨٩) . وكان يخطب له ويزوجه ويحتفل بعرسه احتفالا عظيما ، فحدث ان خطب السلطان الظاهر بيبرس لنائب سلطنته بدر الدين بيليك الخازندار ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في شوال من عام ١٢٦٠هـ / ١٢٦٠م ، ثم انكحه في المحرم من العام التالي ١٢٦٠هـ / ١٢٦١م ، واحتفل به احتفالا عظيما ، وقدم له هدية الزواج ، وكانت ملكيته لبانياس وقلعتها بالبيع والشراء او البيع الشرعى ، كما اقطعه زيادة على ذلك خمسين فارسا في الشام (١٩٠) .

وفي عام ١٢٧٤هـ / ١٢٧٥م ، وكل السلطان الظاهر بيبرس الامير بدر الدين بيليك نائبه في قبول نكاح ولده الملك السعيد من ابنة الامير سيف الدين قلاوون (١٩١) . كذلك كان الامير حسام الدين طرنتاي نائب السلطان المنصور قلاوون وكيلا للملك الصالح على ابن المنصور قلاوون عندما عقد قرانه في عام ١٢٨٢هـ / ١٢٨٢م (١٩٢) .

وكان السلطان يواسي نائبه ايضا في وقت الازمات ، فعندما سمع السلطان الظاهر بيبرس - وهو في بلا الشام في عام ١٢٦٤هـ / ١٢٦٥م - بان شخصا طعن الامير عز الدين ايدمر الحلى نائب السلطنة بالغيبة وهو يجلس في دار العدل مع

١٨٩) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ٤٦ - ٤٧ .
١٩٠) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٦ - ٨٧ ، النويرى المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ورقة ٤٦ - ٤٧ .
١٩١) المقريرى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ ، النويرى المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ورقة ٢٢٨ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٥١ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٧٥ .
١٩٢) ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ٢٠ .

القضاة والوزير صاحب بهاء الدين ، عز عليه ذلك ووساه بقوله : "والله يهون على موت ولدى بركة ، ولا يمس موت الحلى" (١٩٣) .

كذلك ربطت صلة المصاهرة بين السلطان ونائبه ففى عام ١٣٢٢/٥٧٢٢م ، زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون ابنه للامير ابى بكر بن ارغون الناصرى نائب السلطنة ، وتولى العقد قاضى القضاة شمس الدين الحريرى على اربعة آلاف دينار ، وانعم السلطان على نائبه بمنية بنى خصيب بالصعيد زيادة على اقطاعه بمناسبة هذا الزواج (١٩٤) .

دان بعض نواب السلطنة بالولاء لسلطانهم ، ففى عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وبينما كان السلطان المنصور قلاوون فى طريقه الى عكا اصابه المرض ، ولزم الفراش وعندئذ منع الامير حسام الدين طرنتاى نائبه عنه الزيارة ، وقعد على رأسه حتى مات ، وعندما تحقق الامراء من وفاة السلطان ، جاءوا الى نائبه ، يحرضونه على قتل ابن السلطان - الاشرف خليل - للعداء بينهما ، غير انه رفض ذلك وقال لهم : "كيف امسك ابن استاذى او اقتله ، ويشاع عنى بين الناس انى قتلت ابن استاذى ، وانا مملوك والده ، فان رضى بى وابقانى على حالى ، فكان الفضل له ، وان قتلتى رحمت شهيدا من جملة الشهداء" (١٩٥) .

واكثر من ذلك قام الامير حسام الدين بارسال خزائن المال والاطلاب (اى الحرس الخاص) التى كانت مع السلطان

(١٩٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٤٩ ، المقرئزى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ - ٥١ ، النويرى ، المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ١٣٠ .
(١٩٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٧٤ ، المقرئزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٢٧ ، ٢٤٦ .
(١٩٥) ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

الى الاشرف خليل ، كما ارسل له من يخيره بوفاة ابيه وحمل
السلطان فى محفة ، وطلع به الى القلعة فغسله وكفنه
ودفنه (١٩٦) .

تطور نفوذ نائب السلطنة بالقاهرة :

تزايد نفوذ نائب السلطنة بالقاهرة فى عصر دولـة
المماليك البحرية وبخاصة فى العترات التى اعتلى فيها
العرش سلاطين ضعاف او صفار السن ، ويؤكد ذلك ان الامير
زين الدين كتبغا عندما تولى نيابة السلطنة فى المحرم من
عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م فى سلطنة الناصر محمد الاولى ، استغل صغر
سن السلطان ، وجعل نفسه صاحب الامر والنهى فى البلاد ،
يقوم بتعيين ارباب الوظائف ويعزلهم اذ يذكر ابن الفرات
ان الامير كتبغا "كان صاحب الامر والنهى والولاية والعزل" (١٩٧) .

وعظم نفوذ كتبغا وصار هو المتحدث فى امور البلاد ،
واكثر من ذلك تطلع الى عرش السلطنة ، واتخذ خطوات عملية
فى الوصول اليه ، اولها انه انقطع فى دار النياحة ،
واظهر انه معتل الجسد ، ضعيف البدن وذلك من اجل ان
يستميل الامراء الى صفه ، ثم استغل الفتنة التى قام بها
المماليك السلطانية (١٩٨) واتخذها ذريعة لخلع السلطان
الناصر محمد ، وجمع الامراء والقضاة فى دار النياحة وقال
لهم : "قد انخرق ناموس المملكة ، وحرمته لا تتم بسلطنة
الناصر محمد لصغر سنه (١٩٩)" ، وعندئذ اتفق الامراء على
خلع الناصر محمد وسلطنة كتبغا وذلك فى المحرم من عام
٦٩٤هـ/١٢٩٤م وجلس كتبغا فى دست السلطنة وتلقب بالملك

(١٩٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(١٩٧) ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٩٢ .

(١٩٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفتنة انظر ما سبق

(١٩٩) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٠٦ .

العادل (٢٠٠) .

وإذا كان كتسفا قد نجح في انتزاع عرش السلطنة من الناصر محمد مستغلا صغر سنه ، فقد نجح نائبه الأميرحسام الدين لاجين في انتزاع العرش منه أيضا مستغلا فرصة خروجه الى بلاد الشام بالعساكر ، ولما لم تنجح محاولة حسام الدين في الانقضاء على كتسفا والتخلص منه ، فقد انقضى حسام الدين على دهليز السلطان (٢٠١) وعلى الخزائن والحرس والعساكر وساقهم امامه الى مدينة غزة حيث بايعه الامراء بالسلطنة ، ثم دخل حسام الدين مصر ، وخطب له على منابرها ولم يكتف حسام الدين بذلك بل كتب نسخة تقليد لكتيفسا نياية صرخد (٢٠٢) .

عين السلطان المنصور لاجين الامير سيف الدين منكوتمر نائبا لسلطنته في عام ١٢٩٨هـ/١٢٩٩م فاستبد بالامور، وازداد نفوذه وتسلطه لدرجة انه كان اذا رسم السلطان المنصور لاجين مرسوما او كتب لاحد توقعا ليس باشارة من نائبه منكوتمر ، كان منكوتمر يأخذ هذا المرسوم من يد المعطى له ويمزقه وعلامة السلطان (٢٠٣) عليه ولا يبالي ، بل ويرده ويمنع السلطان منه (٢٠٤) .

-
- (٢٠٠) لمزيد من التفاصيل انظر: بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ، ص ٣٦٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٠٦ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٨١ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٩٢-١٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٤٩ - ٥٠ .
- (٢٠١) دهليز السلطان . وهو الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب وتختلف عن غيرها من الخيام .
- (٢٠٢) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٦٣ - ٦٤ ، ٨٦ - ٨٧ .
- (٢٠٣) علامة السلطان او العلامة السلطانية هي ما يكتب السلطان خطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع انظر: المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٤ ، حاشية (١) ، وانظر ايضا المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .
- (٢٠٤) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ، ص ٣٩٦ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ١٠٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٨٩ .

كذلك زين منكوتر للسلطان ان يجعله وليا لعهد
ويبايعه بالسلطنة من بعده خاصة وان السلطان لاجين لم يكن
له ولدا يخلفه على العرش ، وطلب منكوتر من السلطان ايضا
ان يقرن اسمه باسمه في الخطبة ، والسكة ، غير ان منكوتر
لم يصل الى ما تمنى اذ لم يمهل الامراء ، وانقضوا عليه
وقتلوه بعد ان ثقلت وطأته عليهم لاتباعه سياسة العنف
معهم (٢٠٥) .

وعندما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى عرش
السلطنة للمرة الثانية ، وكان لا يزال صغيرا ، اقتسم
نائبه الامير سيف الدين سار واتبك عسكره (اى القائد
العام للجيش) الامير بيبرس الجاشنكير السلطة والحكم
وكان السلطان معهما - كما تروى المصادر - كالمحجور عليه
لا يتصرف في امور المملكة الا باختارهما ، واكثر من ذلك
انهما منعاه من كل ما يريد ، حتى لم يستطيع الوصول الى
ما تشتهي نفسه من المأكلا لقلة المرتب المخصص له ، ولولا
ما كان يحصل عليه من املاك ابيه واقافه لما وجد سبيلا
الى بلوغ بعض اغراضه (٢٠٦) .

وحاول السلطان الناصر محمد ان يتخلص من كل من
نائبه سار واتبكه بيبرس بعد ان ضيقا عليه ، فدير
موءامرة فهدما في عام ١٣٠٧هـ / ١٣٠٧م ، ولكن كان لهما قصر
السلطان عيون وجوايس ابلغوهما بما عزم السلطان عليه
فاتخذا حيطتهما . وعندما ضاق السلطان الناصر محمد بنائبه
واتبكه ذرعا عزل نفسه من السلطنة ، وذهب الى الكرك

(٢٠٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٩٥ - ٩٦ ،
المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٥٢ .
(٢٠٦) النويرى ، المصدر السابق ج ٢٩ ورقة ١٨٦ ، المقريزي ، المصدر
السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ،
ج ٨ ، ص ١٧٥ ، ٢٢١ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ،
ج ١ ، ص ٤٢١ .

للاقامة هناك (٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م) (٢٠٧) .

ولكن عندما تولى السلطان الناصر محمد العرش للمرة الثالثة ، كان قد اشدت عوده ، واصقلته التجارب ، وحنكته الخبرات واستطاع لذلك ان يتصدى لنوابه ويحكم القبض على زمام الامور ، وليس ادل على ذلك من انه عندما حاول نائبه يكتمر (٢٠٨) ان يدبر موءامرة لخلعه فى عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ، واقامة ابن اخيه الامير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح فى السلطنة ، مستعيناً فى ذلك ببعض الامراء المظفرية من اتباع المظفر بيبرس الجاشنكير - وعلم السلطان الناصر تفاصيل هذه الموءامرة من احد المماليك المظفرية ويدعى بيبرس الجمدار اتخذ على الفور الاجراءات اللازمة للقضاء على تلك الموءامرة ، فألقى القبض على نائبه بكتمر وجماعة من الامراء فى جمادى الاولى ٧١١ هـ / ١٣١١ م ، ووضعه فى سجن الاسكندرية ، ثم نقله الى سجن الكرك (٢٠٩) .

وبعد القبض على بكتمر ، عين السلطان الناصر محمد الامير بيبرس الدوادار المورخ نائبا له ، غير انه مال الى جانب نائب الشام ، الامير شمس الدين قراسنقر ، الذى خرج على طاعة السلطان ، فما كان من السلطان الناصر الا ان قبض على نائبه بيبرس وسجنه بالاسكندرية ، فى ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م (٢١٠) .

(٢٠٧) انظر النويرى ، نهاية الارب ، ج ٣٠ ، ورقة ١٨٤ - ١٨٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ١٧٠ - ١٧٥ .
(٢٠٨) الامير سيف الدين بكتمر كان جوكندار ثم امير جاندان ، وتولى النيابة لمدة عامين ، قبض عليه بعدهما ، وتوفى فى عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م . انظر : ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ - ٤٠١ ، ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ١٨ - ١٩ .
(٢٠٩) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن ابيك ، الدرر ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩١ - ٩٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٢٤ - ٣٠ ، النويرى ، المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ورقة ٢٤٤ .

(٢١٠) النويرى ، المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ورقة ٢٤٤ - ٤٥ ، ورقة == == :

عهد السلطان الناصر محمد بعد ذلك الى الامير ارغون الناصرى نيابة السلطنة فى مستهل جمادى الاولى ٧١٢هـ/١٣١٢م وعندما تباطى الامير ارغون فى تنفيذ ما طلبه السلطان منه بان يقضى على فتنة قام بها احد الشائرين ويدعى مهنا ، قبض السلطان عليه فى المحرم من عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م (٢١١) .
وابطل النيابة واستقل باعباء الدولة وحده ، فقام بعمل النائب والوزير بعد ان الغى الوزارة كذلك فى نفس العام ، وصار السلطان الناصر محمد يتحدث بنفسه فى الجليل والحقير من الامور (٢١٢) .

ومن الجدير بالذكر ان نيابة السلطنة بالغيبة لم تتأثر بقرار الناصر محمد بابطال النيابة ، وكان هذا القراقاصرا على نيابة الحضرة فحسب اذ ظل نائب الغيبة يوءدى دوره ، ويؤكد ذلك ان السلطان الناصر محمد عندما شرع فى السفر الى الحجاز الشريف للحج فى عام ٧٢٢هـ/١٣٣١م ، نجده يستنوب الامير سيف الدين الماس على الديار المصرية كنائب غيبة مدة سفره الى الحجاز (٢١٣) .

وخلال الفترة التى الغى فيها السلطان الناصر محمد منصب نائب السلطنة كان حاجب الحجاب يقوم بعمل نائب السلطنة لشغور منصب النيابة والغائه ، فقد فوض السلطان الناصر محمد الى الامير سيف الدين الماس ، بعد ان تولى منصب حاجب الحجاب - القيام بمهام منصبه ، فكان يتحدث فى امر الجيوش وشكاوى الناس ، وترفع اليه المحاكمات التى

== ٢٧٦ - ٢٧٧ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٣ .
(٢١١) ابن ابيك ، الدر ، ص ٣٧١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٣٥٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٨٨ .
(٢١٢) المقرئى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٣٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٤ .
(٢١٣) ابن ابيك ، الدر ، ص ٣٧١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٣٥١ ، وابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠٢ ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

كانت ترفع للنائب الكافل ، بل كان اكبر الامراء وصاغرهم
يركبون في خدمته وكان يجلس على باب القلعة ويقف الحجاب
بين يديه (٢١٤) .

اعيد منصب نائب السلطنة مرة اخرى في عام ١٣٤٠/٥٧٤١م
في سلطنة المنصور ابو بكر بن الناصر محمد ، وكان الامير
طقز دمر هو اول من تولاه بعد اعادته وذلك في ذى الحجة
١٣٤٠/٥٧٤١م ، وكتب له السلطان المنصور ابو بكر تقليد
بنيابة السلطنة في المحرم من عام ١٣٤١/٥٧٤٢م (٢١٥) .

ولم يظل طقز دمر في منصبه اكثر من شهر ، اذ خلع
السلطان ابو بكر وخلفه سلطان صغير آخر وهو كجك . وعين
كجك الامير سيف الدين قوصون نائبا لسلطنته في صفر ٧٤٢هـ ،
فاستغل قوصون صغر سن السلطان واستبد بالامور وجمع بين
النيابة والاتايكية (اى قيادة الجيوش) وقام بعزل وتولية
ارباب الوظائف ، فيذكر ابن اياس " ان الامير قوصون عزل
من عزل وولى من ولى وظن ان الدهر قد صفا له وعند مفسو
الليالى يحدث الكدر" (٢١٦) .

ولم تطل مدة تولى الامير قوصون منصب نيابة السلطنة
اذ ما لث ان خلع السلطان كجك وخلفه الناصر احمد ، وفي
١٥ شوال ٧٤٢هـ ، تولى الامير طشتمرحمى اخضر نيابة السلطنة (٢١٧) .

(٢١٤) الخالدي ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٦ ، ابن ابيك ، الدر ،
ص ٢٤٤ ، المقرئى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، السلوك ، ج ٢ ،
ق ٢ ، ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠٨ .
(٢١٥) انظر نسخة تقليد طقز دمر فى القلقشندى ، صحح الاعشى ،
ج ١١ ، ص ١٤٣ - ١٤٨ ، وانظر ايضا : الشجاعى ، تاريخ الناصر
محمد ، ص ١٣١ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ١٩ ،
المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥١ ، ابن تغرى بردى ،
النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ،
ص ٤٧٨ .

(٢١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٩١ .
(٢١٧) الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد ، ص ٢٠٥ .

وبلغ من تسلط طشتمر وتحكمه ان السلطان كان اذا عس من
شخما في وظيفة ما دون علمه ، يقوم بخلعه ، فعندما خلع
السلطان الناصر احمد بن الناصر محمد على احد الكركيين
ويدعى بغار السقوف ومنحه وظيفة امام السلطان وتاظر
المشهد النفسى بدون علم نائحه طشتمر حمص أخضر بعثت
طشتمر الى هذا الشخص عدة نقباء ، ونزع عنه الخلعة ، وامر
بضربه والزمه بحمل مائة الف درهم ، ف ضرب عريانا ، واخذ
منه المبلغ ، ثم افرج عنه بعد ان تعهد بالا يطلع الى
القلعة (٢١٨) .

ثم اخذ منصب نائب السلطنة فى التدهور والانحطاط
فى اواخر عهد دولة المماليك البحرية ، بل واصبح يعرض
على الامراء فيرفضون قبوله ، ويرجع ذلك الى اختلال نظام
الدولة نتيجة لصغر سن السلاطين من احفاد الناصر محمد
وعدم تمكنهم من ضبط الامور هذا فضلا عن كثرة الثورات
والفتن التى تدخل فيها المماليك الشراكسة . وهناك امثلة
عديدة على رفض الامراء قبول منصباة السلطنة منها :
ان السلطان الكامل شعبان خلع فى عام ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م ، على
الامير آقسنقر الناصرى نباة السلطنة "فامتنع اشدد
الامتناع ، وحلف ايمانا مغلظة الا يليها (٢١٩)" كذلك عرضت
النباة فى عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م على اكابر الامراء فلم يقلها
احد ، ثم عرضت على الامير بيغاطر فتمنع منها ايضا
تمنعا كبيرا ثم قبلها (٢٢٠) كذلك عرض السلطان الاشرف
شعبان على الامير منكلى الشمسى منصباة السلطنة وخلص
عليه ، ولكنه ابى ان يكون نائبا ، فانعم عليه السلطان
بتقدمة الف وجعله اتابك العسكر (٢٢١) .

(٢١٨) المقرئزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢١٩) المقرئزى ، المصدر السابق ، ص ٦٨٣ .

(٢٢٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٢٠ ، المقرئزى

السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٣ .

(٢٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٩ .

وليس ادل على انحطاط وظيفة نائب السلطنة مما يذكره ابن اياس في عام ١٣٥٤/٥٧٥٥م من ان السلطان الناصر حسن خلع على الامير شيخو العمري وقرره امير كبير (٢٢٢) وصارت وظيفة من يومئذ ، وصارت اكبر من نيابة السلطنة ثم يقول ابن اياس : "وانحط قدر نيابة السلطنة من يومئذ عمّا كانت" (٢٢٣) .

ولعل هذا ما دفع السلطان الناصر حسن الى أن يقوم بالغاء نيابة السلطنة في عام ١٣٥٤/٥٧٥٥م كما الغاها ابوه من قبل ، واحل محلها وظيفة الامير الكبير ، الذي اصبح صاحب الحنل والعقد في البلاد ، وعندما زالت سلطنة الناصر حسن في عام ١٣٦٠/٥٧٦٢م عادت نيابة السلطنة الى الظهور من جديد في عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي ، وعيّن فيها الامير قشتمر المنصوري (٢٢٤) .

ولكن عاد منصب نائب السلطنة اضعف مما كان ، لدرجة اصبح معها نائب السلطنة يتلقى الاوامر من اتابك العسكر وليس من السلطان مباشرة ، فقد عهد الامير يلبغا اتابك العسكر الى الامير قشتمر المنصوري نائب السلطنة بان يتوجه الى الصعيد ليحفظها من فساد العربان الى ان يحضر السلطان من الشام (٢٢٥) . وعلت مكانة اتابك العسكر على مكانة نائب السلطنة واصح هو مدير الدولة ، اما النائب فاصح "آلة يتعاطى الاحكام لا غير" على حد تعبير ابن تغـرى بردى (٢٢٦) .

(٢٢٢) الامير الكبير لقب يطلق على اكابر الامراء واعظمهم واقربهم الى السلطان مخاطبة وجلوسا وركوبا ، ويستشيره السلطان في مهمات الدولة ويعول على رأيه انظر: الخالدي ، المقصد ورقة ١٢٤ .

- (٢٢٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .
- (٢٢٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨٢ .
- (٢٢٥) ابن اياس ، نفس المصدر ، والجزء والصفحة .
- (٢٢٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٦ .

على ان نائب السلطنة استطاع ان يستعيد بعض ما كان له من نفوذ في عهد السلطان الاشرف شعبان ، الذى عهد فى عام ١٣٧٢هـ/١٣٧٣م الى الامير منجك اليوسفى نيابة السلطنة فى القاهرة ، "وفوض اليه النظر فى الاحباس والاقواف والنظر فى الوزارة ، والنظر على ناظر الخاص ، واقامه السلطان مقام نفسه فى كل شئ" ، وفوض اليه سائر امور المملكة ، وان يخرج الاقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار او مادونها .. بل ورسم للوزير ان يجلس قدامه فى الدركاة مع الموقعين (٢٢٧) ..

ثم توقفت نيابة السلطنة للمرة الثالثة والاخيرة فى سلطنة المماليك البحرية فى عام ١٣٧٦هـ/١٣٧٨م ، فى عهد الاشرف شعبان ، وتفوقت عليها الامرة الكبيرة ، فقد عزل - فى هذا العام ، الامير اقتمر الحنبلى من نيابة السلطنة واستقر اميرا كبيرا بجلس بالايوان وقت الخدمة ، وخلع على الامير اقتمر عبدالغنى واستقر حجب الحجاب واطلقت النيابة (٢٢٨)

وهكذا يتضح من العرض السابق ان وظيفة نائب السلطنة بالاضافة الى كونها من وظائف الدولة الكبرى فى عصر دولة المماليك البحرية ، فان صاحبها اسهم اسهاما واضحا فى اكساب نظام الحكم فى ذلك العصر شكله وهيكله المميز فضلا عن ان نائب السلطنة قام عندئذ بدور بارز ملحوظ فى توجيه سياسة الدولة داخليا وخارجيا .

* * *

(٢٢٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥ .
(٢٢٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٧١ .

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

قائمة باسماء نواب السلطنة بالحضرة في
عصر دولة المماليك البحرية

- ١ - بدر الدين بيليك الخازندار (ت ٥٦٧٦هـ/١٢٧٧م)
 - ٢ - شمس الدين آقسنقر الفارقاني (ت ٥٦٧٦هـ/١٢٧٧م)
 - ٣ - شمس الدين سنقر المظفرى (ت ٥٦٨٠هـ/١٢٨١م)
 - ٤ - سيف الدين كونداك الساقى (ت ٥٦٨٠هـ/١٢٨١م)
 - ٥ - عز الدين ايبك الافرم (ت ٥٦٩٥هـ/١٢٩٥م)
 - ٦ - حسام الدين طرنتاى (ت ٥٦٨٩هـ/١٢٩٠م)
 - ٧ - بدر الدين بدرا (ت ٥٦٩٣هـ/١٢٩٣م)
 - ٨ - شمس الدين قراسنقر المنصورى (ت ٥٧٢٨هـ/١٣٢٧م)
 - ٩ - سيف الدين منكوترالحسامى (ت ٥٦٩٨هـ/١٢٩٨م)
 - ١٠ - سيف الدين سلاى المنصورى (ت ٥٧١٠هـ/١٣١٠م)
 - ١١ - بكتمر الجوكندار المنصورى (ت ٥٧١٦هـ/١٣١٦م)
 - ١٢ - بيبرس الدوادار المنصورى (ت ٥٧٢٥هـ/١٣٢٤م)
 - ١٣ - ارغون الدوادار الناصرى (ت ٥٧٣١هـ/١٣٣٠م)
 - ١٤ - طقز دمر الناصرى (ت ٥٧٤٦هـ/١٣٤٥م)
 - ١٥ - سيف الدين توغون الساقى (ت ٥٧٤٢هـ/١٣٤١م)
 - ١٦ - طشتمر حمص اخضر الساقى (ت ٥٧٤٣هـ/١٣٤٢م)
 - ١٧ - شمس الدين آقسنقر السلاى (ت ٥٧٤٤هـ/١٣٤٣م)
 - ١٨ - سيف الدين الحاج آل ملك (ت ٥٧٤٧هـ/١٣٤٦م)
 - ١٩ - ارقطاى القفجقى (ت ٥٧٥٠هـ/١٣٤٩م)
 - ٢٠ - بييفاروس الناصرى (ت ٥٧٥٣هـ و٥٧٥٤هـ/١٣٥٢م)
 - ٢١ - سيف الدين ارغون الكاملى (ت ٥٧٥٨هـ/١٣٥٦م)
 - ٢٢ - سيف الدين قبلاى الناصرى (ت ٥٧٥٦هـ/١٣٥٥م)
 - ٢٣ - قشتمر بن عبد الله المنصورى (ت ٥٧٧١هـ و٥٧٧٥هـ/١٣٦٩م)
- او١٣٧٣م

- ٢٤ - على المارديني (ت ٥٧٧٢/١٣٧٠م)
٢٥ - طشتمر العلائي (ت ٥٧٨٤/١٣٨٢م)
٢٦ - ايدمر الدوادار (ت ٥٧٧٥-٥٧٧٦/١٣٧٣م)
٢٧ - سيف الدين منجك اليوسفي (ت ٥٧٧٦/١٣٧٣م)
٢٨ - اقتمر بن عبد الله الصاحبى الحنبلى (ت ٥٧٧٩/١٣٧٧م)
٢٩ - اقتمر بن عبد الغنى (ت ٥٧٨٣/١٣٨١م)
- (١٣٧٤م)

* * * *

ملحق رقم (٢)

اسم النائب	فترة توليه النيابة
بدر الدين سليك الخازندار	ذو القعدة ٦٥٨هـ/ اكتوبر ١٢٥٩م -
شمس الدين افسنقر الفارقاني	ربيع اول ٦٧٦هـ/ اغسطس ١٢٧٧م ربيع اول ٦٧٦هـ/ اغسطس ١٢٧٧م -
شمس الدين سنقر المظفرى	ربيع آخر ٦٧٦هـ/ سبتمبر ١٢٧٧م بضع ايام فى جمادى الاولى من
سيف الدين كوندك الساقى	عام ٦٧٦هـ/ اكتوبر ١٢٧٧م جمادى الثانى ٦٧٦هـ/ نوفمبر ١٢٧٧م - -
عز الدين ابك الافرم	ربيع آخر ٦٧٨هـ/ اغسطس ١٢٧٩م ربيع آخر ٦٧٨هـ/ اغسطس ١٢٧٩م -
حسام الدين طرنطاي	رمضان ٦٧٨هـ/يناير ١٢٨٠م رمضان ٦٧٨هـ/يناير ١٢٨٠م -
بدر الدين بيدرا	ذو القعدة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م ذو القعدة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م -
زين الدين كتبغا	رجب ٦٩٣هـ/ مايو ١٢٩٣م رجب ٦٩٣هـ/ مايو ١٢٩٣م -
حسام الدين لاجين	محرم ٦٩٤هـ/ ديسمبر ١٢٩٤م محرم ٦٩٤هـ/ ديسمبر ١٢٩٤م -
شمس الدين قراسنقر	صفر ٦٩٦هـ/ نوفمبر ١٢٩٦م صفر ٦٩٦هـ/ نوفمبر ١٢٩٦م -
سيف الدين منكوتر الحسامى	ذو القعدة ٦٩٦هـ/ اغسطس ١٢٩٦م ذو القعدة ٦٩٦هـ/ اغسطس ١٢٩٦م -
سيف الدين سلاز المنصورى	جمادى الاولى ٦٩٨هـ/ فيبر اير ١٢٩٨م جمادى الاولى ٦٩٨هـ/ فيبر اير ١٢٩٨م -
بكتمر الجوكندار المنصورى	شوال ٧٠٩هـ/ مارس ١٣٠٩م شوال ٧٠٩هـ/ مارس ١٣٠٩م -
بيبرس الدوادار المنصورى	جمادى الاولى ٧١١هـ/ سبتمبر ١٣١١م جمادى الاولى ٧١١هـ/ سبتمبر ١٣١١م -
ارغون الدوادار الناصرى	ربيع آخر ٧١٢هـ/ اغسطس ١٣١٢م جمادى الاولى ٧١٢هـ/ سبتمبر ١٣١٢م -
طقزدمر الناصرى	صفر ٧٢٧هـ/ ديسمبر ١٣٢٦م المحرم ٧٤٢هـ/ يوليه ١٣٤١م -
سيف الدين قوصون الساقى	صفر ٧٤٢هـ/ يوليه ١٣٤١م صفر ٧٤٢هـ/ يوليه ١٣٤١م -
طشتمر حمص أخضر	شوال ٧٤٢هـ/ مارس ١٣٤٢م شوال ٧٤٢هـ/ مارس ١٣٤٢م -
شمس الدين اقسنقر السلارى	ذو الحجة ٧٤٢هـ/ مايو ١٣٤٢م محرم ٧٤٣هـ/ يونه ١٣٤٢م - محرم ٧٤٤هـ/ مايو ١٣٤٢م

فترة توليه النيابة

- محرم ٥٧٤٤هـ/ مايو ١٣٤٣م -
- ربيع آخر ٧٤٦هـ/ اغسطس ١٣٤٥م
- رمضان ٧٤٦هـ/ ديسمبر ١٣٤٥م -
- شوال ٧٤٨هـ/ يناير ١٣٤٨م
- شوال ٧٤٨هـ/ يناير ١٣٤٨م -
- ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م -
- ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م -
- رجب ٧٥٢هـ/ اغسطس ١٣٥١م
- رجب ٧٥٢هـ/ اغسطس ١٣٥١م -
- ١٣٥٢هـ/ ١٣٥٢م
- ١٣٥٢هـ/ ١٣٥٢م -
- ١٣٥٤هـ/ ١٣٥٥م
- ١٣٦٠هـ/ ١٣٦٢م -
- ١٣٦٢هـ/ ١٣٦٤م
- ١٣٦٧هـ/ ١٣٦٩م -
- ١٣٦٩هـ/ ١٣٧١م
- ١٣٦٩هـ/ ١٣٧١م -
- ١٣٧٢هـ/ ١٣٧٤م
- ١٣٧٢هـ/ ١٣٧٤م -
- ١٣٧٤هـ/ ١٣٧٥م
- شوال ٧٧٥هـ/ مارس ١٣٧٤م -
- ذو الحجة ٧٧٦هـ/ مايو ١٣٧٥م
- ربيع أول ٧٧٧هـ/ يولييه ١٣٧٥م -
- رمضان ٧٧٨هـ/ يناير ١٣٧٧م
- وتولى فترة اخرى من :-
- ذى القعدة ٧٧٨هـ/ مارس ١٣٧٧م -
- صفر ٧٧٩هـ/ يولييه ١٣٧٧م -

اسم النائب

- سيف الدين الحاج آل ملك
- سيف الدين ارقطاي الققفجى
- بيبغاروس الناصرى
- بيبغا ططر حارس الطير
- سيف الدين ارغون
- سيف الدين قبلاى الناصرى
- قشمرين عبدالله المنصورى
- علاء الدين على الماردبنى
- طشتمر العلائى
- ايدمر الدوادار
- سيف الدين منجك
- اقتمرين عبدالله الصاحبى

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

(أ) المخطوطات :

- الخالدي ، المقدم الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا
مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .
- النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ١٣٣٣هـ/١٣٣٣م)
نهاية الارب فى فنون الادب .
- مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (معارف عامة)
ج ٢٨ ميكروفيلم برقم ٤٢٧١٥ ، ٤٣٣٣١ .
- ج ٢٩ ميكروفيلم برقم ١٧٩٢٤ .
- ج ٣٠ ميكروفيلم برقم ٧٠٢٥ ، ٤٣٠٣٥ ، ٤٢٧١٠ .
- ج ٣١ ميكروفيلم برقم ١٧٩٢٣ .

(ب) المصادر المطبوعة :

- ابن ابي اسير ، محمد بن احمد (ت ١٠٢٣هـ/١٠٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
الجزء الاول القسم الاول والثانى تحقيق محمد مصطفى ،
فسبادن ١٩٧٥ ، القاهرة ١٩٨٣ م .
- ابن ابيك الدوادارى ، ابو بكر بن عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ
(١٣٣٥ م)
كنز الدرر وجامع الغرر .
الجزء التاسع : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر .
تحقيق هانس روبرت رديمر ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ابن تغرى بردى ، جمال الدين ابوالمحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
الاجزاء ٦-١٢ طبعة دار الكتب بدون تاريخ .
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى .
ج ١ ، ٢ تحقيق محمد محمد امين القاهرة ١٩٨٤-١٩٨٥ م .

- ج ٣ ، تحقيق نبيل عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٦ م .
- - ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٥٧٧٩ هـ /
(١٣٧٧ م)
- تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنه .
الاجزاء ١ - ٣ تحقيق محمد محمد امين . القاهرة
١٩٧٦ - ١٩٨٦ م .
- - ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين احمد بن على (ت ٨٥٢ هـ /
(١٤٤٨ م)
- الدرر الكامنة في اعيان المائة الشامنة .
تحقيق محمد سيد جاد الحق .
خمسة اجزاء - القاهرة ١٩٦٦ م .
- - ابن عبد الظاهر ، محى الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ /
(١٢٩٢ م)
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر .
تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ م
- تشرىف الايام والعمور في سيرة الملك المنصور قلاوون ،
(٦٧٨ - ٦٨٩ هـ)
- تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ م .
- - ابن العماد الحنبلى ، ابو الفلاح عبد الحى بن احمد بن
محمد (ت ١٠٨٩ هـ /١٦٧٨ م)
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب
الاجزاء ٥ ، ٦ القاهرة ١٣٥١ هـ .
- - ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم المصرى (ت ٨٠٧ هـ /١٤٠٤ م)
تارىخ ابن الفرات .
- مجلد ٧ تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢ م .
- مجلد ٨ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت
١٩٣٩ م .
- مجلد ٩ ، ج ١ ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٦ م .

- مجلد ٩ ، ج ٢ ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين
بيروت ١٩٣٨ م .
- ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين احمد بن يحيى
(ت ٥٧٤٩/١٣٤٨ م)
- - التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ .
 - - مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
 - - ممالك مصر والشام والحجاز واليمن .
 - - تحقيق امن فواء سيد ، القاهرة ١٩٨٥ م .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٥٧٧٤/١٣٧٣ م)
البداءة والنهاية .
- الاجزاء ١٣ - ١٤ ، بيروت ١٩٦٦ م .
- ابن واصل ، محمد بن سالم ، جمال الدين (ت ٦٩٧/١٢٩٨ م)
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب .
- الجزء الثالث تحقيق جمال الدين الشيال ، الاسكندرية
١٩٦٠ م .
- الاجزاء ٤ ، ٥ تحقيق حسنين ربيع القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧ .
- بيبيرس الدوادار ، الامير ركن الدين بن عبدالله المنصورى
(ت ٥٧٢٥/١٣٢٤ م)
- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة .
 - الجزء التاسع ، تحقيق زبيدة عطا ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- الذهبى ، محمد بن احمد (ت ٥٧٤٨/١٣٤٧ م)
العبر فى خبر من غير .
- الجزء الخامس ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٦ م .
- السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن على (ت ٧٧١/١٣٧٠ م)
معبد النعم ومبيد النقم .
- حققه وضطه وعلق عليه : محمد على النجار ، ابو زيد
شلى ، محمد ابو العيون ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- الشجاعى ، شمس الدين (ت)

- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واولاده .
(٧٣٧ - ٧٤٥هـ / ١٣٣٧ - ١٣٤٥ م)
- تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م
- الشوكانى ، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
جزءان ، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م
- القلقشندى ، ابوالعباس احمد بن على بن احمد (ت ٨٢١هـ /
١٤١٨م)
- صبح الاعشى فى صناعة الانشا .
١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢ - ١٩٢٢م
- الكتبى ، محمد بن شاکر (ت ٥٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)
- عيون التواريخ
ج ٢١ (٦٧١ - ٦٨٧ هـ)
- تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، العراق ١٩٨٤م
- المفضل بن ابى الفضائل Patrologia Orientalis
Vol. XII, XIV, Paris, 1920
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعدتاريخ ابن العميد .
منشور فى
- المقرئى ، تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك .
الجزءان الاول والثانى : تحقيق محمد مصطفى زيادة ،
القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨م
- الجزءان الثالث والرابع : تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة
١٩٧٠م
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاشار
جزءان ، بيروت ، مصر عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م
- اليافعى ، ابو محمد بن عبد الله بن سعد (ت ٥٧٦٨هـ / ١٢٦٦م)
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من
حوادث الزمان . الجزء الرابع بيروت ١٣٣٩هـ .

- اليونىنى ، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٥٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)

ذيل مرآة الزمان .

المجلد الثالث (٦٧١هـ - ٦٧٧هـ)

حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

ثانيا : المراجع :

- حسن الباشا، الفنون الاسلامية والوظائف على الاشارة الاسلامية

الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٦م .

- سعيد عاشور، الايوبيون والمماليك فى مصر والشام

القاهرة ١٩٧٠م

- الظاهر بيبرس

القاهرة ١٩٦٣م

- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك

القاهرة ١٩٦٢م

- العصر المماليكى فى مصر والشام

القاهرة ١٩٦٥م

- عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم

فى مصر

الجزء الثانى ١٩٦٧م

- على ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية

القاهرة ١٩٦٧م

- "نظم الحكم فى دولة المماليك الاولى (٦٤٨ - ٧٨٤هـ /

١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، دكتوراة غير منشورة .

جامعة القاهرة ١٩٤٢م

- محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس فى مصر

القاهرة ١٩٦٠م

- دولة بنى قلاوون فى مصر

القاهرة د . ت .

- محمد محمد امين، الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر

٦٤٨ - ٥٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

دراسة تاريخية وثائقية

القاهرة ١٩٨٠ م

- "السلطان الملك المالح نجم الدين ايوب

١٢٤٠ - ١٢٤٩ م"

ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٨ م

- منشور بمنح اقطاع من عصر السلطان الغورى

مقال بالمجلة التاريخية المصرية

(م ٢٨ ، ٢٩) لعامى (١٩٨٢/١٩٨١) ص ٣ - ٤٠ .

- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى

الادسى

الجزء الاول ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٤٧ م .

* * * *

الحملة الفرنسية والتمغيرات
التاريخية والحضارية
د. وجيه عتيق
كلية الآداب - جامعة القاهرة

منذ بداية القرن التاسع عشر اكتشف المجتمع المصري تخلفه الكبير عن ركاب المدنية ، ومنذ ذلك الوقت يدور البحث في تحديد أسباب هذا التخلف وفي كيفية اللحاق بما أحرزته الشعوب الأوروبية على اختلاف أجناسها من امتلاك ناصية التقدم . ومن خلال الرغبة الملحة في تطوير المجتمع المصري اكتشفت صفوته ان هناك علاقة وثيقة بين تحديث المجتمع وتحديد الهوية القومية ، وأن تلك العلاقة هي أهم سمات العصر الحديث . فمسألة تحديد الهوية القومية انما هي مرحلة مرت بها الدول الأوروبية بشكل متفاوت زمنيا منذ أواخر القرن الثاني عشر كأساس للانطلاق في النهضة الشاملة . أما مصر فقد عاشت هذه المرحلة فقط منذ مجيء الحملة الفرنسية .

وليس هناك خلاف على أن مسألة الهوية القومية للمجتمع المصري منذ دخول الاسلام حتى بداية القرن التاسع عشر كانت غير مطروحة للنقاش ، حيث كان هناك شعور عام بسيادة هوية اسلامية قائمة على اعتبارات دينية . ولكن الذي حدث خلال القرن التاسع عشر كنتيجة للتمغيرات التي أحدثتها الحملة الفرنسية أنه ظهرت الرغبة من جانب صفوة المجتمع في الوصول الى طرح جديد لهوية مصرية تقوم في الأساس على اعتبارات وطنية .

ولذا فنحن نذهب من منطلق ان الهوية القومية المصرية التي تبلورت مع بداية القرن العشرين في الفكرة المصرية انما هي افراز لواقع معين عايشه المجتمع المصري مدمجاً ،

الحملة الفرنسية اليه ، وفي نفس الوقت نتاج مرحلة تلمس الخصائص المشتركة لابناء هذا المجتمع . وهذه المرحلة بدأتها الحملة الفرنسية - التي هي محل دراستنا الآن - استمرت طوال القرن التاسع عشر حتى امكن الى حد ما استيضاح هذه الملامح المشتركة لابناء المجتمع المصري .

* * *

يكاد يكون هناك شبه اجماع بين المؤرخين على أن الحملة الفرنسية على مصر ، والتي وصلتها في ٢ يوليوية ١٧٩٨م ، قد لعبت دورا بعيد الاثر والعمق في تطوير المجتمع المصري ، وهذا الدور يوءه لها لكي تصبح واحدة من تلك الحوادث التاريخية الفاصلة في تاريخ المجتمعات .

ونحن كذلك نعتبر أن الحملة الفرنسية من الناحية الفكرية لعبت الدور الاول في اضعاف سمات العصور الحديثة على الشخصية المصرية ، كما أنها وبالرغم من قصر المدة الزمنية التي قضتها في مصر - ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريبا - تعد الاساس الذي قامت عليه العديد من الاحداث التاريخية التي شهدتها مصر الحديثة . وهنا تأتي أهمية الدراسة . . . ونحن هنا لا نهدف الى التأريخ للحملة الفرنسية في مصر بقدر ما نهدف الى تحليل المتغيرات التي احدثتها والبحث عن البذور التي زرعتها في نفوس الشعب المصري لتكون بعد ذلك جذور الفكرة المصرية .

فحتى ينمو الشعور بالهوية المصرية المشتركة بين ابناء المجتمع المصري كان لابد من احداث العديسد من المتغيرات التي قد عايشها المجتمع خلال فترة الدراسة . في بعض الاحيان في ضوء سياسة محددة ، وفي احيان اخرى خارج نطاقها ، وتلك المتغيرات بشتى أشكالها كانت بمثابة تمهيد للتربة المصرية لتقبل مرحلة حضارية جديدة

بدأتها الحملة الفرنسية ، وتلك المرحلة هي ما يطلق عليها النهضة المصرية الحديثة .

* * *

من الناحية السياسية يعد تغير نظرة المصريين لمفهوم السلطة اول المتغيرات التي أحدثتها الحملة الفرنسية في المجتمع المصري . فالحكم كان منذ ابعاد المصريين عنه فترات طويلة يقوم عليه الاجنبي وحده ، ولذا في الغالب ترسخ في ذهن المصري ان شخص الاجنبي هو الجدير دون المصريين بأن يمارس السلطة ، وأن المصري ما عليه الا ان يمسول الحكم بحاجته من الضرائب . وبالرغم من اعتراض المصريين في بعض الفترات على اسلوب الحاكم في ممارسة السلطة ، فان الثقة لم تتوفر في أي من تلك الفترات لديهم بالشكل الذي يسمح لهم بالاقدام على طلب ممارسة السلطة . وظل انعدام ثقة المصري في القدرة على مباشرة السلطة الكاملة ملحوظا حتى جاءت الحملة الفرنسية وأحدثت تغييرا جذريا في علاقة المصريين بالجهاز الحاكم . ولعل هذا ما حسدى بالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي أن يصور أثر مجيء الفرنسيين الى مصر بأنه " انعكاس المطبوع " (١) .

وإذا كان لا يخفى علينا أهداف سياسة نابليون الاستعمارية في استمالة الزعامات الشعبية حتى يتمكن من الاستقرار في مصر ، وأنه لم يسمح للزعامات المصرية طوال فترة وجود الحملة الفرنسية بممارسة السلطة الكاملة ، فان اتباع قادة الحملة لسياسة التقارب مع الزعامات المصرية كانت كفيلا بتغيير نظرة المصريين الى السلطة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم . فالسلطة الاستشارية التي

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والاختيار ج ٢ ، دار الجيل ، بيروت بدون تاريخ ، ص ١٧٩ .

عرضها نابليون على علماء ومشايخ مصر في منشوره الاول كانت مبادرة لم يتوقعها هؤلاء العلماء والمشايخ، ولذلك لم يسعوا اليها بعد انهيار مقاومة الممالك ، بل أن القوة المنتصرة (الفرنسية) هي التي سعت اليهم بها ، وهذا هو الجدد في الامر . فنشر قرار نابليون على الزعماء والمشايخ كان أحد مقاصده أن يبعث في نفوسهم الثقة تجاه الجهاز الحاكم بخصوص توزيع السلطات ، فيذكر المنشور :

"من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر من الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها" (٢) .

وقد نادر نابليون بنشر هذا المنشور في نفس يوم احتلاله للاسكندرية في يوم ٢٧ يونيو ١٧٩٨ .

فبسرعة خاطفة وجد المصريون انفسهم وجها لوجه أمام القوات الفرنسية بعد فرار الممالك جنوبا وشرقا . وكان مطلب المصريين الوحيد من خلال زعمائهم بعد فشل المقاومة الشعبية في الرسالة التي بعثوا بها الى نابليون هو مطلب الامان لسكان مصر ، فاذ بهم يتلقون مذكرة تفصيلية لقراره السابق بكيفية اشراك العلماء والمشايخ في السلطة . حيث أوضح ذلك المنشور الشاى في ٢٢ يولييه :

"ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الامر" (٣)
وعلى الجانب الآخر كان مطلب نابليون أيضا بعد ان وجد أمامه الزعامات الشعبية في المواجهة أن يستقر في القاهرة دون مخاطر ، حتى يتمكن من السير في تنفيذ

(٢) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

(٣) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

أهداف الحملة . أى انه وبالرغم من قيادته لحملة عسكرية ذات قوة ضاربة بمقياس ذلك الوقت يطلب أيضا الامان لقواته على أرض مصر . ولذا تقدم قائد الحملة بعرضه للزعامات الشعبية بالاشتراك فى تدبير أمور البلاد . كما يعكس هذا رويته لصور التعاون بين الجانبين فى مباشرة السلطة ، تحقيقا لمطلب الامان للطرفين .

تبادل الطرفان المصرى والفرنسى الضمانات الاولية لتوفير سبل الامان ، فذهب عن الجانب المصرى وفدا بزعامة الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى لمقابلة نابليون فى الجيزة ، وفى هذه المقابلة التى تخللها العشاء طلب نابليون من الوفد أن يكتبوا الى المشايخ الكبار الفارين خارج القاهرة بالحضور للاشتراك فى الديوان ، وطلب الوفد من نابليون أن يحرر عهدا بالامان حتى يطمئن الناس^(٤) . وهنا نجحت خطة نابليون فى الدخول الى القاهرة فى امان ودون أن يواجه بعض من المعوقات التى واجهها عند دخول الاسكندرية . فعاد بعض كبار المشايخ الفارين الى القاهرة مرة أخرى مثل الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وغيرهم من المشايخ ، ودخل الفرنسيون المدينة منذ ٢٤ يولية ١٧٩٨ "ومشوا فى الاسواق من غير سلاح ولا تعديل ، صاروا يضحكون الناس ويشتررون ما يحتاجون له باغلى شمن"^(٥) دون القيام بنهب أو سلب عند دخول الاسواق أو البيوت .

وبهذه الخطة اجتذب نابليون قلوب المصريين التى السلطة ، ولم تعد مصدرا للسلب والنهب والظلم ، فقد لاحظ المصريون أنها يمكن أن تصبح محل تفاهم وتعاون يقوم على أساس المصلحة المشتركة وليست لمصلحة الحاكم وحده . وأصدر نابليون فى ٢٥ يوليه أى فى اليوم الثانى لدخوله القاهرة

(٤) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .
(٥) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

أمره لتألف ديوان القاهرة ثم في ٢٧ يولييه لتأليف
دواوين الاقاليم .

ونلاحظ على هذه المرحلة المتقدمة من دواوين الحملة
الفرنسية الآتى :

١ - أن هذه الدواوين قد ضمت العلماء والمشايخ من
بين المصريين الاصليين ، وأنها تعد أول تجمع سياسى
للوطنيين المصريين لممارسة السلطة الاستشارية أو المعاونة
وأول تجمع على مستوى السلطة لا يضم من بين النواب غير
المصريين .

٢ - أن هذه الدواوين قد تم تشكيلها على أساس
مصدر سياسى هام من مصادر تشكيل السلطة وهذا المصدر هو
نظام التشاور ، فلم تعتمد الحملة الفرنسية على مصدر
القوة العسكرية عند تشكيل ديوان القاهرة او غيره من
الدواوين . حيث تم فى اجتماع عام للمشايخ والوجاقلبة
بحضور نابليون التشاور فيما بينهم حول أشخاص أعضاء
ديوان القاهرة حتى تم الاتفاق حول أسماء الاشخاص العشرة
الذين تكون منهم الديوان (٦) . ويذكر الرافعى أن عسده
الطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهذا فى
الحقيقة تشابه فى محله (٧) .

٣ - قام الديوان فور تشكيله بمباشرة سلطة مدنية
كبيرة عند اختيار رجال الادارة فى القاهرة فقاموا باختيار
أغا الشرطة وأغا المالية وغيرهم من بين بيوت المماليك
القديمه المشهود لهم بالامانة والكفاءة وعدم الظلم ،
بالرغم من تعجب الفرنسيين لاختيار أعضاء الديوان لممثل
عولا المماليك فى هذه المناصب . وكانت وجهة نظر أعضاء

(٦) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .
(٧) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، دار
المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٩٨ .

الديوان أن "سوقة مصر" لا يهبون الا هولاء الاتراك (٨) .

ويعكس اختيار العلماء والمشايخ من أعضاء الديوان لمماليك في هذه المناصب حقيقة الاعتقاد السائد في ذلك الوقت من أن المصري غير موهل لممارسة السلطة بشكل عام والسلطة التنفيذية منها بوجه خاص ، فهذا الشكل من أشكال السلطة يجب أن يتولى أمرها غير المصريين ، وعند ذلك سوف تصبح السلطة عمليا محل خوف ورهبة في نفوس من تسوله نفسه للخروج عن النظام ، في حين أنه اذا تولى أمرها مصرى فلن تلقى الاحترام الكافي عند أهل مصر بشكل عام . ولذا كان اختيار أشخاص الادارات من بين بيوت المماليك القديمة . وهذا يوءكد أن الاحتلال الاجنبى طويل الامد لمصر ، وشغله الدائم لمراكز السلطة ، قد رسخ الاعتقاد عند المصريين بأن السلطة والسياسة انما هي امور ليس للمصرى قبل بها ، بل أنها اولا واخيرا مسئولية الحاكم الاجنبى . ومن الملاحظ أن مثل هذا الاعتقاد قد ظل ثابتا في الازهان حتى ساعدت الحملة الفرنسية على تفتيت اركانه ، وأعدت الى المصريين شقتهم في التعامل مع السلطة .

وقد ضرب نابليون مثلا فذا في أسلوب ممارسة السلطة أمام أعين المصريين وذلك عند اجتماع المجلس العلمى المصرى لاختيار الرئيس فى أولى جلساته فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، حيث قرر أعضاء المجلس تعيين المسيو مونج Monge العالم الرياضى رئيسا للمجمع ، وأن يكون نابليون - لقائد لجيش الشرق - نائبا للرئيس (٩) . وهذا الموقف من جانب نابليون ، الذى يوءكد تفضيل أهل الخبرة والشخصى عند شغل المناصب لابد وأنه كان محل تأمل عن جانب

(٨) الرجيرتى ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩) علام :الدين المبتسائى ، صحف نابليون فى مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١
لاثيركاد ايجيريسين "دار الحرب للمبتسائى" القايرة ١٩٢١ ، ص ١٦

أعضاء الديوان من المصريين ، وتعلموا مبدأ جديداً من مبادئ الحكم هو مبدأ توزيع السلطات ، وعدم تركيزها في يد الحاكم ، كأحد مبادئ الحكم الحديث في ممارسة السلطة . كما اتضح لهم أن أهل العلم والفكر محل تقدير واحترام قادة الحملة الفرنسية .

ونلاحظ هنا ان العالم مونج لمنزلته وعلمه قد عينه نابليون مع برتوليه Berthollet بصفة " قوميسيرين" في الديوان العام الذي تألف من ٢٥ نائبا عن القاهرة ومختلف أقاليم مصر حتى يستفيد أعضاء الديوان العام من أسلوبهم المتطور في مَبَاشرة السلطة . وفي رسالة واضحة من نابليون الى العالمين بين لهم فيها الغرض من تأليف الديوان بشكل عام في مصر . يقول نابليون في رسالته " ان الغرض من عقد " الديوان العام" هو تعويد الاعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم فقولوا لهم انى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آراءهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية" (١٠) .

ومن الجدير بالاشارة أن الحملة الفرنسية كونها طلائع الثورة الفرنسية وممثلة لمبادئ تلك الثورة في الشرق ، كانت ترى أن هناك قدرا من المسئولية الحضارية يقع على عاتقها خلال وجودها في مصر . وهذا يفسر لنا رغبة نابليون الحماسية في تعويد الاعيان المصريين على نظم الحكم الحديثة منذ مجيئه الى مصر .

وكان مبدأ الانتخاب أحد المبادئ التي روعى تطبيقها من قبل قيادة الحملة عند تأليف الديوان العام ، وقد أصدر نابليون قراره في ٤ سبتمبر بتكوين ديوانا عاما يحل محل النظام السابق للدواوين ، ويشمل النظام الجديد (١٠) الرافعى ، الحركة القومية ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

نواب القاهرة والاقاليم معا . وهي خطوة الى الامام فسي
تطور نظم الحكم روعى فيها توحيد الديوان فى شكل مجلس
موحد يمكن خلاله معالجة المشاكل فى اطار عام دون الفصل
بين القاهرة والاقاليم . وفى ٦ أكتوبر عقد الديوان العام
أولى جلساته لانتخاب الرئيس . وأعتقد أعضاء الديوان أن
الانتخاب يمكن ان يتم بالتصويت العلنى لانتخاب رئيس
المجلس فارتفعت الاصوات تطالب بالشيخ الشرقاوى رئيسا ،
الا أن الجانب الفرنسى وخاصة العالم مونج المراقب لهذا
الاجتماع طلب أن يكون الانتخاب بالاقتراع السرى "فعملوا
قرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوى" (١١) .

ويفهم من وصف الجبرتى لهذه الجلسة أنه كان هناك
تنافس على رئاسة الديوان بين الاعضاء . فمما لا شك فيه
أن الاقتراع السرى كان هو الحل الذى يكفل وحدة المجلس ،
والمخرج لعدم فضح اتجاهات أعضائه ، بالتالى عدم انقسامه
عند ممارسة نشاطه العملى . وهذا يفسر تمسك الجانب
الفرنسى بسرية انتخاب الرئيس ففاز الشيخ الشرقاوى
بأغلبية أصوات الاعضاء . من ناحية أخرى فان هذا الاقتراع
السرى يؤكد أيضا لاعضاء الديوان العام عدم تدخل السلطة
فى اختيار رئيس الديوان ، وأن هذا الاختيار انما تم وفق
مشيئة الأغلبية الاعضاء دون ضغط من قبل الفرنسيين .

بعد ثورة القاهرة الاولى التى اشتعلت فى ٢١ أكتوبر
١٧٩٨ لاسباب دينية واجتماعية بالدرجة الاولى ، كان من
المتوقع أن يلجأ نابليون الى الغاء كافة الاجراءات
السياسية الرامية الى تحديث نظم الحكم فى مصر وتنظيم
العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ومن تلك الاجراءات انشاء
الديوان العام . ولكن فاجأ نابليون المصريين مرة أخرى

بقرار اعادة العمل بالديوان بعد أن تعطل بسبب الثورة لمدة شهرين . بل ان قرار اعادة الديوان قد خطا خطوة الى الامام فى تطوير نظم الحكم ، حيث نص اعلان نابليون الى اهالى القاهرة الذى صدر فى ٢٦ ديسمبر فى سنده الاول على أن سنأ فى القاهرة ديوانا كبيرا ويسميه الجبرتى "الديوان العمومى" وكون من ٦٠ عضوا من العلماء ومشايخ الحرف فى مصر . ثم نص البند الثانى على أن ينتخب أعضاء الديوان الكبير من بينهم ديوانا صغيرا "الديوان الخصوصى" أو "الديوان الديمومى" مؤلف من ١٤ شخصا (١٢) .

أوجد اعلان نابليون ديوانين مختلفين فى طريقة التأليف والوظيفة غير متشابهان فى الوظيفة . فقد قام قادة الحملة بتعيين ٦٠ عضوا فى الديوان الكبير دون اجراء انتخاب بين المصريين لاختيار هؤلاء الاعضاء ، ويعد هذا الاجراء أحد ردود الفعل ازاء قيام الثورة . فمما لا شك فيه أن تعيين الفرنسيين لهؤلاء الاعضاء ثد تم فى ضوء مواقفهم أثناء الاحداث التى شهدتها القاهرة . كما ان الديوان كانت له وظيفة محددة وهى انتخاب أعضاء الديوان الصغير خلال ثلاثة أيام لا يعود بعدها الى الاجتماع الا بدعوة غير عادية .

أما الديوان الصغير فانه تألف بطريقة الاقتصراع وبالاعلبية المطلقة ، وأن يصدق القائد العام على نتيجة هذا الانتخاب كاجراء وقائى حتى يتألف هذا الديوان من العناصر المتعاونة مع السلطة الفرنسية ، أما وظيفة الديوان الصغير فهى الاجتماع يوميا للاضطلاع بكافة الاعمال الخاصة بتحقيق العدل ورفاهية الاهالى ومصالح الجمهورية الفرنسية (١٣) .

(١٢) البستانى ، صف نابليون "كورييه دى لجييت" ص ٨٣ ، ٨٤ ،
(١٣) البستانى ، "كورييه دى لجييت" ص ٨٤ .

ومن الملاحظ أن رد فعل السلطة الفرنسية الغاضب تجاه اشعال الثورة قد انعكس على اجراء تأليف الديوان الكبير والتصديق على انتخاب الديوان الصغير ، وهى تعد فى ذلك الوقت من الاجراءات الشكلية . فلم ينسحب رد الفعل الى الغاء المبدأ من الاساس أو صرف النظر عن الهدف منه ، بل اقتصر على تعديل طريقة الوصول الى الهدف وهو اقامة جسور الثقة بين الزعامات الشعبية وبين السلطة وتعويد بعض الزعامات الشعبية على تولى درجات من السلطة . وهذا ما نجح فيه قرار اعادة الديوان بعد الثورة بشكله الاخير ، حيث ارتفع قدر الثقة عند المصريين فى نوايا السلطة الفرنسية تجاه أسلوب الحكم من ناحية وفى مقدرة الزعامات الشعبية على مباشرة العمل السياسى من ناحية ثانية .

وتأكيدا لدور أعضاء الديوان الصغير (الخصوصى) فى توجيه الاحداث فقد نشروا بيانا على الاهالى فى ٢٨ يناير ١٧٩٩ للحض على الهدوء والسكينة ، وابلاغهم بالعفو الشامل الذى أصدره نابليون عن شارك فى الثورة ، وطالب البيان كل "من كانت له حاجة فليات الى الديوان العام بقلب سليم" (١٤) .

وتأكيدا للمهمة الحضارية التى اضطلعت بها القوات الفرنسية فى الخارج كممثل لمبادئ الثورة فى ذلك الوقت، التزم خلفاء نابليون فى مصر بنظام الديوان الموءلسف من العلماء والمشايخ المصريين . وكان الديوان الكبير والصغير قد الغى عندما بدأ الفرنسيون فى الاستعداد للرحيل بعد توقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . الا أنه بالرغم من فشل تنفيذ بنود هذه المعاهدة وقيام ثورة القاهرة الثانية ومقتل كليبر ، فقد أعاد منو تأليف

(١٥)

الديوان مرة أخرى من تسعة أعضاء برئاسة الشيخ الشقراوى .
وكان هذا الديوان اخر دواوين الحملة الفرنسية .

* * *

من الناحية الاقتصادية فان الاهتمام بالتجارة وما
شرب على هذا الاهتمام من نتائج بعدة المدى يعد المتغير
الثانى الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى .
وفى الحقيقة لم يقتصر اختلاف نشأة الفكر القومى
الحديث فى مصر عنه فى أوروبا على الفارق الزمنى ، بل
هناك فارقا آخر وهو الفارق الطبقي ، يعود الى اختلاف
تكوين الطبقة الوسطى فى مصر عنه فى أوروبا . ففى الوقت
الذى تحملت فيه الطبقة الوسطى (البورجوازية) بصفة
عامة والشريحة التجارية القوية فيها بصفة خاصة عبء
ازكاء الروح القومية فى البلدان الاوبة ، نجد أن هذه
الطبقة فى مصر عند مجئ الحملة الفرنسية عليها اما انها
كانت هشة التكوين وتقوم اساسا على طوائف الحرف من سكان
المدن الكبرى ، أو أنها لا تتكون فى معظمها من المصريين
الاصليين ، أو أنها تفتقد لوجود الشريحة التجارية القوية ،
صاحبة رأس المال الذى يساند الفكر القومى ، واذا اعتبرنا
تجاوزا أن هناك طبقة وسطى فى مصر مع بداية القرن التاسع
عشر تتكون من سكان المدن ، فان الشريحة المثقفة (العلماء
والمشايع) كانت أقوى شرائح هذه الطبقة ، وأن هذه الشريحة
المثقفة هى التى تلقفت بذور الفكرة المصرية . ويعتد
افتقار الطبقة الوسطى للشريحة التجارية القوية أحد
نقاط ضعف الفكر القومى المصرى الحديث وأدت الى تحجيم
الفكرة المصرية وحصرها داخل شريحة مصرية ضيقة خلال القرن

التاسع عشر ، ولذا لم تجد هذه الشريحة المثقفة الدعسم
المادى الكافى الذى ترتكز علمه فى نشر الفكرة المصرية
بين باقى أبناء المجتمع المصرى .

ولقد حاولت الحملة الفرنسية خلال فترة وجودها لفست
نظر المصريين الى أهمية مركز مصر التجارى ، كذلك حاولت
انعاش التجارة الداخلية والخارجية لمصر ، كذلك اتخذت
العديد من الاجراءات التى ترمى الى تقوية الشريحة التجارية
المصرية . فالحملة الفرنسية التى هى من نتاج الشسورة
الفرنسية (البورجوازية) كانت تضع الاعتبار التجارى نص
أهم أهدافها . واذا كان لا يغيب عنا فشل الحملة فى ايجاد
الطقة المصرية الوسطى المنشودة بسبب استمرار حالسة
الحرب خلال فترة وجودها ، فانها اصابت قدرا من النجاح
فى مهمتها فى ضوء ساستها التجارية فى مصر .

أوضح منشور نابليون بتاريخ ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ الى
جنوده مهمة الحملة الفرنسية على مصر ، مخاطبا اياهم
بقوله " انكم ستخوضون غمار حملة لها اثار لا تحصى فى
حضارة العالم وتجارته ولا تنقضى أيام معدودات على
نزولنا الى البر حتى نمحق المماليك الذين يناصرون التجارة
الانجليزية" (١٦) .

ونلاحظ على المنشور الآتى :

١ - ان هذا المنشور الذى صدر قبل وصول الحملة الى
الاسكندرية ، جاء فى توقيت زمنى يعكس أهمية تحديد الاهداف
قبل بدء المهمة أمام الجنود ، كما يعكس أولوية الهدف
التجارى بين الاهداف .

٢ - ان التنافس التجارى بين فرنسا وانجلترا يقتضى

القضاء على سيطرة المماليك على التجارة فى مصر ، وان
سيطرة فرنسا على التجارة العالمية سوف يتم حسمها على
أرض مصر .

كما أشار منشور نابليون الاول الموجه الى المصريين
الى أسباب انهيار تجارتهم بقوله " وسابقا كان فى الاراضى
المصرية المدن العظيمة والذلجان الواسعة والمتجسس
المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك (١٧)

وبذلك تكتمل عناصر خطة الحملة الفرنسية من الناحية
التجارية . فقد تم تحديد الغاية . وتحديد الارض التى
سوف تشهد تحقيق الغاية . تم تحديد الوسيلة أو الطريق
الذى سوف تتبعه الحملة للوصول الى تلك الغاية التى يمكن
اجمالها فى احياء التجارة المصرية ، لخدمة المصالح
الفرنسية التجارية .

وكانت مصر بالرغم من اكتشاف طريق الرجاء الصالح
ما زالت تعتبر محط أنظار الدول التجارية ، وخاصة تلك
التى تعتبر قوة النشاط التجارى هو المدخل الطبيعى
لتحقيق النفوذ الدولى ، وفى مقدمة تلك الدول انجلترا
وفرنسا . كما أن أهمية مركز مصر الجغرافى للتجارة
الدولية كان قد بدأ شد انتباه الساسة الاوربيين منذ
أن طرحت فى أوروبا فكرة توصيل مياه البحر المتوسط بالبحر
الاحمر . وهذا يفسر لنا تخوف انجلترا على مستقبل مصالحها
التجارية العالمية ، ومن ثم اصرارها على اخراج الفرنسيين
من مصر . كما يفسر لنا اختيار فرنسا لمصر على وجه
الخصوص دون بلدان الشرق كهدف للحملة الفرنسية .

نشرت صحيفة "كورييه دى لييجيت" الصادرة فى مصر
على عهد الحملة فى عددها الرابع رسالة عشر عليها بعد

(١٧) الجيرتى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

بعد تحطم سفينة حربية بريطانية بالقرب من مالطة وموجه الى احد أعضاء مجلس العموم البريطانى ، تكشف عن أهمية موارد مصر الاقتصادية فى أعين البريطانيين . وتذكر الرسالة التى كتبت بعد وصول الحملة الفرنسية الى مصر بوقعت قليل : " أما غزو مصر . . فلا يمكن لاي مواطن بريطانى أن يتأمله ويتأمل نتائجه الوخيمة دون أن يتحرك الدم فى عروقه . ماذا ؟ هل تصح هذه البقعة من العالم ملكا للفرنسيين . هذه البلاد وجيرانها التى تغذى الامبراطورية العثمانية بأثرها والكتان الذى يمون أساطلها ، يسيطر عليها أعداؤنا الذين سيمتلكون وحدهم من السكر وغيره من المواد اكثر مما يوجد منها فى جميع جزرنا ، وقد أصبح البن والمطاط وتجارة الجزيرة العربية والبحر الاحمر بأكملها ملكا خاصا للفرنسيين" (١٨) .

وكما استرعى جيش الشرق انتباه أوروبا بأثرهها ، وكانت الحملة حديث الناس هناك ، الامر الذى جعل أغلب الصحف الاوربية يوميا ولمدة ثلاثة شهور تتابع بشغف اخبار الحملة فى مصر التى "سوف تكون أغنى مركز للتجارة فى العالم ، وأنه اذا ما ظفرت بإدارة ثابتة ومنظمة بدلا من الحكم الظالم للمماليك المغتصبين فانها سوف تصل الى أعلى درجات الازدهار والرخاء . واذا تمكنت فرنسا من اسعاد الشعب فستفتح لنفسها ينابيع لا تنضب من الكنوز والاموال" على حد ما جاء فى صحيفة "كورييه دى ليجيت" (١٩)!

وتتضح لنا مما ذكرته "كورييه دى ليجيت" الطلقة القوية بين سياسة انعاش الحالة الاقتصادية للشعب وسياسة تأمين المصالح الفرنسية ، فقيادة الحملة الفرنسية يرون فى اسعاد الشعب المصرى مكاسا لا تحصى لفرنسا ، وهذا ما

(١٨) البستاني ، "كورييه دى ليجيت" ، ص ٧ .

(١٩) البستاني "كورييه دى ليجيت" ، ص ٥٤ .

أرادت الصحيفة اظهاره للفرنسيين بصفة عامة ولجنود الحملة بصفة خاصة . واذا كان لا يخفى علينا الجانب الدعائى ل صحيفة " كوربيه دى لجيتت " ، حيث أنها كانت جريسة سياسية موجبة لاعضاء الحملة وليس للمصريين ، فان ذلك أيضا يعنى ان الهدف الدعائى للصحيفة لم يستهدف التفرير بالمصريين . بل يستهدف توجيه جنود الحملة لاهمية اسعاد الشعب المصرى فى تنمية الموارد الاقتصادية . ومن الجدير بالتنويه ان الصحيفة الاخرى للحملة وهى "لادىكان ايجيسين" كانت اكثر تخصصا فى الجوانب العلمية والاقتصادية حيث صدرت لنشر أبحاث المجمع العلمى المصرى ومناقشات أعضائه وخاصة تلك التى تدور حول موارد مصر الاقتصادية . وتلك كانت السمة الغالبة لنشاط علماء المجمع .

وقامت الحملة فى مصر باجراء بعض الاصلاحات الاساسية التى تعتبر مطلب أساسى لنجاح عملية انعاش التجارة المصرية واصدار بعض القوانين التى تنظم المعاملات التجارية . وفى منتصف سبتمبر ١٧٩٨ أصدر نابليون قراره بانشاء مكتب تسجيل وتوثيق فى كل عاصمة من أقاليم مصر ، يكون مهمته تسجيل مختلف عقود البيع ونقل الملكية والمبادلات التجارية والهيئات الادارية من قبل الادارة مقابل رسوم محددة . وبذلك تعد الحملة أول من قام بعملية انشاء مصلحة تسجيل وتوثيق المعاملات .

وبارغم من أن هذا القرار قد أشاع قدرا من التذمر بين أهالى مصر لانه بضع نظاما جديدا عليهم لاثبات الملكية بالتسجيل والتوثيق ، كما اعتبروه وسيلة من وسائل السلطة لزيادة مواردها المالية ، ومن هنا قل تجاوزهم مع هذه الاصلاحات عن القدر المطلوب ، فان هذا القرار بعد خطوة أساسية لاستقرار المعاملات التجارية ، وإشاعة الثقة فى هذه المعاملات باكسابها القوة القانونية . كما أن وجود

مثل هذه الاجراءات اليوم يمنع التعدى والسطو على أملاك الغير او الاملاك العامة . وتلك كانت أهداف القرار السذى أصدره نابليون حيث ذكر أن الادارة لن تعترف بالممتلكات الخاصة سواء الشابتة منها أو المنقولة التى لا يكون لها سند ملكية مسجل ، وأن الممتلكات الأخرى التى ليس لها سند ملكية سوف تعد ممتلكات عامة ويطلق عليها (ممتلكات أهلية) ، وطالب القرار أهالى مصر الذين لم يكن لديهم عقود ملكية سرعة التقدم الى هذه المكاتب لاثبات ملكيتهم وبالتالي الحصول على عقود موثقة (٢٠) .

ومن هذه الاجراءات أيضا تشكيل لجان هندسية لترقيم منازل القاهرة ، بوضع رقم على كل منزل ، وانشاء المحاكم التجارية فى القاهرة وغيرها من المدن التجارية للفصل فى المنازعات التى تنشأ بين التجار . وكان مقدرًا لهذه الاجراءات أن تحقق الأمل المرجو منها لولا أن قام ثورة القاهرة الأولى قد أعاقت خطة تنفيذها .

كما أمر بونابرت بانشاء دار للضيافة فى القاهرة يأوى اليها التجار الذين تظفروهم تجارتهم الى البقاء فى المدينة أو أولئك المسافرين عبرها ، وكان الغرض من انشاء دار الضيافة هو تقديم الخدمات الصحية وغيرها الى التجار حتى تتمكن القاهرة من أن تجنى أقصى فائدة من مركزها الوسيط بين شعوب الشمال وشعوب أواسط أفريقيا بالإضافة الى وقوعها على طرق المواصلات الهامة بين أوروبا وآسيا (٢١) .

كذلك عازمت الحملة على تنفيذ بعض مشروعات الملاحسة النهرية والبحرية . وكانت ترعة الرحماننة تجف أغلب فصول السنة ولا تملها مياه النيل الا مدة الفيضان ، فارتكبت

(٢٠) البستانى ، "كوربيه دى ليجيت" ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢١) البستانى ، "كوربيه دى ليجيت" ، ص ٦٤ .

قادة الحملة اجراء بعض الاصلاحات التى تجعل المياه تجرى فى التربة طوال العام وبكمية تسمح للسفن الملاحة فيها بصفة مستمرة "ويكون فى ذلك ميزات قيمة بالنسبة للتجارة فى الاسكندرية والقاهرة واقليم البحيرة" (٢٢) . وقد كانت التجارة قد انتعشت فى الاسكندرية عندما أمكن تسيير السفن لمدة شهر كامل ، ومن هنا فلنا أن نتصور تقدم التجارة فى حالة تسيير السفن طوال العام كما كانت تهدف الحملة .

ويعد مشروع شق قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر لخدمة الملاحة البحرية من أهم أهداف الحملة فى مصر ، وقد أجريت دراسات عديدة حول طرق انشاء هذه القناة وكان التصور المحتمل أن يعاد شق هذه القناة من السويس الى الاسكندرية عبر نهر النيل . ولهذا الهدف شكلت لجنة من كبار مهندسى الحملة برئاسة المهندس ليبيير Lepere لتتقضى اثر القناة القديمة التى كانت تصل قديما (خليج أمير المؤمنين) بين القاهرة والسويس . وقد قامت اللجنة منذ منتصف يناير ١٧٩٩ بدراسات أولية ناجحة ، كذلك أجرت هذه اللجنة دراسات حول احتمالية شق قناة مباشرة من البحر المتوسط الى البحر الاحمر عبر البحيرات المرة (وهى قناة السويس التى نفذت بعد ذلك عام ١٨٦٩) وفى المشروع الذى نشره نابليون بمناسبة سفره الى الشام أفصح الى أهالى مصر عن أهم أهداف الحملة وهو تسيير الملاحة البحرية أمام التجارة ، حيث جاء فى المنشور بخصوص سفر نابليون الى الشام "ومراداه رفع الظلم عن كامل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل الى جسر السويس لتخفيف أجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز الأفخم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليها أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق" (٢٣) .

(٢٢) البسناني ، "كورييه دي ليجييت" ص ٥٥ .

(٢٣) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

وهناك دلالة اخرى تعكس اهتمام الحملة بالتجارة فى مصر وهى تأليف الديوان الكبير من أعضاء يعمل معظمهم بمختلف أنواع النشاط التجارى ، وهذا يعنى أن التجارة لها الاولوية عند تطوير نظم الحكم وتشكيل السلطة ، وترجوا الحملة ان يقوم التجار الاعضاء وهم الاغلبية بجانب العلماء ومشايخ الازهر برعاية النشاط التجارى وأن ينشط الديوان فى حماية المصالح التجارية .

عملت الحملة أيضا على استتباب الامن على الطرق حتى تتمكن القوافل التجارية من الانتقال والسفر من مكان الى مكان دون أن تتعرض للاغارة والنهب خلال الرحلات . وقد بعث نابليون برسالة الى شريف مكة فى الحجاز يطلب فيها طمئنة جميع التجار فى انحاء الجزيرة العربية بأن التجارة فى مصر أصبحت منذ مجيء الحملة فى مامن ممن يحاولون النيل منها . وجاء رد الشريف على رسالة نابليون يعكس تخوف تجار الحجاز ، لما كانت التجارة تلقاه فى عهد المماليك يقول الشريف فى رده " أما فيما يختص بما ذكرتموه عن تشجيع تجارة البن فاعلموا ان تجار الحجاز ما زالوا يخشون من مشاكسات المماليك لهم . واذا رغبتم فى تنمية هذه التجارة ينبغى عليكم أن تتخذوا بعض تدابير من شأنها ادخال الطمأنينة الى قلوبهم ، ومصارحتهم بالرسوم التى ستطلبونها منهم على كميات البن أو غير ذلك فسوف ترونها يهرعون اليكم جموعا وفرادى ، والا فسيمنعهم خوفهم من المشاغبات والمشاكسات عن الحضور الى مصر" (٢٤) .

وكان عدم استتباب الامن على الطرق من المشاكسات الرئيسية التى تهدد تجارة مصر الداخلية والخارجية بعدم الازدهار . وفى تقرير كتبه المسيو "جيرار" أحد أعضاء

الحملة بعد عودته الى فرنسا ، وصف حالة التجارة الداخلية في ظل انشغال الممالك عن نشر الأمن على طرق التجارة المصرية بقوله "كان يمكن لنشاط التجارة الداخلية في مصر أن يتضاعف لو أن مختلف طرق المواطلات كانت آمنة وكان استخدامها ممكنا من مكان لآخر" (٢٥) . كما حدد التقرير تحديدا دقيقا حل أزمة التجارة المصرية آنذاك عندما أضاف "ان اقامة نظام أفضل للأمور لتأمين الطرق لن يساهم فقط في ازدهار التجارة الداخلية ، وانما سوف يساهم أيضا بتسهيل تموين موانئ مصر بمنتجات البلاد ، في اتساع نطاق تجارتها الخارجية" (٢٦) . وتلك كانت السياسة التي ترمى اليها الحملة الفرنسية في مصر .

ولم تقتصر الرغبة في انعاش التجارة على تأمين الطرق وفتحها أمام تجارة البن أو قوافل دارفور وسنار وفزان وغيرها من القوافل التجارية التي كانت ترد في بعض الاحيان محملة بالبضائع الداخلية من أفريقيا والتي يباع كميات منها الى أوروبا ، بل أن الامر كان يتطلب أيضا ازالة أسباب الشكوى شبه دائمة من جانب التجار الاجانب لما لاقونه من عنت وظلم من جانب المماليك . وتتمثل هذه المظالم في حصول المماليك على سلع لا يسدد ثمنها على الاطلاق ، أو في اقتراض أموال لا يبالون بردها . كما كان يزعج بهؤلاء التجار في بعض الاحيان في السجنون لارغامهم على شراء حريتهم بدفع مبلغ من المال يتفاوت مقداره للخروج من السجن . وقد أدى هذا المسلك من جانب المماليك تجاه التجار الفرنسيين على سبيل المثال الى عودة القنصل الفرنسي في مصر المسيو "ماجالون" M. Magallon الى فرنسا وقطع الملات التجارية بين فرنسا ومصر قبل مجيء الحملة (٢٧) .

(٢٥) زهير الشايب ، وصف مصر ج ٤ ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٨ ،

ص ٢٣٤ .

(٢٦) الشايب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

(٢٧) الشايب ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .

وإذا كانت سياسة الحملة التجارية بشقيها الداخلى والخارجى فى مصر لم تؤت ثمارها سريعا بسبب دخول الحملة نفسها مرحلة عدم الاستقرار منذ سفر نابليون وما ترتب على ذلك من عدم تتابع الاجراءات التجارية بنفس قوة الدفع التى كانت قد بدأت بها الحملة عهدها ، الا ان نتائج هذه السياسة ظهرت فى مرحلة لاحقة بدأها محمد على بالسير فى نفس السياسة التجارية ، كما أدت الى نمو الطبقة الوسطى التى قد لفت نظرها الى أهمية موقع بلادهم الجغرافى وغناء مواردها .

* * *

كان المتغير الاجتماعى الذى أحدثته الحملة الفرنسية - كراسى جسر للمدينة الاوربية الحديثة - هو المتغير الثالث الذى بعد انقلابا فى العلاقات الاجتماعية بكل المقاييس فى مجتمع شديد المحافظة مثل المجتمع المصرى . أسفر هذا المتغير عن نتائج سريعة فى صورة اكتساب روية جديدة للعلاقة الرجل بالمرأة ، وتقليد مسلك الفرنسيين فى بعض الاحيان ، وادخال عادات مستحدثة . كما كان له نتائج أخرى بعيدة المدى تتلخص فى انفتاح اجتماعى ، من جانب الصفوة المصرية بصفة خاصة ، على انماط الحياة الاوربية .

ومن منطلق ان التغيير الاجتماعى ضرورة اولسة لانجاح التحول الفكرى فى المجتمعات فقد بذل قادة الحملة الفرنسية فى مصر جهدا ملموسا من أجل اكساب سكان القاهرة على وجه الخصوص عادات وقيم اجتماعية جديدة ، وقد برز هذا الهدف بوضوح فى مشروع انشاء حديقة على الطريقة الفرنسية فى ميدان الازبكية تكون وسيلة "لجلب سكان المدينة ونسائها للاختلاط بمجتمعنا واقتباس من عاداتنا واذواقنا الفرنسية" (٢٨)

وكان من الطبيعي أن يكون التغيير الاجتماعى فى القاهرة محل عناية الفرنسيين فهى مركز السلطة وسكانها أكثر قبولا للتغيير شأن سكان المدن الكبرى ، كما أن القاهرة فى الغالب مصدر إشعاع فكرى وتأثير فى باقى أقاليم مصر . ولذا فإن تغيير العلاقات الاجتماعية من علاقات تمييز بالانغلاق التام وتقوم أساسا على دور الرجل الى علاقات أكثر مرونة وأكثر استجابة لفكرة المساواة كان لابد وأن تتأثر بها باقى أقاليم مصر من خلال القاهرة ، فالمجتمع المصرى بصفة عامة كان شديد الحساسية والرفض للمؤثرات الاجنبية ، ومدينة القاهرة تكون فى العادة أقل مناطق الرفض بالرغم من وجود قطاع من السكان يخشى من عواقب التغيير الاجتماعى . ولعل الصعوبة الرئيسية التى تواجه قضية التغيير الاجتماعى فى المجتمع المصرى تكمن فى صعوبة ايجاد السبيل الذى يمكن من خلاله توطيد قيم وسلوكيات وعادات تعين المجتمع على اجتياز مرحلة التخلف وتحقيق النهضة ، دون أن يوءدى ذلك السبيل الى الاخذ بما لدى المجتمعات المتقدمة من علاقات اجتماعية تخالف الثورات الاجتماعى للمجتمع المصرى .

ولعل هذه الصعوبة هى التى وقفت أمام المؤرخ عبد الرحمن الجبرى حائلا فى فهم سلوك الفرنسيين الاجتماعى وتشبه بعض المصريين بهم فى القاهرة ، وقد أدى ذلك الى تناقض موقف المؤرخ الجبرى تجاه الفرنسيين ، ففي الوقت الذى يعجب بدقة نظامهم ومهارتهم العلمية عندما زار المجمع العلمى الفرنسى بالقاهرة ، نجده يستهجن خروج نسائهم الى شوارع القاهرة بصورة تخالف تقاليد المجتمع المصرى واختلاطهم بالمصريين . ويصف الجبرى ما أصاب مجتمع النساء فى القاهرة من خروج "غالبهن عن الحشمة

والحياء" (٢٩) بعد أن شاهدوا خروج بعض الفرنسيين من الضباط والجنود مع نساءهم الى الشوارع " وهن حاسرات الوجه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشمير والمذركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقنها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش فتداخلن معهم " (٣٠) ومن وجهة نظر الجبرتي بحكم انتمائه الى مجتمع شديد الحساسية لكل ما يخالف تراثه فان كل من استجاب للمؤثرات الفرنسية هم من حرافيش العامة وأهل الهوى الاسافل من سكان القاهرة .

وبغض النظر عن وصف الجبرتي للشريحة الاجتماعية التي تأثرت بالفرنسيين فهناك العديد من الشواهد التي أوردها الجبرتي نفسه التي نستشف منها أن التأثر بالفرنسيين والاختلاط بهم كان أعمق من ذلك بكثير ، الامر السذي أدى الى تكرار حادث زواج النساء المسلمات من بنات أعيان القاهرة من ضباط وجنود الحملة الفرنسية وسلك النساء المسلمات بعد الزواج من الفرنسيين نفس مسلك الفرنسيات وتزينوا بزيبهم ومشوا مع أزواجهن حكام الاخطاط للنظر في أمور الرعية والاحكام العادية والامر والنهي. (٣١) كما كانت حالات ارتباط بعض الرجال المصريين من غير المصريين قديمة ومتكررة ، وهذا يؤكد عدم سطحية اختلاط المصريين بالاجانب من الفرنسيين وغيرهم ، ويذكر لنا الجبرتي في ترجمته عن الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالجوهري وهو من علماء الازهر أنه تزوج بأبنة الخواجة الكريمية - السذي لا نعرف على وجه التحديد جنسيته - وسكن بدارها المجاورة

٣٠ الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

٣١ الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

لسين والده . (٣٢)

ولابد وأن خروج المرأة المصرية فى القاهرة للمشاركة فى الاعياد أثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر سواء الاعياد المصرية مثل وفاء النيل أو ذكرى تأسيس الجمهورية الفرنسية وما صاحب هذه المشاركة من التعرف على العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع الفرنسى والاعجاب بها ، قد أدى الى تطلع النساء المصريات الى شكل أفضل من أشكال التعامل معها من جانب زوجها المصرى . كما أن الحرية التى كانت تتمتع بها النساء الفرنسيات أصبحت أملا يراود العديد من النساء المصريات فى القاهرة وبعض مدن مصر . وقد انعكس ذلك فى تولد نوع من الرغبة فى محاكاة السلوك الفرنسى فى الغناء وترديد العدييد من ألفاظ لغتهم من جانب بعض المصريات (٣٣) . كما انعكس ذلك أيضا فى تمرد نساء مدينة رشيد على قرار عمدة المدينة بحظر حضور النساء للاحتفال الذى يقام بمناسبة استطلاع هلال شهر رمضان ، فقد دافعت نساء رشيد بشدة عن حق حضور هذا الاحتفال العام وكتبن الى الجنرال مينو الذى كان موجودا فى رشيد يتظلمن من هذا القرار . وازاء هذا الموقف عقد مجلس لبحث هذا التظلم ضم أعيان المدينة والعمدة والجنرال مينو وبحضور مندوبات عن نساء المدينة وتقرر فى هذا الاجتماع الغاء قرار الحظر (٣٤) .

ولم يتوقف أمر التقليد والمحاكاة على الجانب الاجتماعى بل نلمسه أيضا فى التشبه بالفرنسيين فى الجانب الحرسى . فعندما قام المعلم يعقوب القبطى باذن من

(٣٢) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٣٣) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٣٤) البستاني ، "كورييه دى ليجيت" ، ص ١٣٢ .

الفرنسيين بتكوين فرقة عسكرية من شان القبط واستقر بهم في القاهرة منذ منتصف عام ١٨٠٠" خلق لحاهم وزياهم بزي متشابه لعسكر الفرنساوية . . . ورتب على باب القلعة (التي بناها في حارة النصارى في القاهرة) الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية" (٣٥) .

يذكر لنا العلامة ابن خلدون في مقدمته " ان المغلوب مولع أبدا بالاعتداء بالغالب . . . والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لقلب طبيعي انما هو لكمال الغالب ، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به" (٣٦) .

وإذا كنا نسلم صحة مقولة ابن خلدون في عموميتها وانطباقها الى حد كبير على المجتمع المصري في مراحل زمنية محددة أخذ خلالها الانقياد للجانب الغالب في بعض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فاننا اذا حققنا هذه المقولة بشيء من الایجاز لا نستطيع قبولها قولا مطلقا . فهناك العديد من المجتمعات المغلوبة ترفض باصرار الانقياد للغالب ، وفي فترات تاريخية عديدة وقف المجتمع المصري هذا الموقف . وهناك مجتمعات تأثر في الغالب بقدر تأثير الغالب فيها ، ولذا فالاعتداء انما هي عملية نسبية الى حد كبير . وفي المرحلة التاريخية التي هي محل الدراسة قدر للمجتمع المصري أن يكون المغلوب والمولع بالاعتداء .

(٣٥) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .
(٣٦) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب السناني ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٦٢ .

يصف المسير جيرار أحد علماء الحملة الفرنسية فى تقرير له كتبه بعد عودته الى فرنسا عن أثر الحملة الاجتماعية بقوله " ان الحضارة سوف تنفذ الى الشرق ... لقد جعلت حملتنا على مصر سكان هذه البلاد أتلفون مع عادات تختلف عن عاداتهم ولقد وسع ذلك من أفق أفكارهم وأضعف من سطوة خرافاتهم عليهم" (٣٧) .

ولقد أصاب العالم جيرار كبد الحقيقة فى تحليله لآثر الحملة الاجتماعية فى مصر .

كما ساهمت الحملة الفرنسية من خلال الجهد الذى بذل فى القضاء على سلطة الممالك أثناء وجودها فى مصر فى سرعة القضاء على مركزهم السياسى والاجتماعى بعد خروجها من مصر . وتعد هذه المساهمة واحدة من اهم اشكال التغيير الاجتماعى الذى شهده المجتمع المصرى فى أوائل القرن التاسع عشر . وفى ضوء المواجهة التى وقعت بين المماليك والفرنسيين والنتيجة التى أسفرت عنها تلك المواجهة تبين لاهل مصر عدم جدية أمراء الممالك فى الدفاع عن البلاد . فى الوقت الذى كانت تجرى فيه الاستعدادات فى امبابنة لمنع الفرنسيين من الوصول للقاهرة أخذ أمراء الممالك فى الانصراف الى ثرواتهم وامتعتهم وتركوا أمر الحرب والدفاع عن القاهرة وانشغلوا بأمر نقل ثرواتهم من قصورهم الى أماكن مجهولة فى القاهرة وخارجها استعدادا للفرار (٣٨) .

كشفت هذا المسلك حجم المماليك الحقيقى امام الشعب وايقن أهل القاهرة أن هزيمتهم واقعة لا محالة ، وكان ذلك فى حد ذاته كفى لى بان يزيل هيبتهم فى نفوس الشعب كما كان يضعف من قدرهم الاجتماعى كشريحة مميزة ومنفصلة عن باقى أهل مصر .

(٣٧) الشايب ، وصف مصر ، ج ٤ ، ص ٣٦١ .

(٣٨) الجبرى ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

وعندما حلت هزيمة امسابة (الاهرام) بالمماليك
فَعَلَا تركوا الشعب وحده في مواجهة الفرنسيين ، وأسرع
مراد بك تاركاً ساحة المعركة وحمل ثروته وهرب بها الى
الصعيد ، وكذلك فعل باقى الامراء المماليك حيث فر
ابراهيم بك في اتجاه الشام بعد أن جمع ثروته استعداداً
لهذا الفرار . وبدلاً من أن يقاوم المماليك الفرنسيين
عند دخول القاهرة شاهد أهل مصر عملية قرار جماعى مهين
للمماليك من المواجهة أمام الفرنسيين ، وكيف أنهم
تركوا القاهرة مفتوحة لتلقى مصيرها المحتوم أمام
الفرنسيين .

ومن الموءكد أن موقف المماليك هذا قد أصاب أهل
القاهرة بخيبة أمل كبرى فى القوة العسكرية الوحيدة فى
البلاد . فالمماليك بالرغم من أنهم عاملوا المصريين
دائماً معاملة سيئة ، الا أنهم كانوا يتمتعون بقدر من
ثقة المصريين فيهم كقوة عسكرية تتحمل عبء الدفاع عن
مصر . ولكن سرعان ما افتقد المماليك هذا القدر الضئيل
من الثقة فى أول مواجهة لهم أمام الفرنسيين ، وقد
وصف الجبرتي أحوالهم فى معركة امسابة بما يلى :
"متنافرة قلوبهم منحلّة عزائمهم مختلفة آراءهم حريصون
على حياتهم وتنعمهم ورفاهتهم" (٣٩) .

وتجمعت عوامل الغضب والحنق على هذا الموقف
للمماليك من جانب الشعب ، فكان رد أهل القاهرة على
هذا هو أنهم نهبوا وأحرقوا قصور أمراء المماليك كما
يذكر لنا الجبرتي (٤٠) .

ومما زاد من ثورة المصريين على المماليك هو انهم
فى المراحل الاولى للمواجهة مع الفرنسيين قد ساندوا

(٣٩) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٤٠) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

قوة المماليك بما اتيح لهم من وسائل المساندة ، فمن منطلق الشعور الاسلامى العام قدم الشعب لهم بصفتهم مسلمين الدعم المتاح لمقاومة القوات الفرنسية غير المسلمة . فالمشاركة العسكرية فى الدفاع عن مصر لم تكن متاحة للمصريين ، فتلذ كانت مهمة المماليك الاساسية . ولكنهم شاركوا بالدعم المادى والمعنوى المطلوب لنصرة المماليك على الفرنسيين ، فعلى سبيل المثال يقدم لنا الجيرتسى صورة من صور هذا الدعم بمناسبة توجه مراد بك لملاقاة الفرنسيين بقوله : "وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالازهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الاحمدية والرفاعية والبراهميية والقادرية والسعدية وغيرهم من ارباب الاشاير ويعملون لهم مجالس بالازهر وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسماء" (٤١) .

منذ هزيمة المماليك امام الفرنسيين اخذ مركزهم الاجتماعى فى الانهيار . واذا كانت هذه الهزيمة هى السبب الاول فى القضاء على هذا المركز المميز كسلطة حاكمة ، فان منشورات نابليون الموجهة للمصريين وما احتوته هذه المنشورات حول المماليك يعد السبب الثانى فى انهيار هذا المركز .

وجه نابليون حديثه على سبيل المثال فى منشوره الاول للمصريين قائلا : " اننى ما قدمت اليكم الا لاخلصم حكم من يد الظالمين . . . ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب فمادام يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يملكوا مصر

(٤١) الجيرتسى ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤٢) الجيرتسى ، ج ٢ ، من ص ١٨٢ الى ١٨٤ .

وهدم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها" وبعد أن يناقش
ساليون الحجج الواهية للمالك للانفراد بالسيطرة على
مصر ختم منشوره بقوله "لعن الله المماليك وأملح حال
الامة المصرية" (٤٢) وبهذا المنشور ذكرنايليون المصريين
بانفصال المماليك عن باقى المجتمع المصرى وعدم جدوى
تميزهم عنهم . الامر الذى لعب دوره فى تطوع المصريين
لزوال المماليك . وينعكس هذا التطوع عند الجيرتى فى
ترجمته لمراد بك بمناسبة وفاته عام ١٨٠١ بقوله "فلعل
الهم يزول بزواله" (٤٣) .

* * *

بعد الاهتمام بالآثار المصرية القديمة نقطة تحول
هامة كان للحملة الفرنسية الغل الاوّل فيها فى اطار
المتغير الثقافى والفكرى الرابع الذى احدثته فى تاريخ
مصر الحديث .

فمنذ انهيار اخر الدول المصرية القديمة ووقوع أول
احتلال أجنبى طويل الامد لمصر ، انزوى الشعب المصرى
والمتمصر مع تعاقب أشكال الاحتلال الاجنبى القديم لمصر
داخل الدائرة التى رسمت له وانقطعت صلته التاريخية
بحضارته القديمة ، ولم يبق لهذا الشعب من ماضيه العريق
الا ثلاثة أشياء : أولها الآثار المنتشرة فى كل مكان من
أرض مصر تشير الى الشموخ الحضارى للانسان المصرى القديم
وتحدث المصرى فى كل زمان عن عظمة الاجداد . وثانئهما
اللفة التى ظلت بقايا من مفرداتها تتردد على اللسان
المصرى . وثالثهما تمييز الشخصية التى انفرد بها المصرى
عن غيره فى العادات والتقاليد وغيرها من أنماط الحياة

اليومية وهو ما يسمى بالخصوصية .

وعندما جاء العرب الى مصر استطاعوا بشكل ملفت للنظر وبفضل تسامح الدين الاسلامى تفهم جوانب الشخصية المصرية فى كثير من الاحيان ، والاندماج مع هذه الشخصية مع مرور الزمن ، مما سهل حدوث تفاعل بين الجانبين الامر الذى جعل العرب الذين استقروا بمصر يتميزون بسمات خاصة عن غيرهم من العرب الذين استقروا فى البلاد الاسلاميـة الاخرى ، وأصبح المصرى والعربى المتمصر مشتركان فى نفس أسلوب الحياة الاجتماعـية .

كما أن اللغة العربية الوافدة على مصر والتي اصحت لغة التعبير بين المصريين ، تأثرت بالكثير من مفردات اللغة المصرية القديمة التى ما زالت تردد حتى يومنا هذا بشكل يميز اللغة العربية فى مصر بوضوح عن عربية البلاد الاخرى ، خاصة فى تركيب جمل اللهجة العامية أو فى انتشار المفردات الزراعية والمرتبطة بالارض والفلاحة ، التى هى أمور كانت جديدة على العرب ولغتهم ولذا كان تأثير اللغة المصرية القديمة أقوى . ومن الكلمات شائعة الاستعمال عن المصرية القديمة : نعنع (نعناع) جرجر (جرجير) وبرسيم وشيح وقلـة وزير ولقمة وعيش وخبـز وشونة وماجور وغربال وفاس وأردب ومكيال وسخام (الطين) ووزير وواحد واشنين علاوة على الاشهر القبطية (٤٤) .

وبالاضافة الى اللاوعى بقيمة الآثار التاريخية فان العرب المتمصرين كان لهم موقف من الآثار الفرعونية أدى الى تكريس انقطاع الصلة مع الحضارة المصرية القديمة . وكان هذا الموقف نابع من :- أولا : معاداة فرعون مصر وملنه لنبي الله موسى ، وأنه طغى وأفسد من فى الارض ،

ضال ومخادع ، الامر الذى وجب احتقاره على كل مسلم كما
بدى منبوذ عند الله فى القرآن الكريم . فقد جاء فى
قوله تعالى " فرعون وملته انهم كانوا قوما فاسقين" (القصص
٣٢) ، وحفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات تشجب مسلك
فرعون وقومه وتذرهم بالعذاب الاليم . (٤٥)

فكان اهمال وتحقير آثار هؤلاء الفراعنة شعورا دينيا
عاما ، نتجت عنه الرغبة فى تدمير وتخريب تلك الآثار
المصرية القديمة من جانب القوى الاسلامية فى مصر .

ثانيا : رفض الاسلام لكل أشكال التماثيل وعبادة الفرد
فكانت الآثار الفرعونية عند المسلمين رمز بغض لوشنية
ما قبل الاسلام ، وترادف عندهم أصنام اللات والعزة . كما
يرفض الاسلام مختلف أشكال القبور التى قد توءدى الى تقديس
الموتى وانتشار مظاهر الوشنية ، فلاقت جبانات الفراعنة
الكثير من التخريب والتدمير ، خشية ان يتمسك المصريون
بعبادة تشييد قبور الموتى بالصورة التى كان يفعلها
أجدادهم من قبل .

استمرت عملية التوافد والتمصير البشرى على ارض
مصر بجانب التجاهل والاهمال للاثار المصرية حتى مجىء
الحملة الفرنسية ، لتفتح صفحة جديدة تماما فى حياة مصر
الثقافية والفكرية . فمن وجهة نظرنا فان هذه الحملة
أعادت الاتصال الحضارى بين المصرى وحضارته القديمة ،
من خلال الجهد الذى بذله علمائها فى دراسة آثار تلك
الحضارة وما ترتب على هذه الدراسات من توالى الاكتشافات
الاثرية القيمة ، ومن خلال فك رموز اللغة المصرية القديمة
وما ترتب على ذلك من كتابة التاريخ الفرعونى . ومن

(٤٥) لمزيد من التفاصيل انظر : أحمد عبد الحميد يوسف ،
مصر فى القرآن والسنة ، سلسلة "اقرأ" ، العدد ٣٧٣ .

وجهة نظرنا أيضا ان العناية بالآثار المصرية القديمة من شتى النواحي لا معنى بأى حال العودة الى عادة الاصنام أو العودة الى تجيل الموتى الفراعنة ، وأن السحت فى تاريخ هذه الآثار الفرعونية لا يعنى تكريم فرعون منبوذ عند الله . فمن تاريخ هذه الحضارة نتعرف على العبد من الجوانب الاخرى الايجابية التى تدعوا المصريين لمزيد من الشعور بالانتماء والافتخار (٤٦) .

يعكس المنشور الموجه من نابليون الى أعضاء حملته بمناسبة الوصول الى الاسكندرية فى ٢٨ يونيه ١٧٩٨ ادراكا أوروبا مبكرا بقيمة الحضارة المصرية القديمة ، كما يوءكد قدوم كوكبة من علماء الطبيعة والادب والفنون وغيرهم مع هذه الحملة العسكرية الاهتمام البالغ بالبحث العلمى فى كشف غموض هذه الحضارة . يخاطب نابليون جنوده و ضباطه فى نهاية منشوره بقوله "وسنجد عند كل خطوة نخطوها سها آثارا مجيدة جديرة بأن تثير اعجاب الفرنسيين وغيرهم" (٤٧) . وكان نابليون لا يهدف فقط الى لفت نظر أعضاء الحملة الى القيمة الحضارية للآثار الفرعونية وحتى لا يرتكب أحد حماقة تدمير أو تخريب هذه الآثار ، بل أنه كان يرمى أيضا - كما توءكد لناالشواهد الى تنبيه المصريين الى أهمية الانتماء الى هذه الحضارة . ومن هذه الشواهد أنه بمناسبة الاحتفال بالذكرى السابعة لتأسيس الجمهورية الفرنسية وعلى مشهد من أعضاء ديوان مدينة رشيد والاهالى جرى بناء نموذج لهرم يمثل أحد أهرامات الجيزة فى الساحة التى جرى فيها الاحتفال . وهذا يعنى أن الاهرامات عند الفرنسيين جديرة بأن يشار

(٤٦) لمزيد من التفاصيل انظر: طاهر عبد الحكيم ، الشخصية الوطنية المصرية، دار الفكر ، القاهرة ١٩٨٦ .
(٤٧) الرافعى ، الحركة الوطنية ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

اليها في تلك المناسبة الهامة ، أو أن أهمية تلك المناسبة قد تقارن بأهمية الأهرام التاريخية . ولذا وأمام الحشد قام حاكم مقاطعة رشيد وحوله أعضاء الديوان من المصريين بالتوجه الى نموذج الهرم قبل البدء فى الاحتفال ورفعوا عليه العلم المثلث الاثوان للجمهورية الفرنسية (٤٨) .

وبالرغم من أننا قد نستشف من رفع العلم المثلث على الهرم اشارة خفية لانتصار الفرنسيين على أرض الحضارة (مصر) فان ذلك فى حد ذاته يعنى الاعتراف بعظمة الحضارة الفرعونية ، بل الاعتراف بتفوق هذه الحضارة على حد قول المهندس شابرول أحد مهندسى الطرق والكبارى فى الحملة بعد مشاهدته لآثار الفراعنة فى الجنوب " ان المرء يكون منها فكرة صحيحة عن تفوق القدماء علينا" (٤٩) .

وفى مجال دراسة الآثار الفرعونية شكل عام وفى الصعيد بشكل خاص ، فقد بذلت جهودا عظيمة فى كشف تلك الآثار وازاحة الغموض حول أكثرها ، حيث ألف نابليون لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة فى الصعيد ، ورسماها ودرستها . ويضيف لنا الرافعى عن نتائج أعمال اللجان "فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية" (٥٠)

أسدت الحملة وعلمائها خدمة جليلة الى الحضارة المصرية التى كانت حتى ذلك الوقت يحيطها الغموض الكامل . فقد أمكن الوصول الى فك رموز اللغة المصرية القديمة من خلال الحجر الذى سجلت عليه مقاطع من تلك اللغة ، والذى عثر عليه عام ١٧٩٩ بمدينة رشيد وعرف تاريخيا "بحجر

-
- ٤٨) البستانى ، "كورييه دى لسجيت" ، ص ٢٨ .
٤٩) البستانى ، "كورييه دى لسجيت" ، ص ١٤٩ .
٥٠) الرافعى ، الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

رشيد" نسبة الى المدينة . ومن خلال ترجمة ومقارنته
مجموع أحرف اللغات الثلاث التي احتواها الحجر بعضها
البعض - الهيروغليفية ، اللغة المصرية العامية القديمة ،
اليونانية القديمة - التي تمكن العالم الفرنسى الشهير
شامبليون عام ١٨٢٢ من مقارنتها وبالتالي فك رموز الحجر
كاملة " وكان هذا العمل هو مفتاح اللغة المصرية القديمة ،
والاساس اللازم لمعرفة تاريخ مصر القديم " (٥١) .

فى اطار جهد الحملة لاحداث تغيير ثقافى وفكرى فى
المجتمع المصرى ، فقد فتحت مكتبة المجمع العلمى المصرى
بالقاهرة أمام المصريين بغرض نشر المعارف عليهم واطلاعهم
على تطور الغرب وفرنسا بصفة خاصة ، وقد زار الجيرتسى
هذه المكتبة عدة مرات واستقبله القائمين عليها من
الفرنسيين الذى يذكر لنا عنهم " واذا حضر اليهم بعض
المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز
أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واطهار السرور مجيئه
اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا
للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له
أنواع الكتب" (٥٢) .

ومن رأنا ان هذه المكتبة بما احتوته من مراجع
وكتب فرنسية وعربية فى مختلف العلوم والفنون كان يمكن
لها فى حالة استقرار الحملة فى مصر أن تصح نواة جامعة
علمية حديثة على النسق الاوربى ، وكان النيهاء من
المصريين الشبان سوف يترددون عليها وينهلون من معارفها
ويشاركون الفرنسيين فى كشف أسرار العلم . وكانت هناك
قاعة مخصصة كمعمل ملحق بالمجمع العلمى المصرى تجرى فيه

(٥١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٥٤٨ .
(٥٢) الجيرتسى ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٤ .

التجارب الكيميائية وغيرها من التجارب العلمية سمح للمصريين بالتردد عليها ، وقد عبر الجبرتي عن دهشته لما شاهده من تجارب يقوله " لا سعبها عقول أمثالنا " وهنا يعترف الجبرتي وهو على قمة مثقفي مصر الكبار في ذلك الوقت بأنه عاجز عن فهم مثل هذه الانجازات العلمية^(٥٣) .

وفي مجال الصحافة فبجانب انشاء المطبعة الاهلية عرفت مصر المجال الصحفى والطاعة لاول مرة من خلال الحملة الفرنسية ، فقد أصدرت الحملة جريدتين باللغفة الفرنسية : الاولى هى جريدة "كورييه دى ليجيت" وتعنى بالعربية "الجوانب المصرية" وقد صدر منها ١١٨ عددا وأولها كان فى ٢٩ اغسطس ١٧٩٨ ، واخرها فى يونيه ١٨٠١ ، أى أنها توقفت عن الصدور قبيل الجلاء عن مصر بوقت قصير وكانت تصدر كل أربعة أيام فى أربعة صفحات صغيرة .

أما الثانية فهى صحيفة "لاديكادايجيسين" وتعنى بالعربية "العشرية المصرية" صدر عددها الاول فى اكتوبر ١٧٩٨ وذلك بغرض نشر أبحاث ومناقشات المجمع العلمى المصرى .

وبالرغم من عدم استقرار الاحوال أثناء وجود الحملة بمصر ، فقد كان هناك خطط لاصدار صحيفة عربية . شرع ميئو عندما تولى القيادة فى تنفيذ تلك الخطط ، حيث أصدر أمرا فى ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠ بصدور صحيفة باللغة العربية يكون الغرض منها نشر المعارف على المصريين ، واخبارهم بسياسة الحملة وتعريفهم بجميع أنواع الادارات الفرنسية وأعمالها فى مصر . وقد اختير لهذه الصحيفة العربية اسم "التنبيه" وأسندت رئاسة تحريرها الى الشيخ سـد اسماعيل الخشاب أمين محفوظات الديوان . كما كانت هناك

خطط لتوزيع هذه الصحيفة خارج مصر الى البلاد المتحدثة بالعربية عن طريق القوافل التجارية (٥٤).

الا أن خطط اصدار صحيفة "التنبيه" قد توقفت وخرجت الحملة من مصر دون أن ترى "التنبيه" النور . ولكن مما لاشك فيه أن هذه التجربة الصحفية خلال فترة وجود الحملة في مصر قد استفاد منها محمد على بعد ذلك في اصدار صحيفة "الوقائع المصرية" التي طبعت بالمطبعة الاهلية .

* * *

نتائج الدراسة :

من خلال تحليل المتغيرات التي أحدثتها الحملة الفرنسية في مصر يتضح لنا النتائج الآتية :

١ - أن تجربة الحملة الفرنسية في ممارسة السلطة خلال فترة وجودها في مصر ، بما تضمنته هذه التجربة من تقديم شكل جديد من أشكال ممارسة السلطة الى المصريين ، قد أدى الى حد كبير في المدى القريب الى استيعاب صفوة المجتمع من المشايخ والاعيان لهذه الممارسات التي تقوم على المنفعة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم ، وتغيير موقفهم تجاه السلطة من موقف اللامبالاة والشك والريبة الى موقف التجاوب والمشاركة السياسية . والدليل على ذلك على سبيل المثال ما يذكره الجبرتي في أعقاب ثورة القاهرة الثانية في وصف ذهاب المشايخ لمقابلة كليبر بقولــــه " بكروا بالذهاب الى بيت سارى عسكر ولسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيأتهم ، وطمع كل واحد منهم وطن أن سارى عسكر بقلده في هذا اليوم أجل المناصب ، أو ربما حصل التغيير

(٥٤) الستاني ، "كورييه دي لجييت" ، ص ٣٣٨ .

والتبديل في أهل الديوان ، فيكون في الديوان الخصوصي " (٥٥) .
ويعكس هذا الوصف رغبة المشايخ والاعيان الحميمة فى
الدخول للجهاز المعاون الحاكم " الديوان " الذى أنشأه
الفرنسيون .

كما صاحب تطلع المصريون للمشاركة فى السلطة وتغيير
نظرتهم لمفهومها ، تعرفهم أيضا على مفهوم جديد للوطن
بعد أن تردد على أسماعهم العديد من العبارات الوطنية
المستمدة من شعارات الثورة الفرنسية مترجمة الى العربية (٥٦) .
الامر الذى كان يعنى تأثرهم بشىء من تعاليم تلك الثورة ،
والتطلع للتخلص من الاستبداد المملوكى والتركى معاً .
وبالتالى بث فكرة اخراج مصر من دائرة الخلافة العثمانية
وهو ما كانت تهدف اليه الحملة أيضا . ونلاحظ على المنشور
الذى نشر عن لسان المشايخ فى أعقاب ثورة القاهرة الاولى
لنهى أهل مصر عن الثورة أنه احتوى بايحاء من الفرنسيين
على عبارة " لاجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم
وأديانكم " (٥٧) ، ويفهم من تلك العبارة أن الوطن هو ذلك
المكان الجغرافى المحدد الذى تشعر فيه الجماعة بالامان
وتمارس فيه حرية اقامة الشعائر الدينية .

٢ - أن جهد الحملة الفرنسية لاحداث التغيير قد اتجه
فى الدرجة الاولى الى النخبة فى المجتمع المصرى آنذاك ،
وهم العلماء ومشايخ الازهر والاعيان فى مصر . وقد التفت
نابليون الى أهمية دور هذه الصفوة فى قيادة المجتمع المصرى ،
وأبلغ مثال على ذلك النعيحة الذى تضمنتها رسالته الى
خليفته كليبر عندما قرر مغادرة مصر الى فرنسا فى ٢٢
أغسطس ١٧٩٩ ، حيث جاء فى الرسالة " أن من يكسب ثقة

(٥٥) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٥٦) انظر البستاني ، "كورييه دى لييجيت" ص ٢٤ .

(٥٧) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى". كما طلب نابليون من كليبر فى نفس الرسالة ، فى حالة استقرار الحملة ، ارسال خمسمائة أو ستمائة من أعيان المصريين الى فرنسا للإقامة بها سنة أو سنتين بهدف " أن يبروا عظمة الامة الفرنسة ويقتبسوا عادانا وأخلاقنا وأفكارنا ولفتننا ويعودوا الى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم" (٥٨)

وقد عمل كليبر بالنصيحة وبالرغم من أن علاقته بالاعيان المصريين تميزت ببعض الجفاء فإنه سار على نهج نابليون وقام بزيارة الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان فى داره ، كما أنه لكى يستميل الاعيان والتجار والمشايخ كان يقوم بدعوتهم الى منزله واقامة حفل عشاء لهم .

وهذا التركيز على الصفوة واهتمام السلطة بها وعدم الاهتمام بالعامه من أهل المدن والفلاحين يؤكد لنا أن الانشغال بالقضايا التى سيطرت على الحياة السياسية والفكرية فى مصر منذ بداية القرن التاسع عشر انشغلت بها وعبرت عنها صفوة المجتمع المصرى فقط ، وأن هذه الصفوة كانت فى الغالب أداة التعبير والتطوير .

أما "الغلبية الصامتة" من أبناء المجتمع فقد كانت لا تشارك من بعيد أو قريب فى مناقشة مثل هذه القضايا ، وانغمست فى معاناتها اليومية المعتادة . وهنا فاننا نعتبر الاهتمام بدور الصفوة وتجاهل الدور الشعبى من قبل السلطة فى احداث التعبير والتطوير بالمجتمع المصرى انما هى نقطة ضعف يعانى منها التاريخ المصرى كله تقريبا وجديرة فى حد ذاتها بالدراسة .

٣ - أن فترة وجود الحملة الفرنسية فى مصر قد شهدت عملية تمصير فى عدة اتجاهات . تمصير السلطنة

التشريعية المدنية من خلال الهيئة الحاكمة المعاونة "الديوان" . وتمصير السلطة التشريعية الدينية من خلال تغيير النظام القديم للقضاء الشرعى الذى كان يرأسه قاضى تركى ، حيث تولاه لأول مرة بالانتخاب الشيخ أحمد العريسى أحد علماء مصر ببناء على طلب نابليون بأن يكون قاضى مصر "من أهل مصر ومولودا بها ، يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية" (٥٩) .

كذلك تمصير العديد من أنماط الحياة السياسية والاجتماعية الاوربية من خلال ارساء فكرة الانتخابات ومبدأ احترام المعارضة وسيادة القانون ، فقد أبقى نابليون السيد محمد كريم حاكما للاسكندرية بالرغم من مقاومته له ، ثم قام بمحاكمته بعد ذلك بتهمة الخروج عن القانون ومراسلته للمماليك . كما أنه بالرغم من قرار السيد عمر مكرم نقيب الاشراف مع ابراهيم بك الى الشام لم يتم عزله عن رئاسة النقابة الا بعد أن رفض العودة الى مصر وعضوية الديوان . ثم عندما احتل الفرنسيون بافا أثناء حملسة سوريا ، وقع عمر مكرم فى الأسر ، عندئذ استقبله نابليون لمنزلته الكريمة ، وأمر بعودته الى مصر معززا مكرما (٦٠) كما شاهد المصريون حرص الفرنسيين على اتباع المسدأ القانونى القائل بأن زالمتهم برىء حتى تثبت ادانته " خلال محاكمة سليمان الحلبي بتهمة قتل كليبر . ثم كذلك محاولة تمصير الهرم الاجتماعى من خلال خلخلة هذا الهرم بالقضاء على سيطرة المماليك على قمته .

٤ - ان اهتمام الحملة الفرنسة بالحضارة المصرية قد عجل بالنهوض بدراسة آثار تلك الحضارة واكتشاف جوانب عظمتها مما فتح أمام أعين المصريين مجالا جديدا للانتماء

(٥٩) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٦٠) الرافعى ، الحركة الوطنية ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

الوطني ، تبلور هذا الانتماء أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في "الفكرة المصرية" ، فكانت الاكتشافات الأثرية المتتالية من أهم العوامل المساعدة لدعوة الانتساب للفرعونية .

كما انتفت شبهة الوثنية في الجانب الديني أو العنصرية في الجانب المشرى في الانتساب الى الحضارة المصرية القديمة ، وجرى التركيز على التمييز الحضارى والثقافى للشعب المصرى فى ضوء تمييز الحضارة المصرية القديمة بين حضارات العالم . وأصبح الانتماء الفرعونى لا يعنى بالضرورة أن كل المصريين ينتسبون الى أصول فرعونية بل يعنى فى الأساس الانتساب الى ثقافة خاصة تمتد جذورها الى العصر الفرعونى ومن خلال عناية الحملة الفرنسية بالآثار المصرية أخذ ينمو لدى المصريين الشعور بعظمة تلك الآثار ، وقد ظهرت بوادر هذا فى خطاب أعضاء الديوان فى نوفمبر ١٨٠٠ الموجه الى ميتر لقيامه باصلاح مقياس النيل حيث شكره بقولهم :- "نحيطكم علما أيها الجنرال السعيد أنك قد قمت بعمل شىء خاص جدا يتناسب مع عظمة قدماء المصريين ، وهو اصلاح مقياس النيل ... ان اصلاح المقياس لهو عمل لا يستطيعه الا العظماء" (٦١) .

٥ - ان أحداث الحملة الفرنسية على مصر تؤكد أن مرحلة فصل الدين عن الدولة قد بدأت منذ مجيء هذه الحملة . فقد أحدثت نوعا من الفصل بين الولاء السياسى والولاء الدينى ، وأنها فى الوقت الذى نجحت فيه فى تشكيك المصريين فى جدوى الأبقاء على الولاء السياسى للدولة العثمانية ، فان نجاحها كان محدودا اذ انتمسك المصريون بالولاء الدينى لخليفة المسلمين . فقد وضع للمصريين فشل

الدولة العثمانية فى توفير الحماية لمصر من وقوعها فى يد القوى الأوروبية ، وعدم قدرة الجيش العثمانى وحده فى اخراج الفرنسيين من مصر . ونلمس فى الشهور الاخيرة للحملة وبالتحديد فى أعقاب توقيع اتفاق العريش الذى لم ينفذ بين العثمانيين والفرنسيين أن شعورا عاما بالفرح ساد المصريين لقرب جلاء الفرنسيين وليس لعودة العثمانيين بأى حال من الاحوال ، والدليل على ذلك هو الوصف الذى يقدمه لنا الجبرتى لدخول العثمانيين القاهرة " وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم " (٦٢) .

كما كان الشعور السائد فى القاهرة بين العامة والصناع وأهل الحرف هو التخوف من عودة العثمانيين لما يصاحب عودتهم من اشتغال عسكريهم فى نفس الصناعات والحرف التى يعمل فيها أهل مصر ، وبالتالى منافستهم ومضاقتهم فى مجال النشاط الاقتصادى (٦٣) . كما يتضح لنا عدم رغبة المصريين لعودة السلطة العثمانية من خلال استجاباتهم لدعوة بليار حاكم القاهرة بعدم القيام بالثورة على الفرنسيين ، فى الوقت الذى كانت فيه الظروف مواتية تماما للقيام بثورة شالسة ضد الفرنسيين ، فالقاهرة كانت محاطة بالقوات العثمانية والانجليزية من كل جانب قبل التسليم .

وتؤكد لنا المقابلة الاولى بين أعان أهل مصر والصدر الاعظم يوسف اسحق حقيقة تخوف أهل القاهرة من عودة العثمانيين الى سوء معاملتهم للمصريين . فقد ذهب الأعيان لتحية يوسف باشا ، ولكنهم قابلوا من جانب الصدر الاعظم استقبالا مهينا وأذى مشاعرهم وأظهر لهم الأزدراء عندما

٦٢ (الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .
٦٣ (الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

رفض القيام لاستقبالهم . ويعكس هذا أيضا عزم العثمانيين على تجاهل القوى المصرية فى ادارة شئون البلاد ، وأن دور الاعيان فى معاونة السلطة قد انتهى بخروج الحملة من مصر . وفى كل هذه الشكوك والتخوفات نجد أهم دوافع مشروع المعلم يعقوب الذى تقدم به الى الفرنسيين أو مشروع محمد بك الألفى الذى تقدم به الى الانجليز للاستقلال بمصر .

* * *

المصادر والمراجع

- ١ - ابن خلدون : المقدمة ، دار الكتاب اللبناني
(بيروت ١٩٥٦)
- ٢ - أحمد عبدالحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، (سلسلة
أقرأ العدد ٣٧٣)
- ٣ - جلال يحيى : مصر الحديثة ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب (القاهرة ١٩٨٢)
- ٤ - زهير الشايب : وصف مصر ، ج ٤ ، مكتبة الخانجي
(القاهرة ١٩٧٨)
- ٥ - صلاح الدين البستاني : صحف بونايرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١
دار العرب للبستاني (القاهرة
١٩٧١)
- ٦ - طاهر عبد الحكيم : الشخصية الوطنية المصرية ، دار
الفكر (القاهرة ١٩٨٦)
- ٧ - عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم
والاخبار ، الجزء الثاني ، دار
الجيل - بيروت بدون تاريخ)
- ٨ - عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، الجزء
الاول والثاني ، دار المعارف
(القاهرة ١٩٨١)

دور القبائل الحجازية والشامية
فى الثورة العربية ١٩١٦ م
د. عبدالعليم على أبوهيكل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

العرب والدولة العثمانية

تمثل الثورة العربية التى تزعمها الشريف حسين بن على عام ١٩١٦ م ضد الاتراك قمة الصحوه العربية التى بدأت ملامحها بالظهور فى المشرق العربى خاصة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولاتزال هذه الثورة تمثل أساسها ووقائعها ونتائجها مادة خصبة لدارسى التاريخ العربى الحديث باعتبارها الحدث الذى أنتهى بقيامه ذلك الارتباط العربى بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر .

وبالرغم من محاولات الدولة العثمانية المتعددة القيام باصلاحات تمكنها من أحكام السيطرة على الولايات التابعة لها ومجابهة الضغط الغربى على مناطق سيادتها معتمدة حيناً على بعض الاتجاهات العلمانية وأحياناً أخرى على التيار الاملى كفكرة الخلافة أو الجامعة الاسلامة ، الا أن تنامى الفكر القومى الذى غمىر كيان الدولة منذ بداية القرن ١٩ نتيجة للمؤثرات الاوروبية^(١) ، ومع اتجاه الدولة أيضاً نحو مركزية قد دفع بتلك العناصر المحكومة نحو البحث عن الطريق الامثل لتحقيق هذه الكيانات شخصيتها معتمدة أما على العنصر أو الدين أو التاريخ .

وأجبت جماعة الاتحاد والترقى التى تبوأت أريكة الحكم بعد عزل السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٨ م من قوة التيار الذى يعتمد على العنصر كأنسب السبل لتقوية سلطات الدولة والتعامل من خلاله مع بقية الكيانات الاخرى . ومنهم العرب

(١) ساطع الحصرى - نشوء الفكرة القومية - ط ٤ - بيروت ١٩٥٩
- ص ص ٢٠٨ / ٢٢٥ .

الذين أزدحمت ساحتهم الفكرية أيضا بالعديد من التيارات كالتيار الوطنى الاقليمى والقومى العربى أو العثمانى الى جانب النار الاسلامى الاشد وضوحا لتحديد علاقتهم بالدولة العثمانية (٢) بصورة عامة وبصورة خاصة مع كشف تلك الجماعة القناع عن وجهها ووضوح نواياها .

ودعى أحرار العرب الى عقد مؤتمر باريس عام ١٩١٣ ناقشوا فيه الوضع العربى والموقف مع الدولة العثمانية والخطوط الاصلاحية العريضة التى يرونها مناسبة لنهضتهم وترجمت قرارات المؤتمر طموحاتهم القومية . وأعلنوا رغبتهم فى استمرار العلاقة مع الدولة اذا حافظ أولى الامر فيها على شخصيتهم العربية ، بالرغم من تجاربهم المريرة معها (٣) وبالرغم من قبول رجال الاتحاد والترقى لما أعلنه المؤتمر العربى من قرارات اصلاحية الا أنهم سرعان ما تراجعوا عن وعودهم بحجة الظروف الدولية ، بل أقدموا على تشتيت الضباط العرب الى مناطق نائية عن المنطقة العربية مما زاد من شقة الخلاف بين الطرفين وتعميق الشكوك المتبادلة بينهما .

ومع قيام الحرب العالمية الاولى وأنضمام الدولة العثمانية الى الالمان ، تردد العرب بين مؤيد للاتسراك بدافع من الحماس والارتباط الدينى ، ومعارض لهم بدافع من التيار الوطنى أو القومى مفضلا السحت عن أفضل السبل وعن طريق آخر لتحقيق الامانى العربية بالاستقلال والنهضة .

وألتقت آمال الشريف حسين بن على ونواياه مع بعض القوميين العرب فى هذا الاتجاه الثانى المعارض للانضمام

(٢) على المحافظة - الاتجاهات الفكرية عند العرب فى

عصر النهضة - بيروت - ١٩٨٣ ص ٩٥ / ١٥٦ .

(٣) المقطم - العدد ٧٢٨٨ - ١٥ يوليو ١٩١٣ .

ودخول الاتراك الحرب الى جانب الالمان . فلم يكن الحسين منذ توليه شرافة الحجاز أول نوفمبر ١٩٠٨ على وثام مع حكومة الاتحاديين فيما يتعلق بمسئوليات ونطاق سلطاته خاصة موضوع (التجنيد الاجباري) الذي لم يحز على قبول الشريف وتطبيقه بالحجاز بسبب أوضاعه الدينية والبشرية (٤) بينما رأى الاتحاديون أن الاقليم لا يعدو - بالرغم من ذلك ولاية من ولايات الدولة يطبق مايطبق على بقية الولايات ، ثم زاد من شقة الخلاف تعيين (وهيب بك) والبا على الحجاز محملا بمسئوليات تنفيذ هذه السياسة حرفيا (٥) في ذات الوقت الذي بدأت فيه الاتصالات بين الشريف والانجليز منذ أوائل عام ١٩١٢ بواسطة أبنه الامير عبدالله بالقاهرة عند توقفه بها خلال ذهابه وايابه من أستانبول لحضور مجلس الصعوشان كعضو فيه ، وأستمرت هذه الاتصالات حتى بداية عام ١٩١٤ .

أستطاع خلالها الشريف تلمس موقف يمكن الاستناد اليه فسي تقوية مركزه سياسيا وعسكريا أمام موقف الاتحاديين المتعنت ورأى الانجليز من جانبهم فيما أبداه الحسين بوادر صراع بين العرب والترک يستطيعون من خلاله تسهيل مطامحهم بالمشرق العربي (٦) .

أما القوميون العرب فقد سئموا مما أصابهم من عنست لسياسة الاتحاد والترقي بعد تخليهم نهائيا عما وعدوا به عقب مؤتمر باريس بل ساروا شوطا بعيدا بالاتجاه المضاد للعرب مع تعيين (أحمد جمال باشا) وزيرا للبحرية وقائد

(٤) سليمان موسى - الحركة العربية ١٩٠٨/١٩٢٤ ط ٢ بيروت ١٩٧٧ ص ٥٤ / ٥٦ .

(٥) تولى منصب الولاية بالحجاز خلال تولي الحسين بن علي الشرافة (١٩٠٨ / ١٩١٦) ستة من الاشخاص هم (كاظم باشا) وقد أستقال - (والفريق فؤاد باشا) وقد عزل (حازم بك) ونقل الى بيروت ثم (أحمد نسيم) و (منير باشا) و (وهيب بك) وأخيرا (غالب باشا)

أنظر - سليمان موسى - الحركة العربية - ص ٥٢/٥١ .
(٦) F. O. 371/2482, Letter from Kitchener to Grey, 14 / April, 1914

للجيش الرابع التركي سورية ، وحمل من خلال هذه القيادة مسئوليات عسكرية وسلطات ادارية مطلقة بهذا الاقليم الذى برزت أهمته الحربية مع أندلاع المعارك الحربية لاهمية خطوط المواصلات به والحصار الذى ضربه الحلفاء على سواحله والقى على عاتق جمال اشاشا مسئوليه مهاجمة القوات البريطانية على قناة السويس ، وفور مباشرته لسلطاته ، بدأ الاعداد للحملة باستدعاء الضباط العرب للاشتراك وأرسل الى الشريف حسين لاعداد مالدنيه من قوات للمساهمة ووافق على هذا الطلب ظاهريا^(٧) . عندما أستشار بالفعل قواته الغير نظاميه وسارهم الامير (على) قائد فرقة الحجاز نحو المدينة المنوره ثم توقف بهم عندها - حجة الراحة بينما واصل الجند الاتراك زحفهم باتجاه الشمال - خلال ذلك عشر على الشريف ، فأرسلها اليه ، وتضمنت بعض أوراقها مراسلات بين الوالى وحكومته بالاستانه تتعلق بكيفية القضاء على الشريف حسين وذريته وأقصاءهم عن الحجاز ووضع أسس اداريه تضمنت عدم استقلاليه هذا الاقليم عن كيان الدولة العثمانية^(٨) انحسار امكانات الشريف عند القبائل :

عند هذا الحد تأكدت شكوك الحسين آزاء سوء فهم الاتحاليين وبدأ بصوره فعلية بعد العده لتحقيق أهدافه الذاتيه المغلفه بالاطار القومى وسار فى هذا الاتجاه على محورين أساسيين: المحور الاول : الاطلاع على موقف القوميين السوريين وامكانياتهم بإرسال ابنه فيصل الى دمشق بغية دراسة هذه المواقف عن كسب .

(٧) مذكرات عبدالله ، نشر أمين أبوالشعر - عمان ١٩٦٥ ص ١١٣/ ٩٦ .

(٨) نفس المصدر ص ٧٠ / ٨٠

المحور الثاني : معاودة الاتصال ببريطانيا بصورة مكثفة حتى يمكن تحديد موقفها بصورة واضحة ومايمكن أن تقدمه للحركة العربية .

وعلى المحور الاول سافر فيصل الى دمشق في أواخر ديسمبر ١٩١٤ محملا بمهمة مزدوجة ظاهرها عرض شكوى والده الشريف على الصدر الاعظم من تصرفات وهيب باشا وماضمتيه وشائقه الخاصة . وباطنها الاتصال باعضاء وقادة الحركة العربية بدمشق . (٩)

وبعد أداء فيصل مهمته بالاستانه وحصوله على وعد بعدم عودة وهيب بك الى الحجاز حيث صدر بالفعل قرار تعيينه قائدا للجيش الثاني باستانبول - عاد الى دمشق في أواخر مايو ١٩١٥ - حينئذ كان الشعور المضاد للاتراك قد بلغ ذروته ، نتيجة لسياسة جمال باشا التعسفية التى بدأ أتباعها عقب حملته الفاشلة على قناة السويس فى فبراير ١٩١٥ - ومحاكمته لبعض قادة الشام ثم تنفيذ حكم الاعدام بأحد عشر رجلا منهم وعلى رأسهم (عبدالكريم الخليل رئيس المؤتمر العربى بباريس . (١٠) وأطلع زعماء الحركة فيصل - على ماتوصلوا اليه من اتفاق سمى (ميشاق دمشق) وضم شروط العرب لعقد اتفاق مع بريطانيا ، باعتبارها أكثر القوى الاجنبية حضورا بالمنطقة ولضمان تأييدها لمشروع الدولة العربية المستقلة والمقترحة ، وعقد معاهدة دفاعية معها ، واعطاءها حق الافضية لتنفيذ المشروعات

(٩) أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى - ط القاهرة -

ص ١٠٧ / ١١٣

(١٠) نفذ حكم الاعدام بالفعل في ٢١ أغسطس ١٩١٥ . وضمت هذه القائمة بالاضافة الى الخليل - مسلم عابدين - محمود العجم - محمود المحمصاني - صالح حيدر - نايف تلولو محمد المحمصاني ، عبدالقادر الخرسا ، ثور القاضى على الارمنازى ، سليم عبدالهادى .

الاقتمادة بتلك الدولة بعد قيامها^(١١) ووعده فصل قيادة دمشق باطلاق والده على بنود هذا الاتفاق وقد قام بذلك فعلا عقب عودته الى مكة المكرمة في منتصف شهر يونيه عام ١٩١٥ .

وفور ذلك بدأ الشريف الخطوات الفعلية لمحوره الثاني بالاستوثاق من موقف بريطانيا الذي أستأنفه بمذكرته الاولى الى هنرى مكماهون Henry McMahon في يوليسو ١٩١٥ بما أشتهر تاريخيا (مراسلات حسين / مكماهون -Corresponde- nce Between Sir H. McMahon and The Sherif of Mecca). ازداد الشريف حسين خلالها قناعة وميلا نحو القيام بالثورة ضد الاتراك خاصة بعد أن تلقى رسالة مكماهون في سبتمبر ١٩١٥ وأعدا اياه بمساندة الثورة حال قيامها^(١٢).

والتقت أهداف الشريف مع رغبة بريطانيا في استئفان العرب ضد الاتراك فقامت في هذا المدد عدد من الاجراءات منها ما أصدرته من بيانات وتصريحات تضمنت احترام انجلترا لمشاعر المسلمين ، وملتسمه من العرب عدم تقديم المساعدة (للاعداء) في ذات الوقت الذى طلعت فيه من الشريف البدء بالخطوات التنفيذية للقيام بالثورة مع ترك أمر تحديدها مكانها وزمانه ، تبعالما يراه هو .^(١٣).

ظل الشريف خلال الأشهر الاولى من عام ١٩١٦ ، على قناعة بإمكانية العرب باشتعال الثورة في آن واحد بكل من سوريه والحجاز ، بالرغم من التثشت الذى أصاب الضباط العرب بدفعهم نحو جبهات القتال ، الا أنه ظل موقنا بإمكانية قيام

(١١) جورج أنطونيوس - بيقظة العرب - ترجمة - ناصر الدين الأسد وآخر بيروت ١٩٦٦ ص ٢٣٩ / ٢٤٤ .

(١٢) Correspondence between sir H. McMahon and the Sherif Hussein of Mecca, London , 1939.

(١٣) F.O. 371/ 2486. Letter from R. Wingate to Sherif of Mecca , -19 7/1915

سكان الشام بثورة شعسة كبديل لتلك القوات على أن يساند تلك الثورة الضغط العسكري الانجليزي على سواحل الشام .

وما لست أشرىف أن تتوقعتم أماله بعيدا عن هـذا الهدف وتلك الخطط مع أعدام الدفعة الثانية من الوطنيين بالشام فى مايو ١٩١٦^(١٤) وزج جمال باشا بالكثيرين بالسجون وأبعد البعض الآخر خارج البلاد^(١٥) وأحجام بريطانيا عن انزال قواتها على سواحل الشام متعلله بالعديد من الحجج كان منها أن تنفيذ مثل هذه الخطة مرتبط ارتباطا وثقفا بالخطط الحربية مع حلفائها فى الحرب ، ولكنها فى ذلك الوقت - مايو ١٩١٦ كانت قد وصلت الى اتفاق مع فرنسا لتقسيم المنطقة العربية ، فيما عرف باتفاق (ساكس - بيكو - Sykes - Picot Agreement) عندها انحسرت امكانية الثورة عند حدود الحجاز جغرافيا وبشرىا ، بعد أن أفرغت سوريه من قيادتها الوطنية وأضحت الثورة الشعبية داخليا بعيدة المنال مع التركيز العسكري التركى بها من أجل القيام بهجوم عسكرى آخر على جبهة قناة السويس .

لم يكن لدى شريف مكة من العناصر التى تؤهله للقيام بعمليات عسكرية ، سوى ما يسيطر عليه جغرافيا وبشرىا ، والوعود البريطانية بالامداد والتموين وبالسلحاح حال قيام الثورة ، بدعوى عدم رغبتها الزج بنفسها عسكريا فى شئون داخلية

- ١٤ صدرت أحكام الاعدام على واحد وعشرين شخصا ، كان منهم عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى بباريس وعضو مجلس المبعوثان وشكرى العسلى وشفيق المؤيد ورشدى الشمعة من أعضاء المجلس أيضا والامير عمر الجزائرى ورفيق سلوم عضو جمعية العربية الفتاه وعبدالوهاب الملجى وسليم الجزائرى وأمين الحافظ وعارف الشهابى .
- ١٥ أحمد قدرى - مذكراتى عن الثورة العربية - دمشق ١٩٥٦ ص ٣٦ / ٤٣ ولايضاح موقف جمال باشا - أنظر مذكرات جمال باشا - ترجمة على أحمد شكرى .

خاصة بالحجاز لوضعه الدينى فى المشرق العربى .

وهنا كان على الحسين أن يستثمر فقط طبعة الارض وولاء القبائل ومساعداتهم ثم عامل المفاجأة الذى يؤوله لآخذ زمام المبادرة ، أمام قوات منظمة بلغ تعدادها مايقرب من ثلاثة عشر ألف رجل مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة (١٦) وموزعين بمكة المكرمة التى بلغت حاميتها مايقرب من ألف وخمسمائة رجل تحت قيادة درويش بك ومعهما مايزيد قليلا على العشرين مدفعا ، وتألقت قوة (جدة) من ألفين وخمسمائة جردى وضابط ومعهم عشر مدافع ، أما قوة (الطائف) فكانت تحت قيادة الفريق (غالباتا) الذى تولى ولاية الحجاز بعد عزل وهيب بك ، ومعهم قوة تصل الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومعهم عشر مدافع ، ثم سهّل الحط الحديدى من أستانبول الى المدينة المنورة مهمة نقل الامدادات والذخيرة الى تلك القوات (١٧) .

أما الحسين فكان قوام قواته تعتمد على مااحتسبه الطبيعة لبيئته من تضاريس جغرافية ، وأغلبية ساحقة من القبائل البدوية .

فمطقة الحجاز التى يسيطر عليها تمتد لمسافة ١٨٠٠كم من العقبة شمالا حتى جيزان جنوبا تتباين فيها التضاريس من المرتفعات الحادة كجمال (السروات) ومايتخللها من وديان الى الهضاب التى تأخذ بالانحدار التدريجى باتجاه

F. O . 371/148, Despatch from Sherif of Mecca to (١٦) Mr. storrs, oriental Secretary of British Representative, Cairo, 26 th Aug. 1915

F . O . Ibid.

(١٧)

الشمال و الشرق، كهضة الحجاز والحسمى (١٨) مما نحم عنه من تشتت بأنواع النشاط (الاقتصادى) لقاطنى تلسك البقاع بين زراعة ورعى الى صيد للاسماك (١٩).

ثم أضاف بأس القبائل وتناقض العلاقات بينها تشتتا آخر فقد استطلت قبيلتى (جهينه) و (بلى) بقوة قبيلة (حرب) أعظم قبائل الحجاز عددا ونفودا، وتحكمت (الحويطات) بما بسطته من نفوذ لها على المنطقة الفاصلة بين شمال الحجاز والجنوب الغربى لبلاد الشام وأشهر من فروعها (آل جازى) ثم (أبوتايه) الذين آلت اليهم زعامة القبيلة، ولعب شخها (عوده) دورا ملموسا ومؤثرا خلال مراحل الثورة (٢٠).

وتوازت قوة (الحويطات) مع قبيلة (الرولا) وزعيمها (نورى الشعلان) الذين اتخذوا المنطقة الممتدة على طول (وادي السرحان) حتى الصحراء السورية موثلا لهم، ولم يفت فى عضدهم ما فرضه عليهم آل الرشيد - أصحاب حائل - من نفوذ منذ عام ١٢٨٩ هـ ١٨٧٢ م (٢١).

ومن الصعوبة بمكان ايجاد حد فاصل بين (مصالحح القبائل الاقتصادية) و (موقع سكناهم جغرافيا) مع انعدام تلك المفاهيم لدى البدو الا أننا نستطيع اعتبار المنطقة الصحراوية شرق نهر الاردن، مجالاً غير محدد الانتماء

-
- ١٨ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني - صفة جزيرة العرب تحقيق - حميد الجاسر الرياض ١٣٩٤م / ١٩٧٤ م ص ص ١٠ / ١٤١
- ١٩ أيوب صبرى باشا - مرآة جزيرة العرب - ترجمة د. أحمد فؤاد وز - الصفصافى مرسى ط ١ الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ ص ص ١٩٩ / ٢٠١ .
- ٢٠ لورانس (ت أ) أعمدة الحكمة السبعة - ط ٣ بيروت - فبراير ١٩٧٩ - ص ١٥٢ ط
- ٢١ حمد الجاسر - فى شمال غرب الجزيرة ط ٢ الرياض - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ - ص ص ١٢٣ / ١٢٩ .

النسبة لقبائل الحجاز والشام على حد سواء ، ومايلسى ذلك المجال شمالا وغربا يمكن ادخاله ضمن نطاق القبائل الشامية انتماء ومصالح .

وإذا ما أتفقنا على ذلك فقد أنضوت بين شايها هذا الحيز الجغرافي الأخير قبائل (السراحين) الذين امتدت فروعهم الى (بير سع) (وجبل الخليل) وقبيلة (بنى صخر) الذين تزعمهم ، (فواز الفايز) ثم (السريسة) و (القيسية) الممتدة بسكنى عشائرها حتى (درعا) .

وجمعت تلك القبائل الشامية بين صفات البدو الرحل والجماعات المستقرة ، وبالتالي بين سمات الرعى والزراعة (٢٢) أما (الدروز) الذين شهدت حياتهم وتاريخهم صراعا متواصلا مع البدو الرحل فقد احتفظوا لانفسهم بحياة اقطاعية جمعوا فيها بين الفروسة والقوة الاقتصادية ، مما تخض معمه نفوذا سياسيا واداريا في منطقة الشام لفترات طويلة (٢٣) .

وبالرغم من تباين القبائل الحجازية والشامية في ميولها وتعدد أنشطتها وأهتماماتها الا أنهم جميعا: قد أكتسبوا صفات - خاصة فيما يتعلق بالقتال - تكاد تتشابه فيما بينهم خلقتها متطلبات معيشتهم وهي في النهاية لاستتقيم بصورة متوازنة مع أساليب (القتال الحيات)

(٢٢) (بيك) فردريك - تاريخ شرق الاردن وقبائلها - ترجمة بهاء الدين طوقان عمان ٩٤٦ م ص ٨٧ / ١٠٣ - ولمزيد من القاء الضوء على أوضاع المنطقة جغرافيا وبشريا أنظر أيضا - خطط الشام - لمحمد كرد علي - دمشق ١٩٢٨ .

(٢٣) ظل الدروز يكونون بؤره لمقاومة الدولة العثمانية خاصة خلال ق ١٩ متخذين من حوران والسويداء مركزهم الرئيسي منطلقا لذلك ، وأشهر مثال على ذلك ثورتهم أعوام ١٨٥١م/١٨٧٩م و ١٨٩٠ . . . الخ وحاول ولاة سورية من جانبهم اتخاذ أساليب متعددة - لاستقطاب موقفهم بنشر التعليم فيما بينهم والتقرب السسى زعمائهم ودفع مرتبات سنوية لهم انظر: الادارة العثمانية في بلاد الشام - عبدالعزيز محمد عوض القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٩٠ / ٢٩٣ .

نسبها الذي اعتمد عليه الاتراك وأشهر تلك الصفات التي اشتهروا بها (القيافة) أو تتبع الاثر (٢٤) والاعتماد على الذات الشخصية ، فالقليل من التموين أثناء القتال يكفي ، مما خفف من تلك الاعباء على الشريف خلال مراحل الثورة (٢٥) .

واتقن البدو أسلوب الحصار والمباغته ليعوضوا افتقارهم الى الاسلحة ، وتبلور ذلك من خلال المراحل الاولى لقيام الثورة ، وفي تلك النقطة تختلف قبائل الحجاز عن القبائل الشامية .

فبينما اعتمد الفريق الاول على هذا الاسلوب ، فإذا بالفريق الاخر ، تغلب على طباعة الميل الى المواجهة المباشرة باستخدامهم الجيد للخيل ، سواء عند الالتحام المباشر أو بالمساعدة في نقل المدافع من مكان الى آخر (٢٦) .
أسباب انضمام القبائل للثورة العربية :

لقد كان الشريف على ادراك كامل لهذه الصفات التي اتسم بها البدو عندما قادته اليها الاحداث السابقة على المستوى الخارجى أو ظروف بلاده داخليا ، وعندها توقعت حدود الامكانيات لديه للقيام بالثورة التي على كاهله مسئولية قيادتها على اقليم الحجاز مع امكانياته

(٢٤) اشتهر (بنى مرة) وهم فرع من قبيلة حربا بتلك الحرفة بين أبناء الجزيرة العربية ، وزاع صيقت رجل منهم يدعى (صالح بن عامر بن جابر) بصورة خاصة ، ومن غرائب الامور أحتكارهم هذه المهنة لانفسهم دون غيرهم ، وحافظوا عليها بعدم التزاوج من غيرهم لمزيد من التفاصيل أنظر . الجزيرة - حدثت الذكريات مع أشهر قصاص الاثر - (الشيخ صالح بن عامر) - ٢١ -
ذى الحجة ١٤٠٢ هـ / ٨ أكتوبر ١٩٨٢ م .

(٢٥) لورنس المصدر السابق - ص ٥٧ / ٨٧
(٢٦) Heizer , (Wilfred), Arabian Sands, London, 1959 . pp. 96/106

المتواضعة شخصا والتي اعتمد أغلبها على العواطف والتاريخ ، والوعود البريطانية له ويعلم في ذات الوقت أن البدو لن يسيروا من وراءه تبعاً لتوجيهاته إلا بحثاً عن مصالحهم الذاتية الأنية ، وقد أستطاع خلال توليه الشرافة وبما تعارف عليه من تقليد في تقسم مهام الحكم بينه وبين من سبقه من جهة وولاية الحجاز ، بأن يتولى الاشراف تأمين قوافل الحج ومعالجة شؤءون القبائل وحل الخلافات بينهم معتمداً على عصيته الخاصة (٢٧) ويتولى الوالى شؤءون الحضرة خاصة بالمدن والامور القضائية المتعلقة بها بالإضافة الى قيادة الجند النظامى التركى .

ومن أجل الحفاظ على سلامة وأمن قوافل الحج ، كانت الدولة العثمانية تكثّر من العطايا لشيخ القبائل خاصة قبيلتى (حرب) و (جهينه) عن طريق الشريف وتستعين به من أجل الحد من غلواءهم وتعطشهم الاستيلاء على مالسى الحجاج (٢٨) .

يقول نصيف بهذا الصدد :

(انه - أى الشريف - لم يترك واحداً من الاهالى يتقاضى فى قليل أو كثير الا عنده سواء كان ذلك فى المسائل الشخصية أو الحقوق المدنية يساعده على ذلك خبرته الواسعة باستانول وضعف الامراء الذين تولوا الاماره ، فاذا حدثت أحدهم نفسه بمعاكسة الشريف أو عزالى أعيان الحجاز بالكتابة الى العاصمة بالشكوى فلايلت أن ينقل أو يعزل .

(٢٧) نشأت الشرافة فى أوائل القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى على يد أحد الاشراف الحسينيين ويدعى (أبى محمد جعفر الموسوى - من نسل الحسين بن على ، ويعتبر مؤسس العائلة الشريفة الاول . أنظر - فؤاد حمزه قلب جزيرة العرب - ص ٣١٢ .

(٢٨) حسين محمد نصيف - ماضى الحجاز وحاضره . القاهرة ١٩٥١م ص ١٥ / ١٦ .

وهنا نستطيع تفسير ظاهرة تعاقب الولاة بالحجاز - كما سبق أن المحنا خلال شرافة الحسين بن على فى الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٦ .

أمام هذا كله لانتفق مع (لورنس) فيما ادعاه من انسياق البدو وراء الحسين لهدف قومى (٢٩). فإذ اصدق هذا القول نسبا على القبائل التى قطنت الشام لاحتكاكهم بصورة اوسم بالاحداث بها ، فانه كان بعيدا تماما عن قبائل الحجاز التى لم يكن لديها الادراك الكامل شفافا وسياسا - (٣٠) ناهيك عن الهدف القومى - بل لم يدركوا مغزى الاحداث أو مايجرى حولهم ، حتى يؤيدوا الشريف أو يعارضوه ، بل جهلت معظم القبائل مغزى الحرب والثورة على حد سواء (٣١) .

ولم يحاول الحسين أيضا الضرب على أوتار العوامل الدينية حتى لايقوع نفسه أسير التناقض بين مكانته الدينية بالحجاز بل ونسبه هو شخصيا - وانحيازه للانجليز ضد الاتراك الذين رفعوا قبل ذلك وعند قيام الحرب العالمية الاولى شعار - الدفاع عن المسلمين - وحماية العالم الاسلامى فاعتمد فقط - لكى يضمن تأييد القبائل له والاشترك معه فى الثورة ضد الاتراك على أسلوب الاشارة والدفاع عن مصالحهم الذاتية ، وأنهم - أى الاتراك من وراء حجب المعونات والامدادات التى كانت تصل اليهم من مصر قبل وظلال الحرب العالمية ، بالإضافة الى استغلاله لبعض مظاهر القسوة التى ظهر بها الولاة والجنود التركى بالحجاز .

- (٢٩) لورنس - المصدر السابق - ص ٥٤ .
(٣٠) F. C. 571/5149. Letter forl Kitchener To Grey 9/5/ 1915 .
(٣١) رسالة من شيخ مشايخ (ريم) عز الاسلام محمد بن على الى مكتب القاهرة مؤرخه ٨ صفر ١٣٢٩ هـ .

من هنا كان انسحاق البدو وراء الشريف - جريا وراء مطامحهم الذاتية لكل قبيلة على حده وتنوعت هذه الاسباب اتماديا ودينيا وساديا .

فأما قبيلتي (حرب) و (جهينه) فكانتا من أكثر القبائل التي أصيبت بالضرر نتيجة لقلم الحرب العالمية فمن ناحية أدى فرض الحصار على شواطئ الحجاز الى مننع وصول الامدادات الغذائية القادمة من مصر والسودان . وتهديد القوافل التجارية التي كان تعتمد عليها هاتين القبيلتين فوقع البدو والحضر على حد سواء في ضائقة شديدة ، ومن ناحية أخرى تقلص الحجيج لموسم عام ١٣٢٣ هـ / ١٩١٥ م ، وبالرغم من الدعاية التركية المكثفة بأن الانجليز هم السبب في منع الكثير من المسلمين أداء فريضة الحج ، الا أن من قدم منهم من جنوب ووسط السودان مثلا ، أفهموا بعض أفراد حرب وجهينه أن الانجليز لم يضعوا عراقيل أمام تأديتهم الفريضة (٢٢) .

هنا بدأت فروع حرب التصدي للاتراك ، فقتلوا أربعة من الجند بالمدينة المنورة عندما شاهدوا عددا من المدافع الالمانية يستقدمها الوالى الى المدينة فى ربيع الاول ١٣٢٣ هـ يناير ١٩١٥ م . (٢٣)

ونرى فى الخلاف المذهبى عاملا أساسيا فيما ضمه أعداد غفيرة من حرب من عداء للاتراك حيث ينتشر (التشيع) بكثرة بين أفرادها ، خاصة بفروعها القاطنة حول (جبل رضى) قسرب

F.O. 371/2486, Letter from Mc Mahon to E.Grey, 26 th(٢٢) Aug. 1915 .

(٢٣) فواء حمزه - المصدر السابق - ص ١٠٣ / ١٥١ .

ينبع ، فانتهزوا فرصة الثورة للانتقام من الأتراك - السنة
والجدير بالذكر هنا أن (ابن عريفان) رسول الشريف الى
مكماهون من معتنقى هذا المذهب فهو من (زيد) أحد أفرع
حرب (٣٤) .

وكان لهذا العامل أثره فى توالى الهجمات من قبل هذه
القبيلة على الحاميات التركية حول المدينة المنورة - خلال
شهر ديسمبر ١٩١٤ ، عندما قتلوا مايزيد على عشرة جنود
من الترك والالمان . ويبدو أن الشريف أراد أستقلال هذه
النفرة المذهبية عندما ظل يحث الانجليز على انزال حملية
عسكرية على سوريه - بهدف اشارة (الحماس المذهبي) بين
أهل سورية وشعة الحجاز (٣٥). على حد قوله ، وان امتنعت
انجلترا عن ذلك لاسباب تتعلق بأمر مصالحها مع فرنسا.

أما (الشرارات) و (بلى) و (الحويطات) و(الرولا)
التي تمتد فروعها الى بادية الشام فقد أستغلوا قيام
الثورة ومناشدة الشريف لهم الاشتراك فيها للانتقام والتخلص
من مظاهر السيادة الى فرضها عليهم آل الرشيد بمعاونة
الأتراك منذ عام ١٨٨٩ ،وقدمت لهم الدولة العثمانية يد
المساندة لضرب القوى المعادية لهما داخل الجزيرة العربية
كال سعود وآل الصباح من ناحية ، ومن أجل حماية سكة
حديد الحجاز الذى يمر بين سكنى تلك القبائل من ناحية
أخرى (٣٦) .

34) F.O. 371/2486, Letter of Mc mahon, 26th Aug. 1915

35) F.O. 371/B215. Letter from Hussein to Mc Mahon, 6th
Mar. 1916

(٣٦) حمد الجاسر المصدر السابق - ص ١٢٦ / ١٢٧ وانظر كذلك :
Hawarth , (David) The Desert King, london
1964 , pp. 142/167

ومن خلال هذه العلاقة عومل سكان الجوف ووادي السحان
وكأنهم جزء من حائل أو نجد (٣٧) ففرضوا الاتاوات على
القبائل ، وعات ال الرشيد في أرضهم فسادا ، فقطعوا نخيلهم
وأستولوا على خيلهم عند أية بادرة تثير الشك ، لذا فقد
كان الترحب من قبل (نوري الشعلان) و(عودة أبو تايه)
برسل فصل السهم في سبيل التخلص من هذه السيطرة أمرا
منطقا لم ستوان رجال القبائل عن قبوله (٣٨).

أما قبائل الشام ، فقد تداخلت أهدافها بين المصالح
الذاتية عند بعضها وبين الاهداف القومية عند بعضها الآخر
فأما الفئة الاولى فقد ضمت بقية فروع الرولا (والد راوشه)
و (الزاويده) و (الزلساني) الذين قطنوا شرقي نهـر
الاردن وشماله وأستغلوا أحداث الثورة للتخلص من سطوة
(عودة أبوتايه) عليهم واستشارد بالمعونات والامدادات
التي كانت تصل لحسابهم حيناً من الاشراف وأحيانا أخرى من
الأتراك وأشترطوا على فيصل أن تعود (العلاقات) بينهم بصورة
مباشرة حتى ينضموا اليه (٣٩).

أما زعماء (بنى مخر) (مثقال) وأخوانه (فـواز)
وفايـز) فبالإضافة الى رغبتهم في استمرارية تدفق الاموال
الانجليزية السهم واشتراطهم زيادتها ، فقد أشتركوا في
الموءتمر الذي انبثق عنه (ميشاق دمشق) - كما ذكرنا سابقا
وبهذا فقد جمعت هذه القبيلة بين المطامح الذاتية ،
والاهداف القومية والتي تندرج بها في الفئة الثانية من
قبائل الشام والتي ضمت (بنى سرحان - السراحيـلن)

(٣٧) كانت نجد في هذه الفترة حتى دخول عبدالعزیز ال سعود
الرياض عام ١٩٠١ تحكم بواسطة عجلان) من قبل الرشيد.

(٣٨) الجاسر - نفس المصدر - ص ١٢٧ .

(٣٩) لورنس - المصدر السابق - ص ٢٤٦ . (٥) نفس المصدر ص ٣٢١ .

(والسردية) و (القرشية) وساد فيهم (طلال الحرديني)
سيد سهل حوران المحيط بدرعا والذي أنضم هو الآخر إلى
(لجنة دمشق) - مع الزعيم الدرزي (نسيب البكري)
الذي كان ناقما على الاتراك - مع بعض الزعماء الدرزيين
الآخرين أمثال (نسيب الأطرش) واللواء متقاعد (علي رضا
الركابي) (٤٠).

مقدمات وأحداث الثورة :

كان اعدام الدفعة الثانية في مايو ١٩١٦ هي التحديد
الدقيق لنطاق وامكانيات الثورة بالحجاز وأهله جغرافيا
وبشريا ، خاصة بعد أن مهد الحسين أوضاعه امنا، وامن جانب
منافسيه ساسيا بما عقدته بريطانيا مع الادريسي وابن سعود وتعهدا
س بعدم الاعتداء على أصدقاءها بالمنطقة (٤١) وبما
أرلاه من رسل تؤيد الشريف في حركته ضد الاتراك .

ثم كانت أبرز المهام (الدبلوماسية) للتمهيد للثورة
ما قام به (محمد بن عريف بن عريفان) من فرع (المسروح)
من حرب - حين أختاره الشريف حسين كرسل له مع مكماهون
مستغلا كثرة أسفاره التي تبعد عنه الشبهات ، وكراهيته
الشديدة للاتراك الذين أعتقلوه لمدة ثلاث سنوات بالحديدة

(٤٠) سليمان د. موسى - الحركة العربية ص ١٢٥ - وكان آل
البكري - هم مضيفي فيصل خلال أقامته بدمشق ، وكونوا
همزة الوصل بينه وبين بقية زعماء سوريا ، كما تعهد
فيصل مع زعماء الدرزيين وعلي الركابي - رئيس بلدية
دمشق حينئذ بالمساندة والمشاركة بالثورة . أنظر
أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى - ص ٢٦ / ٢٩ .

(٤١) عقدت بريطانيا معاهدة مع الادريسي في أبريل ١٩١٥ -
نصت على أن الهدف منها هو الاعداد لشن الحرب على
الاتراك وحماية الادريسي ضد أي هجوم يقع عليه أنظر :
محمد بن أحمد عيسى العقيلي - المخلاف السليماني - ص
١١٤ . كما عقدت أيضا معاهدة مع عبدالعزیز ال سعود
في أواخر ديسمبر ١٩١٥ - تعهد فيها الأخير بعدم الاعتداء
أو المساس بمن لهم علاقة ود مع بريطانيا والا بعقد
اتفاقا أو معاهدة الا بموافقتها . أنظر :

أمين الربحاني - تاريخ نجد الحديث وملحقاته - ص ٢٠٣/٢١٠ .

عام ١٩٠٧ (٤٢).

ومع آخر رسائل مكماهون الى الشريف في مايو ١٩١٦ -
والتي حملها (ابن عريفان) ونصت على أن يبدأ الحسين
شورته بالحجاز أولاً ، حتى يمكن بريطانيا على صوها تقديم
المساندة اللازمة لها ، معتمداً أولاً على القبائل (٤٣) التي
يمكن تقسيم دورها الى أدوار - ثلاثة على النحو التالي :-

الدور الاول : عندما مثلت القبائل القوة الرئيسية في
تطور أحداث الثورة وبدأ هذا الدور منذ
قيامها حتى سقوط مدينة (الوجه) علم ١٩١٧
الدور الثاني : ويبدأ من سقوط (الوجه) عندما أخذ
دور القبائل يتحول الى المساندة للقوات
النظامية العربية ، ومع بداية التركيز
على نسف الخط الحديدي والمحطات ، وأستمر
هذا الدور حتى سقوط العقبة والوصول الى
(درعا) في أغسطس ١٩١٨ .

الدور الثالث : ويبدأ بالتمهيد للزحف على (درعا) وتحول
دور القبائل والقوات النظامية على حد
سواء الى مجرد العمل على جذب أهتمام
الاتراك وتشتت جهودهم العسكري أمام الهدف
الرئيسي لزحف القوات البريطانية بقيادة
(اللنبي Allenby) من فلسطين
الى دمشق ابتداءً من أغسطس ١٩١٨ حتى أوائل
اكتوبر من نفس العام .

42) F.O. 371/2486? letter from sherif of Macca to
Mr. Storres, Oriental secretary of British
Representative, 14 th guly, 1915.

43) F.O. 882/19 , Letter from Mc Mahon to Sherif
of Mecca 22 th May 1916.

أعد الشريف نفسه القيلم بالثورة في شهر أغسطس عام ١٩١٦ عندما تأوى القبائل الى مواطنها في أشهر القيظ وبعد انتهاء موسم الحصاد ، لكن تواتر الانساء عن قيلم بحملة تركية في طريقها الى اليمن ، أشارت مخاوف الشريف ، ووطنها خدعة من الاتراك للقضاء عليه ، فدعى بواسطة ابنه (على) شيوخ (جهينه وحرب وبلى) للاجتماع به في المدينة المنورة في الاول من يونسه ، وأنضم الى الاجتماع شيوخ (بنو سالم) لفرع الاخر لحرب والذين كانوا عوناً لال الرشيد نكليسة بالفرع الاول (المسروح) بعد أن أجزل لهم (على) العطاء خاصة مع توقف المعونات التركية اليهم بسبب الحرب ، وتعهد الجمع على المؤازرة والمساندة (٤٤).

تقهقرت القوات التابعة للشريف والملتفه حول المدينة المنورة بدعوى مساندة الاتراك من أجل القيام بالحملمة الثانية على القناة باتجاه الجنوب وبادروا بقطع أسلاك التليفون بين (جدة) و (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة) و (الطائف) التي انتقلت اليها معظم القوات التركية هرباً من شدة الحر - كعادتها كل عام .

وبالرغم من ادراك (فخرى باشا) قائد قوات المدينة المنورة ، بأن شيئاً مايجرى تدبيره الا أنه لم يجروء على الخروج من مصيفه بالطائف خشية تريض العدو بين أودية جبال (الهدى) المحيطة وقللة آبار المياه بها (٤٥) بهذه القوات المنسحبة وبزعامة (محسن بن منصور) زعيم حرب والتي لم تتلق سوى تدريسات ثانوية على القتال ، طوقت شكنسات

(٤٤) القبلية - السنة - العدد الاول - ١٤ أغسطس ١٩١٦ .
(٤٥) نفس المصدر .

القوات التركية بمدن الحجاز الرئيسية بواسطة السبدو ،
فى الوقت الذى حدده الشريف حسين بن على لبدأ الثورة وهو
العاشر من يونيه مع (ابن منصور) فى الوقت الذى أبلغ
فيه (ابن عريفان) (ستورس) وكان على مقرية من شاطىء
الحجاز بموعد الثورة .

وكانت اشارة البدء ، طلقات من قصر الشريف فجر ذلك
اليوم ، معها أحكم البدو الحصار وقطعوا سبل قوافل
التموين والامداد التركية للقوات دون الدخول معها فى قتال
مباشر (٤٦).

لم يكن بمقدور هذه القوات البدوية تحقيق نتجة
حاسمة بالقتال اللهم إلا مع يأس الأتراك ونقص الامدادات
اليهم ، أو بمساعدة قوة أخرى من قبل انجلترا مثلاً . وظل
هؤلاء البدو أسرى لعاداتهم وتقاليدهم التى نشأوا عليها
وتقوقعوا داخل نطاق أفقهم الذاتى وقدراتهم العسكرية
المحدودة ، معتمدين فى المقام الاول على عنصر المائتة
وطبيعة الارض .

فقد أستلمت من فقط عند وصول ثلاثة من السفن
الحربية (دوفرين) و (هاردنج) و (فوكس) يوم ١٣ يونيه
وضربها شكنات الأتراك .

وفى ٩ يوليواستلمت (مكة المكرمة) بعد وصول ثلاثة
مدافع من جدة ، ووصول اثنى عشر مدفعا انجليزيا بقيادة
الاميرال (سيد على المصرى) مع بعض البنادق وبعد اقدام
البدو على قطع أسلاك الهاتف بينها وبين المدن الأخرى
ولم ينجحوا فى الاستيلاء على قلعتى (أحياد وجـرول)
ببنادقهم ، فتراجعوا أملم قوة نيران المدفعة التركية (٤٧)

(٤٦) القبلة - السنة الاولى - العدد الاول والثانى ١٤/١٧
أغسطس ١٩١٦ .

(٤٧) مذكرات الامير عبدالله - نشر أمين أبو الشعر - عمان
١٠٩٦ / ١١٨ .

حتى استطاع القائد المصرى بمدافعه هدم القلعتين فسهل لعشائر حرب دخول مكة فى ذلك اليوم وقضوا بقيته فى جمع الغنائم .

وكذلك كان الحال بالطائف ، عندما اعتمد (عبدالله) قائد قواتها المهاجمة على تشديد الحصار ، واشعال النار على رؤوس الجبال لايقاع الرعب بالاتراك ، وبالرغم من وصول ثلاثة مدافع ومعهم أفراد طاقمهم ممن استسلموا فى مكة المكرمة ، الا أن تلك القوات المهاجمة لم تتمكن من دخول الطائف التى لم تستسلم الا مع انقطاع سبل الامداد والتموين فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٦ (٤٨) .

أما فى المدينة المنورة ، فبالرغم من أنها كانت أولى المدن التى أستشعرت حاميتها بواذر الثورة الا أن ، أسلوب الحصار الذى أتبعه (على فيصل) لم يجد نفعا أمام تدفق الامدادات الى المدينة عبر خط السكة الحديد وعندما لجأت (حرب) الى نزع القضبان استطاع الاتراك اصلاح الخط بل وتحولوا الى الهجوم على مواقع البدو بالمدفعية فأرغموا على التراجع لمسافة تزيد على العشرين كيلو متر فارتد فيصل الى الشمال ومعه عشائر جهينه وبنى وتحصنوا بتلال (ينبع) ، واتجه (على) جنوبا الى (رابغ) ومعه عشائر (حرب) (٤٩)

هنا بدأت القبائل تفقد حماسها الذى لازمها منذ بداية الثورة وبدا لهم أن انساقهم خلف فيصل وعلى لم يعد يحقق لهم استمرارية تدفق الغنائم ، فدأت أفرع منهم تتحول الى الجانب السلمى فى علاقتهم بقوات الثورة ، فاستولسى

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ٢٩٥ .

(حسن بن مبيريك الحربى) على المؤن الانجليزية التى
ضمت بعض الاغنية والملابس وأختسا ومن معه بجبال رابغ (٥٠)
وأنصرفت عشائر جهينه عن مواقعها القتالية الى مواطنين
مرعاها بدعوى الرغبة فى الراحة والتزود بالطعم (٥١)
وأستغل (دخيل الله) قاضى - جهينه - أيضا صراعه مع
(محمد على البيضاوى) للوصول الى زعامة القبيلة فتحول
لتحقيق هذا الهدف الى عين للاتراك على قوات الشورى
وأنحسرت مهم السقمة من حرب الذين ظلوا على ولاءهم لفيصل
وعلى ، وعلى رأسهم (محسن بن منصور) على رمد تحركات
القوات التركية دون أدنى بادرة للمواجهة (٥٢).

وبدأت الثورة تدخل مرحلة الخطر ، مع هذا التحول
للقوات التركية من الدفاع الى الهجوم وتعقب قوات
القبائل حول رابغ وينبع ، دخل الشريف حسين فى جدال
مع انجلترا حول مسألة منصة (كملك للدولة العربية)
المقترحة دون الوصول الى اتفاق .

فى هذا الوقت من أوائل يناير ١٩١٧ بدأت الثورة أيضا
تشهد خطوط دور جديد للقبائل من دور أساسى الى مساعد
نتيجة لعاملين أساسيين : -
فأما العامل الاول : فيرجع الى بداية تبلور القوات
بوصول قافلة تزيد على المائة جندى
وضابط عربى الى (جدة) كان (نورى
السعيد) أعلاهم مرتبة فى شهر نوفمبر
١٩١٦ وبصحبته مابقر من عشرين مدفع
من الطراز القديم ، كما وصل (عزيز
على المصرى) فى ستمبر من نفس

٥٠) نفس المصدر السابق - ص ٣٧/٣٨

٥١) نفس المصدر - ص ٨٠ / ٨١

52) F.O. 371 / 6237 letter from 18th Jun
1917 .

العام ، وبالرغم من تباين الاسباب التي دفعته لمفسادة الحجاز بعد ستة أشهر فقط الا أن الفضل يعود اليه ، فيما وضعه من تقسيم انصاع على توزيع القوات الى قسمين :-
الاول : نظامى حسب الاعول المتبعية .
الثانية : خفف من القبائل للعمل خلف خطوط العدو (٥٣).

أما العامل الثانى : فكان ازدياد التركيز الانجليزى لمساعدة الشريف وقوات الثورة ، خاصة بعد الفشل الذى منيت به القوات التركية فى حملتها الثانية على قناة السويس فى أغسطس ١٩١٦ ووصول المستشارين الانجليز أمثال (جارلند Wilson وولسون و أشهرهم لورنس Lawrence الى الحجاز مع مايزيد على الثلاثين مدفعا نصت حول رابع وينبع بالاضافة الى السفن الحربية التى توجهت شمال البحر الاحمر فى مواجحة (الوجه) (٥٤).

بدأ فيصل - الاتصال بقبائل الشمال - بعد أن اتخذ من قرية (سمحة) (٥٥) مقرا له ، فبعث بخمس وعشرين رسالة الى زعماء عشائر (بنى عطيه) و (الحويطات) مؤكدا على وصول جيشه - قريبا الى الوجه ، فجاءه فى منتصف يناير

-
- ٥٣ (نوري السعيد - محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسوريه ص ص ١٣ / ٢٠)
٥٤ (اعتبرت إنجلترا - مدينة الوجه - هى بداية خطط الدفاع - عن المنطقة التى لها حق الدفاع عنها وألوية إقامة المشروعات بها بموجب اتفاق سايكس بيكو ضمت تلك المنطقة المعروفة بـ (ب) كركوك وشرق الاردن والنقب والعقبة) .
٥٥ (سمحة) قرية تابعة لخبير - تبعد مسافة ١٧ كيلو متر الى الشرق من خط خبير / تيماء .

١٩١٧ (عاصم بن عتبة) وأقسم يمين الولاء ، ثم تحولوا سويا في أرض العشيبة وقبيلة الرولا (٥٦).

ثم بدأت العشائر بالتجمع في هذه القرية - سمحسه ومعها بعض الجند النظامي وحملت السفن الانجليزية عددا من البدو متجهة نحو (الوجه) فقصفتها وأرغمت حاميتها التركية على الاستسلام في ٢٤ يناير ، وأكمل البدو المهمة بدخول البلدة ونهب ما بها (٥٧).

ومع سقوط الوجه - أصبح الخط الحديدي هدفا ميسورا أمام القوات القبيلة، تتخطط من الخبراء الضباط الانجليز، كما خضعت سريعا - ضا والمويلح في مارس ١٩١٧ - بعهد قصف المدفعية الانجليزية لها بحرا ودخلتها بعض عشائر (سنى عطية) و (بلى) . (٥٨).

ويسقوط هذه الشغور الشمالية - خضع شاطئ الحجاز لقوات الثورة ، وكان على (فصل) التمهيد للزحف شمالا ليبدأ الدور الثاني للقائل في ذات الوقت ، فأوفد رسله الى (نوري الشعلان) زعيم الرولا والى زعماء الحويطات فأرسل الاول أحد تابعيه (فايز الغصن) كما وصل معه الى فيصل وهو بالوجه - (حمد بن جازي) أحد شيوخ الحويطات والمتحكم في (هضة معان) . وقضى فيصل وقتا طويلا ليملح مابين القبيلتين من خلاف ، حتى يمهّد السبل للوصول الى (العقبة) التي أصبح الطريق اليها ممهدا ، بموجب الصلح - (الوجه) . (٥٩).

٥٦ (لورنس - المصدر السابق - ص ١٠٠ .
57) F.O. 882/ 14, Report of Cleyton, 14th April . 1917
58) F.O. 882/22, Letter of Wilson, 13th May. 1917 .

٥٩ (أوراق محب الدين الخطيب - رسالة الشريف ناصر الى الامير فيصل في ٧ أغسطس ١٩١٧ .

في شهر أبريل ١٩١٧ دفع فيصل بحملة ضمت مجموعات من الجند النظامي بقيادة الشريف ناصر ، ولورنس مع مقدمة فدائية استكشافية من البدو وزادت على الثلاثين رجلا عبرت (وادي السرحان) ثم انضمت اليهم بقية (السـرولا) (الحويطات) ، وتركز نشاطهم حتى منتصف مايو في تفجير عدو من القاطرات ونزع قضبان الخط الحديدي خلال عبورهم باتجاه الشرق للوصول الى جنوب (معان) ، بينما اشتبكت القوات النظامية في (أبو السن) مع القوات التركيبية في أول يونسه ، وكان النصر في النهاية من نصيب العرب وبالرغم من الدور الثانوي لقوات الرولا والحويطات ، إلا أن (أبااللسن) شهدت مذابح عديده أوقفها البدو بمن أستسلم من الاتراك ، فزادت أعداد قتلاهم عن ٣٥٠ فردا ووقع بالاسر ١٥٠. (٦٠).

وشجع هذا الانتصار قوات ناصر ولورنس بالزحف سريعا باتجاه العقبة في أوائل يوليو من نفس العام . ويبدو أن ما أقترفه البدو من فظائع أوقعوها بالفارينين من الاتراك دفعت بحامية العقبة الى الاستسلام وبسرعة في السادس من نفس الشهر وبالرغم من ذلك أيضا شهدت المدينة طلقات نارية من قبل البدو الذين أسرعو بدخول المدينة ، وأوقع البدو مرة أخرى مذبحا بالجند الاتراك ، فبلغ عدد القتلى أكثر من خمسمائة قتيل (٦١) ولولا نداءات (الشعبـلان) و (أبوتاه) و (ابن عقيل) لزاد عن هذا العدد ، ووقع بالاسر أكثر من الثلاثمائة بين ضابط وجندي (٦٢).

وأنقلت القوات النظامية الى (العقبة) وبدأت

١٦ F.O. 882/ 13, Letter from Lawrence to Dylayto ١٦
٦١) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ٣٠٢ .
٦٢) نفس المصدر .

تحركاتها تعمل على محورين أساسيين :

المحور الاول : قادته القوات النظامية بتوجيه من (جعفر العسكري) (٦٣) وأستطاعت من الهجمات المتتالية التي أرسلها الاتراك من (معان) بعد علمهم بسقوط العقبة وساعدت الطائرات البريطانية في رد هذه الهجمات ثم تراجع الاتراك بعد فشلهم المتكرر في منطقتي منطقتي (دلاغة) و (وادي موسى) في منطقة أبتداء بين العقبة ومعان . وأستمرت هذه الهجمات المتبادلة طيلة شتاء عام ١٩١٧ وبداية العام التالي .

المحور الثاني : قادة (عودة أبو تاية) ومن معه من الحويطات وأنصبت تحركاتهم وهجماتهم على قضبان الخط الحديدي في المسافة من تبوك جنوبا حتى محطة المدورة شمالا والتي نسفت أيضا ، مع انتشار عمليات القنص للاتراك الفارين من المعارك النظامية (٦٤).

وخلال ذات الفترة أخذت تحركات قوات الثورة تتسم بطابع الكر والفر مع الحاميات التركية وحرس الخط الحديدي ، ولتكون في نفس الوقت حالة تمهيدية لبدء المرحلة الجديدة وهي الثالثة ، وقد أتسمت بظاهرتين أرتبطتا أساسا بزيادة التركيز الانجليزي العسكري للزحف شمالا بالشام وهما :

٦٣) العسكري - من العراق تخرج من المدرسة العسكرية باستانبول أنضم الى قوات السنوس في برقة ، ثم أنضم الى قوات الثورة العربية كقائد لقواتها النظامية في منتصف عام ١٩١٧ - وقد أغتيل في انقلاب عام ١٩٣٦ بالعراق .

46) F.O. 882/7, Tele- from Lawrence to Cylayton , 25 th 12/ 1917 .

أولا : انتقال قيادة وتحركات القوات العربية من النظاميين والقائل على حد سواء الى القيادة البريطانية والى (اللنبي Allenby) على وجه الخصوص .

فقد ضمت بريطانيا تحقيق أهدافها في علاقتها بالشرق العربي ، بتأييد أكثرية العرب ضد الدولة العثمانية ، وشبت الثورة أقدامها في منطقة الحجاز ذات الأهمية القصوى بالنسبة للعرب والمسلمين ، كما دخلت الثورة في هذه المرحلة الجديدة حين المصالح الذاتية البريطانية جغرافيا بموجب اتفاق سايكس - بيكو .

ثانيا : وتطبيقا للظاهرة الأولى ، فقد انحسرت مهام القوات العربية (نظامية وقبله) مع قيادتها ، على حد سواء عند حدود القيام بعمليات فدائية خاطفة لتحويل انتباه الأتراك وتشتيت جهودهم عن الأهداف الحقيقية للقوات البريطانية بتقسيم الشام بينها وبين فرنسا .

وقد بدأ التنفيذ العملي لهذه المرحلة بطلب من (اللنبي) الى قبض بتركيز من مدفعية القوات النظامية على مدينتي (الطفيلة) و (الشوك) . وأتمت المناوشات بين الطرفين دون نتيجة حاسمة حتى أوائل أبريل ١٩١٨ حين سقطت (الطفيلة) وفي منتصف الشهر سقطت المدينة الثانية . ثم واصلت القوات العربية زحفها شمالا بقيادة (نورى السعيد) و (جعفر العسكري) نحو (معان) التي استطاعوا عزلها تماما بتحطيم محطة الغدير جنوبها والجردون شمالا بمعاونة بدو الحويطات . أما المدينة نفسها فقد ظلت تقاوم الحصار لآمد طويل (٦٥) .

أما قوة البدو الرئيسية من الحويطات والرولا وينسو عطية ، فقد قاموا من جانبهم بمحاولة غير محسوبة عندما أقتحموا الحسور المحطة - (درعا) التي ينفرع عندها الخط الحديدي الى فلسطين ، لكنهم قتلوا (٦٦) ويبدو أنهم نتيجة لذلك قد أحسوا بضياع ما أملوا فيه من مغانم فسي تلك العمليات فركنوا الى الهدوء وعادوا الى مرعاهم ، وطن الاتراك أن هذا الموقف ربما يفتح لهم سائلا لاستمالة عودة أبوتاسة الى جانبهم ، عن طريق بعض الرسل الاتراك ، لأنهم فشلوا في مسعاهم في ذات الوقت الذي علمت فيه انجلترا هذه الاتصالات من خلال عيونها لدى الدروز وبعض زعماء العشائر المنافسين لعودة ، الا أن الرجل قدم للامير فصل عددا من الرسائل التي وصلتته من قبل الاتراك ثم أراد أن يشات حسن نواياه فقام بعدد من الهجمات على الخط الحديدي فتجاوز (معان) شمالا باتجاه (الكرك) (٦٧) .

وأرسل (فيصل) وهو بـ (الازرق) رسائل الى (طلال الحريديني) شيخ منطقة درعا وأهل حوران ، والى (كسوري) الدرزي شيخ أقليم (صلخد) ، الذي أرسل بدوره الى (على رضا الركابي) بدمشق ليطلععه على نوايا القوات العربية بالاستعداد للزحف نحو دمشق فوعد الاخير بارسال أنصـاره ليكونوا عيونا على الاتراك وكشف أماكن تواجدهم ، ووعـدوا جميعا بالقيام بهجمات سريعة ومتلاحقة مع بقة القوات البدوية من الرولا والحويطات بقيادة (الشعلان) و (أبو تاه) (٦٨) وبلغت هذه القوات المكلفة بنسف الجسور وملاحقة الاتراك ألف وخمسمائة رجل مع بقة القوات النظامية التي بدأت بالزحف من (الازرق) وأطلق عليهم جميعا (بدواونظاميا

66) F.O. 882/17, Letter of Allenby, 23th May, 1918.

(٦٧) لورنس - المصدر السابق - ص ٢١٠ / ٢١٥ .
(٦٨) الدلجتون (ريشارد) لورنس في البلاد العربية -
ترجمة محمود عزت موسى القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤٤ / ٢٤٣ .

أسم (عمليات الحجاز) وأسندت الى (الكولونيل داونسي Dawney) مهمة التنسيق بينها وبين قوات الزحف الرئيسية البريطانية بقيادة (اللنسي) الذي أسندت اليه مهمة القيادة للجناح الايسر - لقوات الرحف نحو دمشق ، بعد فشل حملة (موراي) على غزة في مارس ١٩١٧ (٦٩) .
وأستكملت القوات البريطانية استعدادها في شهر أغسطس ١٩١٨ ، وأرسل الي فيصل - تكليفا موعدها - العمل على جذب أنظار وأهتمام القوات التركية نحو شرق وادي الاردن والبحر الميت وعلى أمتداد الخط الحديدي وخطوط المواصلات التركية بصورة عامة ، دون الدخول في معارك مباشرة مع الاتراك على أن تنصب الهجمات الخاطفة في المسافة بين درعا جنوبا حتى دمشق شمالا (٧٠) .

ومع بداية شهر ستمبر من نفس العام ، وتنفيذا لتلك الخطة بدأت (الرولا) و(الحويطات) و (سني صخر) في إعادة الهجوم على الجسور المحيطة بدرعا خاصة في منطقة (سهل الجفر) و (أم تايه) و (ثل عرار) ، مما دفع القوات التركية الى الاتجاه نحو هذه المواقع لرد هجمات الغرب ، لكن أوامر القائد الالمانى (فون ساندرس Von Sanders) بالانسحاب من تلك المواقع سهل من مهمة تلك القوات العربية في الاستيلاء على المواقع والاحتفاظ بهذه الجسور في ٢٠ ستمبر ١٩١٨ (٧١) . وصفت مدفعة الجيش النظامي نيرانها على (درعا) وحاصرت الحاشية التركية بداخلها - ثم توافد حول المدينة عشائر

69) F.O. 882/ 21 , Report of Lawrence, 13th sept. 1918.

70) F.O. 882/24, letter from Lawrence to Wingate, 22/4/19

71) Ibid.

(السردية) والقرشه من سكان سهل حوران والدروز ، تحت زعامة (كسورى) و (الشعلان) فدفعوا وهم على شكل (مفارز) لتبين الموقف حول محطات (مزيريب) و (الغزاة) والمحطة التركية ومحطة التلغراف (على طريق دمشق ، وبعد تبين طبيعتها قاموا بنسفها وقام فريق آخر من الحويطات بنسف (المحطة الفرنسية) على الخط الحديدى بين درعا وحيفا .

وعلى حين بدأ (اللنبى) هجومه فى التاسع عشر من ستمبر بالزحف شمالا من (سافا) و (أريحا) وتقهقرو القوات التركية أمامه على الجناح الايسر ، واصل البسود والنظاميون من العرب نشاطهم على الجناح الايمن ومن (تل عرار) بتخريب الجسور والمحطات حول قرى (بسرى) و (الشيخ سعد) و (خربة الغزاة) التى دخلها (عودة أبوتايبة) وأسر مايقرب من مائتى رجل من الاتراك ، ونافسه (الشعلان) بأسر أربعمائة وأستولى على مامعهم من أسلحة رشاشة وبعض الدواب (٧٢) فى ذات الوقت الذى أرسل فيه (نسيب الكرى) من دمشق استعدادا لتأمين الطريق نحو أبواب وطرق المدينة فواصل الجمع زحفهم نحو (قرية الشيخ مسكين) وأستمر الزحف دون عقبات حتى أبواب دمشق ثلاثة أيام ، فتعجلت المجموعات السدوية الدخول إليها فى الثلاثين من سبتمبر وفى اليوم التالى عام ١٩١٨ دخلتها القوات البريطانية والنظامية العربية (٧٣)

أما (المدينة المنورة) فقد ظل فخرى باشا بدافع عنها أمام حصار قوات الشريف على لها ، وأستطاعت بعض أفرع (حرب) التى أرتبطت على أحكام الحصار ومنع وصول

(٧٢) الدنجتون - المصدر السابق - ص ٢٤١ .
(٧٣) أنطونيوس - المصدر السابق - ص ٣٢١ / ٣٣٩ .

الامدادات من قبل ال الرشيد ، والاستمرار في تدمير قضبان
الخط الحديدى ، وان لم تستطع قوات الاشراف اقتحام قلاع
الاتراك حول المدينة ، ولم يقدم الانجليز المساعدة ، طالما
ظلت مصالحهم العليا فى طريقها للنجاح بمنطقة الشام
خاصة والمنطقة العربية عامة ، وظل الموقف على حالته
حتى سلم (فخرى باشا) نفسه للامير على فى بداية عام ١٩١٩
بعد رساله شكر من السلطان ، وبعد شهرين من توقيع الهدنة
بين الحلفاء وتركيا فى (جزيرة مدروس) فى ٣١ أكتوبر
١٩١٨ (٧٤) .

لقد انضوت القبائل تحت لواء الثورة بدافع من
أطماعها وطبائعها الذاتية الكامنة بها أولا فى المسال
والمعونة والشار ، وهى لاتدرى عن دوافع وأهداف الثورة شيئا
وتناسب دورها خلال الاحداث تناسب عكسا مع تعاضم وتأثير
دور القوات النظامية والبريطانية على حد سواء ، وعندما
وصلت الثورة الى نهاية المطاف ، قنعوا بما حصلوا عليه
ماليا وماديا داخل الحجاز .

وأستفاق الحوارنه والدروز وبعض أفرع الرولا بل أهل
سورية عامة على النتيجة المفجعة التى أنتظرتهم بفرض
السيادة الفرنسية عليهم ، فازاحت عنهم مباح الانتصار التى
انتظروها طويلا .

وعادت قبائل الحجاز مرة أخرى الى سيرتها الاولى بما
عاد عليها من فوائد و (غنائم) خلال الثورة ، لتقع داخل
المحراء لاتدرى شيئا عما يدور حولها من صراع جديد .

(٧٤) لنشوفسكى (جورج) الشرق الاوسط فى الشؤون العالمية
ترجمة جعفر خياط ط - بغداد ١٩٦٤ ص ١٢٠ .

أما الحسين فقد أنهى أمره بانتهاء المهمة التي من أجلها أقام الثورة ، وألقت به بريطانيا التي فازت بنصيب الأسد في براثن النسيان تتجازه رباح مصالح القوى صاحبة النفوذ ثم تركته فريسة أمام ابن مسعود الذي احتل مكانة الاشراف داخل الجزيرة العربية . وعاد الحسين مرة أخرى لتدفع ابنه عبدالله ليزحف الى (معان) ومنها الى (عمان) ليحصل على تأييد قائلها من الحويطات والرولا ماليا وعسكريا ، ثم يقيم كيانا سياسيا جديدا حول نهر الاردن ، لسكون هذا النظام نفسه خيطا رفيعا أستمكت به بريطانيا بقوة خروجها من المازق الذي وقعت فيه بين الجموح الفرنسي من جهة ولتقديم دليلا يحفظ ماء وجهها ومصداقتها أمام الحسين وأبناءه ه وقوة بأس القائل في شرق الاردن بل والعرب جميعا من جهة ثانية .

موقف الحكومة المصرية من التضخم
ابان الحرب العالمية الاولى
د، أحمد الشربيني السيد
كلية الاداب - جامعة القاهرة

قبل أن يتطرق بنا الحديث عن ظاهرة التضخم الشىى
أجتاحت مصر ابان الحرب العالمية الاولى من حيث أسبابها
وموقف السلطات البريطانية منها والممثل ضمنا وصراحة فى
محاولات تصدى الحكومة المصرية لهذه الظاهرة ، فان الامر
يستدعى منا تعريف التضخم وهو يعد مصطلحا اقتصاديا ، حتى
يتضح لنا مدى أنطاق الظاهرة التى تمثل التضخم بمعناه
الاقتصادى على ماشاهدته مصر ابان الحرب العالمية الاولى .

فالتضخم كما عرفه البعض يعنى " الارتفاع التراكمى
والمستمر فى الاسعار (١) " فى حين ذهب آخر الى أن التضخم
يعنى " اختلال التوازن بين التبار النقدى والتيار العينى
داخل اقتصاد معين ، ومثل هذا الموقف يتجسم فى أختلال
التوازن بين العرض والطلب العامين على البضائع والخدمات (٢)

وكلا التعريفين يفهم منهما أن التضخم سسطة يعنى
سهولة الحصول على القوة الشرائية ، والتى كلما ازدادت
ارتفاعا ،ازدادت الاسعار ارتفاعا أكثر ،بما يؤدى الى هبوط
قيمة العملة المستخدمة الى قيمة السلعة المستهلكة .

(١) ويشير صاحب هذا التعريف الى أنه " قد يكون هناك
تضخم دون أن يكون هناك ارتفاع تراكمى فى الاسعار ،
ويعرف من أشارة الضاغطة على الاقتصاد القومى ، وهو
مانسميه بالتضخم المقيد والمكبوت حيث تعمل الحكومة
من خلال أساليب الرقابة المختلفة على أن تحول دون
ارتفاع الاسعار ، فاذا ما ألغت الحكومة رقابتها هذه
أخذت الاسعار فى الارتفاع السريع وانتشرت آثار التضخم
فى الاقتصاد القومى " عبدالفتاح عبدالرحمن عبدالمحيد
سياسات التنمية الاقتصادية ، الطبعة الاولى ، القاهرة
١٩٨٠ ، ص ٢٠٠

(٢) جاد لبيب : بناء الاقتصاد المصرى والعلاقات الاقتصادية
والمالية بين مصر وأنجلترا ، الانجلو المصرية
القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٥٥ .

وبعد هذا التعريف الموجز لمصطلح التضخم ، سوف تقسم هذه الورقة منهجيا الى عدة نقاط أساسية ، يقوم الباحث فيها بالوقوف على حجم الارتفاع التراكمي في الاسعار وأسبابه وأبعاده ، ثم موقف الحكومة من ذلك ، والذي جاء ساعاز من جانب السلطات البريطانية في بعض الاحيان والتدخل السافر منها في بعضها الاخر .

فمن الواضح أن كل السلع ، ولاسيما الاستهلاكية منها أرتفعت أسعارها أرتفاعا متواليا لم تشهد مصر له نظيرا، على مر تاريخها الحديث ، وقد أرتبط هذا الارتفاع - الذي جاء مذهشا في السنوات الاخيرة من الحرب - بظروف الحرب التي كان أندلاعها بمثابة الضوء الاخضر للاسعار لتبدأ في صعودها ، ولتتعثر في مواجهتها كل محاولات الحد منها.

وتعد المواد الغذائية من أخطر المواد التي أصابها أرتفاع الاسعار ، نظرا لكونها تمثل مطلقا معشيا أساسيا في حياة القطاع العريض من الاهالي ، والبيان التالي يحمل الارقام القياسية لاسعار بعض المواد الغذائية في سنوات الدراسة " السنة الاساسية ١٩١٣ = ١٠٠ "

بيان رقم (١)

المنتوسط*	القمح	الارز	الصل	الاذرة الرفيعة	الاذرة الشامية	العدس	الخطبة	الغول	الشعير	السنة
١٠٠٠	٩٨٢	٩٢٣	٣٠١٠	٨٢٣٣	٨٤٦٦	١١٠٤	١٢١٠	٩٩٣	٨٢٤	١٩١٤
١١٣٧	١٠٨٥	٩٩٥	١٩٠٥	١٠١١	٩٦٢٢	١٢٥٤	١٥٢٦	٨٦١	١٠٨١	١٩١٥
١٥٢٩	١٣٣٧	١٥٦٣	١٦٠٠	١٤٢٦	١٤٦٧	١٣١٠	٢١٠٥	١٢٥٧	١١٥٩	١٩١٦
١٨٢٨	٢١٩١	١٧٤٣	٢٩٢٤	١٩٦٢	١٧٩٠	١٤٤٨	٢٢٤٧	١٦٥٦	١٤٧٧	١٩١٧
١٨٣٠	٢٢١٠	١٧٩٠	١٥٧٠	٢٠٥٢	٢٠٠٨	١٧٦٥	٢٦٢٠	١٨٢٤	١٧٨٥	١٩١٨

* المصدر: مصلحة عموم الاحماء ، الاحماء السنوى العام ١٩٢٧ - ١٩٣٨ ، ص ٤٩٨
 بما فيها نسبة الزيادة في القطن وملحقاته وقصب السكر .

ومن البيان السابق نجد أن أسعار المواد الغذائية أخذت في الارتفاع الواضح مع اندلاع الحرب العالمية الأولى - وأن كان بعضها ، الفول ، الأدره الشامى ، الارز ، فقد تأخر في ارتفاعه الى ماعد سنة ١٩١٥ - حتى اذا ماجاءت نهاية الحرب ازدادت أسعار بعض الاصناف لاكثر من مثلى ما كانت عليه قبل الحرب ، وهذا كان ممثلا فى : الحلة والاذرة والقمح ، وجاء هذا مصحوبا بأزمة خبز تعرضت لها المدينة المصرية ، أشدت وطاتها حتى كادت تسيبتها فى معظم الاحيان خالية منه (٣) ، ولم يكن الريف أحسن حظا من المدينة فقد عاش حالة من القلق مرجعها قلة القمح وارتفاع أسعار الدقيق (٤).

ولم يتوقف ارتفاع الاسعار على المواد الغذائية ، بل تعداها الى كل السلع الاستهلاكية الاخرى بدءا من الوقود ومرورا بالزجاج ، انتهاء بالعقاقير والمنسوجات ، حيث بلغ الارتفاع فى ثمن الوقود حدا هدد بالدرجة الاولى المطاحن بالتوقف عن العمل (٥) ، بعد أن بلغ " ثمنه ستة أضعاف ماكان عليه قبل الحرب (٦) .

أما أسعار الزجاج ، فقد تضاعفت فى أقل من عام فأصبحت زجاجة المصباح التى كانت تباع قبل الحرب بمليمين أضحت بخمسة عشر مليما وأكثر (٧) كذلك بلغت أسعار العقاقير الطبية أضعاف ثمنها قبل الحرب فى

(٣) المقطم ، عدد ٨٩٨٢ ، ٢٦ ستمبر ١٩١٨ " مشكلة الخبز والقمح والدقيق "

(٤) الاهالى ، عدد ٣٠١٨٥٣ ، أكتوبر ١٩١٦ ، المقطم ، عدد ٨٣٩٠ ، ٢٠ أكتوبر ١٩١٦ " الغلاء الفلاء " .

(٥) المقطم ، عدد ٨٧٢٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩١٧ " مشكلة البترول "

(٦) نفس المصدر ، عدد ٨٦٢٥ ، ٢٥ يوليو ١٩١٧ " الحمهور والتجاربيين لجنة لتموين ولجان التسعيرة " .

(٧) المؤيد ، عدد ٧٦٥٠ ، ١٤ أغسطس ١٩١٥ ، شؤون مصر - السوائع والمصنوعات الاحنبية محمد البرديسى .

أقل من عام (٨) ، وبذلك وصلت حدا لا يحتمله الفنى فضلا عن متوسط الحال والفقير ، ويعزى هذا الارتفاع فى أسعار الادوية الى مارج عليه تجار الداخ من رفع أسعارها بحجة ارتفاع أسعارها العالمية (٩) .

أما المنسوجات ، فقد تراوح ارتفاع أسعارها عند نهاية الحرب مابين ١٠٠ / و ١١٠ / عما كانت عليه قبل الحرب هذا علاوة على ارتفاع أيجارات المساكن فى ذات الفترة مابين ٧٠ / و ٩٠ / (١٠) .

ولم يفلت السكر من هذا الارتفاع فى الاسعار (١١) ، ليس هذا فحسب بل أنه ظل طوال الحرب يمثل مشكلة لكل المواطنين لتلاعب الشركة المنتجة له ، وكذلك المتعهدين لديها من التجار بالكميات المصنعة (١٢) .

علاوة على ذلك تطرق الغلاء الى تعريفات النقل ، ففى الوقت الذى ارتفعت فيه أسعار البوسته (١٣) ، رفعت مصلحة السكك الحديدية أجور النقل على خطوطها بنسبة ١٠٠ / (١٤) .

وقد أضر هذا الارتفاع بالسلع وبالتالي المستهلكين حيث ترتب على هذا الارتفاع فى أحور النقل ، ارتفاع فى تكاليف السلعة ، ومن ثم ارتفاع أسعارها .

- (٨) نفس المصدر .
- (٩) الاهالى ، عدد ١٨٤١ ، ١٨٠ أكتوبر ١٩١٦ ، نفس المصدر ، عدد ١٨٤٢ ، ١٩٠ أكتوبر ١٩١٦ .
- (١٠) المقطم ، عدد ١٠٣١٩ ، ١٤ فبراير ١٩١٦ . " غلاء المعيشة هل تعود الاسعار الى مستواها قبل الحرب " فضل الله جنحو .
- (١١) الشعب ، عدد ٣٠٧٦ ، ٣٠ أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الاقتصادية أزاء الحرب الحاضرة " .
- (١٢) محافظ مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠ / ٥ ، مجموعة ٣٨٢
- (١٣) الاهالى ، عدد ١٩٠١ ، ١٧٠ ديسمبر ١٩١٦ .
- (١٤) نفس المصدر ، عدد ٢٧٣٨ ، ٢٧٠ أغسطس ١٩١٩ .

وبذلك أصاب ارتفاع الاسعار كل السلع الاستهلاكية ، وقد ترتب على ذلك ارتفاع فى نفقات المعيشة ، والسان التالى حمل أرقاماً توضح تطور أسعار الجملة ونفقات المعيشة*
 " متوسط أغسطس وديسمبر ١٩١٣ = ١٠٠ / "

جدول (٢)

متوسط		السنوات
نفقات المعيشة	أسعار الجملة	
١٠٠ /	٩٨ /	١٩١٤
١٠٢	١٠٣ ،	١٩١٥
١٢١	١٢٨	١٩١٦
١٥٤	١٧٦	١٩١٧
١٨٩	٢١١	١٩١٨

المصدر : مجلة غرفة القاهرة ، السنة ١٥ ، عدد ٥ ، مايو ١٩٥٠ " أستفتاء بهم كل تاجر ، التاجر والضريبة ، ص ٥٣٤ .

ومن البيان نجد أن الارتفاع الذى جاء واضحا فى نفقات المعيشة وخصوصا بعد ١٩١٥ جاء متمشيا مع ارتفاع أسعار الجملة ، لكن هذه الاسعار الرسمية التى كانت تبين عليها الأرقام القياسية لاتمثل المستوى العام للأسعار تمثيلا صحيحا وبالتالى نفقات المعيشة .

فقد تم الاعتماد فى استخراج متوسط نفقة المعيشة على الاسعار التى كانت فى الغالب ماتحددها جهات معترف بها من قبل الحكومة كلجان التسعير أو لجنة التموين أو مصلحة

* نفقة المعيشة هى : التكاليف النقدية لما يستهلكه الفرد المتوسط فى وحدة زمن " شهر أو سنة " من السلع والخدمات .

التموين أو لجنة مراقبة التموين ، وبذلك كان يؤخذ بالاسعار الجبرية والمفروض الالتزام بها من جانب التجار ، دون الوضع في الاعتبار أن أى سلعة - طبيعيا - كانت تشتغل من يـد تاجر الجملة الى يد تاجر التجزئة أو أكثر من تاجر واحد ثم فى النهاية تصل الى المستهلك ، وكما هو معروف أنها فى كل مرحلة من هذه المراحل كانت تتحمل من التكاليف ما يستدعى رفع سعرها ، وبذلك لو أستبدلنا أسعار التجزئة أو أسعار السوق السوداء بأسعار الجملة ، وأستخرجنا على أساسها متوسط نفقات المعيشة ، لجاأ أزيد بكثير عما جاأ بالبيان رقم " ٢ "

وسوف نسوق دليلا عن أختلال التوازن بين أسعار الجملة والتجزئة فى بعض سنوات الدراسة ، فعندما نشرت مـلحة التموين بيانا بمتوسط أرتفاع الاسعار فى سنوات ١٩١٥ و ١٩١٦ و ١٩١٧ الى نسبة ما قبل الحرب ، جاأ متوسط الزيادة فى أسعار الجملة بالقاهرة فى سنة ١٩١٥ مساويا لما كان سائدا فى سنة ١٩١٤ ، أما فى سنة ١٩١٦ فارتفع بنسبة ٢٧ ٪ وفى ١٩١٧ ، بلغ الأرتفاع ٧٦ ٪ أما البيع بالتجزئة فبلغت زيادته ٤ ٪ فى سنة ١٩١٥ و ٣٣ ٪ فى ١٩١٦ و ٨٤ ٪ فى سنة ١٩١٧ (١٥) فكان على سبيل المثال " أردب الحمص يباع بالقطاعى فى القاهرة بمبلغ ٩٦٠ قرشا " فى حين " كان سعره الرسمى بالساحلين لايزيد عن ٤٨٠ قرشا " (١٦).

وبذلك شهدت مصر أبان الحرب العالمية الاولى أرتفاعا تراكميا للاسعار ، مما أدى الى أرتفاع نفقات المعيشة ، وبالتالي كان واضحا الأختلال بين قدرة الفرد الشرائسية وقدرته على الاستهلاك . وبهذا تكون مصر قد شهدت النـخـم

(١٥) الاهالى ، عدد ٢٢١٧ ، ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ .
(١٦) المقطم ، عدد ٨٧٥١ ، ٢٠ ديسمبر ١٩١٧ " حماية مـلحة المستهلكين على ذكر المجلس البريطانى "

سعيه في هذه الفترة .

وإذا كان الحال كذلك فالسؤال الذي يطرح نفسه هو هل جاء هذا التضخم باعتباره ظاهرة طبيعية مصاحبة لعملية تنمية كان يمر بها المجتمع المصري ، أو أن هناك أسبابا أدت الى هذه الظاهرة ؟

" ان الدول الساعية للتقدم تتعرض للتضخم خلال عملية التنمية بسبب ارتفاع الميل الحدى للاستهلاك ، واتجاه هذه الدول الى رفع معدل النمو الاقتصادى بما يتعدى قدرتها الحقيقية المتاحة ، وبسبب عوامل هيكلية وتنظيمية تجعل مرونة عرض الانتاج منخفضة فى الأجل القصير بحيث يترتب على زيادة الطلب الفعال خلال عملية التنمية وجود أختناقات فى الانتاج وخاصة أنتاج السلع الغذائية وينتهى الامر برفع الاسعار (١٧)

والجدير بالذكر أن المجتمع المصرى لم يكن يمر بأى عملية من عمليات التنمية بما يؤدي الى التضخم ، فكان المجتمع فى ذلك الوقت فى حالة تبعية شبة كاملة للسوق العالمى ، ومن ثم لم يكن يمتلك من أمر نفسه شيئا مما يجعله يرسم سياسات تنموية تدفع به الى الامام ، وبذلك لم تكن ظاهرة التضخم التى أجتاحت المجتمع المصرى أثناء الحرب العالمية الاولى شيئا طبيعيا متعلقا بخطة تنموية للمجتمع ، وهذا يستدعينا السحث عن أسباب الظاهرة .

وليس من قبيل المبالغة إذا ماقلنا من أن أسباب التضخم فى الفترة محل الدراسة متعددة ، ورغم تعددها إلا أنها جاءت كلها نتيجة لظروف الحرب ،على الرغم من أن مصر لم تكن طرفا أساسيا فيها يحتاج الى أملاك قدرة شراء

(١٧) عبدالفتاح عبدالرحمن عبدالمجيد : المرجع السابق ،

مالية تفوته متطلبات الحرب ونفقاتها .

فما لاشك فيه أن الاقتصاد المصرى فى ذلك الوقت كانت تربطه علاقة تبعية بالاقتصاد العالمى بصفة عامة والاقتصاد البريطانى بصفة خاصة ، فى إطار تقسيم العمل الدولى، والذى أصبحت مصر تمثل أحد أقسامه بعد أنهبأر رأسمالية الدولة ، وقد أدى ذلك ألى أنتقال الهزات التى تصيب الاقتصاد العالمى والبريطانى الى الاقتصاد المصرى فى أسرع مايمكن .

ولما كانت بريطانيا التى تربط مصر بها علاقة تبعية والتى كانت تشكل المحور الرئيسى فى سياسة تقسيم العمل الدولى ، طرفا رئيسيا فى الحرب ، ودخلت مصر هذه الحسرب الى جانبها ، كان من الضرورة بمكان أن تتأثر بالهزات التى تصيب الاقتصاد البريطانى ، ان لم تستخدمها بريطانيا كبش فداء يخفف عنها الحمل فى تحمل نفقات الحرب بشكل أو بآخر .

فبعد أن أنخرطت بريطانيا فى أتون الحرب ، عملت كإى بلد محارب على تركيز قوة الشراء فيها لاحتياج الحرب الى احتياطى نقدى ، ولم تجد بريطانيا أسلوبا أسهل وأسر لذلك من أمتداد نفوذها الى أستصدار أوراق نقد بما تملبه الحاجة ، ولذلك عزمت على الخروج عن قاعدة الصرف بالذهب حتى لا تتقيد فى إصدار العملة الورقية بأى غطاء ذهبى .

ولما كانت الاسكندرية قد أصبحت قاعدة البحر المتوسط ومركزا لحملة غاليبولى^(١٨) ، فقد كان يههم بريطانيا أحداث تغيير نقدى بمصر يتفق مع ما أحدثته من تغير لديها بما يخدم أهدافها الحربية . ولذلك لجأت لنفس الأسلوب الذى

(١٨) لطفة محمد سالم : مصر فى الحرب العالمية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ ص ١٢٢

أخذت به لتطبيقه في مصر ، حتى لاتجد صعوبة عندما تلجأ
الى التمويل التضخمى للانفاق الحربى .

فعندما أندلعت الحرب العالمية الاولى ، كانت العملة
الذهبية هي العملة القانونية الوحيدة ، لكن خشى الا يقوم
الاعتماد عليها بالوفاء بالحاجات فى ظل ظروف الحرب، لذلك
تقرر فرض السعر الالزامى لاوراق البنكنوت فى ٢ أغسطس ١٩١٤
وأصبحت هذه الاوراق غير قابلة للاستبدال بالذهب الى أجل،
لكن فى نوفمبر من ذات السنة ونظرا لاستحالة أستيراد الذهب
الى مصر لحفظه ضمنا لاوراق العملة الجديدة التى قضت
الضرورة باصدارها تم الترخيص للبنك الاهلى بايداع مقدار
الذهب الذى يفى بضمان هذه الزيادة فى بنك إنجلترا بلندن،
وفى أكتوبر ١٩١٦ أخطر بنك إنجلترا البنك الاهلى باستحالة
تقديم الذهب كضمان لاوراق العملة نظرا لظروف الحرب (١٩).

وماكان من وزارة المالية إزاء ذلك الا إصدار قرار
يجيز للبنك الاهلى أن يتسامح مؤقتا فى أتباع نظام التغطية
المنصوص عليه فى النظام الاساسى ، وأن يستخدم بدلا من
الذهب لتغطية البنكنوت المصدر ، أذونات الخزانة البريطانية
وقد أدى ذلك الى إفقاد الحكومة حقها فى الرقابة على الاصدار
وأصبح مسكنا تحويل أى مبلغ من إنجلترا الى مصر بدون قيد
ويسعر التعادل (٢٠).

فأصبح فى وسع الحكومة البريطانية دون أى تدخل من
جانب السلطات المصرية أن تودع فرع البنك الاهلى بلندن أية
كمية من أذونات الخزانة البريطانية وتحصل فى مقابلها من
فروعه بمصر على جنهات مصرية للانفاق منها فى مختلف الأغراض

(١٩) صحيفة الاقتصاد والتجارة ، المجلد الثانى ، العدد الثالث ،
مايو ١٩٢٦ ، تقرير اللجنة المالية للمجلس الاقتصادى

عن نظام العملة فى المملكة المصرية ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٢٠) عبدالمنعم البيه : اقتصاديات البنوك ، الطبعة الاولى
النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٢٨ .

وبذلك خلقت بريطانيا لنفسها موردا غير محدد لتغطية
مفقاتها الحربية في مصر عن طريق زيادة العملة المصدرة
والمداولة دون أن تلجأ الى عقد قرض مع مصر أو الدفع
ذهبا أو تصدير سلع أو تأدية خدمات لها .

والبيان التالي يوضح حركة البنكنوت المصدرة
والمداولة بمصر أثناء الحرب العالمية الاولى بآلاف الجنيهات
البيان رقم (٣)

البنكنوت		السنة
المتداول	المصدر	
٧ر٤٦٦	٨ر٢٥٠	١٩١٤
١٠ر٥٨٣	١١ر٥٥٠	١٩١٥
١٩ر٣٧٤	٢١ر٢٠٠	١٩١٦
٢٩ر٥٥٢	٣٠ر٨٠٠	١٩١٧
٤٤ر٤٩٠	٤٦ر٠٠٠	١٩١٨

المصدر : مجلة غرفة القاهرة السنة الخامسة ، العدد الخامس
مايو ١٩٥٠ ، أستفتاء يهيم كل تاجر ، التاجر والضريبة
ص ٥٣٤

ومن البيان يتضح أن حجم البنكنوت المصدر، وكذلك
المتداول أخذ في التزايد مع اندلاع الحرب ، ليس هذا فحسب
بل أنه في سنة ١٩١٦ بلغت الزيادة نحو الضعف ، وأستمرت
بعد ذلك في التزايد حتى نهاية الحرب .

وكان لهذا التزايد في البنكنوت المصدر والمتداول
أثره الواضح على زيادة الودائع في البنوك وكذلك
صناديق التوفير ، فبالنسبة لودائع البنوك ، فقد أزدادت

ودائع الافراد لدى البنك الاهلى المصرى على سبيل المثال من ٣٥ مليون فى سنة ١٩١٣ الى ١٨ مليون جنيه فى سنة ١٩٢٠ كذلك اُردادات ودائع بنك الانجلو من ٢٩ مليون فى سنة ١٩١٣^(٢١) الى نحو ١٦٧ مليون جنيه مصرى فى سنة ١٩٢٠^(٢٢) .

أما صناديق التوفير فقد تزايد الاقبال عليها ، وبالذات فيما بعد سنة ١٩١٦ والبيان التالى يوضح ذلك :-
البيان رقم (٤)

الايـسـدـاع		الاسـتـرـدـاد		السنة
عدد العمليات	القيمة مليم جنيهه	عدد العمليات	القيمة مليم جنيهه	
١٣٠٨٠٨	٨٤٥	٩٨٤٠٧	٠٣٣	١٩١٣
١٠٢١٢١	٥٣٥	٩٨١٠١	٣٩٨	١٩١٤
٧٢٦٣٠	١٩٧	٥١٣٦١	٧٤٠	١٩١٥
١١٥١٧٢	٦٥١	٥١٤٣٠	٩٢٣	١٩١٦
١٤٦٧٠٣	١٨٢	٦٢٦٢٤	٨٢٨	١٩١٧
١٥١٥٠٩	٧٤٣	٦٨٣٩١	٧٠٣	١٩١٨

المصدر : وزارة المواصلات ، مطحة البريد ، تقرير المطحة عن أعمال صندوق التوفير ١٩٣٩ ، المطبعة الاميريية سولاق ١٩٤٠ ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

ومن هذا البيان نجد أن عمليات الایداع بصناديق التوفير أخذت فى ارتفاعها التدريجى ابتداءً من سنة ١٩١٦ وحتى

(٢١) على الجريتلئ ، تطور النظام المصرفى فى مصر ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحماء والتشريع ، بحث العد الخمسينى ١٩٠٩ - ١٩٥٩ ، ص ٢٣٤ .
(٢٢) المقطم ، عدد ١٠٣٨٦ ، ٤ مايو ١٩٢٣ " تخزين ٣٠ مليون جنية وأى فائدة تجبى من هذا المال " فضل الله جنحو .

نهاية الحرب ، هذا فى نفس الوقت الذى هبطت فيه عمليات الاسترداد .

وهكذا أدى اهتمام بريطانيا بتحويل مصر عن المصرف بقاعدة الذهب الى المصرف بالاسترلينى من أجل تسهيل عمليات تموين قوات الحلفاء الموجودة بمصر ، الى تزايد المصدر والمتداول من أوراق البنكنوت بدرجة كبيرة ، وبالتالي هبوط قيمتها الى قيمة السلعة ، وفى سنة ١٩١٧ أصبح الحنص المصرى " يساوى نصف قيمته قبل الحرب (٢٣) وبذلك توفرت أهم أسباب ومظاهر التضخم .

وفى الوقت الذى تزايدت فيه أوراق البنكنوت وازدادت بالتالى القدرة الشرائية لدى غالبية الاهالى - خصوصا بعد سنة ١٩١٦- هبطت السلع الاستهلاكية بالسوق وبالذات المواد الغذائية ، ويعزى ذلك لقلّة المعروض منها ، أو عدم تلبية المعروض للطلبات المتزايدة من قبل الاهالى وقوات الحلفاء .

فمن المعروف أن مصر بعد أن أصبحت بلدا منتجا أساسيا للقطن طويل التيلة ، أضحت تشكل جزءا بالسوق العالمى صعب عليها الانفكاك منه ، وتحولت فى ذلك الوقت الى مستورد لكل السلع الاستهلاكية بما فيها المواد الغذائية وبذلك كانت تصدر الاقطان وبقيمتها تستورد سلعا استهلاكية فى المقام الاول ، ولما اندلعت الحرب وجاءت الدول المنخرطة بها أكثر الدول تعاملات تجاريا مع مصر ، تأثرت حركة المبادلات التجارية العالمية ، وتأثرت مصر بذلك أيضا حيث أدت ظروف الحرب الى صعوبة نقل السلع من أوروبا الى الخارج سواء لعزوف التجار عن المخاطرة برؤوس أموالهم خشية أغراق السفن بما تحمله من سلع أو نسيئة اتجاه الدول المشتركة فى الحرب الى التكشيف من إنتاج السلع القتالية على

(٢٣) المقطم ، عدد ٨٧٢١ ، ١٥٠ نوفمبر ١٩١٧ " مباحث اقتصادية " ١ " بدون توقيع .

على حساب السلع الاستهلاكية (٢٤).

على كل حال ترتب على هذه الحرب ، الهبوط فى أستيراد السلع الاستهلاكية الى مصر ، ليس هذا فحسب ، بل أن ما أمكن أستيراده جاء الى مصر يحمل ما أصاب أوروبا من أرتفاع فى الاسعار ولبمدت بذلك الارتفاع الى مصر (٢٥). فأصبحت "كـلـلـ السلع - التى كان تجارنا يشترونها من أوروبا بأشنيـن يشترونها الان بخمسة فكل بضاعة ترد من الخارج تباع فى أسواق مصر بأضعاف ما كانت تباع به منذ ثلاثة أعوام فالمنسوجات القطنية التى تأتينا من الخارج أرتفعت أسعارها أرتفاعا فاحشا" (٢٦).

وزاد من تحميل السلع أرتفاعا فى الاسعار توافر القوى الشرائية لدى قطاع من السكان ممن أستفادوا من التحولات النقدية ووجود قوات للحلفاء بمصر وأنفاقها الاموال عن سعة ، فأقبلت على أستهلاك السلع على أختلاف أنواعها على أوسع نطاق (٢٧) ، التى كان يهتما الحصول عليها بالدرجة الاولى دون أدنى أعتبار للمبلغ المدفوع فيها (٢٨).

وبذلك حدث أختلال التوازن بين العرض من الانتاج السلعى - سواء المستورد أو المنتج محليا - وبين الطلب الممثل فى القوات العسكرية الجاثمة على أرض مصر والاهالى

(٢٤) أحمد الشربيني السيد : تجارة مصر الخارجية ١٩١٤ - ١٩٣٩ رسالة الدكتوراه غير منشورة بمكتبة جامعة القاهرة ص ٢٥٨

(٢٥) الشعب عدد ٧٥٩ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الاقتصادية والحرب المنتظرة " المقطم ، عدد ٢٥٠ ، ٨٦٢٥ يوليو ١٩١٧ " الجمهور والتجار بين لجنة التموين ولجان التسعيرة "

(٢٦) المقطم ، عدد ٨٤٢١ ، ٢٥ نوفمبر ١٩١٦ " القطن وأسعاره "

(٢٧) الاهالى ، عدد ١٢٨٠ ، ٣ فبراير ١٩١٥ " غلاء الاسعار

الامة المصرية والتجار " ، النشرة الاقتصادية المصرية

عدد ٦٤ ، ١٨ أبريل ١٩٢٢ " مراقبة الغذاء بالقطر المصرى

ص ٣١٣ .

(٢٨) لطيفة سالم : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

الذين أصبح المال بحرى وفيرا فى أيديهم نتيجة ظـروف الحرب . وقد أدى هذا الاختلال الى أكتـمال ظاهرة التضخم، وقد زاد من حدة وقع التضخم على الفئات الاجتماعية المصرية ، أنتشار مايمكن أن نسميه بالسوق السوداء ، حيث درج التجار وغيرهم من الأغنياء - فى بعض الأحيان-على حجب السلع وبالنذات الغلال حتى يقل المعروض منها ، ويشـتد الطلب عليها فيفرجون عنها لمن يأمنون جانبهم ويفرضونها عليهم بأسعار مرتفعة (٢٩) .

وبلغت مسألة إحداث السوق السوداء لسلعة السكر حدا لايطاق ، حيث عملت الشركة المصنعة له على مساعدة العملاء المتعارف عليهم - وهم فى الغالب من تجار الجملة - فى سى احتكار السوق ، والذين أصبحوا بالاتفاق فيما بينهم ينزلون السكر الى السوق وقتما يشاءون وبأى سعر يرونه ويمنعونه متى تراءى لهم ذلك (٣٠) . وكانت الشركة مابين الحين والحين تبلغهم كفيها عن بيع السكر لمدهد محدد (٣١) .

والجدير بالذكر أن إخضاع معظم السلع للتسعير الجبرى كان له أكبر الاثر على خلق ظاهرة السوق السوداء ورفع الاسعار ، والتي كان للتجار الاجانب الدور الاساسى فى خلقها (٣٢)

-
- (٢٩) الاهالى ، عدد ١٢٩٥ ، ٣٠ مارس ١٩١٥ " نتائج الموراتورسيوم؛ نفس المصدر ، عدد ٢٠٥٠ ، ١٦ مايو ١٩١٧ " أجمعاع الخازين فى دار المحافظة من المسؤول عن الغلاء "؛ نفس المصدر ، عدد ٢٤٠٠ ، ٢٦ يوليو سنة ١٩١٨ ؛ المقطم عدد ٨٦٦٣ ، ٧٠ سبتمبر ١٩١٧ " لجان التسعير وأسعار الحبوب حبر على ورق " .
- (٣٠) مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ٥/١٠ ، مجموعة ٣٨٢ ؛ الاهالى عدد ١٣٤٣ ، ٣٠ أبريل ١٩١٥ .
- (٣١) الاهالى ، عدد ١٨٦٨ ، ١٤ نوفمبر ١٩١٦ .
- (٣٢) الاهالى ، عدد ١٦٠٩ ، ٢٢ فبراير ١٩١٦ ؛ الشعب ، عدد ٧٧٢ ، ١٧ أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الحاضرة اراء الحرب العالمية الاولى " .

وغير ظاهرة السوق السوداء ، فقد زاد من ارتفاع الاسعار انتشار عمليات المضاربة التجارية بالاسواق ، فأخذت الاسواق تنعج بالعديد من الافراد الذين لا يعلمون من أمر التجارة شيئا ، والذين أخذوا يشترون السلع ويشنون حملات الترغيب لبيعها بأسعار مرتفعة ، وقد أدى ذلك فى النهاية الى ارتفاع أسعار السلع بشكل متضاعف (٣٣) .

وهكذا خلقت الحرب التضخم الذى أخذت حدته تشتد من سنة لآخرى حتى اذا ما أشرفت الحرب على نهايتها ، كان المجتمع المصرى بكل فئاته الاجتماعية قد وصل به الضيق الى الذروة ، وأصبح سوده شعور بالغضب من طول المعاناة أثناء الحسب من جراء ارتفاع الاسعار الفاحش .

وقد أحسنا هذا الشعور من خلال الالتماسات التى دأبت الفئات الاجتماعية - بالعاصمة والاقاليم - على رفعها الى الجهات المعنية تحمل تضرهم من ارتفاع الاسعار - بالذات المواد الغذائية - الى الحد الذى استحال معه العيش عند حد الكفاف لكل الفئات الاجتماعية ومطالبة الحكومة بالتدخل لوضع حد لهذا الارتفاع (٣٤) .

(٣٣) لطيفة سالم : المرجع السابق ص ١٤١ ؛ الاهالى ، عدد ١٨٥٨ ، ٤٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

(٣٤) محفوظات مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠ / ٣ / أ ، مجموعة ٣٨٢ "صورة" مكاتبة من مديرية بنى سويف الى وكيل الداخلية نمرة ٢٩٩ بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٦ ؛ الديوان العالى السلطانى : قيد العرضحالات المرسله من الديوان ، رقم س ٣/١/٨ ، بتاريخ ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ نمرة ٢٥٢ ونمرة ٢٩٩ ، مجلة الغرفة التجارية المصرية سنة ٣ ، عدد فبراير ١٩١٨ ، ص ٨١ ، المقطم ، عدد ٨٧٠٤ ٢٦ أكتوبر ١٩١٧ " الشكوى من غلاء الاسعار ومصلحة التمويين " .

فبالنسبة للفلاحين ، فقد أدى سوء تصريف محصول القطن في سنوات الحرب الاولى وهبوط أسعاره الى زيادة احساسهم بارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية (٣٥).

وإذا كانت أسعار القطن قد أخذت في ارتفاعها النسبي بعد ذلك حتى نهاية الحرب ، فقد اقترن ذلك باشتداد وطأة الغلاء في البلاد ، حيث استمرت أسعار الحاجيات في ارتفاعها (٣٦) الى أن بلغت في سنتي ١٩١٨ ، ١٩١٩ حدا لا يمكن احتماله ، لان النقص في المواد الغذائية وبالذات الحبوب ، أدى الى أن أصبح الوضع في غابة الخطورة وبالذات في المدن (٣٧) . أما الموظفون فبعد أن كانوا أكثر الفئات الاجتماعية المصرية بحبوحة من العيش قبل الحرب ، نظرا لضبطهم نفقات معيشتهم مع رواتبهم ، فقد جاءت الحرب وماجرتة في أذبالها من ارتفاع مفاجئ ومستمر في الاسعار ، لتعكس الصورة بالنسبة لهم وأصبحوا - وخصوصا صغارهم - أكثر الفئات الاجتماعية تأثرا بارتفاع الاسعار هذا ، وتخفيفا لمعاناة صغار الموظفين من الارتفاع في نفقات المعيشة ، قررت الحكومة صرف علاوات لهم - بدل غلاء معيشة - بلغت بالنسبة لمفاز الموظفين ١٠٠٪ (٣٨)

ومع ذلك استمرت معاناة صغار الموظفين من ارتفاع الاسعار بالمقارنة الى مرتباتهم حيث استمرت التلغرافات (٣٥) الاهالي ، عدد ١١٨٧ ، ١٩٠ أكتوبر ١٩١٤ " حالة البلاد المالية " ، المؤيد ، عدد ٧٣٩٨ ، أكتوبر ١٩١٤ " تصريف محصول القطن تصريح عطوفة القائم مقام الخديو ردا على رغبات وفد المنيا " (٣٦) عبدالرحمن الرافي : ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ : سنة ١٩٢١ ، ط ٣ ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣٧) Crouchley , A. E : The Economic Development of Modern Egypt, London 1938, P 196 .

(٣٨) أحمد الشرييني السيد : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

التي تحمل توقعات الموظفين وصف ضابط وعساكر البوليس من كل المديریات تنهال على الديوان العالی السلطانی تعج بالشكوى من ارتفاع أسعار الحاجيات المعيشية ارتفاعاً متوالياً ويطلبون رفع مرتباتهم بما يتلاءم مع هذا الارتفاع (٣٩).

ولم يكن العمال أحسن حالا من سابقهم ، ففي الوقت الذي أرتفعت فيه نفقات المعيشة لم تزد فيه دخول العمال على الرغم من تزايد أعدادهم ، وأشداد الطلب عليهم للعمل في بعض الصناعات التي بدأت تتحرك من مرقدتها نسبياً ، ويعزى عدم الاهتمام بدخول العمال لتناسب مع نفقات المعيشة المرتفعة ، أنتكاس الحركة النقابية بسبب الاحكام العرفية ومن ثم تعرض العمال للظلم والاستغلال دون أدنى منارضة (٤٠) وبذلك أصبحوا غير قادرين على مجاراة الاسعار المرتفعة حتى للمواد الغذائية والضروريات الاخرى (٤١).

وبذلك عانى الفلاحون والموظفون وكذلك العمال ، كثيرا من ارتفاع الاسعار ، وهذه الفئات كما هو معروف كانت تمثل الغالبية العظمى السكانية في حين أن الفئات الاخرى سواء من الاجانب أو أعبان المصريين ، لم تصبأى أذى ولم نسمع لها عن شكوى من جراء هذا التضخم الذي أحتاج مصر في فترة الحرب العالمية الاولى .

(٣٩) محافظ الديوان العالی السلطانی ، موضوعات مختلفة (١) ، " تلغرافات وارادة للديوان "؛ الديوان العالی السلطانی ، قد العرضحالات المرسله من الديوان س / ٨ / ١ / ١٩٠٣ أكتوبر سنة ١٩١٧ ؛ المقطم عدد ٨٦٢٥ ٢٥ يوليو سنة ١٩١٧ " الجمهور والتجارين لجنة التموين ولجان التسعيرة "

(٤٠) رؤوف عباس حامد : الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة

١٩٦٨ ، ص ٧٠

(٤١) Crouchley , A.E: op. cit . P 196.

ولما كانت بريطانيا قد حولت مصر الى مصدر سهـل
لامداد قواتها العسكرية بالمواد الغذائية وكذلك المواد
الخام فضلا عن أستخدامها العنصر البشرى فى الاعمال الحربية
والذى جاء فى معظمه من العمال والفلاحين ولذلك فأنها
-أى بريطانيا - وضعت اليد على القلب بمجرد أن أحست ببدء
أرتفاع الاسعار ، خوفا من أن يوءدى التضخم الذى تسببت فيه
ظروف الحرب الى تفجير الوضع الذى كان يزداد شحنا من وقت
لاخر بالغضب ، ومن ثم الاطاحة بكل طموحاتها فى مصـر
وما يتركه من أثر على موقفها العسكرى فى الحرب الدائرة .

لذلك أخذت السلطات البريطانية تحس بخطورة التضخم
على وضعها بمصر فى تلك الاثناء ، بدليل مشاركتها الحكومة
المصرية طرح البدائل لحل الازمة أو على الاقل التخفيف من
وطأتها على القطاع العريض من الاهالى الذى كان يتحمل
جزءا من أعباء حرب لاناقة له فيها ولاجمل .

واذا كانت الحلول التى أستخدمت فى معظمها قد أتخذت
شكلا أجراءيا حكوميا بحتا ، لكن فى ظل ظروف الحرب كانت
السلطات البريطانية لاتترك أى أجراء اقتصادى كائى أجراء
سياسى الا ودرسته دراسة متأنية لان ما يهم مصر بالدرجة الاولى
يهم بريطانيا بنفس الدرجة . ولذلك لم تتمكن الحكومة المصرية
من أتخاذ أى أجراء تجاه أرتفاع الاسعار الا بعد موافقة
السلطات البريطانية ، أن لم يكن بايعاز منها أو علسى
الاقل موظفيها فى الوزارات المصرية .

وقد ذهبت الاجراءات التى أتخذت لمواجهة التضخم فى
اتجاهين ، أتجاه يهدف الى الحفاظ على المواد التموينية
المتاحة داخليا خوفا من تسربها الى الخارج ومحاولة
أستزادتها ، أما الاتجاه الاخر ، فكانت أجراءاته تهدف الى
تشبيث الاسعار اجباريا .

وبالنسبة للاتجاه الاول ، تم اللجوء الى تحديد زراعة القطن في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٨ وجاء اتخاذ هذا الاجراء بايعاز بريطاني ، لعدة أهداف من بينها توسيع مساحة المحاصيل الغذائية على حساب محصول القطن (٤٢) .

ان هناك ما هو أبعـد من ذلك حين قررت السلطات المصرية بايعاز من القائد العام للقوات البريطانية في بعض الاحيان وفي بعضها الاخر من الحكومة البريطانية تحريم تصدير المواد الغذائية الى الخارج (٤٣) ، واذا كان قد صدر قرار يبيح تصدير بعض الحاصلات الغذائية من قمح وأذرة أبتداء من اول يونيو ١٩١٥ ، فان ذلك لم يدم طويلا حيث صدر قرار في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٦ يحرم تصدير المواد الغذائية نظرا لاطلاق زراعة القطن في سنة ١٩١٦ من قيد التحديد (٤٤) .

هذا فيما يتعلق بالاجراءات التي اتخـذت من أجل الحفاظ على المواد التموينية المتاحة داخليا ، أما الاجراءات التي اتخـذت من أجل تحقيق الاتجاه الاخر ، فقد تمثلت في اقامة عديد من اللجان - سواء الخاص منها بالتسعير أو التموين - للعمل على تثبيت الاسعار وذلك بربطها بحد أقصى تحدده بناء على احاطتها بالظروف .

-
- (٤٢) أحمد الشرييني السيد : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .
(٤٣) محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الخارجية ، محفظة ٩/ب ، نفس المصدر ، نظارة الداخلية ، محفظة ١٠/ ١١ ، مجموعة ٨٨ ، نفس المصدر ، محفظة ١٠/١٠ ، مذكرة مرفوعة من وزارة الداخلية الى مجلس الوزراء وقرار باعادة منع تصدير الببض "
(٤٤) محفوظات مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠/٣/ب ، مجموعة ٣٨٢ " قرار مجلس الوزراء باعادة تصدير القمح والذرة الشامية ، نفس المصدر ، نفس المجموعة " قرار فسي ٢٠ سبتمبر ١٩١٦ باعادة تحريم تصدير المواد الغذائية " .

وكانت أولى المحاولات التي استخدمت على أثر نشوب الحرب وأرتفاع الاسعار ،شروع الحكومة فى وضع لائحة تسعير للاشياء التى أصابها الغلاء^(٤٥) ، وأخذت نظارة الداخلية على التومن هذا الشروع تقوم بالاعمال التمهيدية لتشكيل لجان للتسعير بالقاهرة ومدن الاقاليم^(٤٦) .

وقبل أن ينصرم شهر أغسطس ١٩١٤ صدر قانون تشكيل لجان التسعير فى المحافظات والمديريات ،ورخص لها بمقتضى ذات القانون القيام بوضع أثمان للمواد الغذائية والحاجيات الضرورية ووقع على عاتق نظارة الداخلية اختيار أعضاء هذه اللجان من التجار والاعيان من الوطنيين والاجانب ، وعلى أن يقوم برئاسة هذه اللجان المديرون والمحافظون كل فى منطقة أختصاصه ، وقد قام البوليس من تلقاء نفسه بالسهر على تنفيذ التسعيرات الموضوعه^(٤٧) .

وظلت لجان التسعير قائمة تمارس أعمالها حتى تم انشاء مطلحة التموين فى غضون سنة ١٩١٧ ، بيد أن لجنة التموين التى شكلت فى أغسطس ١٩١٤ - رأت فى النصف الثانى من سنة ١٩١٥ حصر نشاط لجان التسعير وقصره على السكر وغسان البترول لوجود الصنفين بأيدى شركات احتكارية تلبسه لشكاوى عديدة من المديرين والمحافظين ، وذلك بعد أن تراجعت عن القرار الذى كانت قد أتخذته بالفائها أمام رغبة مجلس الوزراء ، الذى رأى أن ألغاء لجان التسعير فسى

-
- (٤٥) الشعب ، عدد ٧٦٢ ، ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ .
(٤٦) نفس المصدر ، عدد ٧٧٢ ، ١٧ أغسطس سنة ١٩١٤ .
(٤٧) الموءيد ، عدد ٧٧٣٢ ، ٢٢ نوفمبر ١٩١٥ " الغلاء والتجاره الاهالى ، عدد ١٩٣٢ ، ١٧ يناير سنة ١٩١٧ .

الوقت الراهن-سنة ١٩١٥ - أمر سابق لاوانه ، ومن ثم نصح كخطوة تمهيدية بالاقترار على الايقاف المؤقت لها فإذا ثبت عدم ترتب أى ضرر عن هذا الايقاف يمكن أعتاره أيقافا دائما ونهائيا ، واذا ماثبت العكسرفع الايقاف ،وبالفعل أخذ بالنصيحة التى أسداها مجلس الوزراء ، وأعدت على الفور نظارة الداخلية قرار باخراج جميع الاصناف الغذائية والحاجيات الاولى - ماعدا السكر وغاز البترول - من التسعيرة مؤقتا (٤٨).

بيد أن هذا القرار الذى أتخذته نظارة الداخلية تراجع أمام استمرار ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وتزايد مطالب الاهالى سادخالها ضمن قوائم لجان التسعير (٤٩)

وقد جرت العادة أن تجتمع لجان التسعير بكل منطقة تقوم بها سواء بالعاصمة أو المديرية والمحافظات مرة كل أسبوع ،لتضع تعريفات التسعير للسلع الواقعة تحت مراقبتها والتى يعمل بها طوال الاسبوع من السبت حتى الجمعة (٥٠).

وكانت هذه اللجان عند اجتماعها تقوم بالنظر فى أمر التسعيرة المعمول بها ، وأدخال بعض التعديلات عليها

-
- (٤٨) محفوظات مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة رقم ١٠/٣/أ ، مجموعة ٣٨٢ " مكاتبة من رئاسة مجلس الوزراء التى وزارة الداخلية فى ذى الحجة ١٣٣٣ ، أكتوبر سنة ١٩١٥ .
- (٤٩) نفس المصدر ، نفس المجموعة " صورة مكاتبة من مديرية بنى سويف الى وكيل الداخلية نمرة ٢٩٩ ، بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٦ " وجوب الاعتدال فى الاسعار " نفس المصدر ، عدد ٨٣٤٩ ، ١ سبتمبر سنة ١٩١٦ " غلاء الغلال " : الاهالى ، عدد ١٩٤٤ ٢٩ يناير ١٩١٧ .
- (٥٠) الاهالى ، عدد ١٨٩١ ، ٧ ديسمبر سنة ١٩١٦ ؛ المويد عدد ٧٧٣٢ ، ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٥ " الغلاء والتجار " .

بمقدار ما استدعيه الاموال بناء على الشكاوى والتعليمات
الوزارية التي ترد اليها ، أما إذا امتنعت عنها أى
تعليمات وزارية ، أو كانت الشكاوى الواردة اليها على
درجة ضعيفة من الاهمية ، كان لها الحق فى إرجاء جلسة
أنعقادها الى الاسوع التالي ، مع استمرار العمل بالتعريفه
القائمة لحين أنعقادها (٥١) .

وقد تجتمع لجان التسعير ، ولاتجد ما استدعيها إدخال
تعديلات على التعريفات المعمول بها ، ومن ثم كانت تقرر
استمرار العمل بالتعريفه القائمة لحين إشعار آخر منها
بعد إجتماعها فى الاسوع التالي (٥٢) .

ولم تكن لجان التسعير تحدد التعاريف من تلقاء نفسها
دون دراسة لحالة السلع المدخل بشأنها تعديلات ، بل فى
الغالب ما استدعت اللجان كبار تجار الاصناف هذه ، ويعهد
أن تقف منهم على حقيقة وضع السلعة بالسوق تضع تعريفتها
ليلتزم بها كل التجار (٥٣) .

وكثيرا ما كان يحدث اختلاف فى وجهات النظر بين أعضاء
لجان التسعير حول وضع تعريفه سلعة معينة ، وفى هذه الحالة
تضطر لجنة التسعير المصاصة باختلاف وجهات النظر للجوء
الى لجنة التموين لتحيطها علما بأسعار السلعة المختلف
حولها فى نفس المدة من العام الماضى وكذلك أسعار العام
الحالى ونسبة المخزون منها والمتوقع من المحصول الجدمد (٥٤)

-
- (٥١) الاهالى ، عدد ١٨٤١ ، ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٦ ، نفس المصدر
عدد ١٩٩٤ ، ٢٠ مارس سنة ١٩١٧ .
- (٥٢) نفس المصدر ، عدد ١٩١٧ ، ٢ يناير سنة ١٩١٧ ، المؤيد
عدد ٧٥٩٩ ، ٣ يونيه سنة ١٩١٥ .
- (٥٣) الاهالى ، عدد ٢٠٧٠ ، ٥ يونيو سنة ١٩١٧ .
- (٥٤) المقطم ، عدد ٨٣٩٦ ، ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٦ ، نفس المصدر
عدد ٨٣٩٩ ، ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٦ " لجنة التسعير
بالاسكندرية .

وبناء على هذه المعلومات كان يتم تسعير السلعة .

وكذلك أشرفت لجنة التمويل إشرافا كاملا على إدخال السلع أو إخراجها من تعريفات لجان التسعير ، حيث كانت الاخيرة تقدم اليها الاقتراحات بشأن إدخال أية سلعة تحت مظلة أعمالها ، وكانت الاولى تمتلك حق تقرير ضم السلعة الى تعريفات التسعير أو إخراجها منها في حالة طلب ذلك (٥٥).

أيضا تمتعت وزارة الداخلية في كثير من الاحيان بحق الاشارة على لجان التسعير بحذف بعض السلع من جدول التسعير لتحقيقها من عدم استدعاء الضرورة ذلك (٥٦)، وكذلك إعادة بعضها الى جدول التسعير عندما يتطلب الامر ذلك وكل هذا كان يتم بالاتفاق مع لجنة التمويل (٥٧).

وقام على تطبيق تعريفات لجان التسعير وزارة الداخلية والاقسام التابعة لها ، فبالنسبة لمحافظة القاهرة والاسكندرية ، دأت حكمدارية القاهرة والاسكندرية على إصدار أوامرها المشددة الى أقسام البوليس بتنفيذ قرارات لجان التسعير ومراقبة البيع بالاشمان التي تحددها (٥٨).

أما بالنسبة للمديريات والمحافظات الاخرى فداومت وزارة الداخلية على إرسال منشوراتها اليها لتحثهم فيها على التشدد في إنفاذ تسعيرات المواد الغذائية ،

(٥٥) نفس المصدر ، عدد ٦٠ ، ٨٤٠٤ ، ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ " غسلاء الغلال " ، نفس المصدر ، عدد ١٣٠ ، ٨٤١٠ ، ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٦

حل مشكلة الخبز في العاصمة بعناية دولة رئيس الوزراء الاهالي ، عدد ١٧٠ ، ١٩٣٢ ، ١٧ يناير ١٩١٧ ، المؤيد عدد ٧٦٩٥ ٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ .

(٥٧) المقطم ، عدد ٢٠٠ ، ٨٦٢٢ ، ٢٠ يوليو ١٩١٧ .

(٥٨) الاهالي ، عدد ٢١٠ ، ١٨٧٥ ، ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، نفس المصدر عدد ٢٣٧٩ ، ١٠ يوليو سنة ١٩١٨ .

وذلك بتعيين أحد رجال البوليس أو الادارة فى كــــل سوق من الاسواق الهامة لمراقبة تنفيذ التعريفة وتحرير المخالفات للضاربين بها عرض الحائط وأن ببادر المركز أو القسم التابع له آيه مخالفات بالانتهاء من فحصها واطلان المخالف لمحاكمته أمام المحكمة المختصة (٥٩).

واذا كانت تعريفات لجان التسعير قد وجدت من حرص على تنفيذها من رجال البوليس فى المدن الكبرى كعوامم المديرىات وحواضر المراكز (٦٠)، فان الريف قد فقد ذلك تماما، حيث اقتصر الرقابة فيه على مشايخ الخفر وبعض الخفراء وعساكر البوليس والذين اقتصر عملهم على التجوال بالاسواق والتنبيه على التجار بمراعاة التسعيرة فى التعامل، واذا كان معاونو البوليس قد تدخلوا فى بعض الاوقات، فقد جاء تدخلهم مؤقتا ولمدبسيطة، ولذلك كان مجرد مغادرتهم الاسواق يعنى معاودة التجار الضرب بالتسعيرة عرض الحائط (٦١).

وفى المناطق التى كان شدد فيها البوليس الرقابة على تنفيذ التسعيرة، كان يقوم بمهاجمة المحلات التى لايلتزم أصحابها بالتسعيرة ومصادرة ما بها، والبدء فى بيعه للاهالى بالاسعار الرسمية بعد تحرير المخالفات لاصحاب هذه المحلات (٦٢).

وكانت قضايا مخالفات التسعيرة أما أن تنظر فى

-
- (٥٩) المقطم عدد ٨٦٢١، ١٩٠ يوليو ١٩١٧ " التشديد فى انفاذ تسعيرة المواد الغذائية .
- (٦٠) الاهالى، عدد ١٨٧٠، ١٦ نوفمبر ١٩١٦، نفس المصدر عدد ١٨٧٣، ١٩٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ .
- (٦١) المقطم عدد ٨٤١٥، ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٦ " الغلاء الغلاء " نفس المصدر، عدد ٨٤٢٣، ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٦ . "شكوى الجمهور فى الريف من غلاء الحبوب"
- (٦٢) الاهالى، عدد ١٨٥٧، ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

محاكم الامور المستعجلة التى كانت تعقد يوميا (٦٣) - ويبدو أن هذا النوع من المحاكم لم يكن متوافرا الا بالعاصمة والاسكندرية وبعض عوامس المديرىات - وإمام المحاكم الالهية بالنسبة للوطنيين (٦٤)، والمحاكم المختلطة بالنسبة للاجانب (٦٥).

أما الجزاءات التى كانت توقع على المخالفين للتسعيرة فقد تنوعت حيث كان المخالف يعاقب بالغرامة التى بلغت مائة قرش وإغلاق المحل المخالف للتسعيرة لمدة أسبوع، وإما بالغرامة ومصادرة الصنف وبيعه سعر التعريفه بواسطة البوليس والحبس لمدة ٢٤ ساعة . وهذه الجزاءات كانت تشمل المخالفين للتسعيرة من الوطنيين والاجانب (٦٦) . وإن كانت محاكمة الاخيرين أمام محاكم خاصة قد أعطتهم فرصة للافلات من هذه العقوبات فى بعض الاحيان ، أو التخفيف منها .

وعلى الرغم من وجود لجان التسعير وأستمرارها فى تأدية مهامها لاجبار التجار على الالتزام بالتسعيرة الا أن قضايا المخالفات أستمرت فى أرتفاعها فى خلال أربعة أيام

(٦٣) المقطم ، عدد ٨٦٢١ ، ١٩٠ يوليو سنة ١٩١٧ " التشديد فى انفاذ تسعيرة المواد الغذائية " وخص للنظر فى قضايا الامور المستعجلة دائرة من دوائر المحاكم الابتدائية ، وكانت تنظر هذه الدوائر فى مسائل استثنائية مستعجلة قد يودى أرجائها قضائيا السى نتائج يخشى منها ، وصعوبات تكتف الاحكام " لطيفة سالم النظام القضائى المصرى الحديث ١٩١٤ - ١٩٥٢ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٢٥ .

(٦٤) الاهالى ، عدد ١٨٤٢ ، ١٩٠ أكتوبر ١٩١٦ .
(٦٥) الشعب ، عدد ٧٩ ، ٩٠ سبتمبر ١٩١٤ .
(٦٦) الاهالى ، عدد ٢١٩٧ ، ديسمبر سنة ١٩١٧ نفس المصدر ، عدد ١٨٧١ ، ١٧ نوفمبر ١٩١٦ ؛ المقطم ، عدد ٨٦٤٧ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٧ " قضايا مخالفة التسعيرة بالعاصمة " ، الشعب ، عدد ٧٩٠ ، ٩٠ سبتمبر ١٩١٤ .

- (١٣ - ١٦) أغسطس سنة ١٩١٧ - بلغت قضايا مخالفات التسعيرة بالقاهرة فقط حوالى ٣٩ قضية (٦٧)، سواء كان ذلك بسبب الاضراب عن البيع (٦٨) أو الخروج عن الاسعار المحددة من قسمل لجان التسعير (٦٩).

وهذا يعنى أن لجان التسعير قد فشلت فى احكام سيطرتها على إلزام التجار بتعريفاتها بعد أن أصبحوا لايعاون بالعقوبات التى توقع بهم إذا ماضبط أحد متللسا بالخروج عن التعريفه . وإذا كانت لجان التسعير لم تتمكن من التخفيف من حدة ارتفاع الاسعار المتوالى فى أعتقادی أن ذلك يرجع بالدرجة الاولى لافتقادها الى ذوى الخبرة بشئون الاسواق والتموين ، بما أفقدها المعايير التى تعمل على أساسها ومن ثم جاءت قراراتها فى النهاية غاية فى التضارب .

فأصبحنا نجد التسعيرة تمتد اليها يد التعديسمل والتغيير من وقت لآخر ومن مكان لآخر " كلما أعترض عليها بدال أو أحتج سائح أو صاح تاجر سواء أكانت دعواه صححة أم كاذبة " (٧٠). وفى هذا دليل على أنه لم تكن هناك شمة معايير تحتكم اليها اللجان فى عملها .

لذلك أصبحنا نجد لجان التسعير تختلف فى تقديراتها للسلعة الواحدة بما أدى الى أحداث أختناقات تموينية ببعض المدن دون بعضها الاخر نظرا لتباين التعاريف

(٦٧) المقطم ، عدد ٨٦٤٧ ، ٢٠٠ أغسطس ١٩١٧ " قضايا مخالفة التسعيرة بالقاهرة "

(٦٨) الشعب ، عدد ٧٨١ ، ٣٠٠ أغسطس ١٩١٤ ؛ المقطم ، عدد ٨٤١٠ ١٣ نوفمبر ١٩١٦ " حل مشكلة الخبز فى العاصمة بعناية دولة رئيس الوزراء " .

(٦٩) المقطم ، عدد ٨٦٧٣ ، ١٩٠ سبتمبر ١٩١٧ " تسعيرة المسواد الغذائية فى العاصمة " ؛ نفس المصدر ، عدد ٨٦٢٥ ، ٢٥ يوليو سنة ١٩١٧ " الجمهور والتجار بين لجنة التموين ولحسان التسعيرة " ؛ المؤيد عدد ٧٥١٣ ، ٢٢ فبراير ١٩١٥ ؛ التجارة عدد ٧٢ ، ٨٠ سبتمبر ١٩١٨ ؛ الاهالى ، عدد ١٨٧٤ ، ٢٠٠ نوفمبر ١٩١٦ .

(٧٠) لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

السعرية ، حيث قدرت بعض الاصناف لاسيما في البلاد المنتجة لها بأزيد منه في المناطق المستهلكة لها ، كأن يكون شمن الارز في محافظة مصر أقل منه في دماط والاسكندرية ورشيد (٧١) ، كذلك أزدادات تسعيرة الحبوب في مناطق انتاجها بالوجه القبلى - في كثير من الاحيان - في الوقت الذى أنخفضت فيه بمحافظة مصر (٧٢) .

وقد أدى هذا التباين - في التقدير - وافتقاد لجان التسعير الى جهاز ينسق بين وجهات نظرها الى افتقار بعض المناطق لسلع معينة ، نتيجة لهبوط تسعيرتها بما يجعل تجارها يناون عنها الى مناطق أخرى يجدون بها تسعيرة ، أكثر ارتفاعا ، فعندما قامت لجان التسعير بالاسكندرية بتسعير القمح بأقل منه في مناطق أنتاجه ومناطق أخرى ، فضل تجاره الدفع بما في حوزتهم بعيدا عن المدينة حيث ارتفاع الأسعار (٧٣) ، كذلك كان لارتفاع أسعار الفول بالوجه القبلى - طبقا لتقدير لجان التسعير - في الوقت الذى هبطت فيه أسعارها بالعاصمة أكبر الاثر في عزوف التجار عن توريد غلالهم نحو العاصمة (٧٤) .

وجدير بالذكر أن هذا التباين في التعاريف وما تسبب

-
- (٧١) المقطم ، عدد ١٤٠٨٤١١ نوفمبر ١٩١٦ " وجوب الاعتدال في الاسعار " .
- (٧٢) نفس المصدر ، عدد ٨٦٦٣ ، ٧٠ سبتمبر ١٩١٧ " لجان التسعير وأسعار الحبوب حبر على ورق " .
- (٧٣) محافظ مجلس الوزراء ، الداخلية ، محفظة ١٠/٣/أ" صورة تلغراف وارد من ميناء البصل أسكندرية في ٢٥ يناير ١٩١٥ ؛ نفس المصدر ، نفس المحفظة ، مجموعة ٣٨٢ تلغراف الى حسين باشا رشدي من أصحاب المطاحن بالاسكندرية في ٩ نوفمبر ١٩١٦ .
- (٧٤) نفس المصدر ، نفس المحفظة " عريضة مقدمة من تجار روض الفرج في ٧/٢/١٩١٥ " ؛ نفس المصدر ، مجموعة داخلية صورة مكاتبة الداخلية رقم ٤٧٩ ادارة بتاريخ ٦ فبراير ١٩١٥ .

عنه كان له أكبر الاثر فى رفع أسعار بعض السلع بكثير من المدن وانتشار ظاهرة السوق السوداء بها نتيجة لقلّة العرض وأشدّاد الطلب . وبذلك تكون سياسة التسعير الجبرى التى قامت بها لجان التسعير قد جرت عواقب وخيمة على الاهالى بدلا من انتشالهم من ارتفاع الاسعار .

وغير لجان التسعير ، ألفت الحكومة فى ٢٤ أغسطس ١٩١٤ لجنة للتموين بالعاصمة (٧٥) ، وكانت هناك لجان تموين أخرى فى بعض المدن حيث وجدت لجنة بمدينة دمياط (٧٦) .

وعهد الى لجنة التموين مهام عديدة منها دراسة حالة السلع التموينية بالسوق المصرية ، وفى حالة وجود عجز فى هذه المواد ، تقدم الحلول لتوفيرها بأى أسلوب كان (٧٧) .

وكانت لجنة التموين تعمل باستمرار للوقوف على حالة السوق التموينية وذلك من خلال الاحصاءات التى كانت تجريها من أن لآخر سواء للسلع الغذائية أو لغيرها من السلع الاستهلاكية والتى كانت تتم تحت مراقبة نظارة الداخلية ، وبمعاونة أجهزتها بالاقاليم ، حيث كان العمد يقومون بداخل البلاد تحت مراقبة مأمورى المراكز بجمع البيانات التى تطلب من جميع العزب والكفور والنجوع الداخلية فى دوائرهم ، كذلك قام المحافظون والمديرون باعطاء موظفيهم التعليمات بجمع البيانات المطلوبة ، وبعد جمع هذه البيانات

(٧٥) لطيفة سالم : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .
(٧٦) محافظ مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠/٣/أ " شكوى مقدمة من تجار القمح بدسائط الى ناظر الداخلية فى ١١ يناير ١٩١٥ .
(٧٧) نفس المصدر ، داخلية ، محفظة ٤/١٠ ، مجموعة ٣٨٢ " تقرير عن أعمال لجنة التموين " ص ١ .

كانت تسلم الى مصلحة عموم الاحصاء الاميرية لتقوم بدورها بترتيبها وتنسيقها وتسليمها الى لجنة التموين ، والتي كانت من خلالها تحق على حقيقة المواد التموينية بالسوق من حيث المقدار ، وهل الكميات المتاحة تكفى حاجة الاستهلاك المحلى أم تزيد أم سيكون هناك عجز ؟ (٧٨)

وفى إطار وقوف لجنة التموين على حقيقة السلع التموينية بالسوق المصرية ، كانت تحدد موقفها من مشاركة بعض السلع فى تجارة مصر الخارجية ، وفى حالة وجود فائض فى سلعة معينة ، كانت تبادر بمنح تراخيص التصدير لمن يرغب فى التصدير من التجار (٧٩) .

وإذا ما كان هناك عجز فى سلعة معينة تتدخل اللجنة وتطالب باستيراد بعض السلع من الخارج " فى ١٩/٩/١٩١٤ أتفقت مع مندوب جيش الاحتلال على أنه حسن أستجلاب ما يلزم للجيش من الخارج الا بعض الاصناف المعينة التى لا يترتب على أخذها من البلد ضرر لئلاهاى (٨٠) "

وغير ذلك كانت لجنة التموين تمتلك الحق فى إدخال سلع معينة ضمن تعريفه التسعير الجبرى وكذلك إخراجها منها طبقا للمعلومات المتوافرة لديها ، وباعتبارها المسؤول الاول عن وضع تعريفه التسعير الجبرى التى

(٧٨) نفس المصدر ، داخلية ، محافظة ، ١/١٠ ، مجموعة ٣٨٢ " لجنة التموين "

(٧٩) نفس المصدر ، نفس المجموعة " مكاتبات لجنة التموين فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ وفى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٤

(٨٠) نفس المصدر ، نفس المجموعة " مكاتبة لجنة التموين فى ١٩/٩/١٩١٤ "

كانت تأخذ بها لجان التسعير (٨١).

وإذا كانت لجنة التموين قد أنشئت من أجل تفريج الغلاء عن الأهالي بمعاونة لجان التسعير، فإنها وجدت صعوبات في تأدية مهامها، نظرا لتعثر حصولها على إحصاءات دقيقة من داخل البلاد عن حجم الانتاج والحاصلات وسلبية الأهالي تجاه ارتفاع الاسعار، ولذلك تخطت سياسات اللجنة وبالذات في حالة الارتباك، فإلى جانب السلبات السابقة أفقدت اللجنة الى وجود ذوي الخبرة وكذلك المعلومات والخبرات التي يمكن للقائمين على شئون اللجنة الاسترشاد بها، ومن ثم لجأت الى أسلوب التجربة والخطأ وأدى ذلك في النهاية الى أن جاءت أحكامها في غير موضعها، فمثلا كان القمح في بلد بسعر يوازي ضعف ما هو بالبلد المجاور دونما أسباب (٨٢).

وبذلك بدلا من أن تؤدي لجان التموين بمساعدة لجان التسعير الى تخفيف حدة الغلاء عملت على العكس من ذلك فقد عملت على تأزم الامور، حيث عزف التجار عن ممارسة أعمالهم التجارية في المناطق التي لا يجدون فيها تهاونا في التسعير من قبل لجان التموين ولجان التسعير مما يحقق لهم قدرا من الربح، مما أدى الى انتشار ظاهرة السوق السوداء وارتفاع الاسعار ونظرا لهذا الفشل الذي منيت

(٨١) نفس المصدر، محفظة ١٠/٣/١٠ " مذكرة من رئاسة مجلس الوزراء الى وزارة الداخلية في فبراير سنة ١٩١٥؛ الأهالي عدد ١٨٣٢، ٨ أكتوبر ١٩١٦؛ المقطم عدد ٨٦٢٥ ٢٥ يوليو ١٩١٧ " الجمهور والتجار بين لجنة التموين ولجان التسعير".

(٨٢) محافظ مجلس الوزراء، داخلية، محفظة رقم ١٠/٣/١٠ " شكوى من تجار دمياط الى ناظر الداخلية بتاريخ ١١ يناير ١٩١٥، النشرة الاقتصادية المصرية عدد ٦٤، ٨ أبريل ١٩٢٢ مراقبة الغذاء بالقطر المصري ص ص ٣١٤ - ٣١٥ .

به لجان التموين في تأدية مهامها في الحد من ارتفاع الاسعار قامت الحكومة بوقف نشاطها وإحالة أعمالها الى مصلحة التموين في ٢٦ سبتمبر ١٩١٧ (٨٣)، والتي قامست بهدف مراقبة توريد المواد الغذائية وأسعارها بوجه عام والقمح والدقيق بوجه خاص (٨٤)، كذلك التوفيق بين حاجات السكان وحاجات الجيش البريطاني (٨٥)، وأدى ذلك الى أن أصبحت المصلحة وشيقة الصلة بالسلطة العسكرية (٨٦).

وللقيام بهذه المهام ، أصبحت المصلحة تتولى أمر دراسة التقلبات السلعية بالسوق ، وفي حالة حدوث عجز في المنتج السلعي مما يتسبب عنه ارتفاع في الأسعار كانت أما أن تتجه الى الاستيراد من الخارج ، وأما أن تلجأ الى شراء كميات من نوعيات السلع المماثلة بالعجز من مناطق توافرها بالداخل ، وتقوم المصلحة بتوزيع هذه الكميات على المستهلكين من خلال منافذها (٨٧).

وفضلا عن ذلك قامت مصلحة التموين بكل المهام التي كانت تقوم بها لجان التموين ، فكانت تمنح تراخيص التصدير للنوعيات التي يكون بها فائض داخلي . فبناء على رأيها "تقرر تصدير البصل الى الخارج ابتداءً من أول أبريل سنة ١٩١٨"

(٨٣) مجلة الغرفة التجارية المصرية ، السنة الثالثة ، العدد الخامس

مايو ١٩١٨ ، مذكرة القائم مقام المستشار المالي ص ١٨٤ .

(٨٤) الاهرام ، عدد ١٣٧٠٢ ، ٢٤٠ مارس ١٩٢٢ ؛ الجريدة التجارية المصرية ، العدد ٢٥١ ، ٢٥٠ مارس ١٩٢٢ .

(٨٥) محفوظات مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠/٣/١٠ . مذكرة رئاسة مجلس الوزراء في ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ .

(٨٦) لطيفة سالم : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٨٧) الجريدة التجارية المصرية ، عدد ٢٥١ ، ٢٥٠ مارس ١٩٢٢ ؛

التجارة ، عدد ٧٣ ، ١٥٠ سبتمبر ١٩١٨ . وكانت الكميات التي تشتريها من الداخل يقوم بها مستخدمون يحملون تراخيص بشراء كميات من السلع لحسابها من الاقاليم ونقلها الى المناطق التي تكون في حاجة اليها ، محفوظات مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ١٠/٣/١٠ " مذكرة رئاسة مجلس الوزراء في ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ ."

الى حين صدور أوامر أخرى" (٨٨) هذا الى جانب أكتسابها حق وضع تعريفات التسعير الجبرى ، وإدخال بعض السلع فيها أو إخراجها منها طبقا للظروف (٨٩) .

وتسهيلا للإشراف على تطبيق التسعير الجبرى ، أستصدرت المصلحة قرارا فى ٢٦ يناير سنة ١٩١٨ بجبر التجار على وضع بطاقة فوق كل سلعة تحمل تسعيرتها الرسمية ، أو تعلق التعريفة المطبوعة فى المتجر على أن تغير هذه البطاقات أو التعريفات المطبوعة أسبوعيا مع تغير التعريفات الرسمية ويعد هذا مخالفة يعاقب عليها بغرامة لاتتجاوز ١٠٠ قرش (٩٠) .

وعلى الرغم من ذلك لم تؤد مصلحة التموين فيما قامت به من أعمال الى التخفيف من استمرار ارتفاع الاسعار فتشير الاحصاءات الى تزايد الاسعار فى سنتى الحروب الاخيرتين وكذلك نفقات المعيشة (٩١) ، خصوصا بعد أن تركزت أعداد كبيرة من القوات العسكرية بالقرب من مصر ، وفضلا عن أستنزافها الشديد للمواد الغذائية من مصر فقد أزيلت فى نفس الوقت القيود عن زراعة القطن ، فارتفعت الاسعار بدرجة أكثر شيوعا (٩٢) .

وفى بلاغ تصفية مصلحة التموين أشارت وزارة المالية الى عجزها فى تقديم حلول للوضع الذى كانت تزداد فيه

- (٨٨) الاهالى ، عدد ٢٣٠٣ ، أبريل سنة ١٩١٨ .
(٨٩) مجلة الغرفة التجارية ، السنة ٣ ، مارس سنة ١٩١٨ ، ص ٩٣ .
(٩٠) محفوظات مجلس الوزراء ، وزارة الزراعة ، محفظة ١٢ / ب دوسية ٦ / ٣٦ " مذكرة من وزارة الداخلة لرئاسة مجلس الوزراء " ، نفس المصدر " قانون نمرة (١) سنة ١٩١٨
(٩١) أرجع الى ص ٣٠٨ .
(٩٢) Crouchley A. E : op . cit P. 195 .

الاسعار أشتطاطا من يوم لآخر فنددت " بالمصلحة وعدم قيامها بحل أى مشكلة مشيرة الى ماعانتة البلاد خلال عهدنا من آلام الغلاء الشديد الذى سيطر على أخص حاجات الانسان ولوازمه الضرورية ، فقد أصطفت قوما أسعدهم الحظ بوجودها ووضعنت أقوات الناس فى أيديهم فتمرفوا فيها بما تشتهى أنفسهم ومايطابق مصلحتهم الخاصة . (٩٣) .

ويستشف من هذا أن المصلحة أستخدمت ماتجمع تحسنت أيديها من سلع سواء ماكانت تجمعه من الداخلى أو ماكان يرد اليها من الخارج ووجهته بعيدا عن خدمة الاهالى، ولانستعد أن يكون ذلك قد تم توجيهه لسد حاجة القسوات المحاربة ، خصوصا أن الشواهد تشير الى أن المصلحة كانت وشيقة الصلة بالسلطة العسكرية .

وبذلك عجزت مصلحة التموين عن التخفيف من أرتفاع الاسعار الذى أزداد فى سنتى الحرب الاخيرتين شكل أزعج السلطات البريطانية وكذلك الحكومة المصرية مما جعلهما يتفقان فى وجهة النظر حول مدى أرتفاع الاسعار وضرورة التصدى له بقوة ، حيث أتفقت وجهة نظر السلطات العسكرية البريطانية الممثلة فى القائد العام للجيش البريطانى فى مصر والسلطات المصرية على ضرورة أتخاذ أجراء وقائى وفعال للوقوف فى وجه أستمرار أرتفاع الاسعار .

وانتهى الامر بالاتفاق ما بين السلطات المصرية والسلطة العسكرية البريطانية على أنشاء لجنة مراقبة التموين وخولت اليها جميع الاختصاصات التى كانت للجان التسعير ولجنة التموين ومصلحة التموين ، وصدر بذلك قانون فى ٩ مارس سنة ١٩١٨ (٩٤) .

(٩٣) الجريدة التجارية المصرية : عدد ٢٥٠٢٥١ مارس ١٩٢٢ .
(٩٤) محفوظات مجلس الوزراء ، وزارة الزراعة ، محافظة ١٢/ب ،
دوسية ٦/٣٦ " قانون نمرة (٥) لسنة ١٩١٨ .

وأسندت رئاسة اللجنة الى أجنبي يدعى مستر كريج ، ثم من بعده الى أجنبي آخر يدعى مستر روس تيلر والذي كان أحد أعضائها (٩٥) . كذلك كان أعضاؤها بالاجماع من الاحانب حيث تمثلوا فى مستر روس تيلر ومستر ستوروت ومستر مكلوب ومستر وطسن ومستر لويد الى جانب مندوب أو أكثر من قبل السلطة العسكرية (٩٦) .

وبذلك جاءت اللجنة بـبريطانة من يايها ، وتسرب اليها فى هذه المرة النفوذ العسكرى وكان لذلك تأثيره فى أكساب قراراتها شكلا عسكريا أو بوليسا أزيد من اللازم ، فأصبحت أوامرها صادرة تحت الاحكام العسكرية وأضحت " كل مخالفة للأسعار التى تعلنها اللجنة أو الانظمة التى تقرها تفصل فيها المحاكم العسكرية (٩٧) " ولذلك أستطاعت هذه اللجنة الى حد ما أن تبسط أوامرها على المصريين والاجانب فى أن واحد (٩٨) .

ولما كان توفير المواد الغذائية يمثل المطلب الاساسى فى ذلك الوقت للسكان وللقوات العسكرية التى تزايدت بشكل واضح ، فى نفس الوقت الذى أرتفعت فيه أسعارها بشكل مطرد لاضطراب العرض ، لذلك أولت اللجنة مسألة تدبير المسواد الغذائية جزءا كبيرا من أهتماماتها فقامت باتخاذ بعض

- (٩٥) الاهالى ، عدد ٢٩٧٢ ، ٣ يونيو سنة ١٩٢٠ .
(٩٦) محفوظات مجلس الوزراء ، وزارة الزراعة ، محفظة ١٢ / أ دوسيه ٥/٣٦ .
(٩٧) المقطم ، عدد ٩٢٧٧ ، ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ " بيان لجنة التموين فى التسعيرة الجديدة " .
(٩٨) الاهالى ، عدد ٢٩٢٤ ، ٦ أبريل ١٩٢٠ " مصلحة التموين والسلطة العسكرية " .

الاجراءات لتضييق الخناق على المحتكرين بما يجعلهم يدفعون بمخزونهم من الغلال الى الاسواق .

فلضرب المحتكرين لجأت لجنة مراقبة التموين الى الاتفاق مع وزارة الزراعة على تسليمها كميات من القمح لتوريدها الى أصحاب المطاحن المتعهدين بطحن القمح ، ولطرحها بعد ذلك دقيقا في الاسواق للمخابز وتجار التجزئة (٩٩) .

الى جانب ذلك استخدمت أسلوب التهديد مع كبار المنتجين الذين كانوا يمتنعون عن التفريط في محاصيلهم بالاسعار الرسمية ، وذلك بارسال الانذارات العسكرية اليهم بواسطة مديرهم التي تدعوهم الى بيع منتجاتهم بالاسعار الرسمية وأعتبر الامتناع عن تنفيذ هذه الانذارات ، مخالفة للاوامر العسكرية ، تدفع صاحبها للمحاكمة العسكرية علاوة على مصادرة المنتجات الممتنع عن بيعها (١٠٠) .

ولحصر الاتهام في أفراد بعينهم كانت اللجنة توجهه ندا ١٤ محددًا بمدة معينة سحتم على التجار والمزارعين وأصحاب الشركات وغيرهم ممن بضعون تحت أيديهم كميات تتجاوز ١٠ أردب من القمح والدقيق بضرورة التبليغ عنها لا قرب قسم بوليس في سان مكتوب وموقع عليه من مقدمه ، وأي كميات لم يبلغ عنها ويتم ضبطها تصح في حكم السلع المصادرة (١٠١) . ولذلك لجأت اللجنة في بعض الاحيان الى وضع جوائز لمن يقدم لها معلومات تقودها الى الغلال المخبأه (١٠٢) (١٠٠) .

وغير ذلك قامت لجنة مراقبة التموين بمهمة وشمع تعريفات التسعيرة العامة (١٠٣) ، والتي قام على مراقبتها تنفيذها أفراد تم استدعائهم ومعاونوهم من بعض المصالح

- ٩٩) الاهالي ، عدد ٢٣٤٥ ، ٢٠ مايو سنة ١٩١٨ .
- ١٠٠) المقطم ، عدد ٨٩٨٠ ، ٢٤ سبتمبر ١٩١٨ " مشاكل التموين " .
- ١٠١) الاهالي ، عدد ٢٣٣٢ ، ٤٠ مايو سنة ١٩١٨ .
- ١٠٢) الاهالي ، عدد ٢٣٤٢ ، ١٧ مايو سنة ١٩١٨ .
- ١٠٣) التجارة ، عدد ٦٣ ، ٧ يوليو سنة ١٩١٨ .

الحكومية ، فقد أنتدبت اللجنة بالقاهرة المستر داكسن من موظفي مصلحة السكك الحديدية لمراقبة الاسعار فى القاهرة وأنتدبت الى جانبى أربعة من الموظفين الامناء لمساعدته فى عمله . . . أما فى الاسكندرية فقد أنتدبت البلدية بناء على طلب لجنة مراقبة التموين أحد موظفيها لمراقبة (١٠٤) تطبيق الأسعار .

وتسهيلا على هؤلاء المنتدبين فى تأدية مهام عملهم أجبرت اللجنة أصحاب المحال التجارية بضرورة وضع أسعار السلع عليها والمحددة بمقتضى التسعيرة الموضوعة تحت المراقبة باللغة العربية الواضحة الى جانب الانجليزية مشار اليها بحرف E والفرنسية مشار اليها بحرف F (١٠٥) وكان المخالف لتسعيرة لجنة مراقبة التموين يقدم للمحاكمة أمام محاكم عسكرية تولت النظر فى قضايا مخالفى التسعيرة وقد شددت السلطات العسكرية من عقوبات هذه المحاكم ، فأصبحت غراماتها تتراوح ما بين ألف قرش وعشرين جنيهها أو الحبس لمدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وشهر ، السى جانب مصادرة السلعة وبيعها بواسطة البوليس وأغلاق المحل لمدة أربعة عشر يوما (١٠٦) لس هذا فحسب بل أن العقوبات

-
- (١٠٤) الاهالى ، عدد ٢٤٠٥ ، أغسطس ١٩١٨ .
(١٠٥) المقطم ، عدد ٩٢٧٧ ، ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ " بيان لجنة التموين فى التسعيرة الجديدة "
(١٠٦) التجارة ، عدد ٧١ ، أول سبتمبر ١٩١٨ ، نفس المصدر عدد ٧٠ ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩١٨ ، الاهالى ، عدد ٢٣٧٢ ، ٢٣ يونيو سنة ١٩١٨ ، المقطم ، عدد ٨٩٢٢ ، ١٦ يوليو ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة " .

تجاوزت هذا الحد بكثير في بعض الاحيان ، حيث حكمت المحكمة العسكرية بالقاهرة في قضية مخالفة التسعيرة وغش السلع على التاجر " حسين عرفه " بالغرامة مائة جنيه مصري ، وفي حالة العجز عن الدفع توقع عليه عقوبة الحبس لمدة ثلاثة شهور (١٠٧) .

والجدير بالذكر أن هذه المحاكم العسكرية كانت تعقد في أى موضع تحدده المديرية ، فلم يكن لها مكان محدد، نظرا لعدم أنظام مواعيدها ، حيث كانت تنعقد عندما تستدعى الحالة النظر في قضايا مخالفات التسعير ، " ففى الزقازيق كانت تجتمع مدار المحكمة الكلية (١٠٨) " فى حين عقدت المحكمة العسكرية البريطانية بالعاصمة فى قسم الازبكية لمحاكمة مخالفى التسعيرة فى منطقة القسم (١٠٩) أما فى المنصورة فكانت تعقد إما فى مقر المحافظة أو مركز المديرية (١١٠) .

وعلى الرغم من هذا التشدد من قبل المحاكم العسكرية فى معاقبة مخالفى التسعيرة ، الا أنه من خلال قضايا مخالفات التسعيرة التى جاءت على صفحات الصحف نتج لنا أنها بلغت حدا من الكثرة ، بما يؤكد على أن التجار أصبحوا ليعبأون بهذه الاحكام رغم قسوتها ، ويدل هذا بالتالى على الفشل الواضح فى إحكام السيطرة على ارتفاع الاسعار المطرد الى أن بلغت الحالة فى سنة ١٩١٨ حدا لا يطاق ، لان النقص

(١٠٧) الاهالى ، عدد ٢٣٩٨ ، ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ .

(١٠٨) المقطم ، عدد ٩١٠٨ ، ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ .

(١٠٩) نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٢ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة "

(١١٠) نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٦ ، ٢٤ أغسطس ١٩١٨ .

في الحبوب أدى الى ان أصبح الوضع خطيرا في المدن الكبرى (١١) بالنسبة للفئات الدنيا والمتوسطة .

* * *

من هذه الدراسة نجد أن ظاهرة التضخم التي اجتاحت المجتمع المصري في أثناء الحرب العالمية الاولى ، لم تأت صاحبة لاي عملة تنمية كان قد أقدم عليها المجتمع في ذلك الوقت ، بل أنها جاءت نتيجة لظروف الحرب ، وما أقدمت عليه بريطانيا من تحويل مصر نقديا من الصرف على أساس الذهب الى الصرف على أساس الاسترليني ، حتى تفقد الحكومة حق الرقابة على الاصدار النقدي ، ومن ثم تصح بسهولة اصدار أى كميات من أرواق البنكوت لتستخدمها في التمويل التضخمى لقواتها الجاشمة على أرض مصر ، في مقابل وضع غطاء لهذه الاوراق من العملة الاسترلينية وبسعر التعادل .

وقد ترتب على ذلك تزايد في العملة الورقية المصدرة والمتداولة نتيجة الانفاق عن سعة للقوات العسكرية ، مما أدى الى احداث أختلال بين العرض السلعي والطلب النقدي وخصوصا بعد أن افقدت الحرب مصر جزءا من وارداتها مسن السلع الاستهلاكية بصفة عامة والمواد الغذائية بصفة خاصة .

وأدى هذا الاختلال الى ارتفاع الاسعار بشكل تراكمى حيث بلغ هذا في بعض السلع لاكثر من مثلى ماكان قائما قبل الحرب . وقد جاء هذا الارتفاع في الاسعار شديد الوقع على القطاع العريض من الاهالى الذين تحملوا بشكل أو سآخر الجزء الأكبر من أعباء مصر في الحرب ، ومن ثم أصبح شعورهم المليى بالسخط منذ أن وجدت بريطانيا لنفسها موطأ قدم في مصر على شفا الانفجار . وكان هذا يعنى توريث بريطانيا أكثر في ظل ظروف الحرب الدائرة ، ولذلك أستمرت طوال فترة الحرب

(١١) التجارة ، عدد ٧٠ ، ٢٥ أغسطس ١٩١٨ ، الاهالى ، عدد ٢٣٩٨ ، ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ ، المقطم عدد ١٦٠٨٩٢٢ يوليو ١٩١٨ ، نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٢ ، ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة " .

العالمية الاولى تشارك الحكومة المصرية - أو توّعز اليها -
تقديم البدائل للوقوف في وجه ارتفاع الاسعار المستمر ، حتى
تحتوى بقدر الامكان شعور السخط السائد الذى كاد ينفجر
أو على الاقل تأجيله الى ما بعد الحرب .

وبذلك لم تسد سلطات الاحتلال مشاركة الحكومة المصرية
الاهتمام بتضخم الاسعار في مصر إبان الحرب أرضاء للمصريين
ولكن نحسا لوقوع ثورة قد تطيح بمخططها الذى كانت تقوم
به مصر في الحرب ، وكذلك أحلامها حول مصر .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه البدائل التى كانت
تطرح من سنة لآخرى للحد من ارتفاع الاسعار لم تحقق ما كان
مأمولا منها ، بل أنها زادت الموقف تأزما - خصوصا فى
السنتين الاخيرتين من الحرب - بما وفر عاملا هاما دفع
بالقطاع العريض من الاهالى الى الانخراط فى أتون ثورة ١٩١٩
دون أن يفكر لحظة فى التخلي عنها .

المراجعات وعرض الكتب

عرض لكتاب

مجتمع البحر المتوسط

لجويتين

للدكتور أيمن فؤاد سيد

S.D.Goitein, A Mediterranean Society: The Jewish Communities as portrayed in the documents of the Cairo Geniza. I. Economic Foundations; 2. The Community; 3. The family; 4. Daily life, Univ. of California Press, 1967, 1971, 1978, 1983.

يطلق مصطلح "الجَنِيْزَة" على الكتابات التي وجدت مودعة في سيناجوج بن عِزْرَة اليهودى بالفسطاط ، وكذلك في مقابر الساتين اليهودية القريبة من تلك المدينة . فعندما هدم المعبد اليهودى وأعيد بناؤه في سنتى ١٨٩٩ - ٩٠ ، تفرَّق جمع كبير من المخطوطات والأوراق التي كانت محفوظة به وسعت إلى شرائها مكتبات أوربا والولايات المتحدة المختلفة ، إلى أن حمل Salomon Schechter الكمية المتبقية من هذه الأوراق إلى مكتبة جامعة كامبردج وكون بها مجموعة Taylor-Schechter الشهيرة . وتحتوى مكتبتى كامبردج وفيينا أكبر مجموعة من "جنيزة القاهرة" (وهو المصطلح الذى أطلق فيما بعد على هذه الأوراق) . و"الجَنِيْزَة" كلمة عبرية تعنى ، مثلها مثل الكلمة العربية "جَنَازَة" ، إجراءات الدفن ، وهى مشتقة من الكلمة الفارسية "جَنَك" بمعنى "خزانة" أو "كنز" ، وتعنى مكانا دفنت فيه أوراق حتى لا يدنس اسم الله الذى يمكن أن يكون فيها .
(Goitein, S.D., EI., art. a Geniza, II, P.1010; id., A Med.Soc., I, pp. 1-28) وفى البداية ، كان يظن أن هذه الأوراق تحوى نصوصا دسة فى الأساس ، ولكن

البحث والتنقيب في هذه الأوراق أثبت أنها تحوى معلومات اقتصادية واجتماعية وأسرية على جانب كبير من الأهمية (عن التجارة ، والصناعة ، وعقود الزواج والطلاق ، والإيجارات والأسعار ، والمقايضات ، والوصايا والهدايا والهبات بالإضافة إلى مئات الأوراق التى تحوى طلبات وشكاوى مرفوعة إلى السلطات ..) .

ورغم أن هذه الأوراق هى فى الحقيقة صادرة عن أوساط اليهود ، فإنها تمدنا بمعلومات عن العديد من الأعمال التى تتعلق بغير اليهود ، كما تقدم لنا صورة للمجتمع اليهودى الذى كان يعيش فى مدن البحر المتوسط فى الفترة الواقعة بين القرن الخامس / الحادى عشر والقرن الثامن / الرابع عشر . فوثائق الأرشيف الإبطالى الخاصة بالعلاقات بين مدن البحر المتوسط غير موجودة تقريبا بالنسبة للقرن الخامس / الحادى عشر وجزئية بالنسبة للقرن السادس / الثانى عشر ، كما أن أوراق البردى المصرية لا تتحدث إلا عن الحياة الداخلة لمصر والزراعية بوجه خاص ، أما بقية معلوماتنا فنستمدها من المصادر الأدبية ، التى لا يمكن أن ترقى إلى قيمة المعلومات التى تمدنا بها وثائق الأرشيف والتى تعد ناقصة بالنسبة للفترة التى تناولها أوراق الجنيزة عن الفترة السابقة عليها واللاحقة لها .

ويتكون رصيد أوراق الجنيزة من نحو سبعة آلاف ورقة (وثيقة) أو جزء من وثيقة ، وتنه إلى أهميتها وإلى المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التى يمكن استخراجها منها عالم يهودى أمريكى هو الأستاذ صمويل د . جويتين S.D.Goitein الذى كتب سلسلة طويلة من الدراسات حول هذه الأوراق بدأها فى أوائل الخمسينات^(١) وتوجهها

(١) جمع جويتين عددا من هذه الدراسات ونشرها فى كتاب
== Studies in Islamic History and Institution,

أخيراً بموءلف ضخيم من أربعة أجزاء (وجزؤه الخامس الذى أتمه موءلفه قبل وفاته سنة ١٩٨٢ تحت الطبع الآن) بعنوان "مجتمع البحر المتوسط - الطوائف اليهودية للعالم العربى كما تبدو من خلال وثائق جنيزة القاهرة" . ورغم أن هذاً العنوان من شأنه أن يخدع الباحثين ، فإننا يجب أن ندرك إن أهمية هذه الأوراق لا تقف عند الطائفة اليهودية وحدها بل إن أهميتها تتعدى ذلك بكثير ، إذ إنه بغض النظر عن اختصاص هذه الأوراق باليهود فإن القسم الأكبر منها لا يختص فقط بالأقلية اليهودية ولكن بكل المجتمع السدى كانت تتعايش معه الطائفة اليهودية والذى تتماثل أشغاله ونشاطه ومنازله وغذاؤه وملابسه ٠٠٠٠ معها ، مع الأخذ فى الاعتبار أن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذاً المجتمع يمكن اعتبارها صالحة كذلك على بقية فئات المجتمع .

وبالإضافة إلى دراسة جويتين ، التى سنتناولها بعد قليل ، فقد تمت العديد من الدراسات التى اعتمدت على "جنيزة القاهرة" من أوائلها دراسة بعقوب مان عن "اليهود فى مصر وفلسطين فى زمن الخلفاء الفاطميين" (٢) (١٩٢٠) و (١٩٦٩) ودراسى موشيه جيل عن الأوقاف اليهودية والمؤسسات الخيرية اليهودية (٣) ، ودراسة شاكد "بيليوغرافية مقترحة

Leiden-Brill, 1966.==
عطية القوصى بعنوان "دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية" ، الكويت ١٩٨٠ .

- 2) Mann, J., The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 1920-22, 69.
- 3) Gil, M., "Maintenance, Building, operations and Repairs in the Houses of the Qodesh in Fustat-A Geniza study ", JESHO XIV (1971), pp. 136-195; id., Documents of the Jewish pious foundation from Cairo Geniza, Leiden 1976.

عن وثائق الجنييزة" (٤) ، بالإضافة إلى دراسة الدكتور حسن ربيع " النظام المالى لمصر ٥٦٤ - ١١٦٩/٧٤١ - ١٣٤١" (٥) .
وللأسف فإن النصوص الكاملة لهذه الأوراق لم تنشر حتى
يمكننا مقارنة النتائج التى توصل إليها هؤلاء الباحثون
ومدى مطابقتها للأصل الذى نقلوا عنه ، سوى ثمانين رسالة
نشرها جويتين سنة ١٩٧٣ (بينها ثمانى فقط أعيد نشرها
بترجمة جديدة) فى كتاب عنوانه (Letters of Medieval
Jewish Trader, Princeton, 1973) وقد قصد جويتين من
جمع هذه الرسائل التعريف بهؤلاء التجار وحياتهم التجارية
من خلال الوثائق نفسها . فهذه الرسائل المتبادلة بين
أزواج وعائلات وأصدقاء ذات قيمة كبيرة فى فهم عقلية
هؤلاء الرجال ، خاصة وأن مشروعاتهم التجارية قامت على
قاعدة فريدة فى نوعها اعتمدت على صلات الدم والصدائقة
الرفيعة .

* * *

وقد تناول جويتين فى الجزء الأول : " الموءسسات
الاقتصادية " والطبقات الاجتماعية العاملة وعالم التجارة
والمال والرحلات . وفى الجزء الثانى : " الطائفة " من حيث
تنظيمها ومؤسساتها ونظام التعليم والتربية والعلاقات
الروحية والسلطة الذاتية والقضائية والإشراف الحكومى .
وفى الجزء الثالث : " الأسرة " من كافة نواحيها وعلى
الاخص عقود الزواج والمراسلات التجارية والأسرية ويقدم لنا

4) Shaked, A Tentative Biography of the Geniza Documents, Paris, 1964.

5) Rabie, H., Financial system of Egypt 564-741/ 1169-1341, 1972.

دراسة هامة جدا عن اقتصاديات الزواج .

أما الجزء الرابع الخاص "بالحياة اليومية" ، والذي يعيننا في هذا العرض ، فهو دون شك أغنى أجزاء هذه المجموعة فالحضارة المادية التي يصفها تصدق على اليهود والأقباط والمسلمين على السواء ، فقد كان اليهود والأقباط يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين في الفسطاط (وهي المدينة التي يدور حولها كل هذا الجزء) والتي لم تعرف الـ Ghetto اليهودي أو الحرفى على الاطلاق . وقد قسم جويتين هذا الجزء إلى أربعة عناوين رئيسية : المنزل والمدينة ، والملابس والحلى ، والغذاء والشراب ، والركوبات .

ويختص الفصل الذي يتحدث فيه جويتين عن المنازل والعمران المدنى فى الأساس بالفسطاط والقاهرة فى العصر الفاطمى وما بعد الفاطمى . فهو يقدم لنا من خلال أوراق الجنيزة العديد من المصطلحات النوعية المعاصرة التى من شأنها أن تعدل الكثير من معلوماتنا الخاصة بالطبوغرافية والعمارة ، فهو يحدثنا عن أنماط المنازل المصرية ومدخلها وعن القاعة واستخداماتها ، والطوايق العلوية ، والمناظر والبساتين ويهتم هذا الفصل بوصف لثلاثة منازل كما جاء فى الوثائق ، الأول منزل خاص فى خلسة مَهْرَة بالفسطاط ، والثانى الطوايق العليا لمنزل قاهرى يقع فى حارة زويلة ثم اتفاق مبرم بين ساكنين فى أحد منازل مدينة المحلة الكبرى بمصر السفلى .

وبعد ذلك يتناول المؤلف فى فصل تال ، من خلال أوراق الجنيزة ، الحديث عن اقتصاديات المنزل : أسعار البيع والايجار والعوائد ، ثم يفند أشاث المنزل وكل ما يمكن أن نجده فى داخل الدور الواقعة فى الفسطاط صفة خاصة .

وقد استطاع المؤلف أن يربط في حديثه عن المدينة بين ما جاء في أوراق الجنيزة وبين ما تقدمه لنا المصادر الأدبية والكشوفات الأثرية الحديثة ، كذلك فإن الفصل الذي عقده عن الملابس والمنسوجات كمل في جزء منه الأعمال السابقة التي قام بها سرجنت Serjeant, R.B., Islamic Textile, Beirut, 1972 إلا أنه لم يتعرّف على نشرة "أخبار مصر" للمُسجّي الذي أخرجتها بالاشتراك مع تيارى بيانكى في سنة ١٩٧٨ حيث يقدم لنا النص معلومات غنية عن الملابس والأقمشة التي كانت تستخدم في مصر الفاطمية في مطلع القرن الخامس / الحادي عشر .

ورغم أننا لا نملك نص الأوراق التي سنى عليها جويتين دراسته حتى نتمكن من مراجعة آرائه ومطابقتها مع هذه النصوص ، فإن عمله سيظل من أهم الدراسات التي تناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأسرية لأحد مجتمعات العصور الوسطى أعنى المجتمع اليهودي الذي عاش في حوض البحر المتوسط .

دراسة نقدية لكتاب الفن الاسلامى

تأليف : دافيد تالبوت رايس

(David T. Rice: Islamic Art)

د . ابو الحمد محمود فرغلى

كلية الآثار - جامعة القاهرة

صدرت فى عام (١٩٨٤ م) طبعة معادة ومنقحة من كتاب
(الفن الاسلامى Islamic Art)^(١) للسيد (دافيد
تالبوت رايس David Talbot Rice)^(٢) . ويتناول
هذا البحث دراسة نقدية لهذا الكتاب وتنقسم الى قسمين :
اولهما يختص بتعريف موجز بالكتاب ومدى أهميته ، بينما
يقتصر القسم الثانى على الدراسة النقدية .

القسم الاول : تعريف موجز بالكتاب

يقع الكتاب فى مائتين وثمان وثمانين صفحة مقاساتها
(٢١ x ١٥ سم) ويحتوى على حوالى مائتين وتسع وأربعين
لوحة من بينها حوالى خمس وخمسين لوحة بالالوان ويشتمل
الكتاب على مقدمة واشنى عشر فصلا مستقلا تليها قوائم
المراجع والتواريخ والخرائط واللوحات ثم ينتهى بفهرس عام .
وافرد الفصل الاول للفن الاسلامى المبكر خلال العصر
الاموى وتناول فى الفصل الثانى فنون العمر العباسى .

(١) صدر هذا الكتاب لأول مرة فى عام (١٩٦٥ م) عن دار
" Thames and Hudson " بلندن ، ثم اعيد نشره فى
طبعة منقحة عام (١٩٧٥ م) واخيرا صدر فى طبعة معادة
ومنقحة عام (١٩٨٤ م) . والتى سائتهى من ترجمتها قريبا
ان شاء الله .

(٢) السيد " رايس Rice " انتهى دراسته الجامعية فى عام
(١٩٢٥ م) وبعد ان قام بالعديد من الرحلات والحفائس
الاشرية فى منطقة الشرق الادنى عام (١٩٣٢ م) اصح محاصرا
للفن البيزنطى وفن الشرق الاوسط ، ثم بعد حوالى عامين
استادا فى جامعة أدنبرة سانجلترا .

كما خصى الفصل الثالث فنون ايران حتى الغزو المغولى فى حين تناول فى الفصل الرابع الفنون الاسلامية فى اسبانيا ومصر وشمال افريقيا حتى سنة (١٢٠٠ م) . وفى الفصل الخامس تناول فنون بلاد ما بين النهرين من القرن (١٠ م) الى القرن (١٣ م) . وأفرد الفصل السادس لفنون ايران فى العصر المغولى . وتناول فى الفصل السابع فنون سورية ومصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . كما خصى الفصل الثامن لدراسة الفن الاسلامى المتأخر فى شمال افريقيا واسبانيا وصقلية . وتناول فنون السلاجقة الروم فى الفصل التاسع . وأفرد الفصل العاشر لفنون الاتراك العثمانيين . وخصى الفصل الحادى عشر للفن الايرانى فى نهاية القرن (١٤ م) . وبداية القرن (١٥ م) وفى الفصل الثانى عشر تناول الفنون فى نهاية العصر الصفوى وقصد بها تلك الفترة التى تبدأ منذ سنة (١٥٩٨ م) حينما نقل الشاه عباس الصفوى عاصمة الصفويين من قزوین الى اصفهان .

وتعود اهمية هذا الكتاب باعتباره احد المؤلفات الاجنسة بلغة أوربية تناول الفنون الاسلامية بوجه عام بحسب العصور الاسلامية والموقع الجغرافى لظهار التطورات الناتجة عن العصور المتتالية والاقاليم الاسلامية المختلفة وذلك لان العالم الاسلامى يحتل رقعة واسعة من العالم كما أن شعوبه تنتمى الى كل اجناس البشر تقريبا . ونذكر من المراجع السابقة على هذا الكتاب وتناولت نفس الموضوع ومن الراجع أن المؤلف السد " رايس " قد اعتمد عليها فى مادته العلمية ، منها على سبيل المثال :

كتاب " دس Diez " عن فنون الشعوب الاسلامية والصادر فى عام (١٩١٧ م) (٣) ، ثم كتاب " مارسسـه

3) Diez E., Die Kunst der Islamischen Volker. Potsdam, 1917.

Marcais " عن الفن الاسلامى والصادر (١٩٢٦ م) (٤) .
وكتاب "ميجون Migeon " بعنوان " موجز الفن الاسلامى "
فى جزئين صدر عام (١٩٢٧ م) (٥) . وكتاب "كوهنل Kuhnle"
عن الفن الاسلامى والصادر فى عام (١٩٢٩ م) (٦) . وكتاب
" ديماند Dimand " عن الفنون الزخرفية الاسلامية صدر
فى عام (١٩٣٠ م) (٧) . ثم كتاب المرعوم زكى محمد حسن عن
فنون الاسلام صدر فى عام (١٩٤٨ م) (٨) . وكتاب (ويلسون
Wilson " عن الفن الاسلامى - مائة لوحة بالالوان - صدر
عام (١٩٥٧ م) (٩) .

القسم الثانى : الدراسة النقدية

وقع المؤلف السيد "رايس" فى الفصل الاول بالمفحة
العاشرة فى خطأ كبير حيث يقول "نحن الآن لا نعلم شيئاً عما
من فنون اشغال المعدن والنسيج أو تزويق المخطوطات فى عصر
الامويين" (١٠) . ولربما يكون محققاً فى قوله هذه بالنسبة
لفن تزويق المخطوطات ولكنه استعد عن الصواب تماماً لانكاره
وجود قطع من المنسوجات الاسلامية التى تنسب الى العصر الاموى
ونكتفى بسرد الادلة التالية التى تؤكد على معرفة الامويين
صناعة وزخرفة النسيج :

- 4) Marcais G., D'Art Musulmon. Paris, 1926.
- 5) Migeon G., Manuel d'Art Mus. 2 Vol. Paris, 1927
- 6) Kuhnle E., Die Islamisch Kunst Leipzig, 1929.
وقام د. احمد موسى بترجمته تحت عنوان "الفن الاسلامى" صدر
فى بيروت (١٩٦٦ م) .
- 7) Dimand M.S., Handbook of M. Decorative
Arts New York, 1930.

وقام السيد احمد عيسى بترجمته تحت عنوان " الفنون الاسلامية
صدر فى القاهرة (١٩٥٩ م)

(٨) د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام . (القاهرة ١٩٤٨ م) .

- 9) Wilson P.P., Islamic Art one Hundered Plates
in Colour London, 1957.
- 10) Rice D.T., Ismlaic Art London. 1984, P. 10.

(١) ذكر البرت كندراك " Albert Kendrick " بأنه توجد قطعة نسيج بمتحف فيكتوريا والبرت مطرز عليها عبارة " مروان أمير المؤمنين " (١١) ، ويورخها بين سنة (٦٨٤ م) وسنة (٧٥٠ م) (١٢) .

(٢) أشار ارنست كونل " Ernst Kuhnel " الى وجود قطعة نسيج أخرى يحتفظ بها متحف واشنطن منسوجة عليها اسم " مروان " (١٣) .

(٣) يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة - سجل رقم ١٠٨٤٦ - بأقدم مثال مورخ للمنسوجات فى العصر الاموى وهو عبارة عن عمامة من الكتان باسم " سمويل بن مرقس أو سمويل بن موسى " (١٤) وهى مورخة بسنة (٨٨ هـ / ٧٠٧ م) (١٥) وتؤيد نانسى بريتون " Nancy Britton " (١٦) هذا الرأى وتقول بأن القطعة التى تليها قطعة النسيج المحفوظة بمتحف واشنطن وترجع الى عصر مروان الثانى (١٧) .

أغفل المؤلف فى الفصل السابع عند تناوله فنسوان سورية ومصر فى القرنين السادس الهجرى (١٢ م) والسابع الهجرى (١٣ م) فنون العصر الايوبى التى ازدهرت فى كل من سورية ومصر اذ نجد أن صناعة الخزف المرسوم تحت الطلاء

11) Kendrick A.T., Catalogue of M. Textiles of the Medieval period (Victoria & Albert Museum) London 1924, P. 35 PL.III.

12) Ibid. P. 35.

13) Kuhnel E., Die Islamische Kunst. Leipzig, 1929

(١٤) د.حسن الشاشا: فنون التصوير الاسلامى فى مصر (القاهرة ١٩٧٣ م) ص ٣٦ شكل (٩) ، ومدخل الى الاثار الاسلامية (القاهرة ١٩٧٩ م) ص ٣٤٦ شكل (٨٩) .

(١٥) د.محمد عبدالعزیز مرزوق: الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قيل عمر الفاطميين (القاهرة ١٩٧٤) ص ٦٦ شكل ٢٠ .

16) Britton N., Some Early Islamic Text. Boston, 1938

(١٧) د.سعاد ماهر: الفنون الاسلامية (القاهرة ١٩٨٦م) ص ٧٢-٧٤ .

والمتمتع بالوان ازدهرت فى مصر مع مطلع القرن السادس الهجرى (١٢ م) حتى أطلق على هذا النوع لائقان صناعتهم ورقته اسم " الخزف الدقيق الصنع " وتحفظ العديد من المتاحف العالمية بالكثير من القطع الخزفية من هذا النوع وبخاصة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

كما نجد أنه شاع فى مصر وسورية خلال العصر الأيوبي أسلوب الزخرفة بالتذهيب والميناء الزجاجية الملونة ومثال ذلك تلك القنينة التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى بالقاهرة - سجل رقم ٤٢٦١ - برقيبتها الطويلة وقاعدتها المرتفعة وتمتاز أعادها بالرقعة والتناسق ويزخرف بدنها بالتذهيب والميناء زخارف نباتية قوامها زخرفة التوريق داخل ثلاث دوائر كبيرة (١٨) . وتحمل على الرقبة اسم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي سلطان دمشق وحلب (٦٢٣ - ٦٥٧هـ / ١٢٢٦ - ١٢٦٠ م) (١٩) .

كما أغفل المؤلف ازدهار فن التصوير وتزيين المخطوطات بالصور الملونة بحسب أسلوب المدرسة العرسية فى مصر وسورية خلال العصر الأيوبي ومثال ذلك :

- تحفظ المكتبة الاهلية بباريس - تحت رقم ١٣ قبطى - بمخطوط من " الاربع بشائر " مزوق بعدد من الصور وتم نسخه على يد ميخائيل أسقف مدينة دمياط فى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠ م) (٢٠)
- يحتفظ متحف الفن القبطى بالقاهرة - تحت رقم ١٤٦ -

١٨) عبد الرؤوف على يوسف : مقال الزجاج من كتاب (القاهرة تاريخها فنونها ، أشارها) ص ٣٣٩ (القاهرة ١٩٧٠ م) .
١٩) ديماند (م س) : الفنون الاسلامية . ترجمة احمد عيسى (القاهرة ١٩٥٩ م) ص ٢٤٠ .

20) Blochet E., Les Enluminures Des Manus. orientaux De la Bibliotheques Nationale Paris, 1926, P. 51.

بمخطوط من " الرسائل واعمال الرسل" مزوق بعدد من الصور
وتم نسخه على يد غبريال الراهب فى سنة (١٢٤٧هـ/١٢٤٩م) (٢١) .

• تحتفظ المكتبة الاهلية ساريس - تحت رقم ٦٠٩٤
عربى - بمخطوط من كتاب مقامات الحريرى مزوق بحوالى تسعة
وثلاثين صورة (٢٢) وينسب الى سورية حوالى سنة (١٢٢٢/١٢٢٣ -
١٢٢٣ م) (٢٣) .

• تحتفظ المكتبة الاهلية بباريس - تحت رقم ٢٤٦٥ عربى -
مخطوط من كتاب كليله ودمنة مزوق بحوالى ثمان وتسعين
صورة (٢٤) وينسب الى سورية حوالى سنة (١٢٢٢هـ/١٢٢٥م) (٢٥) .

• تحتفظ دار الكتب المصرية بالقاهرة - تحت رقم ١٠٠
طب تيمور - بمجموعة خطبة فى طب العيون من بينها كتاب
فى تركيب العين وعليلها على رأى ابقراط وجالينوس لحنين
ابن اسحاق (٢٦) تحتوى على خمس تصاوير تعتبر من أقدم
الرسوم التشريحية فى طب العين (٢٧) تم نسخها على يد
عبد الرحيم بن يونس بن حسن الانصارى فى اول ذى الحجة سنة
(٥٩٢ هـ) الموافق ٢٥ من اكتوبر سنة (١١٩٦ م) (٢٨) حتى
انه يمكننا القول بان عصر الايوبيين رغم قصر مدته وكثرة
حروبه كان من عصور النضج والازدهار الفنى .

(٢١) أبو الحمد محمود فرغلى: تصاوير المخطوطات فى عصر الايوبيين -
مخطوط رسالة ماجستير من كلية الاثار جامعة القاهرة ١٩٨١م ص ٤٥

22) Ettinghausen R. Arab Paint. - Skira, 1972, P. 151.

23) Sakisan A., La Miniature Persane du XII^e Siecle
au XVII^e Siecle Paris, 1929, P. 20.

(٢٤) د. حسن الباشا: التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى (القاهرة

١٩٥٩ م) ص ١٤٣ .

(٢٥) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

(٢٦) احمد تيمور: التصوير عند العرب (القاهرة ١٩٤٢م) ص ٣٥ وهامش ١٥٦ .

(٢٧) د. ماكس مارهوف: كتاب العشر مقالات العين المنسوب لحنين بن

اسحاق (القاهرة ١٩٢٨ م) ص ٥٧ .

(٢٨) المرجع نفسه ، ص ٦٠ .

وكذلك عند تناوله فن تزويق المخطوطات في عصر المماليك في الفصل السابع أيضا (٢٩) نجده لم يذكر شيئا عن اهتمام سلاطين وامراء المماليك وشغفهم بقراءة الكتب الادبية والناريخية باللغة التركية حسب قول الجبرتي ومصادق ذلك ترجمة كتاب الشاهنامه لابي القاسم الفردوسي في عهد السلطان قنصوه الغورى من الفارسية الى التركية اذ تحتفظ مكتبة طوبقا بوسراى باستانبول بنسخة مخطوط باللغة التركية - تحت رقم ١٥١٩ حزين - (٣٠) مزوقة بحوالى اثنين وستين صورة تم نسخها على يد حسين بن حسن بن محمد الحسينى الدنقى فى الثانى من ذى الحجة سنة (٩١٦ هـ) الموافق الثانى من مارس سنة (١٥١١ م) (٣١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤلف أنهى كتابه بالفصل الثانى عشر والذى يتناول فيه فنون العصر الصفوى وبخاصة منذ النصف الثانى من القرن (١٦/١٠ م) (٣٢) ولم يتعرض المؤلف السيد "رايس" لدراسة الفنون الاسلامية وحالتها فى عصر القاجاريين فى ايران (٣٣) . وكذلكنعكس الامر بالنسبة للقانون الاسلامى فى عصر السلاطين المغول بالهند والتي كانت مزدهرة فى عهدهم وبخاصة فن التصوير وتزويق المخطوطات بالصور الملونة (٣٤) .

29) Rice D.T., Op.Cit., PP. 140-142.

30) Nurhan Atasoy, un Manus.Mamluk Illustre Du Sahnima Revue Des Etudes Islamiques XXXVII. 1969, P. 151.

31) Mohamed Mostafa, Miniature Paintings in some Manuscripts Cairo, 1970, pp. 10-11.

32) Rice D.T. Op.Cit., pp. 237-258.

(٣٢) سمية حسن ابراهيم :المدرسة القاجارية فى التصوير رسالة ماجستير - لم تنشر.كلية الاشارة جامعة القاهرة (١٩٧٧ م) .

34) Brown P., Indian Painting under Mughols, Oxford, 1924.

Gray B. & Barrett D., Indian Painting, Skira, 1977.

وكذلك يلاحظ عليه عدم ذكره لتاريخ هجرى قط ولو مرة
واحدة فى متن الكتاب كله ولا حتى فى قائمة التواريخ بآخر
الكتاب ، ورغم ذلك ورد بالكتاب ذكر بعض الحوادث التاريخية
والمنشآت المعمارية المؤرخة وبعض المنتجات الفنية التى
تحمل تاريخ الصنع .

* * *

دليل الرسائل الجامعية

أولا : رسائل التاريخ القديم

اعداد : عوده عبد الواحد جوده

كاتب القرية فى مصر ابان عصر البطالمة

رسالة ماجستير للباحث : عوده عبد الواحد جوده

تتألف الرسالة من مقدمة وخمسة فصول ، يتناول الفصل الاول التقسيم الادارى فى مصر والهيكل الادارى لموظفيها ، ويشمل ذلك التقسيم الى اقاليم ومديريات ومراكز وقرى ، وتقسيم محافظة الفيوم الى اقسام ونومارخيات ومراكز وقرى . والتقسيم الادارى للموظفين فى كل من الادارة المدنية والادارة المالية .

ويتناول الفصل الثانى ترتيبات تعيين كاتب القرية فى وظيفته وأجره ونخلص الى أن تعيين كاتب القرية كان يتم من خلال قرار يتخذه وزير المالية بناء على ترشيح من رؤسائه وكاتب المركز والكاتب الملكى . وان اشار البعض الى ان مجلس مزارعى الملك وأعيان القرية كان له دور فى تعيينه ، وكان اختيار كاتب القرية يتم من بين العاملين فى مكتب كاتب القرية نفسه أو بناء على صلة قرابة مع كاتب القرية السابق ، وبالنسبة لاجره فانه كان يتلقى قطعة أرض يستزرعها يكون دخلها راتباً له .

ويتناول الفصل الثالث دور كاتب القرية فى شتى مجالات الحياة الاقتصادية فبرز دوره فى مجال الزراعة حيث كان يشرف على مسح الارض وربها وعلى تنفيذ لائحة الزراعة السنوية ، بل وعلى عملية الزراعة نفسها وعلى الحصاد والدراس وتسليم حق الدولة لدى الفلاح ، وبالنسبة للصناعة كان دوره بارزاً فى صناعات بعينها مثل صناعة الزيت والمنسوجات ، حيث كان يمد المصانع بالمواد الأولية ويكتب قائمة باسماء الحرفيين ويراقبهم . وبالنسبة للتجارة نجد

له دورا في تجارة الزيت والنبيذ والمر في نطاق قريته .
وتناول هذا الفصل ايضا دوره في مجال الضرائب على شتى
اوجه النشاط الاقتصادي .

أما الفصل الرابع فيختص بدراسة علاقاته بغيره من
الموظفين مثل علاقته بوزير المالية ومن هم دونه من موظفي
الادارة المالية والمدنية ، وكذلك علاقته بغيره من موظفي
القرية .

والفصل الخامس يتناول دوره في المنازعات القضائية
وارساء العدالة في قريته وانه كان يقوم بهذا الدور
بصفته موظفا اداريا مثل رجال الشرطة في العصر الحديث
وما يقومون به من حل للمنازعات دون أن يكون لهم صفة
قضائية ، حيث لم يكن له صفة قضائية ، وكذلك تناول البحث
أمثلة للمخالفات التي كان يرتكبها كتاب القرى والعقوبات
التي كانت توقع على المنحرفين منهم .

* * *

ثانيا : رسائل التاريخ الاسلامي

اعداد : هويدا عبد المنعم سالم

١ - التطور السياسي للدولة الايلخانية في عهد

اولجايتو محمد خدابنده

رسالة ماجستير للباحث : محمد محيي الدين الادريسي

تتناول هذه الرسالة التطور السياسي الذي طرأ على الدولة الايلخانية في عهد اولجايتو محمد خدابنده ، والذي حكم فيما بين سنتي (٥٧٠٣ - ٥٧١٦) (١٣٠٤م - ١٣١٦ م) . ويعتبر هذا الايلخان المسلم هو شامن امير مغولي يتولى عرش هذه الدولة التي أسسها هولوكو بايران بعد سلسلة من الايلخانيين الوشنيين والمسلمين .

ينقسم البحث الى تمهيد وستة فصول : أما التمهيد : فقد عرف فيه الباحث دولة الايلخانات منذ نشأتها بايران على يد هولوكو حتى زمن اولجايتو . ووقف عند الايلخانات الاوائل الذين تعاقبوا على عرش هذه الايلخانية ليتعرف على سياستهم الداخلية .

وتناول في الفصل الاول دراسة الجهازين السياسي والاداري في الدولة فتطرق فيه الى قيام الحكم الايلخاني ببلاد فارس . وهو اسم التولية عند الايلخانات وكيف كانوا يأخذون صيغة الحكام الشرعيين من السلطة المركزية بالصين، وتناول كذلك الوزارة والوزراء في الدولة الايلخانية . كما اشتمل الفصل على دراسة الجهاز الاداري القائم داخل البلاد، والبحث في نظام البريد داخل الدولة والوقوف على مدى الاصلاحات التي ادخلت على هذا النظام بعد ان تطرق اليه الفساد .

واختص الفصل الثاني بموضوع النظامين المالي

والعسكري في الدولة . وحاول الباحث معالجة النظام المالي لكل فروع المتعارف عليها آنذاك ، خاصة فيما يتعلق بموارد الدولة ومصروفاتها ، وأشار كذلك الى انواع العملة المتداولة انذاك والتغيرات التي ادخلت عليها وكيفية اقبال الناس عليها داخل البلاد ، كذلك عالج الباحث في الجزء الثاني من الفصل النظام العسكري في البلاد فتحدث عن التنظيمات العسكرية المتبعة داخل الجيش المغولي وعن الاسلحة التي استعملها المقاتل المغولي وخطط الهجوم على اعدائه ، كما تحدث عن رواتب الجيش التي كان يتقاضاها من الدولة .

وتأقش الفصل الثالث التطورات السياسية التي شهدها عصر الايلخان اولجايتو محمد خدابنده وسياسته الداخلية من أجل توطيد الحكم داخل البلاد ، ومجابهة الحركات المناهضة والمباراة لحكمه .

وبحث في الفصل الرابع العلاقات الايلخانية المغولية فأهتم بدراسة العلاقات الخارجية مع بلاد فارس وباقي افراد سني عمومهم من البيت الجنكيزي ، سواء السلطة المركزية بالصين ومنغوليا والتي كانت تقتصر على الخاقانات العظام أو مغول ما وراء النهر (الجغتائيين) وكذلك مغول القفجاق .

وأختص الفصل الخامس بدراسة العلاقات بين الدولة الايلخانية والدولة الاسلامية التي كانت تشكل الحدود مع أطرافها فتحدث في هذا الفصل عن علاقات الايلخانيين بدولة الممالك في مصر والشام والتي غلب عليها طابع الصراع الحاد والنزاع المستمر نظرا للهجمات التي قام بها الجيش المغولي على الاراض الشامية بغية الاستيلاء عليها وضما الى اراضيه . كما أشار هذا الفصل الى علاقة

الاييلخانيين مع باقى البلاد الاسلاميه كبلاد الحجاز وبعض القبائل العربيه .

أما الفصل السادس والأخير فتناول بالدراسة العلاقة بين الاييلخانيين واندول المسيحية بأوربا وموقفهم من أهل الذمة داخل البلاد . هذه العلاقة التى سيطر عليها جانب المصلحة بين الطرفين سواء من جانب البابويه وملوك الغرب المسيحي أو من جانب الاييلخانات .

* * *

٢ - الصحابييات ودورهن في بناء أمة الاسلام
في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
رسالة ماجستير للباحثة: سامية عبدالعزيز منيسى

تتناول هذه الدراسة دور الصحابييات في بناء الدولة
الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهودهن
في رفعة الدولة وتقدمها .

ينقسم البحث الى مقدمة وبايين وخاتمة ، وقد جعلت
الباحثة من المقدمة تمهيدا تناولت فيه نسب رسول الله صلى
الله عليه وسلم والمراد بمفهوم كلمة " صحابي " وطبقات
الصحابة وفضائلهم ، والآيات والاحاديث التي اشادت بدورهم
في توطيد اركان الدين الاسلامي وترسيخ قواعده .

واختص الباب الاول بحصر كل الصحابييات اللائي عاصرن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذا فهو جمع بين تقسيم
لنسب الصحابييات وتحقيق النسب لعدد منهن اللائي وردن في
المصادر باسم الاب ، أو الجد ، أو بالاسم المجرد فقط .
وعند حصر الصحابييات اللائي ذكرن في المصادر تم تقسيمهن
الى فئات حسب قبائلهن

واهتم الباب الثاني : بتصنيف اللادوار البسارزة
للصحابييات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سواء في
الهجرة او الجهاد بصفة عامة ومن نزل فبهن تشريع سواء
نص على ذلك في القرآن الكريم أو الاحاديث النبوية
الشريفة . ومما تجدر ملاحظته ان الاسماء قد رتبتم ترتيبا
هجائيا في كل موضوع وبخاصة عند الحدث عن أمهات
المؤمنين طبقا للترتيب الزمني لزواج النبي صلى الله
عليه وسلم بهن .

أما خاتمة البحث فقد اوردت فيه الباحثة النتائج التي
توصلت اليها بعد البحث في تاريخ الصحابييات وعددهن ، وادوارهن
البارزة .

ثالثا : رسائل التاريخ الحديث

اعداد : محمد عقيفى عبدالخالق

١ - سياسة الاحتلال الزراعية فى مصر

١٨٨٢ - ١٩١٤

رسالة دكتوراة للباحث: اسماعيل محمد زين الدين

تنقسم الرسالة الى تمهيد وستة فصول وخاتمة .

استعرض الباحث فى التمهيد الاهداف السياسية والاقتصادية التى تذرعت بها انجلترا للبقاء بمصر واطالة امد الاحتلال ، بعد أن تم تصفية الثورة العربية التى كانت موجة ضد التدخل والسيطرة والاستغلال الاجنبى .

وتناول الباحث فى الفصل الاول سياسة الاحتلال تجاه الملكيات الزراعية ، ومحاولاته لتحقيق التوازن والاستقرار داخل المجتمع للحيلولة دون حدوث اضطرابات سياسة تهدد وجوده ، وموقف الاحتلال من مشكلة ديون الفلاحين التى كانت تمثل خطرا على الاستقرار الاجتماعى فى البلاد .

وخص الباحث الفصل الثانى لسياسة الري ، والتنى كانت تهدف الى زيادة مساحة الاراضى المنزرعة ، مع زيادة كفاءة استغلالها عن طريق زيادة عدد المحاصيل التى تنتجها الارض ، وذلك بالتوسع فى مشروعات الري الدائم ، وانشاء العديد من القناطر والجسور على النيل ، كان من بينها قناطر اسوط (١٩٠٢) ، وزفتا (١٩٠٣) ، وأسنا (١٩٠٨) ، بالإضافة الى اصلاح قناطر الدلتا عام ١٨٩٠ ، وانشاء خزان اسوان عام ١٩٠٢ ، الذى تمت تعليته للمرة الاولى عام ١٩١٢ ، مما ترتب عليه زيادة كمية الحجز الى ٢٣ مليار متر مكعب من المياه سنويا . واختتم هذا الفصل بالآثار الاقتصادية التى عادت على البلاد من مشروعات الري الدائم خلال الفترة موضع الدراسة .

تعرض الباحثة في الفصل الثالث لسياسة التخصص الزراعي والتركيز على إنتاج محصول القطن ، لتزويد مصانع الغزل والنسيج البريطانية بما تحتاج اليه من المحصول ، التي جانب الحصول على أكبر قدر من الموارد المالية ، تساهم في دفع عجلة التنمية ، وامكانية سداد الديون الخارجية وفوائدها . وقد أوضح الباحث مدى الأضرار التي لحقت بالمجتمع المصري من جراء هذه السياسة ، والتي أدت الى زيادة حدة التبعية للخارج من أجل الحصول على المواد الغذائية ، بعد أن زاد عدد السكان بقدر فاق الزيادة في إنتاج المحاصيل الغذائية ، لان التوسع في زراعة القطن كان على حساب المحاصيل الزراعية الأخرى ، كما أن هذه السياسة استفاد منها أصحاب مصانع الغزل والنسيج في إنجلترا ، وطبقة كبار الملاك والاعيان سواء من المصريين أو الأجانب .

أوضح الباحث في الفصل الرابع الدور الذي لعبته الاستثمارات الأجنبية في مجال التنمية الزراعية ، والتي تركزت في مجالات التسليف العقاري وتمويل تجارة القطن الى جانب مشروعات الري والصرف والسكك الحديدية واستصلاح الاراضي ، والقطاعات التي تخدم الوجود الأجنبي في البلاد مثل خدمات المواصلات السلكية واللاسلكية والفنادق . وقد أوضح الباحث كيف سارت هذه الاستثمارات في طريق يبعد مصر عن أي تطور صناعي نظرا لموقف الاحتلال المعلن صراحة من التصنيع .

أما الفصل الخامس فقد خصمه الباحث لطرق ووسائل تحسين وزيادة الإنتاج . ولما كانت الزراعة تمثل حجر الزاوية في السياسة الاقتصادية للاحتلال البريطاني ، فقد اهتمت سلطات الاحتلال بعدة قضايا تتناول تحسين وزيادة

الانتاج الزراعى ، ومحاولة المحافظة على خصوبة التربة الزراعية عن طريق القيام بعدة ابحاث ونجارب عملية وعلمية لتحقيق هذا الهدف . وكذا قضية انتقاء البذرة وأشرها على الانتاج ، والاضرار التى كانت تسببها دودة القطن ، بالإضافة الى الاهتمام بمسألة الامراض التى كانت تصيب الماشية والحيوانات المستخدمة فى الزراعة والانتاج فيما عرف بالطاعون البقرى . وقد لعبت الجمعية الزراعية الخديوية التى أنشئت فى عام ١٨٩٨ تحت الرعاية والتأييد من جانب الحكومة وسلطات الاحتلال دورا هاما فى هذا الصدد . وقد أوضح الباحث أن كافة هذه المشروعات وجهت فى المقام الاول لخدمة كبار الملاك وأصحاب مصانع الغزل .

أفرد الباحث الفصل السادس لبيان أثر السياسة الزراعية على التجارة من حيث زيادة حجم الصادرات والواردات ، ونظم تسويق الحاصلات الزراعية ، ومدى انعكاس تصدير القطن على الدخل القومى .

وعرض الباحث فى خاتمة الدراسة تقييما شاملا ، لاثر السياسة الزراعية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وفى تحديد مسار الاقتصاد المصرى كاقتماد تابع فى اطار الاقتصاد العالمى .

٢ - تجارة مصر الخارجية ١٩١٤ - ١٩٣٩

رسالة دكتوراه للباحث : أحمد الشربيني السبد

تتناول هذه الدراسة موضوعا هاما في فترة هامة من تاريخ مصر ، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية : فبالنسبة للتجارة الخارجية ، نجد أنها شهدت في فترة الدراسة تغيرات في توجهاتها وكذلك في نوعياتها وخصوصا الواردات ، علاوة على ما شهدته هذه الفترة من انتهاء اجل التعريفات الجمركية التي ارتبطت بها مصر في أواخر القرن التاسع عشر واولئ القرن العشرين ، وبدء عهدا بتعريف جديدة روعي في وضعها الاسس الاقتصادية اللازمة لزيادة موارد الدولة وحمالة الصناعات الاهلية ، وتأثير ذلك في التخفيف من غلواء تبعية السوق المصرية للسوق العالمي .

تتضح من دراسة تجارة مصر الخارجية في الفترة من ١٩١٤ الى ١٩٣٩ انها صيغت بشكل هيكلى جاء امتدادا لمخطط رسمته الرأسمالية العالمية وخصوصا رأس المال المسيطر - البريطاني - بدأته تجربة بناء الاقتصاد المستقل في عهد محمد علي .

ومن ناحية أخرى ساعد تحول الأرض الى سلعة على استمرار تركيزها وثباتها في يد فئة محدودة ، امتلكت بمرور الوقت معظم الاراضي الزراعية ، في حين ظل قطاع عريض من الاهالي بلغ متوسط ما يمتلكه الفرد فيه ، دون القدان ، وادى ذلك الى اختلال في توزيع الثروة وبالتالي الى تمايز في انماط الاستهلاك فاصبحت الفئة المالكة للثروة تعيش حياة غريبة على اوسع نطاق ، في وقت عجز الانتاج المحلي عن سد متطلباتها السلعة نتيجة اعتماد الاقتصاد المصري على سبط تصديرى لمحصول واحد ترتب عليه ان اصحت

القوة الشرائية المصرية والمتمركزة في المدن - ففى الغالب - موجبة لاستهلاك السلع المستوردة ، والتي ارتفعت قيمة وارداتها .

أما القطاع العريض من الاهالى ، فكانت ثورته الشرائية ضعيفة ، وارتبط تحسنها الى حد بعيد بمدى التحسن فى محصول القطن ، وحتى فى هذه الحالة ، كانت متطلبات هذا القطاع العريض تنحصر فى الطعام ثم الملابس بعد ذلك .

ادى الاختلال فى توزيع الثروة الى خلق اختلال من نوع آخر فى انماط الاستهلاك اثر فى النهاية على طبيعة السوق المصرية ، التى وجدت فيها السلع الاجنبية ضالتها المنشودة اما الانتاج المحلى ، فتراجع فى سوقه لافتقاده لابسطة الموءهلات التى تمكنه من منافسة الانتاج الاجنبى منافسة متكافئة نتيجة لعدم اقبال الاهالى عليه او لعدم توافر الحماية ، والتى كانت قد توافرت بعض الشيء فى الثلاثينات الا ان المزاحمة اليابانية جاءت لتفسدها ، خصوصا انها عملت على غمر السوق المصرية بالسلع الرخصة مما هدد بريطانيا قبل مصر ، وجعلهما ينسقان من أجل وضع حد لهذه المزاحمة اليابانية وبالفعل تمكنا من وضع حد لذلك فى ١٩٣٥ ، وبالتالي فان الفترة المتبقية كانت لا تسمح للانتاج المحلى بتغطية احتياجات السوق ، لذلك ظلت تربطها بالسوق العالمى علاقة تبعية .

استمرت السوق المصرية ، على علاقة تبعية بالسوق العالمى ، ينطق بذلك الازدياد الواضح فى نوعيات ومقدار الواردات ، فاذا ما نظرنا الى نوعيات الصادرات ، نجد أن الرأسمالية العالمية ، حرصت على زيادة فائض الانتاج القطنى وتعبئته الى الخارج ، حيث استمر القطن يشكّل معظم الصادرات ، وقد استت شركات تجارية عديدة مارست

عمليات اعداد وتجهيز وتصدير الاقطان الى الخارج بالدرجة الاولى والذي كان يصدر منه حوالي ٩٩ / حتى ١٩٣٠ ، ثم ٩٥ / بعد ذلك حتى نهاية فترة الدراسة .

شهدت هذه الفترة انشاء اكبر عدد من الشركات التجارية سواء الاجنبية السحثة منها أو المختلطة وكذلك المصرية . وتعد مشاركة رأس المال المحلي - المتمصر والمصرى - أمرا يستحق الاعتبار .

وبذلك نجد أن عملة ادماج مصر في السوق العالمى أصبحت اكثر رسوخا بعد ان تم توجيه الاقتصاد المصرى الى التخصص فى الانتاج الزراعى الذى يلعب فيه القطن الدور المحورى ، وبالتالي اصبح الانتاج المحلى عاجزا عن سد متطلبات السوق المحلية ، امام التغير فى انماط الاستهلاك فكان بمعزل عن السوق العالمى ، بل حتمت الضرورة انخراط مصر فى المبادلات التجارية العالمية ، فتصدر انتاجها العننى ثم تستورد بقيمته النقدية سلعا استهلاكية، تحولت بعض الشئ فى الثلاثينات نحو استيراد السلع الانتاجية .

والجدير بالذكر ان اية زيادة فى حصص السلسدان المتعاملة مع مصر تجاريا كانت تتم على حساب بريطانيا ورغم ذلك ظلت تحتفظ لنفسها بالنصيب الاكبر من تجارة مصر الخارجية ، وظل الاقتصاد المصرى على علاقة اكثر تبعية للاقتصاد البريطانى وذلك بعد الارتباط الذى تم فى فترة الدراسة بين الجنيه المصرى والاسترلينى . وخصوصا بعد ان فشلت محاولات اقامة اتجاهات استقلالية للاقتصاد المصرى فى اطار السوق العالمى بالتوجه نحو بناء صناعات يقدم للسوق المحلية بعض احتياجاتها من السلع المصنعة وقام بنك مصر بالدور القيادى فى هذه المحاولات عندما اقدم على انشاء عدد من الشركات الصناعية فى مجالات التصنيع المختلفة .

هذا ما تناولته الدراسة المكونة من تمهيد وستة فصول وخاتمة ، تناول التمهيد دراسة لبنية الاقتصاد المصرى عند قيام الحرب العالمية الاولى ، وتناولت فسى الفصل الاول تطور السوق المصرية فى الفترة من ١٩١٤ - ١٩٣٩ وشنت بفصل لدراسة التغير الاجتماعى وتأثيره على التجارة بينما اختص الفصل الثالث بالاستثمارات فى مجالات التجارة الخارجية . وتناولت الفصول التالية من الرابع الى السادس ، الصادرات والواردات ونوعياتها واسواق تجارة مصر الخارجية . اما الخاتمة فاوضحت النتائج التى توصل اليها الباحث .

* * *

٣- القضية المصرية فى المرحلة الاخيرة

١٩٥٠ - ١٩٥٤

رسالة دكتوراة للباحثة: فادية سراج الدين

تعالج هذه الدراسة موضوع قضية التحرر الوطنى المصرى من الوجود البريطانى فى مرحلتها الاخيرة ، وقامت الدراسة على فرضية اساسية دارت حول المتغيرات الدولية والمحلية التى حدثت فى تلك الفترة وأشرفها فى تهيئة الظروف السياسية التى ساعدت على تحريك القضية المصرية ودفعها نحو الحل ، فافتترضت وجود علاقة بين تلك المتغيرات وبين حل القضية . وقد تم اختار هذه الفرضية بطريقة علمية باستعراض مدى التغير الذى طرأ على الظروف السياسية والاقتصادية والاستراتيجية على المستويات الدولية والمحلية فى كل من مصر وبريطانيا فى الفترة محل البحث ، ومدى انعكاسها على القضية المصرية ، حيث أمكن التوصل الى النتيجة الاساسية لهذه الدراسة وهى ان القضية المصرية قد اكتسبت فى مرحلتها الاخيرة ابعادا جديدة وخضعت لاعتبارات كثيرة مثلت فى مجملها عاملا ايجابيا هاما دفع القضية دفعا ايجابيا نحو الحل .

وقد ساعد ذلك القضية المصرية على الانطلاق من نقطة بداية جديدة وممكنها من أن تطرح نفسها طرحا جديدا على الاطراف المعنية ، مما ألبسها بعدا جديدا عمق من أثر الابعاد الاخرى وتفاعل معها ليوفر لها فرما افضل فى الحل .

تطورت استراتيجية العمل الوطنى على ضوء الظروف السائدة فاتجه التحرك السياسى الجديد للقضية نحو العمل على استثمار العداة الاستراتيجية بين الشرق والغرب لدفع القضية نحو الحل ، وقد تم ذلك بممارسة الضغط على بريطانيا لاجارها على الجلاء من خلال محاربة قواتها والتمدى

لمصالحها الحيوية في مصر ، وبممارسة الضغط من جانب آخر على الولايات المتحدة لكي تتدخل في النزاع القائم بين مصر وبريطانيا ، وتتخذ موقفا مناصرا لقضية مصر من خلال التهديد بعدم التعاون الاستراتيجي مع الغرب ما لم تتم تسوية القضية على نحو يرضى التطلعات المصرية .

على الرغم من العقبات التي تعرضت لها القضية في بداية هذه المرحلة بسبب استخدام بريطانيا القوة العسكرية في مواجهة الحركات الوطنية المتصاعدة ، ومساندة الولايات المتحدة للسياسة البريطانية ، الا أن تدافع الاحداث التي نتجت عن العنف والعنف المضاد الذي ترتب على تصاعد الصدام بين الفدائيين المصريين والقوات البريطانية في منطقة القنال الى اقناع الولايات المتحدة بضرورة التحرك الايجابي لحل هذه المشكلة خوفا من تهديد المصالح الغربية في المنطقة والوجود الامريكى ذاته على المدى الطويل . لذلك قررت الولايات المتحدة التحرك الايجابي لتصفية المشكلة المصرية تصفية نهائية ، وأعطت لنفسها حق التدخل في هذه القضية والقيام بدور الوسيط بين مصر وبريطانيا .

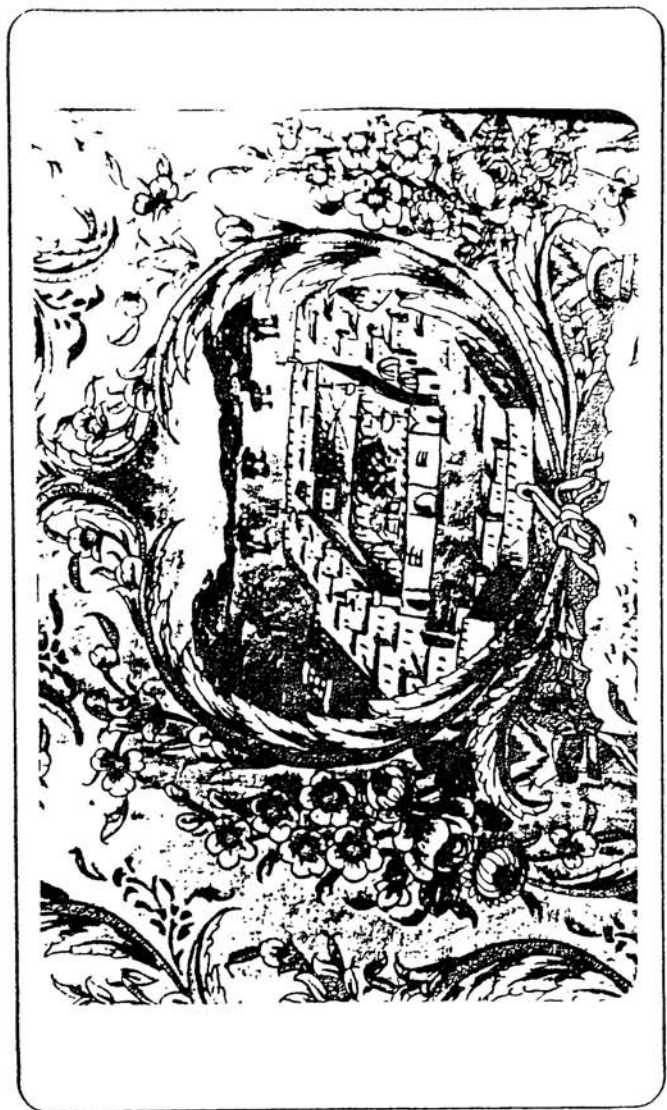
جاءت نتائج هذا التحرك الامريكى على غير ما تمننت بريطانيا التي كانت تطمح في ان تتدخل الولايات المتحدة في النزاع القائم بينها وبين مصر ، الا أن التحرك الامريكى كان مشروطا ومحددا دائما بالعمل في اطار ما يخدم أهداف الاستراتيجية الغربية .

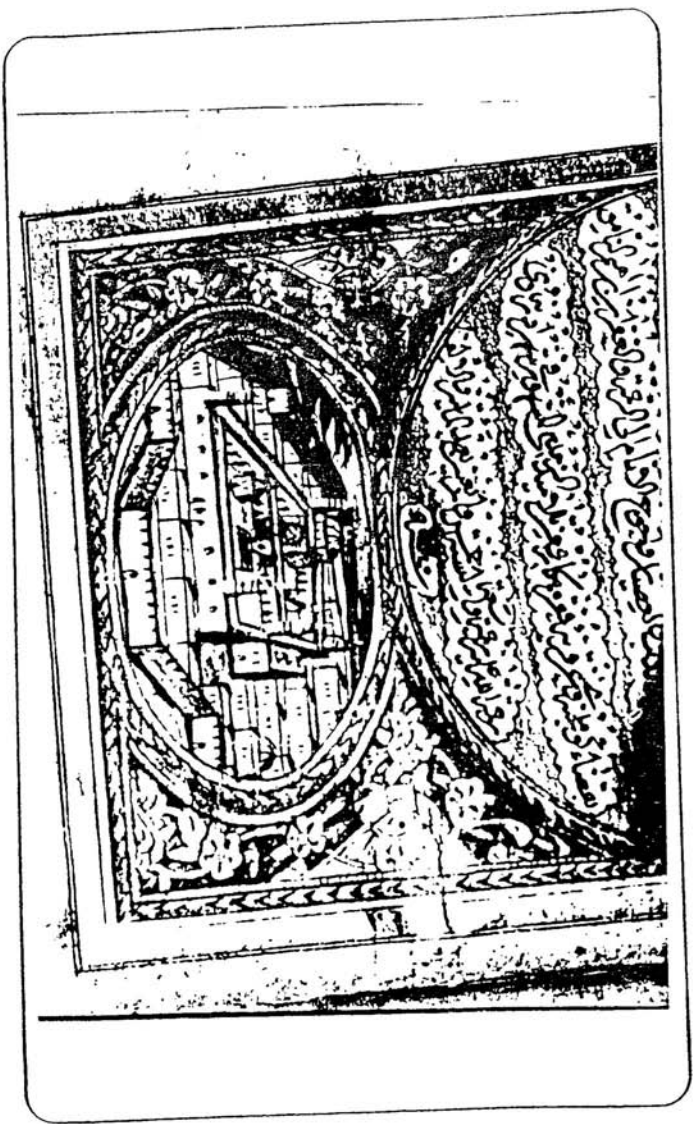
ومن ناحية أخرى أدى تصاعد العمل الفدائي في القنال الى أن فقدت قاعدة السويس قيمتها الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا وأصبحت عديمة النفع بعد أن تحولت المنطقة من معقل دفاعي الى مستودع ضخم للمعدات العسكرية والقوات البريطانية ، التي تصاعفت اعدادها الى عشرة أمثال ما

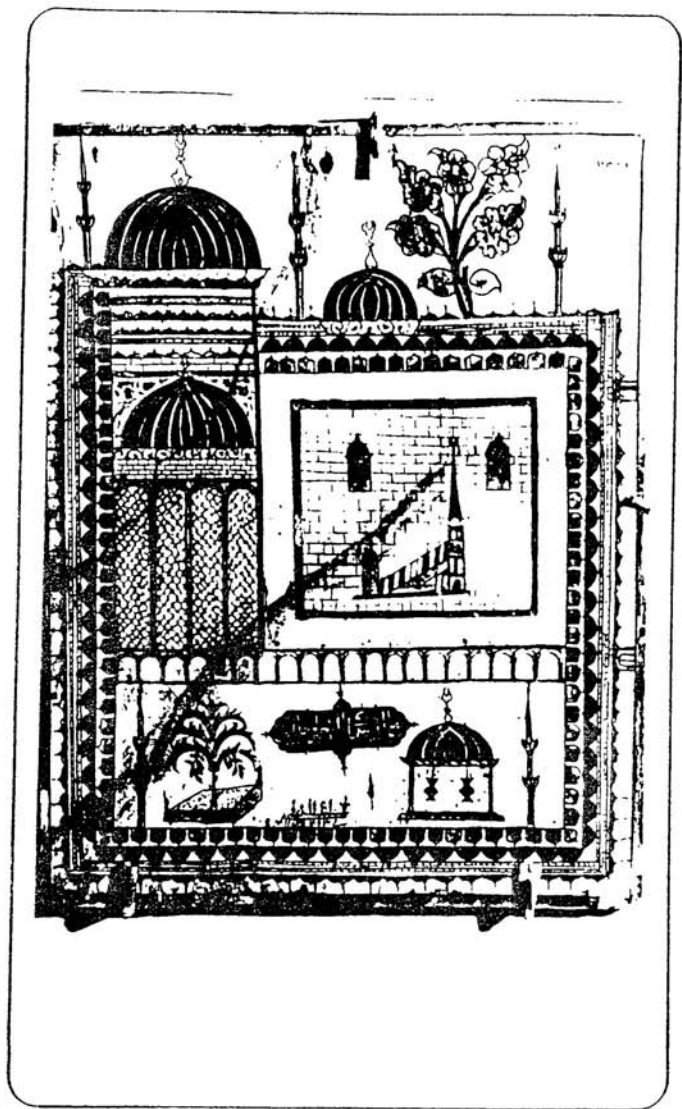
عليه المعاهدة ، فبلغت ٨٠.٠٠٠ من الجنود ، الذى كسان يكلف الخزانة البريطانية ٥٠ مليون جنيه سنويا ، والسدى لم تعد لهم الا مهمة واحدة هى الدفاع عن القاعدة وعمس أنفسهم فى مواجهة شعب مصر المعاد لهم وأدى هذا الوضع الى اقناع بريطانيا بان ارضاء مصر هو السبيل الوحيد للحفاظ على المصالح الغربية فى المنطقة ، ومن ثم لم بعد الانجليز يتمسكون بضرورة بقاء قواتهم فى مصر فى وقت السلم .

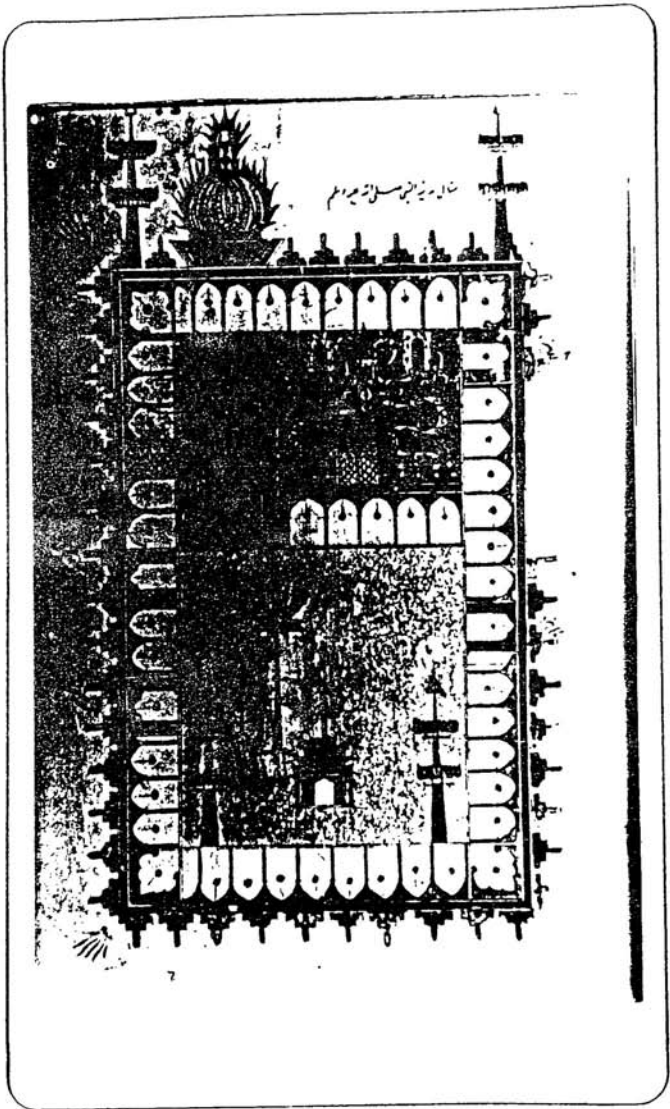
وقد أوضحت هذه الدراسة مدى التغير الذى طرأ على مسار السياسة البريطانية تجاه مصر خلال تلك الفترة ، حتى صارت تتجه الى العمل على التخلص من عبء الاحتفاظ بقاعدة بريطانية فى مصر ، بعد أن عجزت موارد بريطانيا الاقتصادية والعسكرية عن الوفاء بالتزاماتها وخاصة بعد ان تغيرت النظرة الاستراتيجية لقاعدة السويس وأصبح رؤساء الأركان البريطانيين يرون أن وجودها لم يعد بشكل عنصر اساسيا فى الدفاع عن الشرق الاوسط ، وانه يمكن التخلّى عنها فى وقت السلم .

خلصت الدراسة الى أن الموقف الأمريكى المويد للطرف المصرى والذى كان يمارس ضغطا على الطرف البريطانى ، كان من أهم العوامل التى اثرت ايجابيا على القضية المصرية ، نظرا لتزايد محورية الدور الأمريكى فى ذلك الوقت ، وتزايدت شعبية الموقف البريطانى للموقف الأمريكى ، حتى أصبحت المحادثات الانجلو - أمريكية خطوة اساسية لابد أن تسبق اة محادثات انجليزية - مصرية .

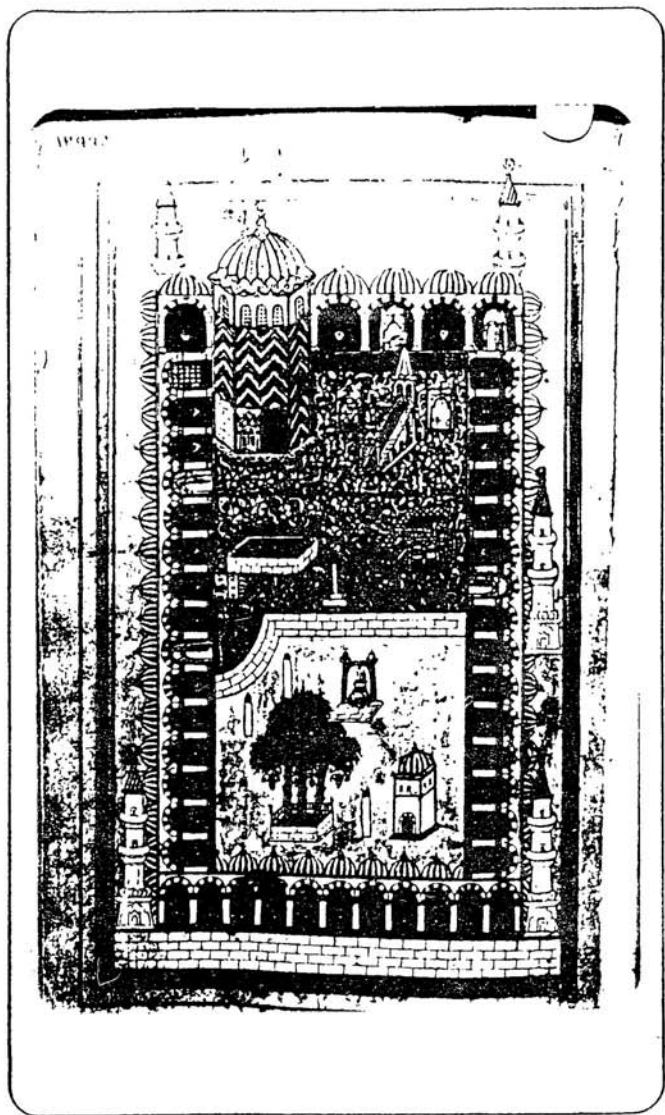








شاهان و پادشاهان مسلمانان در مدینه



In conclusion, in the light of the preceding comparative study, the illustration could be dated after the year 1228, (1813 AD) when the outer walls of the Honourable Room were covered for the first time with decorative tiles, evident in the illustration, and before the year 1245 AH (1829 AD) when perspective was correctly and wholly applied in Ottoman illustrations.

On the other hand, this illustration excels other similar pictures of the same type in using perspective. While perspective had been applied in depicting one element only in the illustration dated 1141 (1729 AD) i.e., the bed of the palm-tree of Fatima, it is, here, applied in depicting several details such as the Honourable Room, the minbar, the principal Dikka, the platform of the servants of the Mosque (Aghawat), the oil-dome, the bed of the palm-tree of Fatima and square platform in the courtyard. However it has not been wholly followed here contrary to the illustrations belonging to the middle of the thirteenth century AH and hence-fourth, for example those dated 1245 AH⁽¹⁰⁾ (1829 AD) (Pl.4) and 1249 AH⁽¹¹⁾ (1833 AD) (Pl.5). Thus, regarding perspective, the illustration may belong to a date before the year 1245 AH (1829 AD).

(10) At Qasr al-Manyal Museum, No. 358.

(11) At the Museum of Islamic Art, Cairo, No. 18104.

Thus, in the light of the historical comparative study, the picture can be dated between the year 1228 AH (1813) and the year 1267 (1851 AD).

Also the comparative study of the style of painting may be of some use in dating the illustration more precisely. On the one hand, the picture belongs to the typical early decorative style followed until about the end of the twelfth century AH, such as the symbolic illustrations dated 990⁽⁸⁾ AH (1585 AD) (Pl.2) and 1141 AH⁽⁹⁾ (1729 AD) (Pl.3) which are characterized by elaborate patterns and combination between plans and elevations. In the undated illustration, the decorative style is evident partly in repetition and using unrealistic decorative colours such as the golden Honourable Dome and the golden patterns on the ground of the sanctuary, and partly in combining the plan in depicting the sides of the Mosque, with the elevation in depicting the arcades, domes, mihrabs, doors and minarets.

(8) The Exhibition of the Unity of Islamic Art, 1405 AH (1985 AD).

(9) At the Museum of Islamic Art, Cairo, No.3556.

three poles and a golden drawing on a square platform paved with flagstones. Around the courtyard there are the arcades consisting of arches with hanging lamps, and covered with ribbed domes. Predominant in the illustration, is the Honourable Room with its outer walls decorated with coloured zigzag bands undoubtedly denoting ceramic tiles⁽⁵⁾ (1228 AH/1813 AD).

As the illustration contains the oil-dome which was removed from the courtyard in 1267 AH.⁽⁶⁾ (1851 AD) i.e., at the Majidi reconstruction, it must have been depicted before that date.

Besides, as the outer walls of the Honourable Room are decorated, in the illustration with ceramic tiles, introduced according to historical information⁽⁷⁾ in 1228 AH (1813 AD), it is suggested to have been depicted after that date.

(5) Ayyub Sabry, *Miraat al-Madina* (The Mirror of Madina), 1st.ed., Constantinople, 1304 AH, Vol. II, P. 761.

(6) Al-Berzenjy, *Nuzhat an-Nazirin fi Masjid Sayyid al-Awwalin wal-Akhirin* (The Excursion of the Onlookers at the Mosque of the Master of the First and the Last), 1st.ed. Jamaliyy Press, Cairo 1332 AH, PP.25-27.

(7) Ayyub Sabry, *Op.Cit.*, PP. 761.

the Mihrab of Osman⁽²⁾ (1198 AH/1783 AD), at the qibla wall, the large and small dikkas (1106 AH/1694 AD), the platform of the servants of the Mosque (Dikkat al-Aghawat) (956 AH/1559 AD), the wooden partition between the added aisles of Omar and Osman and the rest of the southern riwak (956 AH/1549 AD)⁽³⁾. In the courtyard, beyond the stone partition, (1073 AH/1662 AD), there are the oil-dome⁽⁴⁾ (576 AH/1180 AD), the garden of Fatima, together with

-
- (2) It was completely renewed in 1198 AH (1783 AD) and was repaired in 1245 AH (1829 AD). Muhammad Hazzaa Ash-Shihry, Al-Masjid an-Nabawy Fil-Asr al-Uthmany (The Prophet's Mosque in the Ottoman Period), Ph.D. Thesis, Umm al-Qura University, Mecca, PP.67 & 137.
- (3) Ibn Hajar al-Haythamy, Tuhfat az-Zuwwar ila Qabr an-Naby al-Mukhtar (The Gem of the Visitors to the Tomb of the Chosen Prophet) MS at the Library of the Honourable Meccan Sanctuary, No.133 History, PP.61 & 95.
- (4) It was rebuilt in 974 AH (1566 AD). Abd al-Ghany an-Nabulsy, Ar-Rihla an-Nabulsiya (The Travel of Nabulsy), MS at the Library of the Honourable Meccan Sanctuary, Vol.III, P.95.

An Ottoman Drawing of
the Prophet's Mosque

By: Prof.Dr. Hassan El-Basha

At the Museum of Islamic Art in Cairo, there is an undated Ottoman illustration of the Prophet's Mosque in a manuscript⁽¹⁾, containing a text of prayers. It is in good condition and coloured in red, blue, green with various tones, together with white, black and golden colours (Pl.1).

Without ignoring the decorative display, the artist showed much interest in depicting many elements and details introduced or renewed at fixed dates. The four doors and the five minarets are placed at their right positions. In the sanctuary, there is the minbar (998 AH/1589 AD) with the mihrab of the Prophet on its western side (948 AH/1541 AD) and that of the Hanafites on its western side as well as

(1) No 13998, Size of Page 19 CM x 12.
8 CM.

رقم الإيداع ٨٨/٢٥٧٩

الترقيم الدولي ٤ - ٠٢٣ - ٧٣٨ - ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts



The Egyptian Historian
Historical Studies & Researches

1

January
1988

Issued By
History Section



THE EGYPTIAN HISTORIAN
Historical Studies & Researchs

First Issue

January 1988

Editor : Prof. Dr. Raouf A. Hamed

Director: Dr. Mahmoud A. Mahmoud

All Correspondence to be directed to:
Prof. Dr. Raouf A. Hamed - The Editor,
Cairo University, Faculty of Arts, A.R.E.

جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية

١

يناير ١٩٨٨

يصدرها قسم التاريخ

محتوى العدد

- ٢ * افتتاحية العدد
أ.د / رؤوف عباس حامد
١ - القسم العربي
الابحاث والدراسات
- ٧ * الفاطميون وفلسطين
أ.د / محمد جمال الدين سرور
٢٥ * الجبهة المليبية فى معركة حطين
أ.د سعيد عبد الفتاح عاشور
* مؤذنة بلا مسجد
٥٣ د. حسنى نويصر
* مصر والمصريون عند هيروودوت
٩٥ د. عبد الحليم محمد حسن
* الجيش الفرنوى . اعداده وتنظيماته الحربية
١٣٣ د. محمود عرفه محمود
* نائب السلطنة فى القاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية
١٥٩ د. لىلى عبد الجواد اسماعيل
* الحملة الفرنسية والمتغيرات التاريخية والحضارية
٢٢٧ د. وجيه عبد الصادق عتيق
* دور القبائل الحجازية والشامية فى الثورة العربية
٢٧١ د. عبد العليم على أبو هيكل
* موقف الحكومة المصرية من التضخم ابان الحرب العالمية الاولى
٣٠٣ د. احمد الشربيني السيد
المراجعات وعرض الكتب
- * عرض وتحليل لكتاب "A Mediterranean Society"
٢٤٥ د. ايمن فؤاد سيد
* دراسة نقدية لكتاب "Islamic Art"
٢٥١ د. ابو الحمد محمود فرغلى
دليل الرسائل الجامعية
- * رسائل التاريخ القديم
٢٦١ اعداد : عوده عبد الواحد جوده
* رسائل التاريخ الاسلامى
٢٦٣ اعداد : هويدا عبد المنعم سالم
* رسائل التاريخ الحديث والمعاصر
٢٦٧ اعداد : محمد عفيفى عبد الخالق
٢ - القسم الانجليزى :

* An Ottoman drawing of the Prophet's Mosque
Prof. Dr. Hassan El-Basha. 1